هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب أول دراسة شاملة فى المكتبة العربية حول حياة عباس العقاد السياسية بين اليمين واليسار ، وتتناول الدراسة علاقة العقاد بالوفد والسعديين ومصر الفتاة والاخوان المسلمين وبقية الأحزاب المصرية ، كما تتناول الدراسة موقف العقاد من الماركسية والصهيونية والنازية وموقفه من الوحدة العربية وثورة ٢٣ يوليو ، ويتضمن هذا الكتاب مجموعة من الوثائق الهامة من بينها « حيثيات الحكم » ضد العقاد بالسجن سنة ١٩٣٠ بتهمة « العيب فى الذات الملكية » ومن بنيها أيضاً نص دفاع مكرم عبيد عين العقاد فى هذه المحاكمة ، ويكشف الكتاب كثيراً من جوانب الصراع السياسى فى مصر منذ أن بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩٠٧ تقريباً حتى وفاته سنة ١٩٦٤ ، حيث كان العقاد على الدوام طرفاً من أطراف هذا الصراع السياسى ، وحيث شارك فى كل القضايا التى أثيرت خلال هذه الفترة فى الحياة السياسية فى مصر ، وكانت مواقفه وآراؤه تثير المناقشة الواسعة بالتأييد أو بالنقد والاعتراض .

عباس العقاد

بين اليمين واليسار

رجاء النقاش

دار المريخ للنشر

Bibliotheca Alexandrina
0007535

عباس العقاد

بين اليمين واليسار

© طبعة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ الرياض

دار المريخ للنشر

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استنساخ أي جزء من
هذا الكتاب أو ترجمته بأي
وسيلة إلا بإذن خطي من
الناشر — ص ب ١٠٧٢٠
(الرياض ١١٤٤٣)

رجاء النقاش

عباس العقاد بين اليمين واليسار

دار المريخ للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى هذا الكتاب محاولة لتقديم دراسة عن عباس محمود العقاد وحياته السياسية . ولقد كانت الفكرة الأساسية فى تأليف هذا الكتاب ، هى محاولة تقديم دراسة شاملة عن العقاد ، فى مختلف جوانب شخصيته ، فى السياسة والأدب والحياة . ولكننى عندما بدأت أجمع مادة الدراسة ، وجدت ان العقاد قد عاش فترة طويلة فى الحياة الأدبية والسياسية ، وامتد نشاطه من سنة ١٩٠٦ تقريبا ، حتى وفاته سنة ١٩٦٤ ، وهو فى خلال هذه الفترة التى تقرب من ستين عاما ، يكتب بانتظام ، ويساهم فى الحياة السياسية عن طريق الفكر ، أو عن طريق العمل المباشر فى عضوية مجلس النواب ، أو عضوية مجلس الشيوخ . وهو فى معظم الأحوال وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ عضو فى حزب من الأحزاب ، يناصره ويصطدم بأعدائه السياسيين ، ومن هنا كان من الصعب تقديم دراسة واحدة ، تشمل كل جوانب العقاد فى الأدب والفكر والحياة ، لأن مثل هذه الدراسة سوف تصل إلى ألف صفحة أو تزيد على ذلك ، وهو أمر يمثل عقبة عملية بالنسبة للكاتب والقارىء والناشر على السواء ، ومن هنا آثرت ان أقدم دراستى عن العقاد فى كتابين ، واخترت أن يكون الكتاب الأول عن العقاد وحياته السياسية ، ثم يكون الكتاب الثانى عن العقاد وحياته الأدبية .

وكان اختيارى للبداية بحياة العقاد السياسية راجعا إلى عدة أسباب ، فهناك تجاهل أو شبه تجاهل من الدارسين لحياة العقاد السياسية وفكره السياسى . ويعود ذلك إلى صعوبة الإحاطة بكتابات العقاد السياسية ، لأنها مقالات منشورة

فى عشرات الصحف والمجلات على مدى زمن طويل يزيد على نصف قرن ، ولم يحرص العقاد فى حياته على جمع هذه المقالات فى كتب ، إما لانشغاله عن القيام بهذه المهمة ، او لاعتقاده أن نزع هذه المقالات من الصحف قد يترتب عليه نوع من اساءة فهمها ، حيث أن المقال السياسى فى الصحيفة يكون مرتبطا بظروف نشره ، وبالأحداث التى تدور حوله ، ونزع المقال من الصحيفة قد يعزله عن هذه الظروف ويؤدى إلى إساءة فهمه ، خاصة وأن العقاد قد اتخذ عديدا من المواقف السياسية التى تبدو متناقضة ، فهو تارة يكتب فى صحف الوفد ويؤيد الوفد ، وهو تارة أخرى يعارض الوفد ويكتب فى صحف خصومه السياسيين وهكذا .

على أننى لاحظت عموما ، أن هناك نوعا من عدم الاهتمام الذى يكاد يبلغ درجة عدم الاحترام لكتابات العقاد السياسية ، رغمْ كثرتها وتنوعها ، وما احدثته فى وقت ظهورها من ضجيج فى الأوساط السياسية ، وفى أوساط الرأى العام .

وعدم الاحترام هذا ، أو عدم الاهتمام بالجانب السياسى فى شخصية العقاد ، يكاد يشترك فيه كل الباحثين فى حياة العقاد ، بل لقد كنت أحس احيانا ان العقاد نفسه يكاد يشعر بأن هذا الجانب فى حياته وفكره ، لم يكن جانبا جديا يستحق الاهتمام ، اما الجانب الذى يستحق الاهتمام ، فهو الجانب الادبى او الفكرى وحدهما ، ومن هنا ولد سبب آخر لعدم اهتمامه بجمع ما كتبه فى السياسة ... لقد كان يعتبر نفسه اديبا وناقدا ومفكرا دينيا بالدرجة الاولى ، اما ما يخالف ذلك فهو على الهامش ، ولعله كان نوعا من انواع المهنة التى اضطرته اليها ظروف الحياة ، وسواء كان هذا الاحساس عندى بعدم اهتمام العقاد بما كتبه فى السياسة صحيحا أو خاطئا ، فالنتيجة واحدة ... ذلك لان العقاد لم يهتم بجمع كتاباته السياسية ولم يحرص على نشرها فى كتب اثناء حياته ، وسار الباحثون فى شخصية العقاد على هذا الطريق ، فلم يظهروا اهتماما بالجانب السياسى فى شخصيته ، اللهم الا فى حدود ضيقة لا تكفى للكشف عن حياة العقاد السياسية بصورة سليمة .

وهذا الموقف هو موقف معظم الباحثين فى حياة الجيل الاول من ادبائنا العرب

المعاصرين للعقاد ، من أمثال طه حسين والمازنى وتوفيق الحكيم والرافعى وزكى مبارك وسلامة موسى وهيكل ويحيى حقى . فالشائع فى الدراسات المختلفة عن هؤلاء الكتاب والادباء ، هو دراسة الجانب الادبى والفكرى فقط ... اما دراسة الجانب السياسى فى حياة هؤلاء الكتاب فهو امر شبه مهمل وشبه معدوم ، رغم ان هؤلاء الكتاب جميعا قد اشتغلوا بالسياسة بصورة أو بأخرى ، وبشكل يختلف بين الواحد منهم وبين الآخر ، كما انهم جميعا قد تأثروا بعملهم السياسى ، وأثروا ايضا على الرأى العام عن طريق العمل السياسى بدرجات متفاوتة من التأثير ، وهذا الموقف من جانب الباحثين المعاصرين هو موقف خاطىء ولا شك ، لانه يلغى جانبا هاما من جوانب حياتنا الفكرية ، كان له قيمته وتأثيره وما زال له حتى الان له قيمة وتأثير .

فهناك قضايا خدمها هؤلاء المفكرون بعملهم السياسى ، وهناك قضايا أخرى اخطأوا فيها وقصروا فى خدمتها من خلال هذا المجال السياسى بالذات .

وقد حاولت من قبل ان أقدم بعض الدراسات المحدودة فى هذا المجال ، مثل دراستى عن « طه حسين والاحزاب السياسية » وهى الدراسة المنشورة فى كتابى « أدباء معاصرون » كما قدمت فى نفس الكتاب دراسة قصيرة عن « مصر فى أدب توفيق الحكيم » .

*

واليوم أقدم للقارىء العربى الكريم هذه المحاولة عن العقاد بين اليمين واليسار أو « العقاد وحياته السياسية » والتى سوف أتبعها بدراسة اخرى عن العقاد وحياته الادبية .

وقد رجعت الى شتى الصحف والمجلات التى كتب فيها العقاد ، حتى استطيع ان أقدم فى آخر الامر صورة لفكره السياسى ، وهذه المحاولة هى فى ظنى محاولة ضرورية الى أبعد مدى من عدة جوانب رئيسية .

فهى ضرورية لفهم الحياة السياسية فى مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ . فقد اشتبك العقاد مع الحياة السياسية فى مصر طيلة هذه الفترة ، بكل ما عرف

عنه من عنف وحدة ودأب وانتظام ، بحيث اصبحت دراسة فكره السياسى هى فى الواقع دراسة لمعظم التيارات الرئيسية فى الفكر السياسى المصرى خلال هذه الفترة الهامة من التاريخ ، فقد كان العقاد على صلة قوية مع هذه التيارات الفكرية السياسية : إما بالتعبير عنها ، أو بمعارضتها والوقوف منها موقف الخصومة والرفض ، وكان ممثلو هذه التيارات السياسية المختلفة يشعرون بأهمية موقف العقاد ، فيردون عليه او يساعدونه ويؤيدون آراءه .

فدراسة الفكر السياسى للعقاد ، هى فى الحقيقة دراسة للفكر السياسى المصرى خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر المعاصر ، وما لها من تأثير وانعكاسات على تاريخ الامة العربية بأكملها .

ومن ناحية أخرى نجد أن حياة العقاد الادبية قد تأثرت أشد التأثر بفكره السياسى ومواقفه السياسية ، ويكفى ان نقف امام ملاحظة واحدة هى ان العقاد كان اكبر المتحمسين والمبشرين بالتجديد الادبى خلال فترة ارتباطه بالوفد ، وبالحركة الوطنية الشعبية ، وأنه اصبح من معارضى التجديد الادبى ، ومن أشد خصومه بعد ان انتقل الى معسكر احزاب الاقلية وأخذ يدافع عن حكوماتها الرجعية .

ومن ناحية ثالثة فان العقاد قدم نموذجا واضحا للمفكر والاديب الذى لم ينعزل عن مجتمعه وعصره ، رغم ان صورته الخارجية هى صورة الانسان المتوحد المنعزل البعيد عن أحداث الحياة ، كأنه ذئب منفرد مبتعد عن الناس يخشاه الجميع ...

لقد كان العقاد على العكس منغمسا فى أحداث الحياة من حوله ، يشارك فى هذه الاحداث بالرأى الواضح الصريح ، وبالعمل المباشر والمواقف المختلفة ... واذا كان العقاد قد تحمل مسئولية الكاتب من وجهة نظره ... فماذا يمكن ان نخرج به من دراسة أفكاره ومواقفه السياسية؟ ماهو المدى الذى كان فيه صادقا وأمينا مع نفسه وعصره ، وما هو المدى الذى يخالف فيه ما يصح ان نسميه بالضمير العام ؟ ... ذلك ما يمكن ان تكشفه الدراسة ، بل ما يجب ان تكشفه دراسة من هذا النوع .

*

ولقد كان يسيطر على نفسى احساس كبير وأنا اقوم باعداد هذه الدراسة... هذا الاحساس هو ان الكاتب لا يمكن ان يفلت من كلمة كتبها وتركها وراءه ... ان ما كتبه الكاتب فى اى لحظة من لحظات حياته هو قيد عليه ، وصوت يقف دائما ليحاسبه او يدافع عنه ... ومن هنا فان الكتابة مسئولية وعبء وضمير .

ولا يجوز للكاتب أن يتصور يوما أن ذاكرة الناس سوف تنسى بعض ما كتبه او سوف تنظر اليه بغير اهتمام ... ان الكتابة ليست مياها تتبخر بمرور الايام ، وليست دخانا يتبدد فى الهواء ... كل كلمة تطارد كاتبها وتمسك بخناقه وتجرى وراءه ، وتطالب بالحساب الصحيح والجزاء العادل .

ليس هناك كلمة تضيع فى الهواء ، او خطأ يختفى الى الابد ، او موقف شريف وحقيقى يمكن ان يضيع .

كل شىء يبقى ليوم من ايام الحساب او كل شىء كما يقول ابناء الشعب البسطاء « بحسابه » .

لا شىء يتلاشى او يتبدد . ومن هنا كان عبء الكلمة صعبا الى أبعد الحدود .

وها نحن نقدم هذه المحاولة فى دراسة كلمات لم يهتم العقاد ولا الباحثون من بعده بجمعها وتركوا معظمها تائها فى صفحات قديمة .

ولكنها كلمات هامة مع ذلك وهى كلمات تكشف عن جوانب القوة وجوانب الضعف فى شخصية العقاد ورؤيته لعصره ... انها كلمات تطارد العقاد بالورد أو بالشوك ولا تتخلى عنه بأى حال من الاحوال .

ولعل فى هذا الدرس الذى وعيته وأنا ابحث فى حياة العقاد السياسية ما يعلمنا جميعا ان الكلمة كما يقول الشاعر « أحمد حجازى » - « حمل وأمانة » و « القابض فى هذا العصر على كلمته كالممسك بالجمرة » .

وإن الكلمة تبقى لكاتبها أو تبقى عليه حتى النهاية ولا يجوز للكاتب ان يمسك القلم ليلهو أو ليتخفف من ضميره او ليجامل لان كل شىء باق ومحسوب ... ولا شىء يضيع او ينسى .

*

وأخيرا أود ان اقول انني فى هذا الكتاب لست مع العقاد او ضـده ، رغم ما احمله من احترام وتقدير واعجاب بجهد العقـاد الرائد ، فى ميـدان الادب والفكر والسياسة . ولكنني حاولت ان أخرج من دائرة ذلك التقسيم الشـائع للباحثين فى شخصية العقاد : بعضهم معه بحماس حتى اقصى درجات العشق والوجد الصوفى وهؤلاء لا يحتملون من احد أن ينقد العقاد ، او يشير الى خطأ من أخطائه ، والبعض الآخر ضد العقاد بحماس ايضا ، لا يجدون فيه خيرا ولا يعترفون له بأى فضيلة او موهبة ولا يحتملون كلمة اعجاب به او ثناء عليه .

الواقع ان هناك خانة ثالثة ما تزال خالية هى خـانة البحث المـوضوعى فى شخصية العقاد ... تعترف بما له وما عليه ، تعطيه ما يستحقه وتـأخذ منـه ما يزيد على حقه .. وفى هذه الخانة الثالثة الخالية حـاولت ان اقف وأرجو أن أكون قد وفقت الى شيء مما أريد : خـدمة للفكـر العربى ... وخـدمة للعقـاد وللحقيقة فى آن واحد .

رجاء النقاش

القاهرة

سبتمبر ـ ايلول ـ ١٩٧٢

تيارات واتجاهات

وصل العقاد الى القاهرة فى السنوات الاولى من هذا القرن، وذلك بعد ان ترك أسوان ، مدينة الشمس ، ومدينة مولده ونشأته وصباه ، وكانت القاهرة فى ذلك الحين مليئة بالتيارات العديدة المتنوعة ، كانت اشبه بالانسان الذى يفيق من حالة اغماء عنيف ويبدأ فى الاحساس بالدنيا من جديد .

وكانت حالة الاغماء التى اصابت مصر كلها نتيجة لفشل الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ .

لقد تبددت بهذا الفشل أحلام القرن التاسع عشر كلها ، تلك الاحلام التى دارت فى الرؤوس منذ ان عاد رفاعة الطهطاوى من باريس ، وعندما وقف عرابى فى ميدان عابدين ليطالب بحقوق الشعب ، ويعلن من فوق فرسه ان الخديوى اذا لم يستجب لهذه المطالب فان هناك كلمة اخرى سيقولها عرابى ورفاقه عند اللزوم ، اى ان الزعيم الفلاح سوف يرفع السلاح فى وجه الخديوى ويرغمه على اجابة المطالب الشعبية .

وأحلام القرن التاسع عشر هى نفسها الاحلام التى كانت تدور فى رأس عبدالله النديم عندما كان يصدر جريدة ساخرة خفيفة الظل أو عندما كان يلقى خطابا فى الجماهير المصرية حيث كان يمزج الشعر بالزجل ، والسجع بالاسترسال ، والنكتة بالتفكير الجدى الرصين ...

لقد تبددت هذه الاحلام كلها بعد ان فشلت الثورة العرابية ، وبعد ان تفرق الذين تجمعوا من أجل الحلم العظيم الاكبر وهو تحرير الفلاحين المصريين من

القصر والشراكسة والاتراك والنفوذ الأوربى الجديد الناشىء ، وهذا الحلم نفسه هو بناء دولة عصرية تخدم هؤلاء الفلاحين بدلا من ان تخدم الخديوى والحريم والمتمصرين والتجار وأصحاب رؤوس الاموال الاجانب ، ولا يبقى للمصرى الفلاح فى هذه الدولة حتى ولا العظام القليلة ، وكانت الدولة العصرية آنذاك تعنى الشورى او الديمقراطية البرلمانية ، ثم بناء صناعة وطنية ، ثم توسيع نطاق التعليم حتى يشمل الجميع ، ثم حرية التفكير والتعبير فى البرلمان والصحف والكتب والاجتماعات السياسية المختلفة .

وبعد ان فشلت الثورة العرابية ودخل الخديوى توفيق القاهرة ـ يده فى يد الجنرال « ولسلى » قائد الغزاة الانجليز ـ بعد هذا الفشل سكنت روح مصر الثائرة وملأها الياس من كل جانب ، واستمر الامر على ذلك ما يقرب من عشرين عاما متصلة ، ولم يكد القرن العشرون يبدأ حتى بدأت معه الحيوية تدب من جديد فى أوصال البلد المهزوم .

والحقيقة ان الثورة العرابية كانت أشبه بسيل كبير غامر ، وكانت الفكرة المحركة للثورة هى التغيير الشامل للمجتمع فى كل وجوهه ، وعندما تصدى الاستعمار الانجليزى لهذه الثورة ، لم يستطع ان يقضى على السيل بصورة نهائية ، وكا ما استطاع ان يفعله هو تمزيق السيل الكبير الى قنوات صغيرة متفرقة ، كانت كل قناة تعمل وحدها منفصلة عن الأخرى فى ميدان مستقل وظلت هذه القنوات تعمل فى خفاء عن الأعين حتى بداية القرن العشرين ، فظهرت بوضوح وأصبح صوتها مسموعا من الجميع وكانت هذه القنوات تعمل بروح ثورية احيانا وبروح إصلاحية فى أحيان أخرى ، ولم تلتق هذه القنوات المختلفة مع بعضها البعض إلا فى ثورة ١٩١٩ ، حيث ظهر السيل من جديد وغذاه السخط الشعبى غذاء خصبا فاندع يجرف ما أمامه ويتحداه .

وفى بداية هذا القرن ، ومن خلال تناقضات عديدة ضخمة بدأت الف شرارة وشرارة تشتعل فى مصر ، كل شرارة تحمل تيارا أساسيا من التيارات التى نبعت فى الاصل من ثورة عرابى ، وكان الذى يجمع بين معظم هذه التيارات هو الرغبة فى الخروج من اليأس العظيم إلى الأمل العظيم أو الخروج من الظلام إلى النور .

ولنقف لحظة أمام بعض هذه التيارات الرئيسية لعلنا بذلك نستطيع ان نعرف المناخ الفكرى فى هذه المرحلة وهى بداية القرن العشرين ، وهى المرحلة التى نشأ فيها عباس العقاد ، وحدد موقفه فى كثير من القضايا الرئيسية ، ولقد كانت هذه المرحلة من ناحية أخرى تحمل المقدمات المباشرة للثورة الوطنية الكبرى فى مصر والتى ظهرت فى أعنف صورها سنة ١٩١٩ ، وهى نفس الثورة التى برز فيها العقاد وساهم فى قيادتها الفكرية واستمد منها كثيرا من مواقفه وأفكاره بعد ذلك

*

كان هناك تيار يدعو الى تجديد التراث العربى الاسلامى حتى يتلاءم مع روح القرن العشرين ، وحضارة القرن العشرين ، وكان زعيم هذا التيار ومنبعه الاكبر هو الشيخ محمد عبده .

كان محمد عبده يريد ان يخرج المصريين والمسلمين عموما من التخلف الحضارى الكبير ، ومن اليأس المر الذى كان يسيطر عليهم نتيجة لهذا التخلف . فالإنسان فى مصر ـ فى ذلك الحين ـ لا يكاد ينظر الى نفسه نظرة سريعة حتى يدرك على الفور ما حل به من الدمار والانهيار ، وحتى يدرك انه فى مقياس الحضارة إنسان من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وكان يكفى أن يقارن الانسان فى مصر بين أحوال أمته وأحوال الأمة المسيطرة عليه وهى الأمة الانجليزية حتى يصل الى هذا الشعور اليائس الحزين وفى هذا الميدان الحضارى بالذات وقف محمد عبده يشن حربه ويخوض معركته الكبيرة . إنه أحد زعماء الثورة العرابية ، وأحد الذين شربوا مرارة الفشل الثورى ، وأحد الذين انتهوا فى آخر الامر الى انه لابد من خوض معارك جزئية مختلفة ما دامت الثورة الشاملة قد فشلت .

وكانت المعركة الجزئية التى اختارها محمد عبده هى ازالة التناقض الشكلى الذى أقامته الرجعية الفكرية والدينية بين الاسلام والحضارة العصرية ، فالاسلام لا يرفض ـ فى روحه أو نصوصه ـ مظاهر التقدم فى الحضارة

الحديثة . وكان محمد عبده يتحدث فى أبسط الامور وأعقدها معا ، فكان يتحدث عن ان « التماثيل والصور » ليست حراما ، ما دامت تقوم بوظيفة كبرى هى حفظ تقاليد الناس وعاداتهم وأذواقهم ، وكان محمد عبده يكتب فى نفس الوقت الى الفنان والمفكر الروسى العظيم « تولستوى » والذى تحول فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن الى قديس يذيب نفسه دفاعا عن المغلوبين والمظلومين ، وكان محمد عبده يراسله ليبارك دعوته الى العدل بين الناس . وفى نفس الوقت كان محمد عبده يغذى الدعوة إلى تحرير المرأة وتعليمها . حتى لقد نسب إليه أعداؤه الذين كانوا يحاربونه ويحملون عليه أنه هو الذى ألف كتابى قاسم أمين المعروفين : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وأنه تخفى تحت اسم قاسم أمين حرصا على مركزه الدينى .

وهكذا كان محمد عبده فى أوائل هذا القرن يخوض معركة جزئية ولكنها معركة كبيرة وكان فى هذه المعركة يمثل تيارا من التيارات المدوية التى بدأت تتحرك بعنف داخل المجتمع فى مصر ، وكان الهدف الأكبر من وراء هذا التيار هو تخليص الإسلام من الفهم الرجعى المتخلف ، الذى ينتهى به الى الوقوف فى وجه الحضارة العصرية . وبذلك تتجمد مصر ومن ورائها العالم العربى والإسلامى فى حدود تخلف حضارى كبير ، بحجة واهية خاطئة ، هى : ان الدين الاسلامى يريد ذلك ويدعو اليه .

*

والتيار الثانى الذى كان قائما فى هذه الفترة ايضا كان تيارا يمثله مصطفى كامل وهو تيار سياسى بالدرجة الاولى ، وكان مصطفى كامل يريد أن يمسح كل ما علق بقلب مصر من آثار اليأس بعد هزيمة العرابيين وهو نفس الهدف عند محمد عبده ، ولكن بأسلوب مختلف .

لقد كانت خطب مصطفى كامل نوعا من الشعر الرومانسى الجميل ، موضوعه مدح مصر والتغنى بعظمتها وجمالها ، ولعل مصطفى كامل كان يتصور انه من خلال هذا الموقف ، سوف يعيد الى قلوب المصريين عشقهم الكبير لبلادهم ، هذه المعشوقة التى لا يجوز ان يسلوها احد ، او يتخلى عن هواها انسان .

وكان موقف مصطفى كامل من ناحيـة أخرى يعتمـد على الربـط بين مصر وتركيا ، بهدف ضرب انجلترا فى مصر والخلاص من سلطتها نهائيا . ولذلك اتجه مصطفى كامل الى السلطان العثمانى ، وجعل منه املا كبيرا فى تحرير مصر .
وكان مصطفى كامل فى نفس الوقت يعتمد على فرنسا ليدين انكلترا أمام الرأى العام الأوروبى ، وكان يساعده فى هذا الأمر العداء العنيف الذى كان قائما بين انجلترا وفرنسا فى ذلك الحين ، وعندما حدث الاتفاق بين لندن وباريس سنة ١٩٠٤ وتضمن هذا الاتفاق اطلاق يد انجلترا فى مصر ، واطلاق يد فرنسا فى تونس والمغرب والجزائر ... فى هذا العام انتهى التحالف بين فرنسا وبين الحركة الوطنية المصرية ، وأصيب مصطفى كامل بخيبة امل لم يتخلص منها مدى حياته التى استمرت مدة أربع سنوات مريرة بعد هذا الاتفاق بين انجلترا وفرنسا .

ولكن مصطفى كامل ـ على أى حال ـ قاد تيارا عظيم الاهمية فى مصر فى بدايـة هذا القرن وهو التيار الوطنى الإسلامى الذى يعتبر الرابطة الاسلامية رابطة سياسية تشد مصر الى تركيا .

وكان هناك تيار ثالث يمثله أبناء الاعيان من اصحاب الثروات ، وهؤلاء فى معظمهم قد تعلموا فى أوربا وعادوا الى مصر ، يحملون فى رؤوسهم فكرة عصرية عن القومية والوطنيـة ، فالمسـألة عنـدهم ليست مسـألة دين ولا مسـألة عنصر ، ولكنها بالتحديد مسألة مصالح مشتركة بين الناس ، وهذه المصالح المشتركة هى الأساس فى فكرة الوطن وفكرة القومية .

ومن خلال هذا المنهج فى التفكير ، توصل هؤلاء العائدون من اوربا الى شعار « مصر للمصريين » ، فأصحاب هذا التيار لا يشعرون بأى ولاء لتركيا كما هو الأمر عند مصطفى كامل والحزب الوطنى ، بل ان ولاءهم الاساسى لمصر وحدها ، اما تركيا التى يتجه اليها مصطفى كامل فلا تفترق عنـدهم عن انجلترا التى يحاربها المصريون ويريدون التخلص منها .

وكان زعيم هذا التيار هو لطفى السيد . انه تيار علمى ، وهو الى جانب ذلك يؤمن بالتدرج والاعتدال الى أقصى حد . انه لا يؤمن بالثورة ولا بالعنف ، ولكنه يطالب بالاصلاح الهادىء ، خطوة بعد خطوة ، وكان هذا التيار ولاشـك هو ـ بدون قصد او تعمد ـ اقرب التيارات فى مصر الى « الفابيين » فى انجلترا لا من

ناحية الاهداف والمبادىء ، ولكن من ناحية الاسلوب السياسى العلمى . لان الخلاف كان كبيرا بين « الفابيين » وبين تيار لطفى السيد وحزب الامة الذى ينتسب اليه ، بل ويعتبر زعيمه الروحى ومفكره الاكبر ، فالفابيون اشتراكيون بمعنى من معانى الاشتراكية ، ولطفى السيد مع اعضاء حزب الامة ، لم يتحدثوا عن الاشتراكية بأى معنى من المعانى ، بل كان مطلبهم الاساسى هو : تحرير مصر سياسيا من السيطرة الانجليزية . ولكن وجه الشبه بين التيارين ... تيار حزب الامة ولطفى السيد وتيار « الفابيين » هو . الاعتدال والتدرج فى أسلوب العمل السياسى لتحقيق الهدف .

وهكذا فان حزب الامة لم يكن يطالب بالاستقلال العاجل ، بل كان اقصى ما يتمناه ويدعو اليه هو استقلال أشبه بالحكم الذاتى ، بحيث تحكم مصر نفسها ولكن مع ارتباط وثيق بانجلترا وتنسيق كامل معها فى شتى القضايا والشؤون .

ولكن قيمة التيار الذى خلقه لطفى السيد فى بداية هذا القرن فى مصر ، كانت راجعة الى اصراره على شعار « مصر للمصريين » من جانب ، والى الدعوات الاصلاحية التحررية التى كان يتبناها هذا التيار ويناصرها من جانب آخر ، مثل الدعوة الى تحرير المرأة ، والدعوة الى التعليم الجامعى ، وما الى ذلك من دعوات كان لها قيمتها وأهميتها فى بداية هذا القرن .

ان الازمة الاساسية التى كانت تحرك هذا التيار ، هى أزمة التخلف الحضارى بمظاهره العملية والاجتماعية والعمرانية، فأصحاب هذا التيار هم كما أشرت فى البداية من ابناء « الاغنياء والاعيان » وكانوا يسمون أنفسهم بهذه التسمية الغريبة وهى « أصحاب المصالح الحقيقية » . ولذلك لم تكن القضية بالنسبة لهم قضية حادة عنيفة ، لانهم كانوا فى النهاية أقل طبقات الامة تأثرا بمظالم الاستعمار الانجليزى ، وان كانوا يعانون من التنافس الاقتصادى بينهم وبين المصالح الانجليزية ومن هنا كان منهجهم فى « التغيير » هو التدرج والاصلاح ، والعمل على التخلص من التخلف الحضارى باسلوب هادىء ، وخطوة بعد خطوة .

ولم يكن فى هذا التيار أى خطر مباشر على الانجليز ، بل كان هذا التيار على العكس أقرب الى التحالف مع الانجليز .

بقى من التيارات الهامة التى كانت تملأ مصر فى بداية القرن العشرين ، تيار رابع هو تيار المهاجرين من الشام الى مصر ، وهذا التيار لم يكن مثل التيارات السابقة أثرا من أثار فشل الثورة العربية ، وانما ولدته ظروف اخرى هى ظروف الثورة ضد الحكم العثمانى الذى كان مسيطرا على الشام وغيرها من بلاد آسيا العربية . وقد هاجر أصحاب هذا التيار من الشام ، واختاروا مصر ملجأ لهم وساعدهم على النجاح أن مصر كانت مهيأة لقبول هذا التيار فى بعض جوانبه الرئيسية ، وقد اختار معظم أصحاب هذا التيار أن يتحالفوا مع الانجليز ضد الاتراك بما فيهم من جهل وظلم وتخلف ، وكانوا يرون ان الانجليز اكثر استنارة وحضارة من الاتراك ، وهى رؤية صحيحة ولا شك ولكنها رؤية ناقصة فالانجليز يمثلون استعمارا جديدا لا يقل قسوة عن الاستعمار العثمانى . ومن الم اصحاب هذا التيار : يعقوب صروف وشبلى شميل وفرح أنطون وفارس نمر . ورغم الخلافات الجزئية بينهم فانهم جميعا كانوا يدعون الى العلم والحضارة الغربية العصرية ، وكانوا يحاولون أن ينزعوا عن الشرق كل ما له علاقة بالاتراك وعصرهم المظلم .

ولقد روج هؤلاء لكثير من الاتجاهات العلمية الغربية ، مثل نظرية التطور عند دارون ، والدعوات التحررية الاخرى عند روسو وفولتير وغيرهم من كتاب أوروبا المعروفين بالتجديد والثورة فى ميدان العلوم والفنون والحياة الاجتماعية والسياسية .

وكان فرح أنطون بلا شك هو اكثر الجميع ميلا الى الثورة والفكر الثورى بينما كان يعقوب صروف وشبلى شميل عالمين هادئين يحلمان بتأصيل الفكر العلمى عند المصريين وبقية العرب عموما ، وذلك للخروج بالعقل العربى من جو الخرافات ولتحريره من التعصب الدينى الضيق ، ففى ظل الفكر العلمى لن يكون هناك تعصب دينى وانما ستكون هناك مجتمعات عصرية تجمع بين مختلف الاديان فى تعاون وثيق من أجل حياة جديدة ، ويتميز شبلى شميل عن الجميع ايضا بدعوته المبكرة - حوالى سنة ١٩٠٨ - الى الفكرة الاشتراكية حيث عرض هذه الفكرة فى بعض مقالاته وأيدها ونادى بها .

هذه هى التيارات الفكرية الرئيسية التى ملأت مصر فى هذه الفترة ، وهى

التيارات التى كانت تحرك مصر وتحاول أن تخرج بها من ازمتها العنيفة ، وكان كل تيار من هذه التيارات يعمل بطريقته الخاصة وحسب مبادئه ومعتقداته .

ومهما كان الاعتراض على هذا التيار أو ذاك فى جانب او آخر فان هذه التيارات كلها كانت تيارات تقدمية بمعنى من المعانى ، لانها كانت فى النهاية تحاول أن توقظ مصر وتحررها من بعض قيودها وتربط بينها وبين التيار الكهربائى الحضارى فى العالم الحديث بعد أن أصيبت خلال الاعوام التى تلت هزيمة العرابيين سنة ١٨٨٢ وحتى مطلع القرن العشرين بآلام كبيرة وركود عظيم حتى كان من يراها فى ذلك الحين يحسب أنها فى عداد الموتى الذين لن تقوم لهم قائمة على الاطلاق . وهذا ما كان يتصوره ممثل الاستعمار الانجليزى الاكبر اللورد كرومر ، بعد أن عمل له بجد واجتهاد كبيرين ، ولم يدخر جهدا فى سبيل الوصول اليه .

وفى اواخر القرن الماضى وفى مطلع القرن العشرين كان كرومر يظن انه اتم رسالته الكبيرة فجعل من مصر أرضا صالحة للسيادة الانجليزية الابدية ولكن مصر بدأت تكذب أحلام كرومر ، وبدأ الجليد فيها يذوب فى تيارات مختلفة حتى جاء اليوم الموعود سنة ١٩١٩ فالتقت معظم هذه التيارات وأثمرت ثمرتها العظيمة فى شكل ثورة وطنية شاملة .

هذا هو الجو الذى نشأ فيه العقاد ، جو اليقظة بعد اغفاءة طويلة ، وجو التنبه بعد الاغماء ، جو الحركة ذات الاتجاهات المتعددة بعد الجمود والركود ....

فماذا كان موقف العقاد فى هذه المرحلة ، وماذا فعل مع هذه التيارات المتعددة وماذا فعلت به ؟

البحث عن طريق

بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩٠٦ تقريبا ، وكان عمره آنذاك حوالى ١٧ سنة حيث أنه ولد سنة ١٨٨٩ ، وهى نفس السنة التى ولد فيها طه حسين . وهكذا يكون العقاد قد بدأ خطواته الفكرية الاولى فى قلب فترة مليئة بالحركة والحيوية والاتجاهات المتعددة ، ولقد كانت هذه الفترة بما فيها من قلق فكرى واتجاهات عديدة كفيلة بأن تربك الذهن والقلب ، وتثير الاضطراب الذى ما بعده اضطراب أمام شاب جديد يبحث عن طريق . فهل يلتقى الانسان مع أصحاب الهوى العثمانى الذين يريدون التحرر من الانجليز عن طريق احياء الرابطة القديمة مع تركيا تحت راية الاسلام ؟ هل يقف فكريا مع الذين يتجهون الى ما وراء البحر الابيض المتوسط فى الغرب ويريدون الاخذ بأساليب الحضارة الغربية على أن يتخلصوا من الاتراك والانجليز معا بطريقة هادئة معتدلة وديعة كما كان يريد لطفى السيد ومدرسته ؟ هل يفصل الفكر عن السياسة ويعمل على بذر بذور الحضارة عن طريق الفكر العلمى المادى وحده كما كان يفعل يعقوب صروف وشبلى شميل وفارس نمر وأنصارهم رغم أن كثيرين من هؤلاء لم يجدوا مانعا من الارتباط بالانجليز الذين كانوا فى نظرهم أفضل من العثمانيين ؟

لقد كانت فترة تثير الحيرة والارتباك ، فماذا فعل العقاد الذى كان فى بداية شبابه آنذاك ، ولم يكن قد وصل الى العشرين بعد ، أن العقاد لم يرتبط بتيار واحد من هذه التيارات العديدة . فالحقيقة أنه كان هناك فى كل تيار من هذه التيارات جانب سلبى وجانب إيجابى وقد حاول العقاد إلى حد كبير أن يرتبط

بالجوانب الايجابية من وجهة نظره ، دون أن يرتبط بتيار واحد ارتباطا نهائيا لا فكاك منه .

أخذ العقاد من مدرسة محمد عبده نظرته العميقة الصائبة الى التراث العربى الاسلامى ، فقد رأى أن هذا التراث ينبغى أن يعاد النظر اليه فى ضوء العلم الحديث ، ورأى فى هذه الدعوى من الاصالة ما ربطه بها الى حد بعيد ، حيث ظل أثر مدرسة محمد عبده باقيا فى شخصية العقاد حتى نهاية رحلته فى عالم الفكر وعالم الحياة سنة ١٩٦٤ ، ان العودة الى التراث العربى تساعده مساعدة جدية على أن يحس انه مفكر له جذور ، وليس كائنا هشا لا جذور له على الاطلاق . وهذا الشعور بالانتماء الى ثقافة لها قيمتها ودورها الحضارى كان شعورا مناسبا لطموحه أشد المناسبة فقد كان منذ البداية طموحا يشعر بالاعتزاز الشديد بنفسه وليس من المنطقى مع انسان مثل العقاد يعتز بنفسه أن يقتنع بسهولة انه انسان بلا ماض ، بلا تراث ، بلا جذور ، او ان يقتنع بأن بلاده التى ولد فيها بلاد عقيم عاقر ، ليس لها ماض من أى نوع .

ولكن تيار محمد عبده ، اذا كان يقدم الى العقاد منهجا عصريا جديدا فى النظر الى التراث العربى الاسلامى بحيث يتلاءم هذا التراث مع الحضارة العصرية، ولا يستعصى عليها أو يعوقها ... اذا كان هذا المنهج يقدم هذه الهدية الثمينة التى تجعل منه كائنا راسخا فى الارض ، فانه من ناحية الموقف العملى ليس كاملا بحال من الاحوال ، ذلك لان محمد عبده قد آثر بعد فشل القوى الثورية وتشتتها ، أن يهادن الاحتلال ، وكان كرومر من جانبه معجبا بمحمد عبده أشد الاعجاب راضيا عنه كل الرضا ، والسبب فى هذا الموقف أن محمد عبده بعد أن كان « عرابيا » عظيما يقف على رأس العرابيين ، وجد بغريزته العملية أن الاصلاح أجدى من الثورة .... ألم يجرب الثورة ، فنسفت الثورة زعماءها وهو واحد منهم ، وكان من نتيجتها فقدان الاستقلال وسيادة الاحتلال ؟ لقد اهتدى محمد عبده أخيرا الى أن الشعب نتيجة لقرون طويلة من الظلم والتخلف ، بالاضافة الى ظروف الاحتلال الجديدة ، ليس مستعدا للثورة الشاملة ولا قادرا عليها ولذلك يجب اعداده بصبر وانضاجه فوق نار هادئة يمكن ان تثمر على مر الزمن بلا عنف ولا طفرة واسعة ، وقد وصل الامر بمحمد عبده

الى ان تنكر للعرابيين القدماء وعلى رأسهم زعيم الثورة نفسه احمد عرابى ، وقال محمد عبده فى هذا الزعيم أقوالا سيئة ، ولا شك أن هذه الاقوال ظالمة ، مهما كان وراءها من المبررات والاسباب ، ونستطيع ان نتصور وقع كلمات محمد عبده على نفس الزعيم العجوز أحمد عرابى بعد عودته من منفاه ، لقد كان عرابى يسمع مثل هذه الآراء ضده وضد ثورته وهو جالس على مقهاه المفضل ، « مقهى المالية » بلاظوغلى ، وكانت نفسه ولا شك تتمزق وتتألم الى أقصى الحدود .

هذا الجانب الواقعى من فلسفة محمد عبده لم يقنع العقاد ولم يرق له كما يبدو من السلوك العملى للعقاد فى تلك الفترة ولذلك فقد رفض تماما فكرة المهادنة للانجليز أو لممثليهم فى مصر ورفض أن يعمل فى أى جريدة خاضعة لنفوذهم او فى اى عمل يمكن أن يكون لهم فيه سيطرة مباشرة أو شبه مباشرة . لقد كان العقاد من هذه الناحية فتى مصريا يدرك بالشعور أولا وبالعقل ثانيا أنه لا معنى على الاطلاق للاقتراب من الانجليز أو للاتفاق معهم فى أى شىء . هكذا كان شعوره وهكذا كان الشعور الوطنى العام فى نفس الوقت .

أما بالنسبة للتيار الثانى الذى كان يمثله مصطفى كامل فقد رفضه العقاد منذ البداية وذلك لانه كان تيارا يريد ربط مصر بتركيا ولم تكن تركيا بالنسبة لشاب مستنير مثل العقاد أملا من الآمال .... ماذا يمكن ان يجد هذا الشاب فى تركيا ، أو ماذا يمكن أن يحب فيها ؟ انها لا ترمز لحضارة مزدهرة ، ولا ترمز لثقافة مستنيرة عميقة ، لا تمثل شيئا من عظمة الماضى ، ولا تحمل بصيصا من نور المستقبل . لقد كانت تركيا بالنسبة لهذا الشاب المستنير المثقف ظلاما فى ظلام ، ولذلك لم يتحمس اطلاقا للربط بين مستقبل مصر ومستقبل هذه الدولة العثمانية المظلمة .... كذلك لم يكن العقاد متحمسا لمصطفى كامل تحت تأثير عامل آخر ، فدعوة مصطفى كامل الى الوطنية ، هى دعوة تغلب عليها العاطفة الرومانسية والعقاد منذ البداية عقل متفتح يميل الى الايمان العقلى والبرهان العقلى على الدوام ، لقد كان يحس بنهم شديد الى المعرفة العلمية الخاضعة للمنطق ، لا الى المشاعر الغضة التى مهما بلغت من الجمال فانها ضعيفة ـ فى نهاية الامر ـ من ناحية المضمون العقلى . ولذلك لم يستجب العقاد لدعوة مصطفى كامل ولم يتجاوب معه .

ولقد روت الكتب التى تحدثت عن شباب العقاد الاول أن سبب نفور العقاد من مصطفى كامل يكمن فى حادثة وقعت للعقاد فى صباه فى أسوان ، حيث زار مصطفى كامل مدرسة العقاد ، وثارت مناقشة ـ فى أحد الفصول ـ بين الزعيم الكبير والتلميذ الصغير وخرج التلميذ الصغير عباس العقاد من هذه المناقشة بأن مصطفى كامل انسان متعصب مغرور لا يحب لاجد ان يخالف رايه بحال من الاحوال . وقد روى العقاد نفسه هذه الحادثة فى بعض كتبه ومقالاته .

ومن الممكن ولا شك أن تكون هذه الحادثة الصغيرة سببا من أسباب النفور من مصطفى كامل عند العقاد ، خاصة أن نفسية العقاد كانت من النفسيات الحساسة التى تتأثر بالعوامل الشخصية الذاتية تأثرا كبيرا ، ولكن هذه الحادثة لا يمكن أن تكون السبب الوحيد ولا السبب الرئيسى ، فالمسألة فى جوهرها هى الخلاف بين زعيم يعتمد على التأثير العاطفى بالدرجة الاولى وشاب مثقف مستنير يحتاج أكثر ما يحتاج الى الاقناع العقلى .

والعقاد فى موقفه من مصطفى كامل يلتقى بمفكر آخر من أبناء جيله هو سلامة موسى . وهذا الموقف من مصطفى كامل هو أحد المواقف القليلة التى التقى فيها العقاد بسلامة موسى التقاء كاملا أو شبه كامل . وقد كان سلامة موسى يرفض من مصطفى كامل تعصبه فى الدعوة الى الاسلام . وكان يتصور أن مثل هذا الموقف سوف يؤدى الى فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين لان موقف مصطفى كامل يكاد يشير الى أن مصر وطن المسلمين فقط . أى أن سلامة موسى كان يرفض من مصطفى كامل ما كان يتصوره نوعا من التعصب الدينى والوطنى والفكرى وهذا التعصب المبنى على الاندفاع العاطفى هو نفسه ما كان يرفضه العقاد من مصطفى كامل ، رغم أن أسباب العقاد لهذا الرفض كانت تختلف عن أسباب سلامة موسى . فنزعة مصطفى كامل العاطفية البعيدة عن المنطق العلمى الرصين كانت توحى الى العقاد بأن مصطفى كامل هو فى نهاية الامر زعيم ضيق الافق متعصب محدود الرؤية ، ولذلك ابتعد عنه ونفر منه .

وليس هنا مجال للحكم لمصطفى كامل أو عليه ، ولكن من الضرورى أن نقول فى هذا الأمر كلمة سريعة ، فمصطفى كامل ولاشك قد ساهم فى بداية هذا القرن فى اعادة الحماس الى قلب مصر ، بعد أن كان اليأس يسيطر عليها ، ولقد

كان مصطفى كامل باسلوبه العاطفى الحار الذى رفضه العقاد وسلامة موسى معا عاملا من العوامل الفعالة التى ساهمت فى ايقاظ الوعى العام فى مصر وفى تعبئة الشعور الوطنى تعبئة رائعة ، لقد كان مصطفى كامل شاعرا ألهب شعلة الوطنية المصرية فى وقت كانت مصر فيه أحوج ما تكون الى شاعر كبير يبعث الى روحها بالامل والتفاؤل .

نعود بعد ذلك الى التيار الثالث ، تيار لطفى السيد وحزب الامة ، تيار « مصر للمصريين » . لقد كان هذا التيار أقرب ما يكون الى العقاد لانه تيار يقوده العلماء والمثقفون ، انه تيار اصحاب العقل الكبير والثقافة العالية الواسعة ، وأصحاب هذا التيار لم يكونوا يتحدثون قط عن شيء الا وبين أيديهم البرهان العلمى الدقيق المستمد من أعمق الفلسفات التى عرفتها الانسانية منذ أقدم العصور حتى أوائل القرن العشرين ... فلقد كان لطفى السيد على سبيل المثال المفكر الاول لهذا التيار مترجما لارسطو وتلميذا من تلاميذه .

فما سر ابتعاد العقاد عن هذا التيار الذى كان من المنطقى أن يكون قريبا إليه ؟ ... سره ولاشك هو تكوين العقاد الاجتماعى ، فهو شاب مصرى فقير نشأ فى ظل أسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة فأبوه موظف صغير والعقاد نفسه قد بدأ حياته موظفا صغيرا ، ولذلك فقد كان يحس بأن لطفى السيد وأعضاء حزب الأمة عموما ، بعيدون عنه وعن الطبقات الفقيرة والمتوسطة من أبناء الشعب فهم كلهم من كبار الملاك والاقطاعيين ، فكيف يلتقى هذا الشاب الفقير بتجاربه الاجتماعية القاسية وواقع حياته الشاق مع هؤلاء الذين يمثلون فى النهاية طبقة عليا متعالية على الشعب مهما أظهرت من الاهتمام بشئون الشعب وقضاياه ؟

لقد كانت هذه النقطة بالذات كفيلة بأن تبعد العقاد تماما عن هذا الحزب وعن أنصاره حتى ولو كانوا من الفلاسفة والعلماء أمثال لطفى السيد وغيره . ولقد كان أصحاب هذا التيار ـ فى نهاية الأمر ـ جماعة من المعتدلين الهادئين الذين ينظرون الى الاحتلال الانجليزى بأعصاب باردة ، انهم يرفضونه ولا شك ، ولكنه رفض الارستقراطيين الذين لا يجدون بأسا فى ان يحققوا نوعا من التعايش السلمى مع الاستعمار الانجليزى وممثليه . فكيف يلتقى العقاد الذى يرفض الاستعمار الانجليزى رفضا كاملا مع هؤلاء المعتدلين الهادئين

العقلاء ؟ ... لقد التقى العقاد بمنهجهم المتفتح على الفكر الغربى والثقافة الغربية ولكنه لم يلتق معهم بعد ذلك فى شىء ، بسبب تكوينهم الاجتماعى كطبقة عليا فى المجتمع المصرى وبسبب اعتدالهم المسرف فى النظر الى قضية الحرية والاستقلال .

بقى التيار الاخير والذى يمكن أن نسميه بتيار المقتطف نسبة الى مجلة المقتطف التى كان يصدرها يعقوب صروف وهذا التيار هو الذى يمثله المفكرون المهاجرون من وجه الطغيان التركى فى الشام وكان أصحاب هذا التيار من أمثال يعقوب صروف وشبلى شميل من أكثر العناصر المتحررة من الناحية العلمية ، لقد فهموا الثقافة الغربية فهما عميقا وروجوا فى كتاباتهم لاعمق ما فى هذه الثقافة من اتجاهات وآثار . ولقد كانوا على وجه التقريب بيئة غربية تقيم فى مصر ... وكان فى هذا التيار جاذبية شديدة عميقة بالنسبة للعقاد فهو تيار يتلاءم مع نهمه العقلى الى الثقافة الغربية المعاصرة وقد استفاد العقاد الى أقصى حد من هذا التيار واعتمد عليه شخصيا فى بعض المراحل حيث عاش فترة من الوقت فى رعاية يعقوب صروف العملية فقد ساعده فى الحصول على وظيفة باحدى المدارس ، وقد أشاد العقاد بما استفاده من يعقوب صروف فى عدد من مقالاته .

على أن العقاد رغم ذلك كله لم يلتق بهذا التيار الفكرى التقاء كاملا لانه بحكم تركيبه كان تيارا مهادنا للانجليز متعاونا معهم الى أقصى حد ، فقد كان العدو الاول بالنسبة لهذا التيار يتمثل فى الاتراك بظلمهم السياسى وعدائهم للعلم والعقل وقد وضع معظم اصحاب هذا التيار ـ وليس كلهم بالطبع ـ يدهم فى يد الانجليز وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال فارس نمر احد زعماء الثورة ضد الاتراك فى الشام ، ومن عجب ان يجىء هذا الثائر من الشام لينشىء فى القاهرة جريدة المقطم التى كانت لسان حال الانجليز فى مصر ويزوج ابنته « ايمى » للمستشار الشرقى بالسفارة الانجليزية وهو « سمارت » الذى كان من أقوى الشخصيات التى اعتمد عليها الاحتلال الانجليزى لمصر ... إن فارس نمر ـ فى الشام ـ ثورى ضد الاتراك ولكنه فى مصر وثيق الصلة بالانجليز وحليف لهم . لقد كانت عيون اصحاب هذا التيار مركزة على عدوهم الرئيسى فى تركيا ولم يلتفتوا الى

خطورة التحالف مـع الانجليز ، فـاذا كان الاتـراك يمثلون نوعـا قديمـا من الاستبداد فالانجليز يمثلون نوعا عصريا من الاستبداد لا يقل فى نهاية الأمر خطورة عن الاستبداد التركى .

وهكذا لم يجد العقاد فى هذه التيارات تيارا واحدا يرتبط به ارتباطا كاملا نهائيا وظل يعيش فى هذا المناخ الفكرى مترددا بين هذه التيارات جميعا دون أن يذوب فى أى واحد منها ، أو يستسلم استسلاما نهائيا له . وقد كانت هذه المرحلة هى فترة النشأة والتكوين الاساسى بالنسبة للعقاد وتركت هذه المرحلة آثارها فى حياة العقاد الشخصية فشقى وتعب وأصابه المرض وتعرض لكثير من الازمات الاقتصادية ولكنه كان فى كل هذه الازمات مثالا للشاب المصرى الوطنى الذى لا يبيع نفسه للانجليز ، وقد عرض عليه الانجليز العمل معهم بلسان « سمارت » زوج أبنة فارس نمر ، والسكرتير الشرقى بقصر الدوبارة ـ مقر المندوب السامى الانجليزى آنذاك ـ وذلك عندما كان العقاد مـوظفا فى وزارة الاوقـاف ، وكان السكرتير الشرقى يغرى العقاد بأن يساعد الانجليز على التشهـير بالخـديوى عباس حلمى الثانى ، وكان بينه وبين الانجليز معركة أراد منها الخديوى اثبات سلطانه ، ورفض العقاد هذا العرض لا حبا فى الخديوى ، ولكن اصرارا منه على ألا يكون أداة فى يد الانجليز .

وقد جمع العقاد فى هذه الفترة ، فترة نشأته الفكرية قبل ثورة ١٩١٩ ، بين الاهتمام الكبير بالثقافة الغربية واقباله المتلهف على فهمها واستيعابها وهضمها وبين الاهتمام بالثقافة العربية القديمة ، وحرص العقاد حرصا تاما على عـدم الوقوف بأى شكل من الاشكال مع الاستعمار الانجليزى وأجهزته ، أو مع القصر أو مع الارستقراطية المصرية مهما قدمت له من اغراءات ، وقد يكون من المفيـد أن نذكر هنا أن طه حسين فى هذه الفترة بالذات لم يجد مانعا من الارتباط بلطفى السيد وحزب الامة أى بالارستقراطية المصرية ، حيث كان طه حسين يجد بيئة فكرية متحررة تستطيع أن تتقبل آراءه الجديدة المتمردة ، وتستطيع أن تقف الى جانبه وتحميه من ثورة المحافظين ضـده . وقد ظل طه حسـين مرتبـطا بهذه الارستقراطية المصرية حتى اثناء ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، وذلك لان الذى كان

يعنيه بالدرجة الاولى فى ذلك الحين هو التجديد الفكرى وقد تغير موقف طه حسين بعد ذلك ، ولكننا نذكر موقفه فى هذه المرحلة لكى يتضح امامنا موقف العقاد الذى كان واحدا من المواقف الصلبة المحددة فى عدائها للاستعمار الانجليزى وللطبقة المصرية العليا معا .

وخلال هذه الفترة كان العقاد يعيش على بعض الوظائف الحكومية الصغيرة وعلى العمل فى بعض الصحف الوطنية ، وكانت حياته صعبة قاسية ولكنه احتملها بشجاعة ، وقد لقى كثيرا من المصاعب بسبب اصراره على موقفه الوطنى ضد الانجليز والطبقة العليا فى المجتمع ، مما فرض عليه أحيانا أن يعود الى بلده أسوان ، عندما كانت تسد فى وجهه أبواب الرزق ، ولكن العقاد فى هذه الفترة على أى حال استطاع بارادته القوية وذهنه المتفتح النهم أن يستكمل تكوينه الفكرى الاساسى وأن يرتفع بخبرته التعبيرية الى درجة عالية من الكفاءة بحيث لم تكد ثورة ١٩١٩ تندلع حتى كان العقاد قد احتل مكانه فى الصف الاول ككاتب لامع من الكتاب المجددين .

وهكذا نجد العقاد فى السنوات السابقة على ثورة ١٩١٩ ممثلا حقيقيا للطبقة الوسطى الناشئة فى مصر ، فقد كان يجسد فى شخصيته ثورية هذه الطبقة الناشئة ، فهو شديد الطموح الى الثقافة الغربية التى كانت وجها رائعا من وجوه الحضارة الاوربية ، حيث كانت الطبقة الوسطى تشعر بالحنين الكبير الى اللقاء مع هذه الحضارة لقاء كاملا ، ففى هذه الحضارة كل ما يغرى هذه الطبقة ... فيها العلوم العصرية ، وفيها التقدم الآلى وفيها الحرية السياسية والفكرية والعملية ، على أن العقاد فى ايمانه بالحضارة الغربية والثقافة الغربية لم يكن متفرنجا ... مثل بعض المتفرنجين الذين خلعوا أنفسهم نهائيا من الواقع المصرى العربى بل كان يمثل أيضا أجمل ما فى هذه الطبقة الوسطى الناشئة التى تريد أن تنتمى الى وطن روحى ، ولذلك تمسك بالثقافة العربية القديمة وساعده على ذلك أنه كان ينظر الى هذه الثقافة من زاوية جديدة مكنته من أن يكتشف ما فيها من جمال وروعة . كذلك كان العقاد يمثل النقمة على الاقطاعيين وعلى كل تبعية للانجليز أو للاتراك ولقد كان مثلا نابغا للطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى كانت بحكم

ظروفها طبقة متمردة مهيأة للثورة فى ذلك الحين ، أنها الطبقة النامية المليئـة بالطموح ، طبقة الافندية الذين يملكون الوعى ولا يملكـون شيئا آخـر لانهم محرومون من كل الامتيازات التى كان ينالها الاجانب والمتمصـرون « وأبناء البيوتات » من الاقطاعيين والتجار .

وفى هذه المرحلة بدأت معارك العقاد الادبية وكان أهم هذه المعارك معركته التى اشترك فيها ـ بـالتأييـد والموافقـة دون الانغماس الحـاد فيها ـ مـع زميله المازنى ضد المنفلوطى وكان المنفلوطى يكتب أدبا رقيقا دامعا ، هو فى نهاية الامر أدب شكوى وبكاء ، وهو أدب يتلاءم مع روح الهزيمة التى كانت شائعة بعد فشل العرابيين الى حد بعيد ، ولكنه لا يتلاءم مع الطموح والتمرد ، ولا يتلاءم مع روح الثورة التى بدأت تسود بين أبناء الطبقة الوسطى الناشئة ، هذه الثورة التى كان فكر العقاد مظهرا من مظاهرها الحية ، وفى هذه المرحلة أيضا بدأت معركة العقاد ضد شوقى ولكنها لم تنفجر فى صورتها العنيفة الا بعد ثورة ١٩١٩ .

هذه خلاصة موقف العقاد فى الفترة السابقة على ثورة ١٩١٩ ، اى فى فترة التعبئة والتمهيد لهـذه الثورة وفتـرة « البحث عن طريق » فى الفكر والحيـاة بالنسبة للعقاد .

كاتب الثورة

عندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كانت هذه الثورة بداية مرحلة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ العقاد على السواء ، ولقد كانت الفترة السابقة على ثورة ١٩١٩ هى فترة « حمل ثورى » بما فيها من تعبئة فكرية وروحية وبما تعرض له الشعب خلال هذه الفترة من ضغوط وتجارب قاسية فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ وكان الظلم الذى يفرضه الانجليز على المصريين عاملا قويا يتحرك فى أعماق المجتمع حتى انتهى الامر الى الانفجار .

لقد وقعت حادثة « دنشواى المشهورة » سنة ١٩٠٦ ، حيث تم شنق عدد من الفلاحين فى قريتهم دنشواى وامام أنظار أهلهم ومواطنيهم وظلت هذه الحادثة تعيش فى ضمير مصر منذ وقوعها كذكرى سوداء تنادى بالانتقام والثأر والتحرر من الذين صنعوا هذه الجريمة وفرضوا على الناس كل هذا الظلم والعذاب . وكانت الحرب العالمية الاولى وما ذاقته مصر خلال هذه الحرب المريرة سببا قويا من أسباب الثورة والتمرد . لقد تم الاستيلاء على شباب الفلاحين فى مختلف القرى بالقوة لكى يعملوا فى خدمة الجيوش الانجليزية ، ولنترك المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى يقدم لنا صورة لما فعله الانجليز فى مصر أثناء الحرب الاولى وقبل ثورة ١٩١٩ .

يقول الرافعى فى كتابه « ثورة ١٩١٩ » « ص ٥٤ » :

« لقد جندت السلطة العسكرية العمال والفلاحين فى مختلف أرجاء البلاد لاستخدامهم فى أعمال الجيش البريطانى وبلغ تعدادهم نيفا ومليون مصرى ، وكانوا يؤخذون كرها باسم المتطوعين ، وما هم بمتطوعين ويعاملون معاملة

المعتقلين وما هم بمذنبين يربطون بالحبال ويساقون كالانعام ويقام عليهم الحراس وينقلون بالقطارات فى مركبات الحيوانات ويعاملون أسوأ معاملة ، ولا يعنى بصحتهم ولا بغذائهم وراحتهم ، وكانوا يوعدون بأن يستخدموا لمدة محدودة ، ثم تستمر على الرغم منهم . ومات كثيرون منهم فى ميادين القتال ، أو فى صحراء سيناء والعريش ، أو فى العراق وفرنسا ، وأصيب كثير منهم بالامراض والعاهات التى جعلتهم عاجزين عن العمل ، واجتمعت الى تلك المظالم مظالم أخرى بما لجأت اليه السلطة العسكرية من مصادرة الناس فى أرزاقهم وحاصلاتهم الزراعية ومواشيهم ودوابهم فقد استولت عليها بأبخس الاثمان وبأسعار تقل كثيرا عن أسعارها فى الاسواق وفرضت على كل مركز من مراكز القطر المصرى مقدارا معينا من الحبوب يورده الى الجيش بهذه الاسعار البخسة فكان الاهلون يطلب منهم فى بعض الاحيان أكثر مما عندهم . فيضطرون تحت تأثير الضغط الى شراء ما يطلب منهم بأسعار السوق ، ويقدمونه كرها بالسعر البخس » ... هذه احدى صور الواقع المصرى فى الحرب العالمية الأولى كما يرسمها لنا عبد الرحمن الرافعى ، ولقد كانت هذه الصورة وغيرها هى الظلم الظاهر ، ولكن كان هناك أشياء أخرى قصد بها الانجليز أن يقضوا على كل اصالة فى مصر وأن يفرضوا العقم الحضارى والتخلف على المصريين ، فقد حارب الانجليز على سبيل المثال مشروع انشاء الجامعة المصرية ، واصطنعوا مشروعا للكتاتيب واختلقوا مناظرة مفتعلة بين التعليم العام والتعليم العالى ، وقالوا أن مصر اكثر حاجة الى التعليم العام « الاولى والابتدائى » منها الى التعليم الجامعى العالى . كذلك كان الانجليز يحاولون اشعال نيران التعصب الطائفى للقضاء على وحدة الامة . وهناك بذور اخرى للشر لا تنتهى بذرها الانجليز بمصر عن طريق الخبراء والمستشارين وعلى رأسهم « دنلوب » مستشارهم الشهير لشؤون التعليم ، وكانت ثورة ١٩١٩ اعتراضا على المظالم الظاهرة والمظالم الخفية التى لا تلاحظها العيون الا بعد البحث والدراسة ولقد تجمع السيل الذى تفرق سنة ١٨٨٢ تحت قيادة عرابى ... تجمع هذا السيل من جديد سنة ١٩١٩ بعد أن زادته الظروف خبرة ووعيا وسلحته بتجارب مريرة ولكنها مفيدة الى حد كبير .

كيف كانت صورة العقاد سنة ١٩١٩ ؟ .... كان العقاد قد أصبح فى الثلاثين من عمره وكان قد نضج فكريا وأصبح شخصية واضحة تمام الوضوح ، ولم يتردد العقاد فى اختيار طريقه بعد أن تردد طويلا من قبل بين ما هو سلبى وما هو ايجابى فى التيارات المختلفة التى سبقت الثورة .

لقد ارتبط العقاد منذ اللحظة الاولى بالثورة وساهم فيها مساهمة مباشرة ، وكانت مرحلة ثورة ١٩١٩ هى المرحلة التى يمكننا أن نطلق فيها على العقاد اسم كاتب الشعب الاول ـ فقد اشترك العقاد بكل كيانه فى العمل الثورى وكان أبرز كتاب حزب الوفد الذى قاد الثورة وكان ينشر مقالاته فى « الاهرام » سنة ١٩٢٠ ، ثم فى البلاغ عند صدوره ابتداء من ديسمبر ١٩٢٢ ....

كانت المقالات التى يكتبها العقاد فى تلك الفترة من المقالات الرئيسية التى تعبر عن وجهة نظر القيادة الثورية وتدافع عنها . ولم يتردد العقاد لحظة خلال مراحل الثورة المختلفة ، بل كان دائما يقف فى أقصى الجناح اليسارى المتطرف فى هذه الثورة . ومن اعمال العقاد ذات الدلالة فى هذه الفترة أنه كان يكتب منشورات جماعة « اليد السوداء » احدى الجماعات السرية الرئيسية أثناء الثورة . ومن مواقفه الشهيرة أيضا تصحيحه لبيان « لجنة ملنر » التى جاءت الى مصر بعد اندلاع الثورة بشهور لمحاولة البحث عن طريق للخروج من المأزق الذى وقعت فيه انجلترا داخل مصر نتيجة للثورة ، ولقد أصدرت اللجنة بيانا جاء فى ترجمته العربية . « أن اللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تمكن الامة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون البلاد تحت أنظمة دستورية » وسارع العقاد الى تصحيح الترجمة ، فالعبارة الصحيحة التى قصد الانجليز اخفاءها كانت « تحت أنظمة حكم ذاتى » ولم تكن « تحت أنظمة دستورية » وكان الفرق بين العبارتين كبيرا جدا فى نظر الوطنيين . لقد كان الوطنيون يريدون الاستقلال والدستور ، ويريدون أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، ولم يكن المصريون يطلبون الحكم الذاتى ، فالحكم الذاتى لم يكن يختلف كثيرا عن نظام « الحماية » الذى كان قائما قبل الثورة وكان من اهم أسباب الثورة .

واذا عدنا الى كتابات العقاد فى هذه الفترة نجد أن العقاد يحارب بعنف وقوة

على عدة جبهات ، فالعقاد يهاجم الانجليز باعتبارهم العدو الاول للحركة الوطنية وهو ينادى بالدستور ويدعو اليه دعوة حارة قبل أن يصدر ، فالدستور هو أعز أهداف ثورة ١٩١٩ الوطنية ، فهو أساس الاستقلال والحرية ، وبعد أن يصدر الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ يدافع العقاد بقوة عن الدستور ويهاجم أعداء الدستور هجوما قاسيا لا يقبل العقاد فيه رحمة ولا مساومة ، كما يدافع العقاد بقوة عن الوفد باعتباره الممثل الحقيقى للثورة الوطنية .... ثورة الحرية والاستقلال ، ويدافع عن سعد زغلول قائد الثورة ، وفى نفس الوقت يشن العقاد نيرانا من الهجوم الحاد ضد أعداء سعد وأعداء الوفد وأعداء الحركة الوطنية الذين انشقوا على الوفد وخرجوا على زعامة سعد ، وقد تجمع أعداء الحركة الوطنية هؤلاء فى حزب « الاحرار الدستوريين » .

كان العقاد فى هذه الفترة يركز فى كتابته على فضح الانجليز ومواقفهم فى مصر ، ويحاول دائما أن يثير الرأى العام ضد الاحتلال وسيئاته المتعددة ، ومن نماذج كتابته فى تلك الفترة ما كتبه فى « البلاغ » فى فبراير ١٩٢٣ اى قبل اصدار الدستور ... فى هذا المقال يقول العقاد « نشرت زميلتنا الاخبار فى ١٤ يناير الماضى خبرا جاء فيه أن مسجونا يخدم فى حديقة أحد الموظفين الانجليز أكل « طماطمة » واحدة ملقاة ، فما كان من السيدة زوجة الموظف الانجليزى وقد رأت المسجون الا أن أمرت الاونباشى الحارس أن يظل يضرب المسجون بالكرباج حتى تكلفه أن يكف .... الخ » .

« ومن هذا اليوم الذى نشر فيه الخبر الى يوم أمس لزمت السلطات الصمت فلم نقرأ له تكذيبا ولم نعلم بتحقيق حدث لاطلاع الرأى العام على نتيجته ، كل ما علمناه اخيرا أن الاستاذ مدير الاخبار استدعى على أثر نشر الخبر وسئل عما ورد فيه وطلب اليه ذكر اسم كاتبه فرفض افشاء هذا السر الصحفى ثم انصرف على أن يجرى التحقيق فى هذه الحادثة ويبلغ بنتيجته » .

« أما النتيجة التى بلغت الى حضرته بعد استدعائه كما تقدم فهى ما ظهر أمس من أن السلطات المختصة تنوى محاكمة حضرته لنشره خبرا « يحدث الفزع والقلق بين الاهالى المدنيين وطبقة منهم » وهذا كما تقول ورقة الاتهام مخالف لنصوص المادة ١٤ من الاعلان الصادر فى ١٤ مايو سنة ١٩١٦ ومخالف

لقانون مصر لانه ـ والاشارة هنا الى مدير الاخبار « ينشر ويوزع ويحفظ للبيع فى محل عمومى مادة مطبوعة من شأنها اثارة احساسات الاحتقار أو البغض لطبقة من الاشخاص » ... ان المصريين لم يعد يخفى عليهم غرض الانجليز من التسويف فى الغاء الاحكام العرفية بحجة ينتحلونها بعد حجة ولكن الانجليز هم الذين تخفى عليهم الحقيقة وهى أنهم لن يبلغوا بابقاء أحكامهم العرفية غرضهم الذى يرمون اليه من هذه البلاد »(١) .

وبعد صدور الدستور يواصل العقاد هجومه على الانجليز فى كل مناسبة تتيح له ذلك لان الانجليز لم يخرجوا من البلاد بعد صدور الدستور بل استمر احتلالهم للبلاد ، واستمرت محاولتهم للتحكم فى السلطة لتحقيق مصالحهم على حساب مصالح الشعب .

ففى سنة ١٩٢٦ وأثناء وزارة عبد الخالق ثروت الائتلافية ، حيث كان سعد زغلول آنذاك رئيسا لمجلس النواب ، قام المندوب السامى البريطانى بزيارة للمنيا فكتب العقاد فى البلاغ يقول :

« مهما يكن الراى فى زيارة المندوب البريطانى للمنيا فالامر الذى لا نزاع فيه ولا يصح أن يكون فيه نزاع هو أن هذه الزيارة يجب الا تتكرر فى اقليم آخر ، والا نسمع مرة أخرى ان المندوب البريطانى يقف بين المصريين موقف الحاكم بين رعاياه ليحدثهم عن اهتمام حكومته برفاهيتهم وسعادتهم ، ويعدهم الوعود ويشجعهم على مخاطبته والرجوع اليه ، فان البلاد لم تثر ثورتها على الحماية البريطانية ولم تفقد زهرة شبابها وحبة أموالها وتصبر على مضانك الجهاد أربعين عاما لتسكت بعد ذلك عن مظاهر فضولية لا معنى لها الا اننا لا نزال فى ظل الحماية وان « رفاهيتنا ومصالحنا » لا تزال فى كفالة الحكومة البريطانية وقد كنا نفهم أن يزور المندوب البريطانى المنيا بصفته الشخصية ، أو أن يزورها بصفته الرسمية ولكن لا تحشد له الوفود ولا يسمع منه ذلك الكلام الذى تجاوز فيه حكومة البلاد الى مخاطبة رعاياها فى شؤون لا يجوز لغير تلك الحكومة أن تتولاها ، بل كنا نفهم بشىء من الجهد أن يتجاوز الحكومة ذلك التجاوز ويدارى

---

١ ـــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ٨٧ .

افتياته عليها بكلام يفيد الاعتراف لها بالاستقلال والمجاملة لها فيما تطلبه من مطالب وتسعى اليه من الحقوق ، ولكن زيارة مندوب أجنبى لاقليم من أقاليم مصر « المستقلة » لا لشيء إلا ليقول هناك كلاما يغفل فيه حكومة البلاد ويدعى لنفسه ولحكومته حقوقا تتناق مع أبسط معانى الاستقلال أمر غير مفهوم من ذلك المندوب الأجنبى ، وغير مفهوم من الحكومة المصرية أن تسكت عليه وأن تدع الباب مفتوحا لتكراره والتوسع فيه » .

« أن الحكومة البريطانية عرفت كيف توجه نظر حكومتنا توجيها جديا الى أحكام صدرت من المحاكم المصرية وكيف تعلن ذلك على الملأ مع ما فيه من التشهير بأخلاق المصريين وقضاء المصريين ـ أفلا تعرف حكومتنا كيف توجه نظر المندوب البريطانى توجيها جديا الى أن رفاهية الفلاحين شيء لا يعنيه وأن حكومة بريطانيا « العظمى » لا تعرف ولا ينبغى أن تعرف أفراد الشعب المصرى بغير وساطة الحكومة الوطنية » .. وهكذا كان العقاد يهاجم الانجليز هجوما مباشرا خلال الثورة . وكان يهاجمهم هجوما مباشرا أثناء اعداد الدستور حيث كان الانجليز يقومون بمحاولات مستميتة للابقاء على الأحكام العرفية والاستمرار فى أرهاب المصريين والضغط عليهم ، وكان العقاد يهاجم الانجليز بعد صدور الدستور كلما بدرت منهم محاولة لتعطيل الدستور وجعله دستورا شكليا للبلاد ، ثم تحويل الاستقلال المصرى نفسه الى استقلال على الورق ليس له قيمة فعلية يحس بها المواطنون .

واذا كان العقاد قد تصدى للهجوم على الانجليز وتحريض الرأى العام ضدهم ، فقد تصدى فى نفس الفترة للرجعية المحلية ووقف فى وجهها بعنف ، خاصة وان الرجعية المحلية قد بدأت تتآمر على الدستور بعد صدوره ، وتحاول أن تقضى على الحرية والديموقراطية ، وأخذت الرجعية تعمل بالتحالف مع القصر والانجليز لهدم مكاسب ثورة ١٩١٩ الديموقراطية الوطنية .

وقد ركز العقاد فى البداية حملته على حزب « الاحرار الدستوريين » هذا الحزب الذى تألف أساسا لمحاربة الوفد ، وليكون سندا للسراى والانجليز ،

وكما يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بحق : فان هذا الحزب الذى تم اعلان تشكيله فى ٣٠ اكتوبر سنة١٩٢٢ تألف « لا استنادا الى تأييد الشعب بل ارتكانا على سلطة الحكومة ! وقد لازمه هذا العيب طول حياته فهو ليس حزبا شعبيا يرتكز على إرادة الشعب ، بل هو حزب حكومى يعتمد على قوة الحكم ، ومن هنا جاء تغليبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب وميله الى اهدار سلطة الامة لكى يصل إلى مناصب الحكم ، ولا ترتقى الأمم بهذه الاساليب فى النضال السياسى لان النضال الذى يقوم على التوهين من سلطة الأمة انما يرمى فى آخر الأمر الى استبعاد الشعب ، ومن ثم ظهرت فى محيط هذا الحزب معظم الوسائل والتدابير التى ترمى الى حرمان الشعب حقوقه السياسية . وكان وجود هذا الحزب موضع اطمئنان السياسة البريطانية اذ كانت تهدد به كل هيئة نيابية لا تميل إلى التسليم فى حقوق البلاد . كما كان مع غيره من الأحزاب الرجعية وسيلة لاستعادة الحكم المطلق »[١] .. هذا هو التقييم السياسى الذى يقدمه عبد الرحمن الرافعى لحزب الأحرار الدستوريين وهو تقييم صحيح اذ أن هذا الحزب اعتمد منذ نشأته على مجموعة من كبار الملاك الاقطاعيين انضم اليهم بعض كبار الرأسماليين ، فمن الاقطاعيين المعروفين محمد محمود وأمثاله ومن الرأسماليين اسماعيل صدقى وأمثاله . وكان الاقطاعيون والرأسماليون معا يجدون الخير والمصلحة لهم فى التعاون مع الانجليز والسراى ، اكثر مما يجدون الخير والمصلحة فى التعاون مع القوى الوطنية والديمقراطية ، وقد ساهم الاحرار الدستوريون باستمرار فى كل اعتداء على الدستور والحريات ، منذ تكون حزبهم سنة ١٩٢٢ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ ومن هنا اتخذ العقاد موقفه الفكرى الواضح ضد الاحرار الدستوريين ، فهم الذين ظهروا فى أعوام الثورة الوطنية ليمثلوا بوضوح « ثورة مضادة » لأهداف ثورة ١٩١٩ ، وليكونوا أداة فى يد الانجليز والسراى لعرقلة حركة النمو الوطنى والديمقراطى فى البلاد . ويكتب العقاد فى تلك الأيام مقالا عنيفا بعنوان « ماذا تخسر مصر لو فقدت الأحرار الدستوريين »[٢] ، وفى هذا المقال يبدأ بالهجوم العنيف على هذا الحزب

١ ـ عبد الرحمن الرافعى ـ فى اعقاب الثورة المصرية ـ الجزء الاول ص ٦٩ و٧٠ .

٢ ـ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

الرجعى ، ثم يتوقف بعد ذلك ليقدم تحليلا موضوعيا للحزب ثم ينتهى الى الهجوم الشخصى الحاد على أعضاء الحزب ... فى البداية يقول العقاد اجابة على السؤال الذى جعله عنوانا لمقاله « ... ماذا تخسر مصر لو فقدت الأحرار الدستوريين » ..

« سؤال غريب ! وكأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت الوصوليين المنافقين عشاق المناصب وعباد المآرب وأنصار كل غالب وغاصب ، أو كأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت الكذابين الدساسين الذين يميتهم الصدق والنور ويحييهم الكذب والظلام ، أو كأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت تجار السياسة الذين يبيعون الوطن فى سوق المطامع ويسعون بين الأمة وغاصبيها سعى السوء ويبدون لها غير ما يضمرون ويريدون بها غير ما تريد » ثم ينتقل العقاد الى تحليل الاحرار الدستوريين وعلاقاتهم السياسية فيكتب فى نفس المقال : « الأحرار الدستوريون عورة السياسة المصرية وموطن الضعف فيها وباب المطامع الذى يلج منه الانجليز الى دخيلتها ، ولولاهم ولولا تهافتهم على المناصب ووقوفهم بالمرصاد لكل فرصة سانحة واستعدادهم لكتابة العرائض التى يستجدون بها الوزارات ويستعطفون بها الانجليز ـ لولا ذلك لعلم الانجليز أن الأمة يد واحدة وكلمة واحدة لا مساومة فيها ولا مناورة ، فأما أن يعطوها كل ما تريد وأما أن يناوئوا منها أمة كاملة مجمعة على الاباء والمقاومة والثبات على مطالبها حتى تنالها جميعا وتبلغ من الاستقلال والحرية ما تريد . ولكن الاحرار الدستوريين ظلوا مع الوفد المصرى حتى سنحت لهم بارقة الأمل من ناحية مشروع ملنر « بحمايته الصريحة » فتكالبوا عليه ووثبوا الى الفرصة يرتجفون وجلا من أن تفلت من أيديهم ، وأنذروا سعد بالتفرق عنه والانفضاض من حوله ، ورأوا أنهم قد جاوزا الحد فى الجهاد وكلفوا أنفسهم فوق ما تطيق من الصبر والثبات » ... ونترك كلمات العقاد لحظة لنقول إن الاحرار الدستوريين كانوا يقيمون دعايتهم على أنهم حزب الفنيين الذى يضم مجموعة عالية من الكفاءات الطبية والقانونية ... الخ . وهنا وقف العقاد ضد هذا الادعاء بأنهم حزب المواهب والكفاءات ، يقول العقاد : « ان هذا الخلق الذى يحمل لواءه بعض المحترفين على المنافع الزائلة يزعم أنه « خلق الكفاءة » . لا لشىء إلا لأنه مجرد من الاخلاص . كأن الكفاءة والاخلاص وصفان متنافيان فى عرف هؤلاء ... وانك لتسأل من هم

الاحرار الدستوريون القائمون بهذه الدعوة فى مصر ؟ فيقال لك انهم على الأكثر عشرون أو ثلاثون محاميا على طبيب ممن لم يعرفوا فى حياتهم قط بشىء من التضحية أو حماسة المبدأ والعقيدة . فماذا تفقد مصر لو لم يكن فيها هؤلاء العشرون أو الثلاثون محاميا على طبيب ؟ أترى أن أصحاب الدعاوى يحملون قضاياهم الى أبواب المحاكم فلا يجدون عندها من يتولى المرافعة فيها ؟ أترى أن الأمهات تدفن أطفالها من اليأس لأن مدير السياسة[1] ناقص من عداد الأربعة عشر مليون الذين يقيمون فى هذه البلاد ؟ أترى أن القانون يأبى ان يتعلمه المتعلمـون وأن الطب يرفض أن يدرسه الدارسون؟ ومن من هؤلاء العشرين أو الثلاثين محاميا على طبيب من تعجز الأمة عن تعويضه بمائة من مثله إذا المقادير المقادير ألا يذكر فيها اسمه ولا يطلع عليها نحسه ؟ » .

وينتقل العقاد بعد ذلك الى الهجوم الشخصى العنيف على بعض الأسماء فى حزب الاحرار الدستوريين فيتساءل من من هؤلاء لا تستطيع الأمة تعويضه : « ... أهو العقل الغبى محمد محمود ؟ ؟ أو الارعن المسلوب عبد العزيز فهمى ؟؟ أو « البلياتشو » المحزن جلاد دنشواى[2] ؟؟ أو طبيب الأطفال وطفل الأطباء حافظ عفيفى ؟؟ أو الرجل التام الرجولة كامل البندارى ؟ أو سماسرة المحاكم العسكرية « وهيب دوس اخوان »؟؟ أو المسفسط المأفون محمد على[3] ؟؟ من من هؤلاء يعيى هذه الأمة مكان نده أو يعجزها أن تعوضه بألف من مثله ؟ ما هى آثارهم التى كتبت لهم هذه الكفاءة التى يدعونها ؟ وأين هى أذنابهم أو قرونهم أو زوائد أعضائهم التى تعرف بها فصيلتهم على المئات من رجال الوفد المحامين والمعلمين والأطباء والمهندسين الذين يفوقونهم فى المعرفة والذكاء والاخلاص والنخوة النفسية والعقيدة الوطنية ؟ » .

ويواصل العقاد هجومه على الاحرار الدستوريين ودفاعه عن سعد زغلول والوفد بمثل هذا العنف والشراسة ، ولا يتوقف عن حملته هذه تحت تأثير

---

١ ــ يقصد العقاد هنا الدكتور حافظ عفيفى مدير جريدة السياسة التى اصدرها الاحرار الدستوريوت وكان حافظ عفيفى طبيب اطفال

٢ ــ يقصد العقاد بجلاد دنشواى ابراهيم الهلباوى وكان عضوا فى الاحرار الدستوريين .

٣ ــ يقصد العقاد ــ هنا ــ على الاغلب محمد على علوبة « باشا

الارهاب والاضطهاد ، بل يواصل موقفه بشجاعة نادرة وعنف نارى ، ولا يتردد فى استخدام شتى اساليب الهجوم والتشهير ضد أعدائه ولا شك أن كتابته فى تلك الفترة كانت نوعا بارزا من « أدب الهجاء السياسى » ، فلم يترك العقاد واحدا من رجال الرجعية فى السياسة المصرية فى ذلك الحين الا وجعل منه موضوعا لسخرية الجماهير وسخطها واستنكارها له .

وقد قامت الرجعية السياسية فى مصر بعد اصدار الدستور سنة ١٩٢٣ بانقلابين كبيرين على هذا الدستور فى العشرينات ، وقد تم الانقلاب الأول بقيام وزارة أحمد زيور « فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ » وذلك بعد استقالة وزارة سعد زغلول على اثر حادثة مقتل « السير لى ستاك » الشهيرة ، وقد قامت هذه الوزارة بالغاء البرلمان المنتخب لأن أغلبيته كانت وفدية ، وقامت باجراء انتخابات جديدة ولكنها جاءت بأغلبية وفدية أيضا .

بدأت هذه الوزارة بالاعتداء على الدستور واعتقال عدد كبير من شباب الوفد البارزين، وقد أدلى عبد العزيز فهمى رئيس «حزب الاحرار الدستوريين» ووزير « الحقانية » فى هذه الوزارة بتصريح كانت كلماته واضحة فى اظهار استعداد الرجعية المصرية للاعتداء على الدستور والقضاء عليه ... وقد أدلى عبد العزيز فهمى بتصريحه فى ١٧ مارس سنة ١٩٢٥ وقال فى هذا التصريح بالنص « فى أعقاب الثورة المصرية ـ الجزء الأول ـ عبد الرحمن الرافعى ص ٢١٧ » :

« لقد اشتغلت بلجنة الدستور وكنت أعتقد أن الدستور مناسب لبلدنا ، ولكن العمل أظهر أنه ثوب فضفاض ، وبالرغم من هذا الذى أظهره العمل سنحافظ عليه ونرعاه » .

وبعد أن قال عبد العزيز فهمى « أن الدستور ثوب فضفاض على الأمة » حاول أن يؤكد سلطة « الملك » وحقه فى العبث بدستور البلاد فقال فى نفس التصريح :

« فى هذا الدستور حق مقرر لجلالة مولانا الملك وهو حل مجلس النواب فى كل وقت متى أراد ومتى رأى فى ذلك المصلحة للبلاد » .

وهكذا أفتى عبد العزيز فهمى ، القانونى الكبير وأحد واضعى الدستور بأن من حق الملك أن يعبث بحرية الأمة ودستورها ، وأنه اكتشف أن الدستور « ثوب فضفاض » لا يناسب المصريين ، ومنطق عبد العزيز فهمى هنا هو منطق الرجعية المصرية فى ذلك الحين ، وهو منطق حزب الاحرار الدستوريين الذين ظهروا على سطح الحياة السياسية المصرية لاداء هذا الدور الرجعى فى تحطيم الحريات ومساندة الملك والانجليز ضد الأمة وضد مصالح الجماهير ومن أجل تصفية ثورة ١٩١٩ . والغريب أن عبد العزيز فهمى نفسه قد استقال من وزارة « زيور » بعد شهور وراجع موقفه السابق من الدستور ، وعاد الى المطالبة بالمحافظة على الدستور حيث قال « أن من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور فى كل مقام بقطع النظر عن كل اعتبار » .. ولكن تحول عبد العزيز فهمى لم يحمل معه أى تحول جذرى فى حزب الاحرار الدستوريين ، حيث ظل هذا الحزب مؤيدا فى معظم مواقفه للانقلابات الدستورية، مشاركا فى انتهاك الحريات والوقوف فى وجه الحركة الوطنية الديمقراطية ، حريصا على تصفية ثورة ١٩١٩ وتصفية كل ما حققته من انجازات .

قام النواب فى عهد وزارة زيور باتخاذ قرار باجتماع مجلسهم الذى حلته الحكومة ، وقد منعت الحكومة الاجتماع فى مقر المجلس ، فعقد النواب اجتماعهم فى فندق « الكونتننتال » فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وانتخبوا سعد زغلول رئيسا للمجلس وأصدروا بيانا قالوا فيه انهم أرادوا عقد المجلسين « النواب والشيوخ » فى دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول إليه ، وعلى ذلك اجتمعوا فى فندق الكونتننتال وتكامل عددهم القانونى .. وقد قرر النواب فى اجتماعهم :

أولا ـ الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى منع الاجتماع فى دار البرلمان بقوة السلاح .

ثانيا ـ قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور وهى المادة التى تنص على انه اذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة وجب عليها ان تستقيل فاذا كان القرار خاصا بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة .

ثالثا ـ اعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات المجلسين فى المواعيد والأمكنة التى يتفق عليها الاعضاء »[1] .

وحول حادث انعقاد البرلمان فى فندق الكونتننتال رغم موقف الحكومة ومعارضتها لهذا الاجتماع ومحاصرتها لمقر مجلس النواب والشيوخ لمنع ممثلى الأمة من الاجتماع .. حول هذا الحادث الذى كان يعتبر الحادث الأول من نوعه فى تاريخ النضال الوطنى فى مصر كتب العقاد فى جريدة « البلاغ » مقالا تحت عنوان « يوم الأمة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ » ... يقول العقاد فى هذا المقال :

« فى هذا القرن العشرين لن تدين الأمة لسلطة الأفراد ولن تحكم باسم القوة والاستبداد . فى هذا القرن العشرين لن تورث الأمم كما تورث الماشية الذلول لمن يحمل العصا وراءها ويدعى السيادة عليها . فى هذا القرن العشرين لن تستطيع وزارة أن تقوم بغير دستور أو أن تشهر الحرب على وطن ينكر عليها دعواها ويعرف لنفسه حقه ويتفق على أن يكون سلطانه هو الغالب ولو حالت دونه المصاعب والعراقيل . فى هذا القرن العشرين يعلم الدساسون ـ طوعا أو كرها ـ والأذلاء وسماسرة السوق أن قد بطل الايمان بذلك الحكم المطلق الذى آمنت به الشعوب فى قديم العصور ، وأن لن يبقى على الأرض حكم قد بطل الايمان به وانفضت القلوب من حوله . فمن لم يعقل ذلك منهم طوعا فسيعقله وأنفه راغم ويده مغلولة الى عنقه وجبينه منكس فى الخيبة والهوان ... » .

ثم يتحدث العقاد عن حادثة انعقاد مجلس النواب رغم انف الحكومة ورغم إرهابها وطغيانها فيقول :

« ... ان هذا اليوم (٢١ نوفمبر ١٩٢٥) لفاتحة النضال الفعال بين الأمة والوزارة الثائرة على الدستور الخارجة على حكم الاجماع ، وانه ليوم مكسوب من أيام هذا البلد التى حفل بها وطاب [2] الأنباء والذكريات ، ولئن لم ينته باجتماع للنواب فى دارهم المعلومة ليكون ذلك أقرب مما تحسب الوزارة أو يحسب لها الذين يدبرون أمرها فى الخفاء ، وليكونن فى يوم لن تجد الوزارة فيه بين يديها

---

١ ـ عبد الرحمن الرافعى ـ فى اعقاب الثورة المصرية ـ الجزء الاول ص ٢٤١ .

٢ ـ وطاب أى وعاء .

عدة تشهرها على أحد أو تحتمي بها من حق ، وليكونن في يوم يخرج فيه جبابرة اليوم مجرمين منبوذين لا يدفعون العدل عن أنفسهم ولا هم يرحمون » .. ثم يحذر العقاد من « ثورة دموية » فيقول :

« أما والله لو شاء هذا الشعب أن ينفذ كلمته قسرا لما أعياه ذلك ولا انتهى هذا اليوم الا بما يريد ، ولكنه يحذر العواقب في بلد يحتله الغاصب وتشتبك فيه مصالح الأجانب ، ويعلم أن عصابة الثائرين على الدستور تستغل منه ذلك العلم ما وسعها ان تستغله ، وتلتمس النجاء به ما استطاعت ان تلتمسه . فهي تعرض عن صوت ذلك الاجماع الذي يواجهنا به نواب البلاد ويؤيدهم عليه كل ذي رأي في مصر . وكل فرد من أفرادها لا مأرب له في دوام هذه الحال » .

ثم يقول العقاد :

« ان السبت الثالث من هذا الشهر نوفمبر ١٩٢٥ » لم ينقض ونحن نكتب هذه السطور ، وان مجلس النواب ليجتمع فيه حيث أمكنه الاجتماع وإن حيل بينه وبين مكانه المعلوم ، وأن الحوادث في هذا اليوم لتجري على قدر لا يعلم به الا علام الغيوب ، ولكن قبل ان ينقضي بياضه ، بل قبل ان يكتب عنوانه ، نعده من ايام مصر المذكورة ، ونسجل فيه نصرا عزيزا للدستور ، على دولة الظلم الدائلة ، وخطوة جديدة للزمن السائر الى الامام يخطو بها على رؤوس الراجعين به الى الوراء ، وفاتحة للنضال يختتمها الشعب بيديه كما أراد هو لا كما يريد المستخفون به والثائرون عليه » .

ولم يفت العقاد أن يسجل على وزارة الانقلاب الأول على دستور ١٩٢٣ وهي وزارة أحمد زيور .. لم يفت العقاد أن يسجل على هذه الوزارة انها غير قادرة حتى على فرض أرهابها ضد الأمة ، فكتب يقول في يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ في البلاغ ، اى بعد اجتماع البرلمان في فندق الكونتننتال بيومين :

« .. لقد دلت هذه الوزارة في يوم السبت الماضي ٢١ نوفمبر على حمق مخجل ، وقصور نظر معيب ، وعرضت نفسها للسخرية والاستضعاف من حيث أرادت أن تظهر القوة والحزم ، وتطلع على الناس بالرهبة والجبروت ، فقد أعلنت يوم الأربعاء الماضي بلاغها الذي قالت فيه أنها « تنبه بأن كل اجتماع للبرلمان يعقد في

غير المكان المعين له ، يكون هو أيضا غير مشروع ، وتعلن انها قررت أن تمنع بالقوة ، كل اجتماع داخل البرلمان ، أو فى أى مكان آخر » . وبينما هى تحشد كل قواها حول دار البرلمان ، وتجمع كل عدتها والتفاتها فى طريق تلك الدار ، وتظن ان النواب والشيوخ لا يجتمعون فى ذلك اليوم ، الا اذا وصلوا الى البناية التى حصرتها بالجند والشرط ، ورابطت حولها بالعيون والارصاد ، واذا بالنواب والشيوخ يعقدون فى فندق الكونتننتال ـ فى صباح اليوم نفسه ـ جلستهم التاريخية المشهودة ويصفعون الوزارة بقرار عدم الثقة بها ، ويباشرون عملهم كأن ليس فى مصر وزارة تصادر حقوقهم ، وتعلنهم بتفريق اجتماعهم بالقوة ، داخل البرلمان أو فى أى مكان آخر ، فأثبتوا بذلك سخف الوزارة وغباوتها ، حتى فى الدفاع عن نفسها ، والاحتياط لتنفيذ مقاصدها ، وأخرجوها هزأة للعالم ، تحمل الجلاجل فى رجلها وفوق رأسها ، وهى التى خرجت له فى الصباح جبارا كميا ، يتقلد السيف ، وينذر بالنار والحديد ! » .

وهذه الملاحظة التى حرص العقاد على تسجيلها ، وهى ضعف الوزارة الرجعية ، فيما زعمته لنفسها من قوة الضغط والارهاب ، والقدرة على الحكم بالحديد والنار ... هذه الملاحظة لها أهميتها لأن الوزارات الرجعية عادة لا تعتمد على تأييد الشعب ، ولا تعتز بأى صفة غير القوة والقدرة على السيطرة على الأوضاع المختلفة داخل المجتمع ، وفرض الارهاب على الناس ... تلك هى الصفة الوحيدة التى تستطيع الحكومة الرجعية أن تزعمها لنفسها ، وعندما تصبح الحكومة غير قادرة حتى على الارهاب ، فانها تفقد أعز ما تملكه وأغلى ما تفخر به . وقد حرص العقاد على الخروج بهذا المعنى ، وحرص على أن يطعن الوزارة الرجعية من خلال هذا الضعف الظاهر .

وقد حرص العقاد على تكرار هذه الملاحظة ، ضد حكومة الانقلاب الثانى على دستور ١٩٢٣ ، وهى حكومة محمد محمود كما سيأتى بعد قليل ، لقد حرص العقاد على أن يفضح الحكومات الرجعية ، ويجردها مما تدعيه لنفسها من انها حكومات أرهاب ، ويد قوية ، وقدرة ادارية على ضبط الأمن ، وإسكات كل صوت فى البلاد يمكن ان يرتفع بغير ما تريده مثل هذه الحكومات .

وقد إعلن العقاد فى ختام مقاله السابق تحديه لوزارة أحمد زيور :

« هل تجسر الوزارة على تحكيم الأمة على خلافها هذا مع نواب البلاد ؟ بل هل تجسر على تقديم النواب الى القضاء لمحاكمتهم على ذلك الاجتماع الذى تزعم انه اجتماع غير مشروع ؟ هل تجسر على ذلك ؟ اننا نتحداها بأصرح عبارة ، فهل تقدر على أن تجيب ؟ أنها لن تجيب ، ولن تقدر ، ولن تنال من النواب منالا بيد الأمة ولا بيد القضاء » .

وقد أثمرت المعارضة الشعبية ، بما فيها حملة العقاد العنيفة ضد وزارة احمد زيور ، فاستقالت فى ٧ يونيو سنة ١٩٢٦ ، وتم اجراء انتخابات حرة جاء بعدها سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، كما قام عدلى بتأليف الوزارة التى كانت وزارة ائتلافية ، وكان سعد زغلول هو الذى اختار عدلى لرئاسة الوزارة ، وذلك فى محاولة منه لعدم الاصطدام المباشر بالانجليز ، أو بالملك فؤاد ، وكان الانجليز والملك يخشون من التعامل مع سعد زغلول كرئيس للوزراء .

وهكذا انتصرت القوى الوطنية والديمقراطية فى تلك المعركة العنيفة ضد أول انقلاب على دستور ١٩٢٣ ، وكان للعقاد فى هذه المعركة دور بارز ، ومساهمة واسعة وواعية ، فقد استطاع بقلمه الثائر آنذاك ، ان يفضح وزارة زيور الرجعية ، وأن يفضح أهدافها ورجالها ، وأن يشن على هذه الوزارة حملة متصلة جندت الرأى فى مصر ضدها ، وجعلت النصر من نصيب القوى الوطنية والديمقراطية .

على ان الملك والانجليز لم يهدأ لهما بال ، فظلا يتآمران على الدستور ، وعلى الديمقراطية فى البلاد ، حتى كانت سنة ١٩٢٨ ، فوقع الانقلاب الجديد على الدستور ، وكانت الاداة فى هذه المرة هى حزب « الاحرار الدستوريين » ، الذى اعتمد عليه الملك والانجليز من قبل ، وعرفوا فيه الاستعداد لخدمة السراى والانجليز مقابل الوصول الى الحكم والسلطة ، على حساب حق الشعب فى الدستور والحرية .

وقد بدأ الانقلاب الثانى ضد الدستور فى يونيو سنة ١٩٢٨ ، عندما استقال محمد محمود من وزارة النحاس الائتلافية ، التى كانت قائمة فى ذلك الحين ، ثم

انتهى الأمر بتأليف محمد محمود للوزارة ، فى ٢٧ يونيه سنة ١٩٢٨ ... يقول عبد الرحمن الرافعي فى كتابه « فى أعقاب الثورة المصرية الجزء الثانى ص ٤٥ » عن هذا الانقلاب الجديد ضد الدستور :

« بدأ الائتلاف يتعثر فى سيره فى عهد وزارة النحاس الأولى ، ذلك ان ثمة اتفاقا قد انعقد بين دار المندوب السامى البريطانى ، وحزب الاحرار الدستوريين والسراى ، على تعطيل الدستور » وكانت وجهة نظر السراى كما يقول الرافعى « أن الدستور يحول دون تدخلها فى الحكم ، وانفرادها به ، فكانت تترقب الفرص لتعطيله ، وكانت تعلم ان الحكومة البريطانية ، لا تعترض على اى انقلاب يدبر ضد الدستور ، أما « الاحرار الدستوريون » فهدفهم الوحيد ، هو الوزارة والمناصب ، واذا رأوا أنهم لا يصلون الى احتكار هذه المناصب ، وإرضاء جميع أعضاء حزبهم من طريق الدستور ، فليصلوا اليها عن طريق تعطيل الدستور ، وفى الحق انهم أسرفوا فى أطماعهم غاية الاسراف ، لأنهم كانوا مشتركين فعلا فى وزارة النحاس ، ولهم فيها أربعة مقاعد ، فماذا كانوا يبغون اكثر من ذلك ؟ ولكنها الاطماع الشخصية ، لا تقف بهم عند حد ، وهكذا كان تاريخهم القديم والحديث » .

ويقول الرافعى بعد ذلك فى نفس الكتاب « فى اعقاب الثورة المصرية الجزء الثانى ص ٤٩ » :

« كان حزب الاحرار الدستوريين هو محور هذا الانقلاب ، وان المرء لتأخذه الدهشة من ان حزبا لم يكن له فى البرلمان سوى ثلاثين نائبا ، على اكثر تقدير ، من مجموع ٢١٤ نائبا ، يستأثر بالحكم ، غير مكترث للأوضاع الدستورية ، ولا لارادة الأمة ، وتزداد دهشته اذا لاحظ ان الثلاثين مقعدا التى كانت لهذا الحزب ، لم ينل معظمها الا بسبب الائتلاف اذ لم ينل فى انتخابات سنة ١٩٢٤ سوى ستة مقاعد » .

« ولا شك ان اعتزام هذا الحزب الاستئثار بالحكم ، باشتراكه مع الاتحاديين الذين كان يخاصمهم من قبل ، معناه أنه يضمر تعطيل الحياة الدستورية ، لأن الدستور يتنافى مع تولى الحكم اقلية ضئيلة لا تتمتع بثقة الامة ، وقد ظهر فى

الافق من اقالة الوزارة البرلمانية أن الحياة الدستورية ستلغى أو تعطل ، وهذا ماوقع فعلا ، وهكذا عاد حزب « الاحرار الدستوريين » الى خطتهم الاساسية فى الاعتداء على الدستور للوصول الى الوزارة ، وكان اعتداؤهم الأول فى أواخر سنة ١٩٢٤ ، واتضح أن تظاهرهم بالتوبة من هذا الوزر فى سنة ١٩٢٥ ، لم يكن الا لأنهم طردوا من الحكم وقتئذ ، ولم تكن توبة نصوحا ، فانهم عادوا الى فعلتهم الأولى ، لكى يستأثروا بالحكم ويقتسموا مغانمه » .

هذا هو ما كتبه الرافعى عن الانقلاب الثانى ضد دستور ١٩٢٣ ، وهو الانقلاب الذى قام به محمد محمود وحزبه ، حزب الاحرار الدستوريين . وتحليل الرافعى لهذا الانقلاب ، ولحزب الاحرار الدستوريين هو تحليل سليم ، فالحزب يتكون من مجموعة من الاقطاعيين وعدد من الرأسماليين ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وهؤلاء جميعا يمثلون بحكم مصالحهم موقفا معاديا للشعب ، ومعاديا للحرية والديمقراطية ، ففى ظل حكومة شعبية منتخبة من الجماهير تستطيع هذه الجماهير أن تعبر عن مشاكلها فى داخل البرلمان ، وأن تسعى لنيل حقوقها الاقتصادية والسياسية ، وكل ما تناله الجماهير الشعبية من تقدم ، وكل ما تحققه لمصلحتها من قوانين وانجازات مختلفة هو ضد مصالح الاقطاعيين والرأسماليين الذين يريدون الاستئثار بالسلطة بعيدا عن أى رقابة شعبية ، حتى تزيد ثرواتهم على حساب طبقات الشعب الأخرى .

وقد واصل العقاد فى تلك الأعوام المجيدة من حياته السياسية ، حملاته على الرجعية ، على الاقطاعيين والرأسماليين ومن ورائهم الملك والانجليز . وقد وقف العقاد ضد محمد محمود وحكومته الرجعية ، موقفا فى غاية القوة والصلابة والحدة .

بدأ محمد محمود حكومته سنة ١٩٢٨ بالطعن فى شعب مصر ، وبالطعن فى أحقية هذا الشعب للحرية والدستور ، واعتبر أن البرلمان فى حالته الحاضرة ، لا يعين على الوصول الى الحالة الطبيعية التى تتوق اليها البلاد وأصدر بالفعل قرارا بحل البرلمان ، وشن حربا عنيفة على الصحافة ، وسمى حكومته باسم « حكومة اليد الحديدية » وأطلق يد الملك فى التصرف فى كل شىء فى البلاد ، فأصبح الملك حاكما مستبدا لا يعارضه أحد .

وتصدى العقاد للحكومة الرجعية ، يحاربها ويهاجمها بمنتهى العنف والقوة .

كتب فى « كوكب الشرق » مقالا بعنوان « مجنون فى يده سيف » يقول :

« فلأجل أن تصبح مصر مستعمرة بريطانية ، قام محمد محمود فى الحكم ، وافترى على المصريين ما افتراه من الكذب والتشهير . ولأجل أن تصبح مصر مستعمرة بريطانية صنعوا كل ما صنعوه » (١) .

وكتب مقالا آخر فى « البلاغ » بعنوان « يد من حديد فى ذراع من جريد » وقد جرى عنوان هذا المقال على ألسنة الجماهير مجرى الأمثال ، وجعل من وزارة محمد محمود موضوعا للسخرية والتهكم لدى المواطنين ... يقول العقاد فى هذا المقال :

« خطيب بلا هوادة ... ! ومن هو الخطيب ؟ هو محمد محمود العيى الألكن ، المنكر الصوت ، المسلوخ المخارج كأنه عجائز الجوارى ينشزن فى محافل الزار ، هذا هو خطيب الوفود ، ورب الجنود ، والضارب على الدنيا فى غير هوادة بلسان من قصدير ويد من حديد » .

« وقف بين وفد قنا فتكلم ، وبين وفد أبى تيج فتكلم ، وبين وفد الجيزة فتكلم . وكان كلامه كله انه لا يهاود ، وأنه سيضرب بيد من حديد ! وما علمناه يملك الا تلك اليد التى تمتد فى الظلام ، الى اختلاس منصب ليس له باهل ، ولا هو من المؤتمنين عليه .. فلو صح القول لكان أحرى به أن يقول : انه سيضرب بيد من « ذهب » فانها أليق بالذين يتسللون فى الخفاء ، لاغتصاب ما لم ينالوه من طريق القانون والدستور والخلق الكريم » .

« خاطب المحافظين والمديرين فقال لهم : انـه أمر بـأن يعطوا من السلطة والنفوذ ، ما يسهل عليهم اداء مهمتهم على الوجه الأكمل ، فأما اللسان الذى يقول هذا فقد عرفناه ، فهو لسان الانجليز الذين طالما عطفوا وذابوا عطفا وحنانا على السلطة التنفيذية ، ورثوا لها رثاء الثكلى حين سلب البرلمان سلطتها وجردها من القوة الباطشة التى يريدونها لها ولا يريدونها للبرلمان » .

---

١ ــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٧٦ .

« هذا هو اللسان . وأما اليد الباطشة الجبارة فلمن تكون ؟ يد الحديد نعنى ونسأل :

لمن تكون هذه اليد المستعارة فى ذراع محمد محمود ؟ »

« للانجليز ان شاء الباشا ، وهو لابد يشاء هذه السمعة ، لانه يريد الارهاب ، والناس لا يرهبونه ، وهو اعزل من قوة الأمة ، ومن قوة الشخصية ، ومن قوة الانجليز » .

« ولكن الانجليز لا يركبون يدهم الحديد فى ذراع من جريد ... فلا نظنها الا يدا ستبتر عما قريب »[1] .

وكما فعل نواب الأمة فى وزارة احمد زيور .. وزارة الانقلاب الأول على الدستور ، حيث اجتمعوا برئاسة سعد زغلول فى فندق الكونتننتال ، بعد ان منعتهم الحكومة من الاجتماع تحت قبة البرلمان ، فعل نواب الأمة نفس الشيء مع وزارة محمد محمود ، فقد حلت الوزارة البرلمان ، ومنعته بالقوة من الاجتماع تحت قبة البرلمان ، وقرر النواب ان يجتمعوا فى بيت أحدهم ، وهو بيت مراد الشريعى بشارع محمد على ، فى الساعة السادسة من مساء السبت ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٨ ، وفى هذا الاجتماع الذى عقد رغم أنف الحكومة ، وبدون أن تعرف الحكومة موعده ولا مكانه ، قرر النواب « ان البرلمان قائم وله حق الاجتماع ، ويقرر البرلمان ان وزارة محمد محمود ثائرة على الدستور ، ويعلن عدم الثقة بها ووجوب تخليها عن الحكم وأن كل تشريع تصدره هذه الحكومة يعتبر باطلا » .

ويعلق العقاد على هذه الحادثة الوطنية ، كما علق على الحادثة المشابهة سنة ١٩٢٥ ... يقول العقاد فى تعليقه الجديد :

« ظلت اليد الحديدية تنفتح وتنقبض ، وتنقبض وتنفتح سحابة يوم أمس ... ولعلها لا تزال منفتحة منقبضة الى هذه الساعة ، لتقبض على الشيوخ والنواب ، قبل أن يجتمعوا حيث ارادوا الاجتماع ... هذا ان لم يكن بلغها من ملحق « البلاغ » انهم قد اجتمعوا وانفضوا ، وأصدروا ما اصدروا من القرارات ، فيكون للبلاغ فضل عليهم ، نرجو ان يذكروه بالشكران ، والا ينسوه حين

---

١ ــ المرجع السابق ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

يطبقون قانون المطبوعات ، الذى مضى عليه خمسون سنة ، وأعادوه الآن ، لأنهم يمشون بالبلد الى الأمام فى سبيل الحرية والحق » .

ثم يقول العقاد فى نفس المقال :

« مئتان بين شيوخ ونواب ، كل فرد منهم معروف ، وكل فرد منهم مراقب فى الأسبوع الأخير ، مراقب فى بلده ، مراقب فى بيته ، مراقب فى الفندق الذى ينزل فيه ، مراقب فى غدواته وروحاته ، وكل ذلك لتمنع الحكومة اجتماعا قد عرف يومه وساعته ، والمدينة التى ينعقد فيها ، ولم يبق الا أن يعرف البيت الذى ينعقد فيه ، ثم لا تنجلى هذه المراقبة كلها عن شىء ، ولا تؤخر الشيوخ والنواب دقيقة واحدة عن الساعة الموعودة ، ولا تعلم أعين الحكومة بالاجتماع الا كما علم سائر الناس غير جاهدين ولا مترقبين ... فالحق ان أعين الحكومة غير حديدة وان كانت لها يد من حديد » .

« تالله لهذه الحادثة وحدها كافية لسقوط الوزارة ، لو كان لقيام أمثال هذه الوزارة او سقوطها معيار معروف . فان وزارة من الوزارات لا يمكن ان تثبت عجزها عن التصرف ، وفشلها فى التدبير ، وجهلها بما يجرى حولها ، وغفلتها عما تهتم أشد الاهتمام بالتيقظ له ومنع وقوعه ، بأظهر من هذا الدليل الذى قضى عليها كل قضاء » .

ثم يسخر العقاد بعد ذلك من محمد محمود فيقول فى نفس المقال :

« ها انت تطلع على مسرح الدكتاتورية بعد مصطفى كمال وموسولينى فيتلقى الناس مطلعك الجميل بالطرب والسرور ، ويستزيدونك من هذه الفصول ، التى تنبسط لها الوجوه ، وتسرى عن النفوس ... لقد أتعبك الشيوخ والنواب فى هذه المرة وانت تعدو وراءهم ـ سامحهم الله ـ لاهثا من الحيرة وفرط الأعياء ، ففى المرة الآتية لا نراهم ينصفون اذا هم لم يطلعوك على اسم الشارع ، ورقم المنزل وعنوان البرق والبريد ، فحسبهم امتحانا ليدك الحديدية ، وسمعك المرهف ، ان يكتموا عنك مكان الحجرة التى ينتظر فيها الاجتماع ... »[1] .

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٨٣ .

وكانت حكومة محمد محمود هى فى طابعها الرئيسى ، حكومة للاقطاعيين والاعيان ، وهم الذين كانوا يسمون أنفسهم باسم « أصحاب المصالح الحقيقية » ، وقد أورد الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه الهام عن « تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ » ص ٦٨٧ فقرات من خطاب لاحمد عبد الغفار ، أحد الأعضاء البارزين فى حزب الاحرار الدستوريين ، واحد الاقطاعيين المعروفين ، وقد ألقى احمد عبد الغفار هذا الخطاب فى استقبال محمد محمود ، اثناء رياسته للوزارة سنة ١٩٢٨ عندما قام بزيارة للمنوفية ، وباعتبار احمد عبد الغفار ممثلا للمنوفية ... قال احمد عبد الغفار فى هذا الخطاب :

« اننا يا صاحب الدولة ، ويا اصحاب المعالى والسعادة ، والعزة ، نبتهج باستقبالكم ، ونرحب كل الترحيب بكم ، باعتباركم أعيان البلاد ، ووجوه ذوى الرأى والكلمة فيها ، وأقليمنا هذا والذين يرحبون بكم بنوع خاص ، يفهم حكومة الأعيان : يفهمها لان آباءهم وأجدادهم من الأعيان كانوا يفهمون حكم هذه الطائفة على وجهه الصحيح ، على انه اذا كان معنى الحكم السيادة على الناس ، فان لهذه السيادة مقابلا هو ان تكون سيادة أبوة واصلاح ، وأن تكون لمصلحة المحكومين لا لمصلحة الحاكمين . وطبيعى لهذا أن نرحب بكم أبلغ ترحيب لانكم تمثلون فى حكومتكم ما نفهمه ، وما كان يفهم آباؤنا من معانى الحكم ... »

لقد كانت حكومة محمد محمود هى حكومة الاقطاعيين والاعيان ، وكان مؤيدوها وانصارها يفخرون بهذه الصفة فيها ، كما رأينا فى حديث أحمد عبد الغفار ، وكانوا يحاولون تقديم تفسير خاص لهذه الصفة يجعل منها صفة طيبة فى المجال السياسى ، فحكم الأعيان ـ فى حساب هذا التفسير ـ هو حكم « الابوة والاصلاح » ولكن الحقيقة هو ان حكم الاعيان كان على الدوام حكما فى غير صالح الغالبية العظمى للشعب ، حيث كان هؤلاء الاعيان يفضلون التحالف مع القصر ، أو مع الانجليز ، على ان يتحالفوا مع القوى الشعبية الوطنية ، وهم اذا تحالفوا مع القوى الشعبية الوطنية لحظة فسرعان ما يتآمرون على هذا

التحالف وينسحبون منه كما فعلوا مع وزارة النحاس السابقة على قيام حكم محمد محمود .

كان العقاد منتبها أشد الانتباه ، لطبيعة حكم « محمد محمود » ، وحكم « الاحرار الدستوريين » بوجه عام ... انهم مجموعة من الاعيان والاقطاعيين ، تحالفت معهم قوى أخرى من الراسماليين . ومن الارستقراطيين أو أدعياء الارستقراطية ، ولذلك فقد حرص العقاد ، فى هذه الفترة على أن يفضح « حكم الأعيان » هذا أمام الرأى العام ، ويكشف الأصول الاجتماعية لرجال هذا الحكم ... وهى الاصول التى تؤكد انفصالهم عن الشعب .

كتب العقاد فى البلاغ فى أواخر يوليو ١٩٢٨ ، سلسلة من المقالات يكشف فيها هؤلاء الحكام ، وكان أولهم بالطبع هو محمد محمود حيث يقول العقاد عنه :

« ... نجمل تاريخ محمد محمود فى كلمة واحدة هى مفتاح حياته كلها ، وتفسير مبادئه كلها ، وعنوان ماضيه وحاضره ومستقبله ، وهى « الوظيفة » فمنذ اختار له أبوه مدارس الانجليز ، الى ان تكفل به « اللورد كرومر » فى وظائف الحكومة ، الى ان غضب عليه المستر « هينز » فعرف الوطنية واتصل بالوفد ، الى ان خذل الوفد ولحق الطائفة العدلية يوم توقع تأليف الوزارة على يدها ، الى ان خيبوا أمله فاعتصم بالائتلاف ، الى ان راح يوغر صدور النواب على ثروت باشا ، الى ما كان أخيرا من نقض الائتلاف ، وتعطيل الدستور ، وايقاع البلد فى شر محنة جناها عليها الوزراء فى تاريخها الحديث ، لا معنى لكل عمل من هذه الاعمال ، ولا غرض له ولا تفسير ولا عنوان ، الا الوظيفة ، وحب المنافسة بالالقاب ، بين اصحاب البيوتات فى الصعيد ! » .

« ومن عرف أن نفخة صاحبنا كلها لا ترجع الى شيء اكثر من ان جدا له أرتقى فى سالف الزمان ، الى درجة وكيل مديرية لم يستغرب ان يكون للقب صاحب الدولة ، ورئاسة الوزارة على عقله مثل ذلك السلطان الذى لا يغالب ، والغواية التى لا تدفع ، فهو مستضعف مغلوب على هواه ، لم تكتب له المتانة فى جسم ولا رأى ولا خلق ، ولا يد له فى الأمر الا ما يكون للمأخوذ المسحور وما هو الا المأخوذ المسحور بعينه وما نعرف له من الوصف الا انه الدكتاتور المسكين »(١) .

١ ـــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٨٤ .

فالعقاد فى حديثه عن محمد محمود ، يكشف عن نفسيته كواحد من الاعيان ، أو كما يقول العقـاد ـ من اصحاب « البيـوتات » فى الصعيـد » هؤلاء الذين يتنافسون على الالقاب والمصالح لا على خدمة القضايا والمبادىء وهؤلاء يترددون فى مـوقفهم ويتنقلون من موقف الى مـوقف ، لا لشىء الا لأنهم يجـرون وراء مصالحهم حيثما لاحت هذه المصالح ، وهم ايضا « خدام » السلطة حيثما كانت هذه السلطة ، فى يد الانجليز أو فى يد القصر . وفى مقال آخر نشره العقاد فى تلك الفترة « أول اغسطس ١٩٢٨ » يرسم العقاد صورة رائعة لأحد وزراء محمد محمود وهو الدكتور حافظ عفيفى ، وفى هذه الصورة يكشف العقاد بوضوح عن حقيقة نموذج من « أدعياء الارستقراطية » فى تلك الفترة ، وهم الذين تحالفوا منذ البداية مع الأعيان والاقطاعيين ووقفوا حياتهم على خدمتهم .

يقول العقاد عن حافظ عفيفى :

« أما حافظ عفيفى فمصيبته الكبرى انه يـدخن « البيبة » ، ويـزور نادى محمـد على ، ويتـرقق ويتخـافت فى الكـلام ، فهـو اذن جنتلمـان ! وهـو اذن ارستقراط ! وهو اذن من غير هذا الشعب الذى يـطالب بحقوق الاستقـلال ، وحقوق الدستور ... فلو كان الشعب كله أو لو كان زعماء الوفد كلهم يدخنون « البيبة » ، ويزورون نادى محمد على ، ويترققون فى الكلام ، لكانوا من طبقة حافظ عفيفى الجنتلمان الأرستقراط ، ولكن زعماء الوفد ـ أو أكثـرهم ـ طبقة أخرى من طراز ابراهام لنكولن لا من طراز الظرفاء الارقاء . لايفهمون الرشاقه! لا يفهمون الاناقة ! لا يفهمون التأنث ! لا يفهمون الاندية والسهرات ! فاذا كان التاريخ قد أخطأ مرة فى تقدير إبراهام لنكولن وزملائه ، فحسبه هذا الخطأ فى القارة الأمريكية ، ولا ينبغى أن يتكرر خطؤه فى مصر مرة أخرى ، فيتقلد الزعامة أناس لا يدخنـون « البيبة » ، ولا يختلفـون الى نادى محمـد على ... ويحـرم الزعامة أناس يدخنونها ، ويجلسون هناك مع عدلى يكن وانداده ليتحدثوا كما يتحدث ندمان هذه الطبقات ! » .

« يمينا لو صدر قانون بتحريم تدخين البيبة ، والتأنث فى الكلام ، والجلوس فى النادى ، لرجع حافظ عفيفى فى اليوم التالى الى الشعب ، وآمن بحقه فى الدستور ،

أو لرجع الى الأيام التى كان يجوب فيها صحراء طرابلس ، من قلة العمل فى القاهرة ، ولا جنتلمانية ولا أرستقراطية ولا تأنث ! ... ولكن هذا القانون لم يصدر ، وتكاليف الجنتلمانية أخف من تكاليف الجهاد ، فالشعب اذن حقير وحافظ عفيفى رجل ممتاز » .

ورغم ما فى كلمات العقاد من سخرية لاذعة ، وهجاء مر لحافظ عفيفى ، الا أن هذه الكلمات تكشف عن فئة كاملة من أدعياء الارستقراطية بالحق والباطل ، كان عملها على مسرح السياسة المصرية ، هو التآمر على الشعب ومعاونة غيرهم من المتآمرين عليه ، وكانت نفسية هؤلاء جميعا هى نفسية التعالى على الشعب ، وعدم الولاء له ، والاعتزاز بالانتماء الى أوساط أجنبية فى لغتها وعواطفها ومصالحها . وقد لعبت هذه الفئة دورا سيئا فى السياسة المصرية فى شتى المراحل ، وكان على رأسها حافظ عفيفى ، كما كان من بين هذه الفئة حسن نشأت الذى ظهر قبل حافظ عفيفى ، وكان المهندس الأكبر لمؤامرات الملك فؤاد على الشعب ، وكان من بين هذه الفئة أيضا أمين يوسف وعبد الفتاح عمرو وغيرهما من أدعياء الارستقراطية فى سائر مراحل الحياة السياسية فى مصر المعاصرة . لقد كان ولاء هذه الفئة للانجليز والقصر والاقطاعيين والراسماليين اكثر من ولائهم للشعب ومصالحه .

واذا كان العقاد قد هاجم الأعيان والاقطاعيين ممثلين فى محمد محمود ، وهاجم أدعياء الارستقراطية والمتفرنجين ممثلين فى حافظ عفيفى ، فانه قد شن هجومه على الرأسماليين ممثلين فى اسماعيل صدقى ، وبذلك يكون العقاد قد كشف التحالف الذى قام بين هؤلاء جميعا ... وهو تحالف رجعى ، هدفه القضاء على الحرية والديمقراطية ، وضرب المصالح الوطنية والشعبية ، بالتحالف مع الانجليز والقصر .

عندما أنشأت وزارة محمد محمود فى أواخر سنة١٩٢٨ ، ديوان المحاسبة واختارت اسماعيل صدقى رئيسا لهذا الديوان بدرجة وزير ، كتب العقاد مقالا بعنوان « المحتسب الأعظم اسماعيل صدقى باشا » « البلاغ ١٤ سبتمبر ١٩٢٨ » ... وفى هذا المقال يقوم العقاد بعملية تشريح قاسية وصريحة

لاسماعيل صدقى ، كنموذج للرأسماليين المتحالفين مع الاعيان ، وأدعياء الارستقراطية فى التآمر على الشعب . وبهذا التشريح يكون العقاد قد كشف فى الضوء الساطع كل جوانب حركة محمد محمود الرجعية سنة ١٩٢٨ أمام الشعب وأمام التاريخ ... بحيث تبدو مقالات العقاد فى هذه الفترة صفحة مضيئة فى تاريخه النضالى ضد الرجعية المصرية ، وهى صفحة تتميز بالحرارة والاصالة وقوة التعبير ، مما أتاح لها تأثيرا شعبيا واسعا على الرأى العام ، كما ان هذه الصفحة تتميز بوضوح الفكر وعمقه وصحة الفهم للعناصر الثلاثة الرئيسية التى يتكون منها الحلف الرجعى الذى تآمر على مصر فى تلك الأيام .

وعناصر هذا الحلف هم ، أولا : الأعيان أو الاقطاعيون ، ثانيا : الارستقراطيون والمتفرنجون أدعياء الارستقراطية ، وثالثا : الرأسماليون .

يقول العقاد فى مقاله عن اسماعيل صدقى النموذج المثالى للرأسمالى فى التحالف الرجعى الكبير ، وذلك تعليقا على تعيين اسماعيل صدقى رئيسا لديوان المحاسبة بقرارا من حكومة محمد محمود سنة ١٩٢٨ :

« ... ما معنى تعيين اسماعيل صدقى باشا لهذا المنصب الذى جعله البرلمان وسيلة للاشراف على تنفيذ مقترحاته ورغباته ، ولم يجعله عبثا لارضاء شهوات المناصب واتقاء عداوات الخصوم ؟ ما معنى اختيار اسماعيل صدقى لهذا المنصب فى عهد وزارة يرأسها محمد محمود ؟ معناه الذى يجب أن يكون هو أن محمدا محمودا يقول لاسماعيل صدقى فى العلانية : « يا اسماعيل باشا ! انت رجل عفيف طاهر الذيل ، نقى السمعة معروف بالرغبة فى الأعمال المالية التى تجرب فيها قدرتك ، وتشبع فيها ميولك وتكون فيها مثالا يقتدى به فى النزاهة والاخلاص وصدق النية والاستقامة ، فها نحن نعطيك هذه الفرصة السعيدة لتجرب فيها قدرتك وتشبع فيها ميولك ، وتكون فيها مثلا يقتدى به فى النزاهة والاخلاص وصدق النية والاستقامة . فها نحن نعطيك هذه الفرصة السعيدة لتجرب فيها من نزاهتك وأمانتك ما هو مشهور ومعلوم ومعروف ومفهوم ... هذا معناه الذى يقوله محمد محمود فى العلانية ... أما المعنى الذى لا يقوله فهو : « انك يا صاح خطر علينا وأنت بعيد عنا ، فتعال معنا الى الحظيرة ، لنخربها على رأسك اذا خطر لك ان تخربها على رؤوسنا فى يوم من الأيام .. » »

« ولماذا تخربها وتفكر فى خرابها وها أنت فى هذا المنصب السرى تفعل ما تشتهى وتبلغ ما تروم ! كذلك يقول محمد محمود فى الجهر والخفاء » وأنه لقول جدير بوزارة الاخلاق وحرى بالقوم الذين نقضوا دستور أمة لأنهم قوم مصلحون لا لأنهم طلاب منفعة منهومون بتوزيع المناصب وتقسيم أسلاب الوظائف » .

« اننا نقول مع محمد محمود كل ما يريد أن يقول فى اسماعيل صدقى ... نقول انه رجل أمين عفيف ، ورجل طاهر السمعة شريف ، ورجل قدير فى تناول المسائل المالية ، خبير بتدبير الصفقات الاقتصادية ، كل ذلك نقوله وننادى به ونضيف اليه من عندنا سطرا آخر على سبيل العلاوة والتوكيد ، وهو ان اسماعيل صدقى لا يبالى بمصلحته فى خدمة المصلحة العامة ، ولا يفعل الا ما هو جميل وكريم » .

« ذلك مقرر محقق لا ريب فيه ولا جدال ، ولا خلاف ولا مراء ، ولكن مقرر محقق لا ريب فيه ايضا ولا جدال ولا خلاف ولا مراء ان اسماعيل صدقى مستشار لشركات الدخان .

وأن اسماعيل صدقى رئيس أو مدير لشركة احتكار الأدوية .

وان اسماعيل صدقى مستشار لشركة السيارات المعروفة باسم شفروليه .

وأن اسماعيل صدقى له علاقات مالية بكثير من المشروعات والشركات الاقتصادية وان اسماعيل صدقى عضو فى مجلس الادارة ببعض المصارف المشهورة » .

« فاسماعيل صدقى هذا ليس بالرجل الذى تسند اليه الرقابة على مصروفات الحكومة واعتماداتها لأن صاحب هذا المنصب يجب ان يكون بمعزل عن جميع العلاقات المالية ، وأن تطمئن الشركات جميعها اليه وتعتقد ان علاقاتها معه قائمة على اساس المساواة فى كل شىء » .

هذه هى خلاصة موقف العقاد فى « العشرينات » اى منذ قيام ثورة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٠ .

لقد وقف العقاد الى جانب الوفد وسعد زغلول والنحاس من بعده وقفة صلبة

قوية ، وكان جوهر موقفه الرئيسى هو الدفاع عن الدستور والحرية ضد الانجليز والقصر ، كما كان العقاد فى تلك الفترة خصما عنيدا للرجعية ، وخاصة فى معناها « السياسى » حيث حاولت الرجعية مرتين فى « العشرينات » ، تعطيل الدستور وفرض حكم استبدادى على الشعب ... المرة الأولى على يد احمد زيور ، والثانية على يد محمد محمود ، ولم يكن هجوم العقاد على الرجعية هادئا ، بل كان عنيفا وقاسيا وكان نوعا من التشهير بالرجعية وفضحها أمام الجماهير والرأى العام .

وكانت كتابات العقاد فى تلك الفترة ، تعبيرا صادقا عن الثورة الوطنية فى مصر ، تلك الثورة التى قامت تحت قيادة الطبقة الوسطى « البورجوازية » من الطلبة والمحامين والأطباء والتجار ، وكان الهدف الأول لهذه الثورة الوطنية هو التخلص من الاحتلال الانجليزى بجلاء قواته عن الأراضى المصرية ، وتدعيم الديمقراطية البرلمانية حتى يختار الشعب ممثليه فى البرلمان بحرية حقيقية دون ضغط أو أرهاب .

وفى هذه الحدود كان العقاد يعمل بكل ما لديه من قدرة وموهبة وذكاء وثقافة ومثابرة للتعبير عن هذين الهدفين والدفاع عنهما بقوة وحرارة . ولعل هذا الاندفاع فى التعبير عن الهدفين الرئيسيين للثورة الوطنية « الجلاء والدستور » هو الذى لم يترك للعقاد فرصة لاكتشاف بعض الاخطاء الرئيسية فى دستور ١٩٢٣ ، هذا الدستور الذى قال عنه نهرو فى كتابه « لمحات من تاريخ العالم ص ٢٩٣ ـ الترجمة العربية » :

« أهدى لمصر « المستقلة » دستور لا يشبهه دستور آخر فى الرجعية ، وهو دستور أعطى الملك فؤاد ، ذلك الحاكم الذى فرضه الانجليز على المصريين صلاحيات واسعة جدا » وهذه النقطة التى أشار اليها نهرو ، هى نفسها التى أنتقدها سعد زغلول فى حديث له حيث قال : « اذا كان من الخطر أن توضع سلطة كبيرة فى أيدى الملوك ، الذين هم بمعزل عن نفوذ أجنبى ... فالخطر من ذلك أعظم وأشد ، فى بلاد يسود فيها النفوذ الاجنبى ، ويدعى ان العرش فى سلامته بفضل جنوده ... فهذه القوة التى تركت للملك ، ستصبح فى الواقع حقوقا فى يد الاجنبى ، يستعملها لاغراضه ضد مصالح الوطن » ... لم يلتفت

العقاد لمثل هذه الاخطاء فى الدستور ولم ينبه اليها ، ولعل موقفه فى ذلك الحين كان متأثرا بموقف الوفد الذى قبل دستور١٩٢٣ فى آخر الأمر رغم عيوبه ، ورغم ما فيه من نصوص رجعية ، ذلك لأن الدستور كان يسمح من الناحية العملية بأن يعبر الشعب عن رأيه ، وينتخب ممثليه فى البرلمان ، رغم القيود الموضوعة على هذه الانتخابات ، وقد أثبتت التجربة أن اللحظات القليلة ، التى التزمت فيها الحياة السياسية بالدستور ، كانت هى اللحظات التى يصل فيها حزب الوفد وهو حزب الاغلبية الشعبية الى السلطة ، وفى هذه اللحظات كانت الهزيمة تحل بالانجليز وبالقصر على السواء .

على ان الباحثين التقدميين المعاصرين ، قد لاحظوا الموقف الرجعى لدستور ١٩٢٣ من الناحية الاجتماعية، وهى ملاحظة لم يلتفت اليها العقاد فى تلك الفترة ، وقد نص دستور ١٩٢٣ فى مادته التاسعة على « ان الملكية ، حرمة ، فلا ينزع من احد ملكه الا بسبب المنفعة العامة ، فى الاحوال المبينة فى القانون ، وبالكيفية المنصوص عليها فيه ، وبشرط تعويضه عنها تعويضا عادلا » ، كما أشترط الدستور على من يرشح نفسه للانتخابات ان يدفع ١٥٠ جنيها . ويعلق الدكتور عبد العظيم رمضان على النص الخاص بالملكية الفردية قائلا : « بهذه المادة ضمنت طبقة كبار الملاك الزراعيين ، والرأسماليين الاحتفاظ بممتلكاتها ، وعدم محاولة نزعها منهم لاعادة توزيع الملكية الزراعية بصورة عادلة . وأصبحت أى دعوة لمثل هذا الاجراء الأخير جريمة يعاقب عليها القانون . وبهذا أيضا أصبح من المتيسر استخدام الدستور وسيلة لمناهضة الدعوات ، التى قد تنادى بتأميم الخدمات العامة ، وكذلك الصناعات الاحتكارية ، التى تهدد مصالح الجماهير » .

« ومعنى هذا ان الحرية السياسية التى كفلها الدستور لجميع المصريين ، قد اصبحت من جهة الحقيقة والواقع ، قاصرة على الطبقة البرجوازية ، والكبيرة منها على وجه الخصوص . فباحتفاظ كبار الملاك الزراعيين والرأسماليين بثرواتهم ، صار فى مستطاعهم ، بفضل ما يتمتعون به فى الريف ، من نفوذ اقتصادى واجتماعى ، ان يدفعوا بأنفسهم وأنصارهم الى البرلمان ، وأن

يسيطروا على الاحزاب التى يغذونها بالأموال ، وبالتالى على الاداة التنفيذية . وهكذا يكفلون حماية مصالحهم . وبمعنى آخر ان الديمقراطية التى اقامها دستور ١٩٢٣ ، لم تكن فى حقيقتها الا دكتاتورية البرجوازية الكبيرة ، وقد اكد الدستور هذه الحقيقة ، عندما اشترط على من يرشح نفسه للبرلمان ، دفع تأمين قيمته ١٥٠ جنيها ، وهو تأمين باهظ ، كفيل وحده بصد الطبقات الجماهيرية العاملة ، عن الاقتراب من مقاعد البرلمان . فاذا أضفنا الى ذلك عجز تلك الطبقات عن تحمل نفقات المعارك الانتخابية فى ذلك العهد ، أدركنا سبب عدم دخول اى فلاح أو عامل ، مجلس النواب المصرى حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو »(١) .

لم يلتفت العقاد اذن الى جوانب الضعف المختلفة فى دستور ١٩٢٣ ، وقد كان العقاد فى هذا الموقف يعبر عن التيار الرئيسى فى الحركة الثورية المصرية فى ذلك الحين ، وهو التيار ألذى مثله حزب الوفد خير تمثيل ، فقد كانت الأهداف الرئيسية أمام هذا التيار الوطنى الجارف ، تتركز فى تحرير البلاد من الاحتلال الأنجليزى ، وهو مطلب أساسى وضرورى ، حتى بالنسبة لدعاة الثورة الاجتماعية ، فالاحتلال هو السند القوى للاقطاعيين والراسماليين وسائر فئات الرجعية المحلية ، ولا يمكن التفكير فى اصلاحات اجتماعية حقيقية دون القضاء على الاحتلال ، ومن هنا التفت الجماهير الشعبية ، من الفلاحين والعمال والطبقة الوسطى حول زعامة سعد زغلول والوفد المصرى ، فقد أدركت هذه الجماهير ، انه لا خلاص لها مع وجود الاحتلال ، ولا أمل أمامها فى تحقيق أهدافها فى الثورة الاجتماعية ، والانتصار على الرجعية ، الا بضرب الاحتلال وتحقيق الجلاء . فالانجليز هم السند الأكبر للرجعية فى كل المجالات والظروف .

وهذه المعركة الوطنية التى خاضتها مصر بقيادة سعد زغلول والوفد المصرى ، والتى عبر عنها العقاد خير تعبير فى « العشرينات » ، هى التى تفسر لنا ما يقوله نهرو عن حزب الوفد ، فى كتابه « لمحات من تاريخ العالم » :

« كانت حركة الوفد حركة وطنية بورجوازية ، كانت تناضل فى سبيل الاستقلال ، ولم تتدخل فى الاصلاحات الاجتماعية . وعندما كان البرلمان ينعقد ،

---

١ ــ عبد العظيم رمضان ــ تطور الحركة الوطنية فى مصر ص ٢٩٣ .

كانت تعمل اعمالا طيبة فى حقل التعليم وغيره من الحقول . والحقيقة أن البرلمان قد عمل فى فترة وجيزة ، اكثر مما عملت الادارة الانجليزية خلال الاربعين سنة السابقة ، برغم انشغاله فى الكفاح الوطنى . وقد ظهرت شعبية الوفد فى الانتخابات والمظاهرات ، ومع ذلك فان حركته التى تمثل الطبقة الوسطى ، لم تستطع اثارة حماس جماهير الشعب الى الحد الذى تستطيعه حركة تهدف لاصلاحات اجتماعية واسعة » ... هذا هو ما كتبه نهرو عن حركة الوفد فى العشرينات والثلاثينات ، ولا شك ان الفكر الاجتماعى قد بدأ يترك تأثيره على حركة الوفد فى الاربعينات ، اى بعد ان كتب نهرو كتابه ، وذلك على يد المثقفين الاشتراكيين ، من أمثال محمد مندور وعزيز فهمى . ولكن الطابع الرئيسى لحركة الوفد ، بقى كما يقول نهرو فى نطاق النضال « الوطنى السياسى » ، بعيدا عن المطالبة باصلاحات اجتماعية ذات طابع ثورى ، كالدعوة الى تحديد الملكية ، أو الدعوة الى تأميم الخدمات العامة مثل الطب وغيره ، ومع ذلك فالدور الذى قام به الوفد فى قيادة الثورة الوطنية ، كان دورا رئيسيا ، بل كان هو الدور الرئيسى فى مجال الحركة الوطنية ما بين ١٩١٩ و١٩٥٢ .

فى هذا الاطار وفى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٣٠ ، كان العقاد يتحرك بفكره السياسى ، فقد كان يحارب بقوة من اجل الاستقلال والحرية ، ولكنه لم يلتفت للمعركة الاجتماعية ، ولم ينتبه للنصوص التى تقيد الثورة الاجتماعية فى دستور ١٩٢٣ ، ولم يكن عدم التفات العقاد فى تلك الفترة للقضية الاجتماعية بأمر ذى بال ، فقد كانت القضية الرئيسية للشعب هى قضية التحرير الوطنى أولا وقبل كل شىء ، وكان العقاد فى ميدان الكفاح الوطنى ، يقف على أقصى بعد من أبعاد اليسار والتطرف الذى لا يعرف المساومة والاعتدال . ولكن المشكلة هى أن عدم رؤية العقاد للبعد الاجتماعى فى ذلك الحين. كان جرثومة كامنة فى تكوينه الفكرى ، أثرت عليه بعد ذلك وفى الأربعينات على وجه الخصوص ، عندما ظهرت القضية الاجتماعية على سطح الحياة السياسية المصرية بقوة ... لقد كانت هذه الجرثومة القديمة الكامنة فى فكر العقاد ، وهى عدم رؤيته الواضحة للعنصر الاجتماعى ، الموجود فى الصراع السياسى ، هى التى ساهمت فى ان تدفعه فى القسم الثانى من حياته الى الوقوف بجانب الرجعية ، ومساندتها والدفاع عنها ،

ومحاربة شتى ألوان الفكر اليسارى ، بعد أن كان العقاد من أعنف أعداء الرجعية ، وأشدهم خصومة لها فى العشرينات ، والنصف الأول من الثلاثينات ، وعندما كانت المعركة هى معركة الجلاء والدستور ، أما عندما أصبحت معركة الشعب فى الاربعينات ، هى معركة العدالة الاجتماعية ، وتحقيق مطالب الجماهير العشبية ، فى الخبز والتعليم والعلاج ، فقد انتقل العقاد كما سنرى فى القسم الثانى من حياته ، الى صفوف الرجعيين بعد ان كان فى طليعة الثوار .

على ان العقاد فى تلك الفترة الأولى من حياته السياسية ، فترة ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، يقدم ولا شك نموذجا رائعا للكاتب الوطنى الثورى الحر ، المدافع عن حقوق الشعب ، ولم تكن المطالب والأهداف الاجتماعية واضحة أمام الثورة الوطنية فى ذلك الحين ، لأن هدفها الأكبر ، وهو القضاء على الاحتلال واقرار الدستور وحمايته ، قد غطى على جميع الاهداف الاخرى ، حيث ان تحقيق الجلاء ، وحماية الدستور ، كان شرطا أساسيا سابقا على أى حركة اخرى الى الامام .

أعنف معارك العقاد
ضد الرجعية سنة ١٩٣٠

كانت سنة ١٩٣٠ فى حياة العقاد السياسية سنة صعبة وقاسية ، ولكنها كانت سنة مليئة بالنضال ، ولعل هذه السنة بالذات ، أن تكون اكثر السنوات فى تاريخ العقاد السياسى كله اشراقا ، وامتلاء بالمواقف العنيدة والصلبة ، وقد انتهت هذه السنة بدخول العقاد السجن ، بعد الحكم عليه بتسعة اشهر ، عقابا له من جانب الملك والرجعية على مواقفه الشجاعة .

فى يناير سنة ١٩٣٠ تولى مصطفى النحاس الحكم ، بعد سقوط حكومة محمد محمود ، وبعد انتخابات حرة أجراها عدلى يكن ، وكان من نتيجتها فوز الوفد بالأغلبية الساحقة فى البرلمان ، وكان العقاد احد الذين نجحوا فى الانتخابات ، حيث دخل البرلمان كنائب وفدى . ولكن الملك فؤاد لم يهدأ له بال ، بقيام هذه الوزارة الشعبية المؤيدة بأغلبية برلمانية ساحقة ، وأخذ الملك يتآمر على الوزارة ، حتى انتهى به الأمر فى شهر يونيو من نفس العام ، أئ بعد ستة اشهر فقط من قيام هذه الوزارة ، الى تعطيل مشروعات القوانين ، التى كانت الوزارة تقدمها الى الملك لتوقيعها ، واصبح عمل الوزارة مستحيلا ، فقدم النحاس استقالتـه الى الملك وقال فى هذه الاستقالة : انه يتقـدم بها « نـظرا لعدم تمكننـا من تنفيذ برنامجنا ، الذى قطعنا على أنفسنا العهد بتنفيذه » ، وفى يوم تقديم الاستقالة وهو يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ ، حضر النحاس جلسة مجلس النواب المنعقدة فى

ذلك اليوم نفسه ، وأعلن تقديمه للاستقالة لانه لم يستطع ان يحقق أهداف هذه الوزارة ، فى « صيانة أحكام الدستور ، وإحاطته بسياج من التشريع ، يكفل له حياة متصلة ونموا مطردا » . وغادر النحاس مجلس النواب ومعه وزراؤه بعد ان ألقى بيانه ، وهنا وقف الدكتور أحمد ماهر وقال للنواب : « ... لقد سمعتم بيان حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء فيجب أن تسمع الأمة صوتكم اليوم ، نعم يجب أن تسمع البلاد تأييدكم لصاحب الدولة الرئيس ، فى موقفه المشرف ، الذى يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية ، وعن النظام الدستورى للبلاد » ... وقوبلت كلمة أحمد ماهر بالتأييد والحماس ، وأعلن مجلس النواب الثقة بالوزارة ، وفى هذه الجلسة نفسها ، وفى جو من الحماس الذى أثارته كلمة الدكتور أحمد ماهر ، وقف العقاد فى مجلس النواب ليقول :

« ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق اكبر رأس فى البلاد ، فى سبيل صيانة الدستور وحمايته » وأحس أحمد ماهر بخطورة هذه العبارة ، وأحس بمسئوليته عن الهاب حماس النواب فوقف قائلا : « ما هذا ياأستاذ عباس انا لا اسمح بمثل هذا الكلام » .

وطلب أحمد ماهر حذف هذه العبارة من مضبطة الجلسة . وحذفت العبارة بالفعل ، ولم تنشرها الصحف الوفدية فى الصباح التالى . ولكن صحيفة « السياسة » التى يملكها الاحرار الدستوريون ، حرصت على نشر هذه العبارة ، ووجدت فيها فرصة للتحريض على الوفد وزعمائه ، وقالت فى التعليق على هذه العبارة : « سترى الامة غدا ان هذه العبارة تعبر بالفعل عن نفسية الوفد ونوابه ، ولولا هذا لما صفق النواب »[1] .

وقبلت استقالة النحاس بعد يومين من تقديمها ، رغم تأييد النواب ، ورغم المظاهرات التى عمت البلاد لتطالب الملك بعدم قبول الاستقالة ... وفى صفوف الشعب انتشرت عبارة العقاد فى مجلس النواب انتشارا واسعا وسريعا ، وقرر الملك فؤاد الانتقام من العقاد فى اللحظة المناسبة .

وقد لقى العقاد من اصدقائه تحذيرا بأن الملك يمكن ان يدبر له تهمة ويأمر

---

١ ــ عبد العظيم رمضان ـ تطور الحركة الوطنية فى مصر . ص ٧٢١ .

بحبسه ، ولذلك حاول بذكاء بالغ ، ودون أن يتراجع عن موقفه الصلب ، ان يفسر ما قاله فى مجلس النواب بما يضمن عدم وقوعه تحت طائلة القانون الذى يحمى الملك ، ويعاقب كل من يدان بتهمة العيب فى الذات الملكية ، فقد كتب العقاد بعد يومين من موقفه فى مجلس النواب أى فى ١٩ يونيو سنة ١٩٣٠ فى جريدة « كوكب الشرق » مقالا تحت عنوان « ان البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور » . ومن الملاحظ ان العقاد أجرى بعض التغيير على عبارته بما يتيح له التخلص من تهمة العيب فى الذات الملكية ، فبدلا من ان تكون العبارة هى أن البلاد مستعدة لسحق « أكبر رأس » يخون الدستور ، أصبحت « أن البلاد مستعدة لسحق كل رأس » ... ففى العبارة الأولى يصبح الحديث متجها الى الملك بصورة مباشرة ، فهو « اكبر رأس » فى البلاد ، أما العبارة الثانية « كل رأس » فهى عبارة عامة لا تخص الملك وحده ، ويمكن من خلالها ابعاد التهمة عن العقاد .

وفى هذا المجال ، بالاضافة الى ما قام به العقاد من تغيير فى عبارته المشهورة ، يحاول العقاد ان يؤكد ان دعوته لحماية الدستور ، هى فى نفس الوقت دعوة لحماية النظام القائم ... يقول العقاد فى هذا المقال :

« ان البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور . هكذا نقول اليوم ، وهكذا نقول غدا ، وهكذا يقول القانون والدستور ، فان مصر دولة ملكية دستورية ، تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر ، وتعد حماية الدستور فيها فريضة لا تنسى ، وواجبا اقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء » .

وفى مقال آخر فى « كوكب الشرق » نشر فى ١٧ يونيه سنة ١٩٣٠ ، وهو اليوم الذى خرج فيه النحاس من الوزارة ، كتب العقاد يقول منبها الى أن دعوته لحماية الدستور لم تكن دعوة ضد الملك ، بل انها ينبغى ان تفهم على انها دعوة لصالح الملك والشعب معا ... يقول العقاد فى هذا المقال .

« ويلوح لنا اننا فى غنى عن القول ، ان حماية الدستور مصلحة عامة لكل من فى مصر ، من أرفع مقام الى أصغر صغير فى سواد الجماهير . فلا ننسى ان جو الانقلاب ، قد شجع أناسا من اصحاب المآرب ، على الطمع فى المقام الأرفع ،

والسعى هنا وفى أوروبا لتحقيق ما يطمعون فيه. ولم يحدث شىء من هذا قط فى عهد الدستور ، ولا يعقل أن يحدث فيه يوما لأنه العهد الذى يقوم على النظام ، وحماية أصغر الحقوق فضلا عن الحق الأكبر الجليل » .

وفى مقال آخر فى « كوكب الشرق » فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠ كتب العقاد يقول :

« ... فحماية الدستور ضمان ، لا يكرهه فى الحقيقة الا الخوارج من أعداء الحياة النيابية ، وأعداء العرش والنظام » .

وهكذا حاول العقاد أن يفوت الفرصة على أعدائه ، حتى لا يزجوا به الى السجن بتهمة هجومه على الملك ، ولكنه فى نفس الوقت حرص على ألا يكون « تفويت » هذه الفرصة على الاعداء مجالا للتراجع عن موقفه الديمقراطى الاصيل ، فى دفاعه الشجاع عن الدستور .

وكل ما كتبه العقاد فى هذه المقالات ، هو نوع مما يمكن تسميته « بالتكتيك » السياسى ، الذى يخدم الهدف أعظم الخدمة ، ويتيح لقلمه ان يستمر فى أداء دوره النضالى الكبير ، فى الدفاع عن الديمقراطية ودستور البلاد .

لقد كان موقف العقاد فى عام ١٩٣٠ صلبا ورائعا ، وكان يكافح بقلمه من اجل الديمقراطية ، فى ظروف غاية فى الصعوبة والتعقيد ، فالملك ضده ووزارة الشعب برئاسة النحاس قد استقالت بطريقة لا فرق بينها وبين الاقالة ، واسماعيل صدقى يتولى الحكم ، ويعلن عن نواياه الارهابية بلا تردد ، والبرلمان الذى كان العقاد عضوا فيه قد تقرر حله . وهكذا ... كانت الظروف كلها ضد العقاد ، ولكنه لم يفقد شجاعته ولا صلابته الوطنية فى ذلك العام ، فاستمر فى نضاله بقوة وبلا مهادنة أو تردد .

وكانت سنة ١٩٣٠ هى السنة التى خاض فيها العقاد أروع وأعنف معاركه على الاطلاق ضد الرجعية ، ومنذ اللحظة الاولى لوزارة اسماعيل صدقى ، وقبل ان يقع الانقلاب الدستورى الكامل ، باعلان الغاء دستور ١٩٢٣ وفرض دستور جديد على البلاد ، يؤكد سلطات الملك الاستبدادية ، ويقضى على كافة الحريات الشعبية .. قبل ان يحدث هذا بالفعل ، كان من الواضح ان خطة الوزارة

الجديدة ، هى تحقيق هذا الانقلاب الدستورى ، بمساعدة الملك فؤاد بل بتوجيه كامل منه .

وهنا وقف العقاد وقفته الصلبة ضد صدقى ، وضد خطة الوزارة الجديدة ، وتعتبر المقالات التى كتبها فى هذه الفترة نموذجا حيا للكتابة الثورية العنيفة المتمردة الواعية ، ضد سلطة رجعية مغتصبة ، تتحدى ارادة الشعب ، وكان العقاد ينشر هذه المقالات الفريدة فى جريدة يومية أنشأها الوفد ، وكانت هذه الجريدة تنطق بلسان الوفد ، بعد ان أغلق صدقى معظم الصحف الوفدية المعروفة ، مثل « البلاغ » و « كوكب الشرق » وكانت هذه الجريدة هى جريدة « المؤيد الجديد » لصاحبها محمد فهمى الخضرى ، وقد صدر العدد الاول منها يوم الاربعاء ٧ مايو سنة ١٩٣٠ ، وقد كتب صاحب الجريدة يقول عنها وعن خطتها السياسية ، فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٠ ، وهو يشير فى هذه الكلمات الى ان « المؤيد الجديد » سوف يمضى فى نفس طريق « المؤيد القديم » ، مؤيد الشيخ على يوسف ...

يقول الكاتب :

« وقد عاهدت الله وأعاهد القراء ، على ان يعود المؤيد سيرته الاولى ، جريدة مصرية وطنية على مبادىء الوفد المصرى ، وهى المبادىء التى رسمها للأمة ذلك الزعيم الجليل المغفور له سعد باشا ، فهى تؤيد الحياة النيابية ، وتتمسك بصيانة الدستور من كل عبث به ، وتحافظ على مبدأ سلطة الامة وسيادتها ، وتدافع عن الحرية من جميع جهاتها وصفاتها ... هذه نيتنا وغايتنا ، فان عطلتنا الوزارة الحاضرة فاننا سنعود بالمؤيد مرفوعا معززا مكرما ، قصر الزمان أو طال ، ولن يقف فى سبيل اهل العزيمة حاجز ولا حائل ... »

فى هذه الصحيفة ، صحيفة المؤيد الجديد ، كان العقاد يكتب يوميا على التقريب ضد الرجعية والرجعيين ، وكانت حملته نارية عنيفة ، وقد وجد الملك فؤاد فى هذه الحملة فرصته المناسبة ، لاعتقال العقاد والحكم عليه بالسجن ، انتقاما منه على موقفه فى البرلمان ، وعلى صرخته المشهورة ، والتى لم يكن بالامكان محاكمته عليها لانها كلمة قيلت فى البرلمان ، فهى محاطة بالحصانة

البرلمانية ، كما أن رئيس المجلس قد طلب ـ حماية للعقاد ـ رفعها من مضبطة الجلسة .

كان هجوم العقاد مركزا على الرجعية والرجعيين ، وعلى رأس قائمة المتهمين فى رأى العقاد ، يقف اسماعيل صدقى ، ولذلك شن العقاد هجوما عنيفا عليه . ولعل اسماعيل صدقى ذلك الراسمالى الكبير ، وأحد الممثلين البارزين للظلم الاجتماعى فى تاريخ مصر الحديث ... لعل صدقى لم يعرف فى حياته هجوما بعنف هذا الهجوم الذى شنه العقاد ضده .

يقول العقاد فى مقال بعنوان (ابو الفلاح) منددا بالذين أطلقوا هذا الوصف، على اسماعيل صدقى ، « جريدة المؤيد ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ » :

« ابو الفلاح ؟ اى نعم . ابو الفلاح المسكين ، الذى يلدون له فى كل ساعة أبا ، وهو حائر بأبنائه الكثيرين ، لا يدرى ماذا يصنع معهم ، بكثرة هؤلاء الآباء » .

ثم يقول العقاد عن اسماعيل صدقى ، انه يستحق اللقب من الفلاحين بشىء كثير لا بشىء قليل :

« استحقه اولا : بالجهد الجهيد الذى يبذله فى حرمان الفلاح المصرى من حق الانتخاب ، وحصر هذا الحق العام فى أقل عدد مستطاع من غير الفلاحين . واستحقه ، ثانيا : بإهمال مشروع البنك الزراعى ، الذى قررته وزارة الشعب ، لانقاذ الفلاحين من براثن المرابين ، واستحقه ، ثالثا : بزيادة التعريفة الجمركية على السكر الوارد من الخارج ، دون أن يفكر فى زيادة ثمن القصب الذى تشتريه الشركة من الفلاحين . واستحقه ، رابعا : ببيع ثلاثين ألف فدان لشركة كوم امبو ، دون ان يفكر فى وقاية ارض الفلاحين الفقراء من النشع الذى يصيبها ، ويضطرهم الى ترك أرضهم وخدمة الشركة بأبخس الاجور . واستحقه خامسا : بإرضاء الاتحاد البريطانى الذى يسره ويسر أضرابه أن يهبط سعر القطن الى عشرة ريالات . واستحقه سادسا : بهذه الازمة التى جلبها على الفلاح وغير الفلاح ، فهبط سعر القطن على يديه جنيهين اثنين فى كل قنطار ، ولا يمكن ان نعلل ذلك بالأزمة العالمية ، لان القطن يزرع فى بلاد أخرى غير مصر ، ولم يهبط ثمنه أخيرا فى واحدة منها كما هبط فى هذه البلاد . واستحقه ، سابعا : بالبيوع

التى يبـاع فيها أردب القمـح بنصف ثمنه ، وأقـل من نصف الثمن فى بعض الاحيان ، كأنما اسعار المحصـولات فى حاجـة الى المزيـد من عوامـل النزول والكساد » .

ويعلق العقاد بعد ذلك بقوله :

« بهذا وما شاكله من خدمة الشركات ، واهمال الفـلاح ، استحق صاحب الدولة « الكفاءات » ان يلقب بأبى الفلاح ، وأن يكسب فى أقل من ثلاثة شهور ما كسبه الحكام الروس فى اكثر من ثلاثة قرون . فلم يبق الا ان نهنىء الفلاح ونبارك له بالأب الجديد ، الذى أنجبه فى العهد الاخير . والفلاح أدرى الناس بمعنى هذه التهنئة وهذا التبريك » .

وكما نرى يفضح العقاد هنا بصورة قوية واضحة موقف اسماعيل صدقى حيث يكشف عن حقائق المصالح الراسمالية التى يمثلها صدقى ، والتى تتجه الى ضرب الطبقات الشعبية فى مصالحهـا اليوميـة بعنف وقسوة ، ويكشف هـذا المقال ، عن مدى ما كانت تتميز به كتابات العقاد السياسية فى سنة ١٩٣٠ ، من وعى دقيق بحقيقة المؤامرات السياسية ضد الشعب ، فلم يكن يهاجم صدقى هجوما سياسيا فقط ، بل كان يعمل على فضحه فى الميدان الحقيقى لمؤامرته ضد الشعب ... وأقصد بهذا الميدان : ميدان الاقتصاد .

وينتبـه العقاد فى هـذه الفترة اللامعـة من تاريخـه ، الى قضية « حـريـة الصحافة » وما حاولته الرجعية المصرية بقيادة اسماعيل صدقى ، من ضرب الصحافة بشدة ، فكانت تصادر الصحف ، وتصدر قـرارات باغـلاقها ، اذا ما اتجهت هذه الصحف للتعبير عن مصالح الشعب ، أما الصحف المحايدة أو الممالئة لوزارة صدقى ، فهى وحدها التى تبقى وتستمر . يقول العقاد فى مقال « الصحافة والدستور ـ المؤيد الجديد ـ ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٠ » :

« يظهر « المؤيد الجديد » وللأمة دستور وصحافة .. فأما الدستور فأين هو ؟ وأين معالمه وآثاره ؟ وأين حدوده وحرياته ؟ كل ما بقى منه أن تغلق الصحف باسمه . وأن نسمع الحين بعد الحين أن هناك مادة فى الدستور اسمها المادة الخامسة عشرة ، وصناعتها ان تعرض الصحافة للاغلاق والتعطيل ، وقديما

كانت هذه المادة هى الحائل بين الوزارات واغلاق الصحف بالاوامر الادارية ... » .

ثم يؤكد العقاد على عدم جدوى هذه الاجراءات الارهابية أمام نضال الشعب :

« فماذا استفادت الوزارة من تعطيل الصحافة ؟ وماذا تدارى ؟ وماذا تفيدها المداراة ؟ أفتخشى الوزارة مما نكتب ؟ اذاً لتعلم أننا نسمع بآذاننا فى حق الوزارة أضعاف ما نكتبه فى أشد حملات الطعن والانتقاد ، ولتعلم ان ما نقوله نحن للناس هين جدا ، بل هو أهون شىء الى جانب ما نسمعه من الناس كلما أصغينا السماع » .

« ويا ما أحلاكم وأملحكم يا معشر هؤلاء الوزراء ؟ افكنتم تحسبون ان الناس كانوا يظنونكم حماة الدستور لو لم نكتب لهم نحن أنكم معطلو الدستور ؟ أفكنتم تتخيلون أن الناس يشهدون لكم بالقومية الخالصة لو لم نقل لهم أنكم حزبيون أشد من جميع الحزبيين ؟ أفكنتم تتوهمون ان كلامكم جائز فى العقول لولا اننا نزيفه ونظهر ما فيه من النقائض والاعاجيب ؟ أفكنتم تترقبون ان يشغف الناس بكم حبا ويتهالكوا عليكم ثقة لولا أننا نقول انكم لا تحبون وانكم بالثقة غير جديرين ؟ » .

« عطلوا الصحف أو لا تعطلوها ، أن الحق لظاهر ، واننا لن نكتب الا لنقول الحق ساطعا قويا ، لا تلعثم فيه ولا مواربة ، وأنكم لمعروفون فى هذه الامة فما بها من حاجة الينا لنزيدها بكم تعريفا على تعريف » .

ولا يكتفى العقاد بفضح موقف الرجعية المصرية سنة ١٩٣٠ من حرية الصحافة ، بل يكشف عن مساندة الصحافة الرجعية فى العالم لحكومة صدقى ، فيكتب فى مقال له بعنوان « من أنصارهم تعرفونهم » ـ المؤيد الجديد ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٠ ليقول « أن الرجعيين من انصار صدقى ، يغتبطون بثناء الصحف الاجنبية عليهم » . « وزعيمة الصحف التى يغتبطون بثنائها ، ويرحبون بمقالاتها ، ويفرحون بطعنها فى الوفديين هى « المورننج بوست » التى تستكثر الحرية على انجلترا نفسها وتعبر عن آراء أناس من المعاتيه ، يقولون : ان الديموقراطية دسيسة يهودية دبَّرها اليهود فى جماعات الماسون السرية ،

لينتقموا من الكنيسة ، ويضعفوا المسيحية ، ويحبون لو استطاعوا ان يختزلوا البرلمان الانجليزى ، فلا يبقى فيه الا مجلس اللوردات ، منتخبا او معينا على النظام العتيق ، الذى لا يؤمن بالديموقراطية ، ولا يصغى الى شىء اسمه حقوق الشعوب » .

لقد عنى العقاد بشرح موقف الرجعيين المصريين سنة ١٩٣٠ من الصحافة الوطنية فى مصر ، وهاجم هذا الموقف وندد به ، ولكى نتصور أهمية هذه القضية ، وما كانت الصحافة الوطنية تعانيه فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر الحديث ، فى ظل ديكتاتورية الملك فؤاد ، وإرهاب اسماعيل صدقى ، يمكننا أن نقرأ بعض الفقرات من مقال لسلامه موسى نشرته « المؤيد الجديد » التى كان العقاد يشن فيها حملته على الرجعية والرجعيين .... ففى العدد ١٩ من « المؤيد الجديد » ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ والى جوار مقال العقاد الافتتاحى فى نفس الصفحة ، نشرت الجريدة مقالا لسلامه موسى بعنوان « فوز الصحافة السورية وهزيمة الصحافة المصرية » ، ووجود العقاد فى تلك الفترة الى جانب سلامة موسى ، الكاتب التقدمى الثورى ، له دلالة ومعنى كبير ، فقد كان العقاد فى سنة ١٩٣٠ يقف فى قلب المعسكر الوطنى ، بل كان من قادة هذا المعسكر ، وكان وجوده جنبا الى جنب مع سلامة موسى شيئا طبيعيا فى تلك المرحلة ، حيث أن الكاتبين الكبيرين قد افترقا بعد ذلك أشد الافتراق ، فترك العقاد مكانه فى قيادة التيار الوطنى الثائر ، وبقى سلامة موسى فى هذا المعسكر ، وحرص على مكانه حتى النهاية .

فى مقال سلامة موسى عن الصحافة السورية والصحافة المصرية ، كشف لدور بعض الصحفيين الشوام الذين جاءوا الى مصر ، وارتبط بعضهم بالقصر والاستعمار الانجليزى ، وخاصة « مدرسة صحيفة المقطم » ، وفى سنة ١٩٣٠ بالذات كانت هذه الصحف تدافع عن « صدقى » وتناصره بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بينما كانت الصحف الوطنية كلها تتلقى من صدقى أعنف الضربات بالاغلاق والمصادرة ، وقد كشف سلامة موسى فى مقاله هذه الحقائق بقوة ، وان كان المقال لم يخل من نزعة سلامة موسى « الاقليمية » المتعصبة الخاطئة ، والتى

كانت ظاهرة فى بعض جوانب فكره ، وحاول فى آخر حياته الفكرية الخصبة أن يعدلها ويتخلص منها .

يقول سلامة موسى فى مقاله :

« الصحـافة تجـارة مثل أى التجـارات ، ولكن قيودهـا أثقـل من سـائـر التجارات . والصحفى المصرى يحمل هذه القيود راضيا ، وينزل على شروطها صاغرا ، لانه يراها تتفق ومصلحة وطنه التى هى اكبر من مصلحتـه ، ولكن الصحفى السورى لا يبالى بهذه القيود ، فهو ينشد من هـذه التجارة الربـح والربح فقط » .

« لهذا السبب مضى علينا عشرون سنة والجرائد المصـرية تعـطل ، بينما الجرائد السورية لا تغطل ... والصحفى السورى لا تتعرض جريدته للتعطيل ، لانه يسير مع كل حـزب ، ويمشى وراء الغالب ، وهـو لا يشعر بـالعار ، يلحق بالانسان اذا استبدل بآرائه وخططه السياسية خططا وآراء أخرى كما يستبدل الانسان حذاءه » .

ويقدم سلامة موسى فى هذا المقال نموذجا للصحفى السورى الذى يرفضه فيقول :

« بينما نرى الصحف المصرية معطلة ، والاقلام المصرية مقصوفة ، نـرى المجلات السورية تنساب بين العامة ،كأنها الحيات السامة ،تشرح لهم كيف أن « الاستاذ » حافظ نجيب كان ينصب على الناس ، وكيف أن بـطلا من أبطال الاوباش كان يأكل حذاء كاملا . وكيف استطاع شحاذ أن يشترى بالشحاذة عقارا ضخما ، وكيف يدخن الحشيش وأين ، ..الخ . ويكتب هذا فى مجـلات انيقة الطبع ، تستهوى العين بالصور الجميلة ، وبـالطبع الحسن ، فيقـرأها الشاب المصرى فيضعف عقله ، ويختل نظره للاشياء ، حتى ليظن العبقرية فى النصب والشحاذة والسخافة » .

« ولنضرب مثلا على الصحفى السورى فى مصر ، بهذا « الاستاذ » كـريم ثابت ، ليرى القارىء كيف جعل السوريون الصحافة المصرية هذرا وهذيانا ، يجمعون منها قروش العامة ويثرون منها ، بينما عبد القادر حمـزه ، وعباس

العقاد ، وحافظ عوض ، وتوفيق دياب ، وأبو طايلة ، وأحمد حلمى ، وغيرهم تقصف اقلامهم وتخرب بيوتهم » .

« هذا « الاستاذ » كريم ثابت ، يكتب فى مجلات الهلال قصصا ، يتكرر بعضها عشر مرات أحيانا ، عن فتح الله باشا بركات ، الذى يختلف عن سائر الناس أجمع ، من حيث انه لا يأكل المدمس ، وانما هو يغمس اللقمة فى مرق المدمس فقط ، ويذكر الامير فاروق فيقول عنه : « أنه لا يخاطب جلالة والده أو والدته بقوله « يا صاحب الجلالة » أو « ياصاحبة الجلالة » وانما يقول كما يقول سائر الاطفال فى العالم : « يا بابا » و « يا ماما » ثم يذكر الامير عمر طوسون فيقول عنه : « انه يدخن الشيشة قبل الظهر ، ويدخنها أحيانا بعد الظهر . وأحيانا لا يدخنها قبل الظهر أو بعد الظهر. ثم هو ، أى الامير ، يأكل فى الغداء اكثر من العشاء ، وأحيانا يأكل فى العشاء اكثر من الغداء ، ثم يقول ان الاستاذ لطفى السيد تقابل مع على الشمسى باشا فبدلا من أن يبدأ التحية على باشا بدأها الاستاذ لطفى السيد » .

ثم يقول سلامة موسى :

« هذا هو الكاتب المثالى السورى ، الذى يكتب للعامة هذا الهذر ، ليضعف عقولهم ، بينما كتابنا المخلصون قد قصفت أقلامهم ، وبعضهم يبحث عن عمل آخر غير الصحافة ، يمكنه ان يعيش منه دون أن يتعرض للجوع » .

ويقول سلامة موسى بعد ذلك :

« لقد تم اقفال ثلاثة مصانع مصرية ... هذه المصانع المصرية هى : ١ ـ البلاغ لصاحبه المصرى عبد القادر حمزة . ٢ ـ الكوكب لصاحبه المصرى أحمد حافظ عوض ٣ ـ اليوم لصاحبه المصرى توفيق دياب » .

ويتحدث سلامة موسى عن « الاهرام » وموقفها من القضايا الوطنية آنذاك فيقول :

« هذا هو الاهرام ، الجريدة السورية التى تسير مع كل حزب ، وتجرى مع كل ريح ، وتضحك منا جميعا » . تلك هى الصورة التى رسمها سلامة موسى لواقع الصحافة الرجعية فى مصر سنة ١٩٣٠ ... واذا استثنينا ما فى المقال من لهجة « اقليمية » متعصبة ، وجدنا ان المقال يقدم صورة حقيقية لمحنة الصحافة

الوطنية ، فى ظل حكومة صدقى الرجعية ، بل فى ظل الرجعية المصرية بشكل عام ، فالرجعية المصرية قد وقفت بكل قوة لمساندة تلك الصحافة التى لا تعالج أى مشكلة جدية من مشاكل الوطن أو الشعب ، بينما تلقى الصحافة الوطنية ألوانا متصلة من الاضطهاد والارهاب . والحقيقة ان كريم ثابت وغيره من الصحفيين ، كانوا رجعيين فى مصر وفى سوريا على السواء ... ولم تكن المشكلة هى انهم سوريون فى مصر ، كما يرى سلامة موسى بل هى انهم رجعيون متحالفون مع الرجعية وخدام لها ، سواء كانت هذه الرجعية مصرية أو سورية .

نعود بعد ذلك الى حملة العقاد على الرجعية المصرية سنة ١٩٣٠ . يركز العقاد على ظاهرة أخرى من مظاهر السياسة الرجعية فى مصر سنة ١٩٣٠ ، غير ظاهرة اضطهاد الصحافة ، هذه الظاهرة هى محاربة استقلال القضاء ، فيكتب مقالا بعنوان « يطلبون استقلال القضاء من وزير الحقانية » « المؤيد الجديد ٢٩ أغسطس ١٩٣٠ » يعلق فيه على مقال نشره محمد علام باشا فى الاهرام ، يطالب فيه على ماهر « وزير الحقانية » فى وزارة صدقى بالحرص على استقلال القضاء ... يقول العقاد فى هذا المقال :

« ... لم يرد علام باشا هذا ان يكون مضحكا ، ولكنه أضحك من قرأه فعلا ، لانه يلتمس استقلال القضاء ، من الوزارة التى وقع فى زمنها أخطر حادث أصاب القضاء المصرى فى الزمن الحديث : وقع فى زمانها ان يؤمر القاضى علانية بأن لا يحكم الا بما تفرضه عليه الوزارة ، ويوافق أهواء ملاحظى البوليس ورجال الادارة . ولا نعرف لوزارة من الوزارات سيئة هى أجسم وأهول من هذه السيئة ، التى زلزلت قواعد العدل ، وأصابت القضية المصرية فى المقتل الصميم . نعم أصابت القضية المصرية فى المقتل ، لانها مثلت القضاء المصرى فى أعين الاوربيين تمثيلا يعطيهم الحجة اذا رفضوا الثقة به والاحتكام اليه ، وتشبثوا بالامتيازات الاجنبية التى جاهدت الامة فى اصلاح شأنها ، ذلك الجهاد الطويل » .

على أن القضية الجوهرية التى شن العقاد بسببها حملة عنيفة على الرجعية المصرية ، هى نقطة الاعتداء على دستور ١٩٢٣ ، والاتجاه الى تغيير هذا

الدستور ، واصدار دستور جديد يساند ديكتاتورية الملك فؤاد ، ويبرر ارهاب اسماعيل صدقى .

يكتب العقاد فى ٢٥ أغسطس ١٩٣٠ فى جريدة « المؤيد الجديد » مقالا بعنوان « مسألة الدستور مسألة كل انسان فى مصر » يقول فيه :

« ويل لمن يجهلون ان مسألة الدستور هى مسألة كل مصرى : مسألة القاضى والتاجر والزارع والمقرب وغير المقرب ، لا مسألة النائب والوزير والمشتغل بالسياسة دون سواه » .

« لقد كان لكل أزمة درسها البليغ ، ودرس هذه الازمة البليغ ان يعلم الناس كيف يكون المصير ، اذا بطل فى مصر حكم الدستور ، وويل لمن يجهل أن مسألة الدستور هى مسألة الحرية والحياة » .

وفى هذا المقال نفسه يقول :

« أن الاستبداد لا يقف عند حد ، ولا يعرف القيود والمحرمات ، فاذا طمع اليوم فى شىء فسيطمع غدا فيما هو أكثر منه ، واذا قلت اليوم انك ترضيه بالطاعة فى هذا وذاك من الامور ، فلن تنقضى عليك أيام حتى تعلم ان الطاعة فى هذا وذاك من الامور لا ترضيه ولا تكفيه ، وأنه ينتظر منك المزيد بعد المزيد ، حتى لا تعلم الفارق بين الرضى والغضب » .

« ماذا يحميك من المستبد اذا لم يحمك الدستور ؟ أيحميك القانون ؟ ايحميك القضاء ؟ ان أرادة المستبدين هى القانون ، وأن وظيفة القضاء فى رأيهم هى تنفيذ ما يريدون . لقد رأينا كيف يعزل القاضى لانه حكم بغير ما يرضاه الوزير ، رأينا كيف ينصون فى أمر العزل على هذا السبب ، ولا يكلفون أنفسهم أن يلطفوا أو يسكتوا عنه ويتركوا للناس ان يفهموا منه ما يشاؤون » .

ثم يعلق على هذا الحادث فيقول :

« أنه لاكبر من حل البرلمان والمساس بالحياة النيابية ، لان الامة قد تعيش زمنا بغير برلمان ولكنها لن تعيش زمنا بغير استقلال القضاء . أنه لاكبر من كل حادث فى ذاكرة المعاصرين ، لانه ضربة هادمة فى اساس كل حرية وكل ضمان » .

والعقاد يرد مثل هذه الاجراءات كلها الى الاتجاه لدى حكومة صدقى الرجعية

للاعتداء على الدستور ... فالدستور هو الضمان الاساسى للوطن والمواطنين ، ويواصل العقاد حملته العنيفة على اسماعيل صدقى وعلى الرجعية والرجعيين فى سنة ١٩٣٠ ... ويقول العقاد فى مقال بعنوان « الرجعية هى العدو الاكبر فى الازمة الدستورية الحاضرة » ـ المؤيد الجديد فى ٢٤ سبتمبر ١٩٣٠ .

« ... هناك حقائق كثيرة ستتكشف فى أوانها ، فيعلم المصريون جميعا ان مصيبة الرجعية على هذا البلد أكبر من مصيبة الاحتلال ، وأنها هى التى مهدت له ، واستعانت به ، وأوقعت البلد فى البلاء الذى أدى اليه . لولا كراهة الدستور القديمة فى نفوس هؤلاء الرجعيين ، ولولا التكبر عن الاعتراف للفلاحين العبيد بالحرية والحكومة العصرية ، لما حدثت فى مصر تلك الاحداث التى نعانى من جرائرها الى اليوم ، فالرجعية هى السوس الناخر فى أبدان هذه الامة من قديم الزمان ، والرجعية هى أصل المصاب وسبب الاحتلال ، وهى العدو الاكبر الذى يجب أن يبرز على حقيقته ليكون الجميع على بينة من أمره . وكذب من قال : ان مصيبة الرجعية فى هذا البلد اهون من مصيبة الاحتلال ، فان الذين يتتبعون التاريخ ليعلمون علم اليقين ، أنه لولا الرجعية وكراهة « الفلاحين » ، لما كان الاحتلال ولا حدث شىء مما أوقع البلاد فيه » .

ويتحدث العقاد فى مقال آخر عن هؤلاء الرجعيين بأسمائهم ، فيقول عنهم فى مقال عنوانه « حزب طلاب المصالح لا حزب اصحاب المصالح » ـ المؤيد الجديد فى أول اكتوبر ١٩٣٠ :

« انما هؤلاء عصابة يطلبون الحكم ، لانهم يطلبون المصالح لا أكثر ولا أقل ، فعبد الجليل سمرة وأحمد عبد الغفار وجماعة محفوظ وجماعة خشبة وجماعة محمود سليمان لا يصبرون عن الحكم ، لانه حاجة من الحاجات وضرورة من الضرورات » . ثم يقول عنهم : « من منهم يعد من ضحايا الحركة الوطنية أو من الواقفين فى صف الضعف والاضطهاد أمام القوة الفعلية ؟ أن أكثرهم جلافة تشبه الصلابة هو العتل محمد محمود سليمان . فهل يذكر هذا العتل لنفسه أو يذكر له غيره موقفا واحدا يدل على نخوة أو تضحية بمصلحة ؟»

ثم يتجه العقاد بين الحين والحين ، للهجوم الحاد العنيف على راس هذه

العصابة الرجعية « أسماعيل صدقى » فيكتب عنه فى مقال بعنوان « فارغ بحمد الله » ـ المؤيد الجديد ١٧ سبتمبر ١٩٣٠ :

كانت الوزارة قدراً ساقه الله الى صاحب الكفاءات ليظهره على حقيقته فارغًا ، لا نصيب له مما يدعيه ، أو هو كما يقول الجاحظ يدعى من كل شىء بقدر جهله فقد كان صاحب الدولة يدعى الذكاء فظهر للناس ان مبلغ ما عنده من الذكاء هو سياسة « نيميها » التى عرف بها الحكام الاتراك فى عهد الظلمات ! اضرب . اسجن ـ اقتل . امنع . اقفل .. ثم لا شىء بعد ذلك من دلائل الذكاء والعلم والاقتدار . وما كان التعايشى بعاجز عن مثل هذه السياسة ولا فى الارض من يعجز عنها الا أهل المروءة والشمم والذكاء .. وتكلم صاحب الكفاءات ليقول ما يقوله الاذكياء فاذا هو لا يخرج من ورطة حتى يقع فى ورطة ولا ينتهى من سخافة الا ليبتدىء فى سخافة .. ومن أراد أن يعرف الخيبة التى خابها صاحب الكفاءات فى أحاديثه الكثيرة ، فليجمعها كلها وليسأل نفسه : أى كلمة يعز منها على أجهل الجهلاء ان يقولها . أما أن كان المقصود بالذكاء ما يسهل البيوع والمكاسب والمكافآت ، ففى القطر الوف السماسرة ، يوقعون أصعب الصفقات ، ولا يقول أحد أنهم يعدون فى الاذكياء ، فى معنى من معانى الذكاء الدفينة ، فضلا عن ان يكون من نوابغ الاذكياء » .

وفى هذه الفترة التى كان فيها العقاد يشن حملته العنيفة على الرجعية تحل ذكرى ١٤ سبتمبر .. ذكرى دخول الانجليز مصر ، فيكتب العقاد مقالا بعنوان « ذكرى ١٤ سبتمبر » يرد فيه على ما يقوله الكتاب الرجعيون وبعض أنصار الحزب الوطنى من الهجوم على أحمد عرابى وأتهامه فى وطنيته ، فيدافع العقاد عن عرابى دفاعا مجيدا ، ويضعه فى مكانه الصحيح من الحركة الوطنية فى مصر ، وكأنه فى هذه الفترة التى كان يهاجم فيها الرجعية والرجعيين ، أنما كان فى نفس الوقت يستمد الحماسة والحرارة من « استحضار » روح الزعماء الوطنيين الكبار ، حتى يكونوا له عونا فى معركته من أجل الحرية ، وحتى يساهموا فى أشعال نيران الثورة لدى الشعب فى نضاله الطويل .

يبدأ العقاد فى هذا المقال بتسجيل حقيقة واضحة فى الحركة الفكرية المصرية حتى ذلك الحين ، « المؤيد الجديد فى ١٦ سبتمبر ١٩٣٠ » يقول العقاد :

« على كثرة الذين كتبوا ويكتبون عن ذكرى ١٤ سبتمبر ، أو ذكرى الاحتلال البريطانى للبلاد المصرية ـ لا نجد الا قليلا من الكتاب انصفوا الذكرى وعرفوا عبرتها حق عرفانها . لان أكثرهم يستمدون علمهم او شعورهم من اكذوبة قديمة ، عاشت فى هذا البلد خمسين سنة لم يتعرض أحد لتصحيحها ، واعادة النظر فيها الا ما ندر ، وتلك الاكذوبة هى أن البطل المصرى الكبير أحمد عرابى كان خائنا لوطنه ، مأجورا للانجليز على أن يقوم بالثورة ، ويمهد لهم سبيل الاحتلال وأنه هو المسئول وحده عما حدث كله وليس هناك تبعة على أحد سواه » .

« كل هذا خطأ شنيع ، بل كذب سافل ، روّجه اصحاب التبعية الكبرى ليمسحوا جرائمهم فى سمعة عرابى واخوانه ، ويبرئوا أنفسهم بنسبة أوزارهم الى غيرهم ، فكل ما يبنى أذن على هذا الكذب لا يصلح أن يكون عبرة تاريخية صادقة ، ولا أن نتعظ به أتعاظا صحيحا ، فى فهم الحوادث والرجوع بها الى منشئها » .

وهكذا يكشف العقاد عن دور « الرجعية » فى تشويه التاريخ الوطنى .. وهو يرد على هذا التشويه ، ويناقش التهم التى وجهتها الرجعية الى عرابى فيقول :

« الذين وصفوا عرابى بالخيانة ، قد فعلوا ذلك وهم فى مأمن من التكذيب والمناقشة لانهم علموا ان الرجل وأصحابه مغيبون فى منفاهم ، لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم ، ولا بيان الحقيقة لمن يجهلونها ، ثم علموا أن الميدان فى هذا البلد خال لهم يستولون على آذان الجيل الناشىء فيفرغون فيها ما عنّ لهم من التهم والاباطيل ... علموا ذلك فلوثوا سمعة الرجل وأصحابه أقبح تلويث ، وعكسوا الحقائق وأسندوا إليه ما اقترفوه بأيديهم » .

وبعد أن يؤكد العقاد أن الرجعية هى السبب الحقيقى للاحتلال ، وأن الرجعية هى التى تآمرت مع الانجليز وليس أحمد عرابى يبدأ فى الرد على التهم الموجهة الى عرابى فيقول :

« فمن الاكاذيب التى خدعوا بها الجهلاء ، أن الانجليز قد حالوا بين عرابى وبين الاعدام ، وتوسطوا فى نفيه هو وأصحابه الى سيلان ، بعد اصرار الخديوى توفيق على قتلهم أجمعين » .

قالوا فهذا دليل على أن الرجل وأصحابه كانوا متواطئين مع الانجليز على تسليمهم البلاد ، وإلا فلا يفهم أحد كيف يحارب الانجليز عرابى ويغلبونه ويتمكنون منه ، ثم يتوسطون فى العفو عنه ، ويحولون بينه وبين الاعدام ، وقد لقيت هذه الحجة قبولا عند الجهلاء وكانت هى أساس ما شاع من الاكاذيب ، وكل ما تلبد حول اسم الرجل من التهم والوشايات ، وما هى كما ترى الا سخافة لا ينخدع بها رجل يعرف حقيقة الاحوال التى أحاطت بالاحتلال البريطانى ، فى بلاد الانجليز وفى هذه البلاد » .

« فالانجليز ما كانوا مستطيعين من جهة أن يحملوا على عاتقهم جريرة اعدام عرابى وأصحابه ، وهم ـ أى « الانجليز » ـ كانوا أكبر المشهرين بفضائح الحكم الذى ثار عليه العرابيون وضاقوا ذرعا باحتماله ، فقد سوغ الانجليز احتلال مصر باختلال الحكومة المصرية ، والشقاء الذى كان المصريون يعانونه على أيديها ، وتفاقم الفساد الذى أضر بمصالح الوطنيين وأصحاب الديون على السواء ، فمن أبعد الامور عن المعقول أن يقبل الانجليز على سمعتهم فى العالم المتحضر أن يقتلوا أناسا لا ذنب لهم الا الثورة على مفسدة هم أول المعترفين بها ، والمقرين بصعوبة احتمالها ، وتلك سبة يعلم الذين يتتبعون التاريخ الانجليزى الحديث ، أن القوم لا يستسهلون حملها ، ولا يودون ان تنسب اليهم ، وفى وسعهم دفعها بذريعة من الذرائع » .

« هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، يجب أن نذكر فى أى عصر حدثت الثورة العرابية ، لنذكر كيف عوقب عرابى بالنفى دون الاعدام ، فلقد وقعت تلك الثورة فى ابان العصر الذى سادت فيه مبادىء الثورة الفرنسية بلاد الانجليز ، وانتشرت بينهم قواعد الحرية الحديثة ، وآراء الفلاسفة المبشرين بمذاهب الديموقراطية ، وفى تلك الفترة اجترف نفوذ الاحرار كل نفوذ المحافظين وأنصار المذاهب العتيقة .. ففى عصر كذلك العصر ، ما كان بالمعقول أن توافق الحكومة البريطانية على إعدام أناس يطلبون الحرية ، ويدعون الى الديموقراطية ، ولهذا حال الانجليز بين البطل المصرى والاعدام ، وصانوا سمعتهم التاريخية من تبعة قتله فى مثل تلك الظروف ، لهذا حالوا بينه وبين الاعدام ، لا لانهم استأجروه ، ولا لانهم تواطأوا معه فى خيانة البلاد » .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن الثمن الذى تقاضاه عرابى عن « خيانته » كما يقول أعداء الحركة الوطنية فى مصر ، من الرجعيين وأنصارهم :

« ... ثم أين هى الاموال التى استؤجر بها عرابى ، وباع بها وطنه كما افترى المنافقون ؟ لقد كانت مصر كلها فى قبضة ذلك الرجل ، فما أقتنى شيئا ولا جمع مالا ، ولا ترك لا بنائه من بعده كثيرا ولا قليلا ، وأن رجلا كهذا لا شرف من ان يتهم بتلك الخيانة القبيحة ، بل هو أشرف الف مرة من أولئك اللصوص الذين لا تنبسط يدهم الا جمعوا الملايين من السحت والسرقة والاغتصاب » .

ثم يقول العقاد عن عرابى :

« لا . لم يكن عرابى خائنا ولا متواطئا مع الانجليز ، ولكنه كان رجلا مخلصا خذلته الحوادث ، وانقلبت عليه المآرب السياسية والدسائس الاجنبية ، ففشل فى حركته فشلا لا حيلة له فيه ، وهو ناقم من حكم لا يملك الا النقمة عليه ، وماض فى طريق لا يملك الا المضى فيه ، ومن آيات اخلاصه انه كان يقبض على زمام الجيش والامة وكان يستطيع ان ينكل بخصومه تنكيلا لا تنفعهم معه دسائس المستعمرين ، فما صنع شيئا من ذلك ، بل رضى ان يظل مستهدفا للمؤامرات الحقيرة مرة بعد مرة ، دون ان تمتد يده الى جرثومة المتآمرين » .

ثم ينتهى العقاد من دفاعه الصادق عن عرابى ضد الرجعيين ، بالتأكيد على ان الرجعية هى مصيبة البلاد الكبرى ومصدر الشر والتأخر فيها ..

يقول العقاد :

« فاذا شئنا ان نعتبر باليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر ، فلنعتبر به على أساس واحد ، وهو أن المصيبة الكبرى كلها أنما جاءت من التشبث بأساليب الحكم العتيقة ، وتصلت الاغبياء من الشراكسة ونفايات الامم على المصريين ، فى العصر الذى بزغت فيه القومية المصرية ، وتحركت فيه دوافع الحرية والاستقلال » .

« بهذا فلنعتبر كل الاعتبار ولننس كل النسيان ما قيل عن خيانة عرابى ، وما شاع حول ذلك من الاكاذيب والاراجيف ، فما من عبرة تبنى على هذا الاساس الا وهى عبرة خاطئة لا تفيد » .

وهكذا شن العقاد حملته العنيفة على الرجعية خلال سنة ١٩٣٠ فى المجالات الاقتصادية والسياسية والقضائية ، بل فى المجال الفكرى والتاريخى حيث أرادت الرجعية أن تشوه تاريخ مصر الوطنى وتقدم له صورة غير حقيقية ، وأن تتهم الزعماء الوطنيين مثل عرابى بتهمة زائفة حتى يبدو وجه التاريخ وجها مشوها لا الهام فيه للاجيال الجديدة من المناضلين الوطنيين .

وكانت ضربة العقاد الاخيرة هى الربط بين الحركة الرجعية فى مصر وبين الانجليز ، حيث كتب فى مقال له بعنوان « الرجعيون والانجليز المحليون » يقول فيه « المؤيد الجديد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ » : « فى الخطاب المفصل الذى أرسله الينا صديقنا « ص » بيان واف للرأى القائل بأن الازمة الحاضرة فى مصر هى أزمة الرجعية قبل غيرها ، وأن الانجليز لم يخلقوا الازمة ، وانما حاولوا - ويحاولون - أن يستفيدوا منها بعد خلقها ، وهذا الرأى هو رأينا الذى لا تزيدنا الحوادث الا اقتناعا به ووثوقا منه . ولا يدعونا الى تقريره وتوكيده الا أن يعرف المصريون الحالة على حقيقتها ، ويعلموا أصول الدسيسة من أين تنجم والى أى غاية تسعى . وفرق بين أن نقول ان فلانا قتل القتيل ليغتصب تركته ، وبين أن نقول ان فلانا رأى الورثة يتنازعون على تركة القتيل فأراد أن يستغل النزاع بينهم فيما يفيده ، فالانجليز لم يقتلوا القتيل فى هذه الازمة ، ولكنهم تركوا الرجعية تغمد خنجرها ولم يمنعوها أن تقتل ، ولو أنهم منعوها فى بادىء الامر لا ستطاعوا أن يجدوا الحجة لمنعها فتمتنع لا محالة . ولكنهم لم يجدوا لهم مصلحة فى ذلك فلم يفعلوه » .

ثم يقول العقاد عن الرجعية :

« فالرجعية آثمة مصرة على إثمها ، ماضية فيه من زمن بعيد ، لا يثنيها عنه شقاء هذه الازمة ولا ماتبتلى به من الفاقة والشدة والخراب ، بل هى تنتهز هذه الفرصة لتضرب ضربتها ، فتزيد الامة فاقة على فاقة وشدة على شدة وخرابا على خراب » .

ثم يقول :

« فالرجعية تعتمد على تبادل المنفعة بينها وبين أعوانها الانجليز المحليين » .

هكذا كان موقف العقاد سنة ١٩٣٠ .

كان موقفا وطنيا صادقا كل الصدق ، واضحا كل الوضوح . كان العدو أمامه محددا كل التحديد ، وهو الرجعية والرجعيون ، ولم تكن الرجعية ولا الرجعيون كلمات غامضة غير واضحة فى ذهنه ، بل كانت الرجعية تتمثل فيما يلى :

اولا ـ العداء لطبقات الشعب الفقيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، والعمل على الاضرار بالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقات .

ثانيا ـ محاولة الاعتداء على استقلال القضاء ، لتسهيل الاجراءات الارهابية ضد المواطنين ولتسهيل العبث بالدستور .

ثالثا ـ التحالف مع الانجليز لتحقيق المصالح المشتركة بين الرجعية المصرية والانجليز ضد مصالح الشعب فى مصر .

رابعا ـ محاولة تشويه تاريخ مصر وتاريخ الزعماء الوطنيين من أمثال عرابى حتى لا يكون أمام الحركة الوطنية فى مصر نموذج أو مثال أو مصدر للالهام .

خامسا ـ شدد العقاد فى حربه ضد الرجعية على أهمية حرية الصحافة ، التى كانت ميدانا للارهاب والاضطهاد من جانب اسماعيل صدقى ، حتى لا تتمكن الحركة الوطنية من التعبير عن نفسها ، مع تشجيع لون من الصحافة التى لا تعبر عن مشاعر الشعب ومشاكله ، وانما تحاول اغراقه فى التفاهات وألوان الاثارة المختلفة .

سادسا ـ كان الميدان الاساسى لمعركة الرجعية ضد الحركة الوطنية فى مصر هو ميدان « الدستور » ، وكانت الحركة الوطنية تتمسك بدستور ١٩٢٣ بينما كانت الرجعية تهدف الى تغيير هذا الدستور ، وقد نجحت فى ذلك بالفعل ، فألغى اسماعيل صدقى الدستور ، وأصدر دستورا جديدا يمنح الملك سلطات واسعة ، ويضيق الخناق على الشعب .

كان هذا هو المعنى الذى يقصده العقاد بالرجعية ، وكان معنى واضحا فى ذهنه كل الوضوح وقد تميزت كتابات العقاد فى تلك الفترة بالجاذبية والجمال والحرارة وقوة التعبير والقدرة على التأثير الواسع على وجدان الجماهير ... كل هذه العوامل دفعت الرجعية الى التربص بالعقاد وتمت بالفعل احالته الى التحقيق فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ واستمر التحقيق معه فترة طويلة ثم قدمته القوى الرجعية للمحاكمة ، حيث دافع عنه محام وسياسى وطنى بارز فى ذلك الحين هو

مكرم عبيد ، كما كانت هذه المحاكمة موضعا لاهتمام واسع من الرأى العام ، فقد رأت الجماهير الشعبية الكبيرة كاتبها الثائر عباس العقاد يقف فى قفص الاتهام عرضه لانتقام الملك فؤاد ، وانتقام الرجعية المصرية . ولقد استندت الرجعية فى محاكمة العقاد ، الى مقالاته العنيفة التى كتبها خلال سنة ١٩٣٠ والتى عرضنا لها فى هذا الفصل .

فماذا كانت قصة المحاكمة والسجن ؟.

المحاكمة والسجن

كان من الطبيعي ان يتربص الملك فـؤاد بعباس العقـاد بعد مـوقفه من البرلمان ، وبعد تهديده لاكبر رأس فى البلاد بعقاب الامة اذا خان الدستور ، والمعروف ان الملك فؤاد كان يكره رجال القلم الاحرار من الكتاب والفنانين ، فهو الذى أمر بنفى الشاعر الشعبى الكبير بيرم التـونسى ، عندمـا سمع له قصائده الوطنية وكان بعضها هجاء للملك فؤاد نفسه ولاسرته ، وخرج بيرم التونسى العظيم من مصر منفيا ومطرودا ومغلوبا على أمره ، ليتشرد فى باريس سنوات طويلة ، عانى فيها الكثير من الوان الضياع والجوع والبؤس ، وقيل ـ وإن لم يثبت هذا القول تاريخيا ـ ان الملك فؤاد هو الذى تخلص من الكاتب اللامع الحر محمد تيمور ، الذى مات فجأة فى شبابه الاول ، وكان يملأ الدنيا بكتاباته الحرة الجريئة المستنيرة . ولقد قيل ان الملك فؤاد قتل هذا الشاب الموهوب المتحرر بالسم ، وسواء صحت هذه الرواية او لم تصح فهى تدل ولا شك على سمعة الملك فؤاد ، وما عرف عنه من كراهية للفكر الحر المستنير .

كان من الطبيعى ألا يفلت العقاد من ارهاب الملك فؤاد ، ولم يستطع الملك ان يحاكم العقاد بسبب صرخته فى البرلمان عن سحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور . لان العقاد كان يتمتع بالحصانة البرلمـانية التى تمنـع مثل هـذه المحاكمة . وجاءت فرصة تقديم العقاد للمحاكمة بعد شهور قليلة ، وبعد ان شن العقاد حملته العنيفة ضد الرجعية والرجعيين ، بالصورة التى عرضنا لها فى الفصل السابق .

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ قدمت النيابة العقاد للتحقيق ، ومن يومها دخل السجن حتى تمت محاكمته فى ديسمبر ١٩٣٠ ، وانتهت المحاكمة بالحكم على العقاد بالسجن تسعة شهور ، قضاها كاملة وخرج بعدها فى ٨ يـوليو سنـة

١٩٣١ ، ليواصل من جديد كفاحه ضد الرجعية والرجعيين ، منذ اليوم الاول لخروجه من السجن ، وقد ظل العقاد ملتزما بموقفه الصلب على هذه الصورة ، حتى اصطدم بالوفد سنة ١٩٣٥ .

أحيلت قضية العقاد بعد التحقيق معه الى محكمة الجنايات ، وكان المتهم الاول فى هذه القضية هو محمد فهمى الخضرى ، صاحب جريدة المؤيد الجديد ، وكان المتهم الثانى هو عباس العقاد ، وكانت الصيغة القانونية للاتهام كالآتـى :

« أن المتهم الاول محمد فهمى الخضرى بصفته مديرا لجريدة المؤيد الجديد عاب علنا فى الذات الملكية بأن نشر مقالات فى الاعداد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦ الصادرة فى ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، و٢١ ، ٢٤ سبتمبر ١٩٣٠ تشتمل على عبارات العيب ، وان الثانى ـ عباس العقاد ـ بصفته شريكا للاول فى الجريمة المتقدمة ، اتفق معه على ارتكابها ، وساعده مع علمه بها على الاعمال المسهلة والمتممة لها ، بأن حرر المقالات الواردة فى الاعداد المتقدمة ، وسلمها اليه فنشرها ، وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة » . بهذه الصيغة القانونية وجهت محكمة الجنايات التهمة الى العقاد ، وكانت المحكمة مشكلة من المستشارين ، عبد العظيم راشد باشا رئيسا وعبد الباقى القشيرى بك ومصطفى حنفى بك عضوين ، أما ممثل النيابة فكان محمود منصور بك رئيس نيابة مصر الاهلية .

وكان محامى العقاد هو مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد ، والسياسى البارز الموهوب ، والمحامى اللامع فى ذلك الحين ، وقد اخذت المحاكمة منذ اللحظة الاولى طابعا جماهيريا واسعا ، فكتبت جريدة الاهرام عن المحاكمة فى ٢٢ ديسمبر ١٩٣٠ تقول :

« نظرا لاهتمام الجمهور بمثل هذه المحاكمة ، وترقب البوليس ازدحام الجلسة ، فقد ارسلت الحكمدارية قوة كبيرة من البوليس لحفظ النظام ، وكانت تلك القوة وفيرة العدد ، ولكنها مع الاسف لم تتمكن من ضبط النظام ، واخفقت فى مهمتها ، بالرغم مما اظهره فريق من رجالها من عنف واستعمال شدة ، وتطاول على الكثيرين ، وهو مما يؤسف له ، وقد أحضر رجال البوليس

فى الساعة الثامنة الاستاذ العقاد ، يحرسه احد الضباط ، واجلس فى قفص الاتهام مع الاستاذ الخضرى ، وفى منتصف الساعة التاسعة فتحت قاعة الجلسة ، وتدفق الجمهور اليها واحتل جميع المقاعد ، بما فيها مقعد الصحافة ، فاضطر مندوبو الصحف الى التشتت والجلوس فى المقاعد الخلفية ، والوقوف على الاقدام ، وفى ذلك ما فيه من تعطيل لاداء مهمتهم ، ونحن نرجو ان يعنى حضرات الموكول اليهم فى حراسة النظام بهذه المسألة ، وحجز مقاعد لمندوبى الصحف . لقد ازدحمت قاعة الجلسة ازدحاما شديدا وظل عدد كبير من النظارة وقوفا خلف المقاعد » ... هذا هو وصف الاهرام الذى يكشف عن مدى اهتمام الرأى العام بهذه المحاكمة ، وقد استمرت المحاكمة عدة جلسات ، ثم نطق رئيس المحكمة بالحكم فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، وكان نص الحكم : « حكمت المحكمة بحبس المتهم الاول محمد فهمى الخضرى ستة اشهر حبسا بسيطا ، وحبس المتهم الثانى عباس العقاد تسعة اشهر حبسا بسيطا ، ونشر هذا الحكم بثلاث جرائد يومية ، بمصاريف على حساب المحكوم عليهما » .

وعلقت جريدة « الشعب » وهى جريدة اسماعيل صدقى ، وجريدة الحكومة الرجعية وحزبها المفتعل ، الذى أنشأه صدقى لمساندته فى الحكم وسماه باسم حزب الشعب ... علقت هذه الصحيفة الرجعية على هذا الحكم ، فى محاولة لتشويه صورة العقاد فقالت : « لما نطق سعادة الرئيس بالحكم على الخضرى بالسجن ستة شهور اعتقد العقاد ان المحكمة ستدينه ، فتطاول بعنقه وهو فى حالة عصبية ، حتى كادت قدماه لا تقويان على احتماله ، فاستند الى « درابزين » القفص ، فلما اطمأن الى الحكم بتسعة اشهر فقط استعاد بعض قواه وجلس » .

وجريدة « الشعب » بالطبع كانت تحاول التشهير بالعقاد ، تحقيقا لاهداف حكومة صدقى الارهابية المستبدة ، وقد كانت هذه الجريدة مكروهة من الشعب ، وكانت توزع عن طريق فرضها بالاكراه على عمد القرى والموظفين ، وكتبت نفس الجريدة تعليقا بعنوان « عظة القضية » وحاولت ان تنال من العقاد بنفس الطريقة السابقة ، وأن تشوه صورته وان تسىء الى موقفه الوطنى الصلب ... قالت الجريدة فى نوع من التشفى الواضح الذى لا خفاء فيه :

« هناك عظة يخرج شباب هذا البلد بها ، فلا تدفعهم مقالات يقرأونها فى الصحف من كتاب مهيجين ، الى أخذها قضية مسلمة ، فكم قرأوا من تهييجات العقاد افندى ، ما كانوا يتصورون معه انه مثل البطولة الاعلى ، أرسله الله ليقود الجحافل ، ويقتحم المعاقل ، وها هم رأوا كيف خارت عزيمته ، وارتعدت فرائصه ، من حكم امكن لكثيرين من كبار الرجال الذين ساء حظهم أن يحتملوه فليكف الوفديون عن التحدث عن البطولة والابطال ، فإنّ هذا الحادث كان دليل جبنهم بل مضرب الامثال ... وهكذا استطاع هذا الموقف البسيط ان يحنى بل ويسحق رأس الكاتب الكبير » .

أما جريدة مصر الوفدية فقد قالت ان العقاد قد تلقى الحكم بشجاعة ورباطة جأش ، ولا شك ان الصورة التى رسمتها جريدة « الشعب » هى صورة زائفة ، وهى نوع من الحرب النفسية التى شنتها الرجعية فى تلك الفترة ضد العقاد ، ذلك لان كتابات العقاد التى كانت سببا فى دخوله السجن ، كانت تنطق بشجاعته واستعداده لدفع الثمن ، كما ان هذه المقالات كانت تقطع بأنه يتوقع عقوبة من هذا النوع فى أى لحظة ، وبعد ان خرج العقاد من السجن واصل كتابته بنفس القوة والحماس والاندفاع ، مما يؤكد ان نفسية العقاد فى تلك الفترة لم تكن نفسية كاتب متردد خائف فاقد للشجاعة كما حاولت جريدة « الشعب » ان تصوره .

نعود الى الحكم بسجن العقاد ، فنجد ان المحكمة فى حيثياتها قد بنت هذا الحكم على أساس من تفسيرها لكلمتى « الرجعية والرجعيين » فى مقالات العقاد التى نشرها فى المؤيد الجديد سنة ١٩٣٠ ، فقد فسرت المحكمة هاتين الكلمتين ، بأن المقصود بهما هو الملك فؤاد ، وعلى اساس هذا التفسير اعتبرت مقالات العقاد عيبا فى الذات الملكية وحكمت بسجن العقاد .

قالت المحكمة فى حيثيات الحكم وهى الحيثيات التى نشرناها بالنص فى آخر هذا الكتاب كوثيقة تاريخية « ... من حيث ان المطلع على هذه المقالات اى مقالات العقاد ، يجد الادلة تفيض على أن المتهم الثانى ـ العقاد ـ قد اقترف جريمة العيب فى الذات الملكية الرفيعة ، فأسند اليها أمورا ليس فيها فقط اخلال بالواجب المفروض على كل فرد من الاجلال لهذه الذات السامية ، باسناد اعمال

لجلالته تؤذى شعوره ، وتظهره بمظهر المعتدى على حقوق الامة . ومن حيث ان القارىء للمقالات المشار اليها يجد ان « ص »[1] والعقاد قد تلاقيا عند نقطة الرجعية ، ووقع اختيارهما عليها ، وجعلاها عنوانا للمقام الاكبر الجليل ، الذى لا يجرآن على ذكره بالتصريح ، وهو مقام الملك المعظم ، لانهما ذكرا هذا اللفظ فى مناسبات وملابسات تاريخية وسياسية ، تصرفه حتما وبلا عناء فى التفسير والتأمل ، الى حضرة صاحب الجلالة الملك ، كما سيجىء البيان . وعليه فليست كلمة الرجعية فى المقام الذى ذكرت فيه ، واعتبرتها المحكمة بسببه دالة على جلالة الملك ، مقصودا بها كما قال الدفاع « كل فكرة او شخص او هيئة مسئولة الان اوفيما مضى ، عن هدم دستور البلاد او العبث بحرياتها » ، وليس مثلها مثل عبارات الديمقراطية او الديماجوجية ، وليس مقصودا بها لا الاحزاب ولا الوزراء بل الذات الملكية ... »

ومن حيث ان المتهم الثانى « العقاد » كتب بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٣٠ ما يأتى « اعتقادى ان هذه الازمة هى ازمة الرجعية قبل كل شىء ، والرجعيون أعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية ، او لابقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم ، كما كان الطغاة المستبدون يحكمون فى القرون الوسطى ، وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية ، تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ... الى آخر ما جاء فى هذه العبارة ، والمفهوم بداءة من ذلك : ان المتهم الثانى ـ العقاد ـ قصد بالرجعية والرجعيين جهة غير الوزارة الوفدية المراد تأليفها ، ذلك لان الجهة التى تستطيع تأليف وزارة او اسنادها ـ وهو المعنى المقصود هنا ـ جهة ذات سلطان ، وتعيينها على هذا الوجه يصرفها مباشرة الى جلالة الملك الذى يملك وحده حق اسناد الوزارة ـ والتعبير هنا بالرجعية والرجعيين واحد فان اللغة تجيز استعمال الجمع فى مقام المفرد تنويعا فى التعبير » .

---

١ ــ احد كتاب جريدة المؤيد الجديد وكان يكتفى بالتوقيع بالحرف الاول من اسمه ولعله صبرى ابو علم احد الشخصيات الوفدية البارزة فى تلك الفترة .

ثم تواصل المحكمة تفسيرها لكلمة الرجعية على هذا الوجه نفسه وهو ان الرجعية عند العقاد هى الملك فؤاد ، فتقول : « ... ومن حيث ان المتهم الثانى « العقاد » كتب كذلك فى المقال الآنف الذكر ما يلى : « فلا يسعنى ان اعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية ، وان الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية ... هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين ... » وظاهر جليا ان الكاتب اراد جهة الرجعية ذات مكان عال وسلطان عظيم ، وإلا لما استقامت هذه المقابلة ، فلا يمكن افتراض ان الكاتب قد قابل هنا بين سلطة الانجليز وسلطة الوزارة والافراد ، انما البادى للذهن ، والمتبادر للفهم ، انه انما يقابل بين جهتين عظيمتين ، هما جهة الانجليز ، وجهة صاحب الجلالة » .

« ومن حيث ان المتهم الثانى « العقاد » كتب فى المقال المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ العبارة الآتية : اتستطيع الرجعية ان تظن ظنا او تتوهم توهما ، انها هى التى طلبت ذلك « يشير الى الاستقلال » فكان ، او انها كانت تطلبه على اى وجه من الوجوه فيكون ، ـ اتستطيع ان تذكر لنا كلمة واحدة قالتها فى سبيل ذلك ، او تدبيرا واحدا دبرته ، او نية واحدة اظهرتها بأى نوع من انواع الظهور ؟ .. فهذه العبارة قاطعة فى الدلالة ، على ان المتهم انما اراد بلفظة الرجعية جلالة الملك ، لان معنى العبارة لا يستقيم بأى حال من الاحوال اذا كان المراد بالرجعية هنا الوزارة ، كما يقول الدفاع ، اذ المعلوم للكافة ان بعض رجالها على الاقل قام بما ينفى الكاتب صدوره من الرجعية ، انما اراد الكاتب ان يستغل جهل الجمهور بالتقاليد الملوكية ، التى تتنافى مع اظهار ما يبذله الملوك عادة فى هذا السبيل » .

« ومن حيث ان الكاتب « ص » كتب فى مقال نشر فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وافق عليه المتهم الثانى « العقاد » فى مقاله المنشور فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ » « ان الرجعية سعت فى انجلترا ليكون هذا التعديل فى صالحها ، ليحل استبدادها محل استبداد محمد باشا محمود ، فلما لم تفلح فى هذا المسعى ، وعادت الحياة الدستورية ، ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلة للاعتداء على حقوق الامة ، ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا ، فاستقالت حكيمة كريمة ، وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب »

« والمحكمة ليست فى حاجة الى التدليل بأن الرجعية هنا انما يقصد بها جلالة الملك وليس أدل على ذلك من تلك المناسبات التى يذكرها الكاتب ، فليس فى هذا البلد هيئة سياسية فضلاً عن افراد ، تستطيع ان تجعل وزارة النحاس باشا آلة للاعتداء على حقوق الامة ، بحيث اذا لم تقبل تضطر للاستقالة » .

هذه نماذج من تحليلات المحكمة التى ادانت العقاد ، وهى تحليلات تثبت مدى الارهاب الذى فرضه الملك فؤاد على القضاء ، فأصبح القضاة يحاسبون الكاتب حتى على نواياه ، ويحاولون - بجهد كبير - ان يثبتوا التهمة ضد الكاتب لارضاء الملك ، بما يذكرنا بمحاكم التفتيش التى كانت تحكم على الانسان لا بأفعاله واقواله فقط ، بل بنواياه الباطنية التى تفترضها المحكمة على هواها ، وعلى هوى ما تريد ان تصدره من احكام ظالمة ، هدفها تحقيق نوع من الارهاب القانونى ضد الكتاب ، ولمصلحة الملك والرجعية والانجليز .

وأمام هذه المحكمة وقف مكرم عبيد ببلاغته وقوة بيانه ووضوح حججه ، ليقدم دفاعا سياسيا عميقا رائعا عن العقاد ، ويعتبر هذا الدفاع من أجمل واعمق ما تردد فى المحاكمات الفكرية ، فى تاريخنا العربى المعاصر . وقد حرصنا على نشر نص هذا الدفاع فى آخر الكتاب كوثيقة تاريخية .

حدد مكرم عبيد القضية منذ البداية « على انها مأساة أمة تمثلت فى مأساة فرد » ويقول مكرم بعد ذلك : « الواقع ان هذه القضية التى تبدو فى الظاهر بين النيابة والاستاذ العقاد هى فى الحقيقة بين الرجعية والدستور ، أو هى بالاحرى بين مبدأى التأخر والتقدم ، أيا كان الشكل الذى قد يتخذه كل من هذين المبدأين ، او الاسم الذى يتسمى به فى مختلف الازمنة والظروف ، وما العقاد الا خصم للرجعية عنيد ، انهال عليها بضربات قاتلة ، رأت الا قبل لها بها ، فاعتزمت ان تنكل به قبل ان ينكل بها ، ولما لم تقو عليه فرت الى السدة الملكية تتعلق بركابها ، وتتمسح بأعتابها ، ولم تستح ان تتخذ منها ستارا لعيوبها ، فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب فيها » .

ثم يحدد مكرم عبيد معنى الرجعية التى يحاربها العقاد بعنف فيقول :

« ولكن ما هى الرجعية التى عناها العقاد ؟ هى كل فكرة او هيئة او شخص مسئول عن العبث بالدستور ، او بحريات البلاد فى اى زمن من الازمان ، وبما

ان نفس الدستور الذى استمات العقاد فى الدفاع عنه ، يقضى بأن الملك غير مسئول ، وان ذاته مصونة ، فلا يمكن ان ينصرف لفظ الرجعية الى الذات الملكية ، لا موضوعا ولا قانونا » . ثم ينتقل مكرم عبيد بعد ذلك الى تحديد واسع لمعنى الرجعية ، وانصار التقدم والحرية ، وهنا يحاول مكرم ان يستفيد من قضية العقاد لكى يؤكد معنى رئيسا ، كان مكرم عبيد احد رموزه البارزة فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، واقصد بهذا المعنى « الوحدة الوطنية » بين المسلمين والاقباط ، من خلال الدين المسيحى والدين الاسلامى معا ، وبذلك يلعب مكرم دوره فى الربط بين مشاعر المسلمين والمسيحيين من خلال القضية الوطنية ... قضية العقاد ، وهو من ناحية ثانية يقدم تفسيرا سياسيا دقيقا وذكيا للنضال الدينى للانسان .

يقول مكرم عبيد :

« لو ان هذه القصة هى الوحيدة من نوعها ، لجاز ان يكون تصويرنا لها ، وتعليلنا لاسبابها محل ريبة وتشكك ، ولكن الدليل لا يعوزنا ، على ان الرجعية فى صراعها الدائم مع خصومها ، طالما لجأت الى مثل هذا السلاح المعيب ، وهو التحكك بالعرش ، وشخص الجالس عليه ، من غير ان يكون للعرش اى شأن قريب او بعيد فى الخصومة ، واليكم بعض الامثلة على ما ذكرناه ، وهى امثلة رائعة لا يأتيها الباطل من اى ناحية من نواحيها » .

« .. منذ امد بعيد ينوف على الالف وتسعمائة سنة ، ظهر بين الناس رجل من رجال الله الاطهار ، هو كلمة الله وروح منه ، ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا ، لايكاد يجد لجسمه غطاء ولا مثوى ، حتى انه كان يقول عن نفسه : ان لطيور السماء أوكارها ، وليس لابن الانسان مأوى ، وكانت رسالته الى الناس ان اعبدوا الله عبادة الروح والحق ، وانبذوا من الدين تقاليد الرجعيين من رجاله ، اذ هى ليست من الدين فى شىء » .

« خصومة دينية كما ترون ، ولكن الرجعيين من رجال الدين ، لم يجدوا سبيلا للانتقام من خصمهم الا ان ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش ، ورغم قوله صراحة « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فانهم شكوه الى الحاكم الرومانى مدعين انه طعن على قيصر ، ولو ان لخصومه

لسان النيابة المصرية لقالوا بالامس ما تقوله هى اليوم « انه عاب فى الذات الملكية » .

« الا ترون يا حضرات المستشارين ، كيف تلجأ الرجعية حتى فى المسائل التى لا شأن لها بالملك ولا بالملوك ، الى الانتقام من خصومها ، باتهامهم بالعيب فى الذات الملكية ؟ وهل لا ترون بأن الرجعية هى اليوم والامس والى الابد واحدة فى تفكيرها وتدبيرها » .

« ساقوا المسيح الى المحاكم فأخذت الحاكم الرومانى روعة من رنة صوته ، وجلال صمته ، ولما تبينت له براءته من كل عيب اسقط فى يده ، ولم يدر ما عساه يفعل ، ولعله أحس فى النفس حسرة ، او خشى من الضمير ثورة ، فأمر باحضار إناء من الماء وغسل يديه أمام الجميع ، ثم صاح قائلا : « انى برىء من دم هذا البار » ولكن واأسفاه ! فانه برغم مسئوليته واعلان حياده التام ، سلم المتهم البرىء الى خصومه الرجعيين ، وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين ، وأمر جنده من الرومان ان يرقبوا التنفيذ فأحاطوا به مهددين مستهزئين » .

ثم تحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن الرجعية التى واجهت محمدا «ص» فى الصحراء العربية عندما بدأ دعوته الجديدة النبيلة : « لم يكد يمضى على هذا الحدث الجلل قرابة ستمائة عام ، حتى ارتفع من صحراء العرب صوت رهيب عذب ـ ينذر الكافرين فتهلع النفوس لدويه ، ويبشر المؤمنين فتنفتح القلوب لوحيه ... بدأ الرسول الامين بتبليغ رسالته الى بنى قومه ، فدعاهم الى عبادة ربهم ، وتحطيم اصنامهم ، وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الامانة والقناعة والوداعة ان يسندوا اليه مطمعا خفيا ، او يظنوا انه كان يبغى من متاع الدنيا شيئا ، وهو الذى كان يدعو باسم ربه الى الآجلة دون العاجلة ، ولكن زعماء الجاهلية الاولى ـ والجاهلية هى هى الرجعية ـ اتهموه بالطعن على حكمهم ، والطموح الى سلطانهم ، وتمادى بهم الوهم الى حد ان عمه أبا طالب فاتحه فى ذلك ، ولوح له بالحكم والسلطان ، على ان يتنازل عن رسالته ، فما كان من النبى الكريم الا ان قال له : « يا عم ـ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على ان اترك هذا الامر ما فعلت ، حتى يظهره الله او اهلك دونه » . اذن : يستخلص من هذين المثلين الرهيبين ، اللذين هما محل ايمان واجماع ، ان الرجعية لا تتورع

حتى فى المسائل الدينية والنفسية البحتة ، عن اتهام خصومها بالمساس بنظام الملك ، او بشخص ولى الامر ، وذلك تحقيقا للنكاية بهم ، وإمعانا فى الانتقام منهم » .

ثم يقول مكرم عبيد بعد هذا التفسير السياسى للمسيحية والاسلام متحدثا عن قضية العقاد :

« ... فكيف الامر فى قضية كقضيتنا هذه ، تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية ؟ هل من عجب اذا كانت الرجعية السياسية او الحكومية تنقم على الاستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادىء والنظم الدستورية ، فترميه بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وترى من السهل عليها ان تقلب بشىء من التحوير والتفسير والتنقيب بين السطور ، الطعن البرىء فى نظام الحكم الى عيب فى شخص الملك ؟ » ثم يقول مكرم عبيد :

« لا عيب ولا غرابة ، بل الغريب ان نتطلب من الرجعية اساليب غير رجعية ، ولا حياة للرجعية فى جو من الانصاف والحرية » .

ثم يواصل مكرم عبيد دفاعه السياسى المجيد ، فيكشف ان المؤامرة على العقاد ، والرغبة فى الزج به الى السجن ، هى جزء من المؤامرة على الامة كلها ... على حرياتها ودستورها ، ورغبتها فى التقدم والتطور ...

يقول مكرم عبيد :

« ... أما نفسية العقاد بازاء الرجعية الحكومية ، فهى من نفسية الامة جمعاء ، ومثلها مثل رجل رأى بيته عرضة للزلازل والعواصف ، فشرع فى تدعيم جنباته وسد فتحاته ، فجاءت الحكومة غاضبة صاخبة ، وهدت البيت على رأس صاحبه ، ولم تجد لها عذرا فى تحطيمه ، الا ان المسكين شرع فى تدعيمه » .

« واذا كان للعقاد صفة تمتاز بها شخصيته كرجل ، او عبقريته ككاتب وشاعر ، فهى الصراحة التى تأبى المداراة والمواربة ، أو اللف والدوران على حد تعبيره فى بعض مقالاته ، ولو ان النيابة تفهمت نفسيته ، لادركت ان مثل هذه الصراحة ، تأنف ان تستتر وراء لفظ او عبارة ، وانها تعنى ما تقول وتقول ما تعنى » .

« بيد ان هذه الصراحة نفسها ، هى التى حفزت خصومه الى المبادرة بتكميمها . فقد كان العقاد صريحا وجريئا فى هجومه على الرجعية وفضح نياتها ، وكان اول من عناه بالرجعية الوزارة الحالية « وزارة اسماعيل صدقى » كما هو ظاهر من مقالاته . والوزارة خافت اول الامر من تلك الصراحة ، فحاولت اسكاتها بتعطيل الجرائد التى تولى أمرها غيره ، من الكتاب الاحرار ، وها هى اليوم تسوقه الى المحاكمة كما فعلت مع غيره ، وكما ستفعل مع غير هذا الغير من بعد ، اذا طال بهذه الوزارة العهد » .

ثم يقارن مكرم عبيد بعد ذلك بين عقلية العقاد ، وعقلية الرجعية التى يمثلها صدقى وحكومته · « عقليتان احداهما لمصرى حر ، وكاتب فذ ، ونائب من نواب الامة ، رأى البرلمان يغلق ، والاقلام تحطم ، ودعائم الدستور تقوض ، وحرياته تنقص ، فشحذ قلمه ولسانه وفكره ، وهى كل اسلحته ، لمحاربة الرجعية ، والذود عن دستور الامة ، الذى أقسم يمين الولاء له ، والدفاع عنه ، وما كان لمثل العقاد ان يحنث بيمينه واليمين حبة من قلبه ، وعهد الى ربه ، والعقلية الاخرى عقلية وزير تسنم ذروة الحكم على أنقاض الدستور ، وكان مبيتا النية على هدم الدستور ، حتى قبل ان يتولى الحكم ، كما اعترف بذلك فى حديث له الى جريدة المقطم » .

ثم تحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن اجراءات اسماعيل صدقى لخنق الحريات ، وموقف العقاد من هذه الاجراءات . واستعان مكرم فى هذه الفقرة بأبيات لخليل مطران ، دون ان يذكر اسم الشاعر .. يقول مكرم :

« ... ولقد ثارت لهذه الاجراءات الخانقة نفس العقاد الحرة ، فكتب بقلم من نار ، محذرا الوزارة وانصارها من مغبة هذه الاساليب الرجعية ، منذرا اياهم فى أحدى مقالاته بأنه اذا حطمت الاقلام فالالسنة تنطلق ، واذا كممت الافواه فالنفوس تشتعل وكأنه يقول مع القائل :

كسروا الاقلام هل تكسيرها ... يمنع الالسن أن تنطق جهرا
قطعوا الالسن هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شذرا
أغمضوا الاعين هل إغماضها ... يمنع الأنفاس أن تخرج زفرا

ذلكم بيان موجز لنفسيه العقاد ، ونفسية خصومة ، ومنه ترون ان العقاد كان له نصيب الاسد ، فى محاربة الرجعية . فلا عجب ان يكون له اكبر نصيب من نقمتها » .

ويسجل مكرم عبيد بعد ذلك ملاحظة دقيقة وهى : أن « القانون » ليس شيئا مثاليا مطلق العدالة ، بل هو انعكاس لنوع السلطة ولونها ، فان كانت سلطة ارهابية طاغية ، انعكس هذا الطابع الارهابى على نوع القوانين وطريقة تنفيذها . ويقول مكرم عبيد مسجلا هذه الظاهرة ومستنكرا لها :

« ... ولكن اذا لم نعجب من عقلية الوزارة وتصرفاتها الرجعية ، فالعجب ان تكون النيابة ـ وهى الامينة على الدعوى العمومية ـ أداة للرجعية ، وسوطا لنقمتها ، فلم تكتف بأن اتهمت العقاد حيث لا تهمة ، بل سايرت الوزارة فى سبيل الانتقام منه ومن قلمه ، فقررت القبض عليه ، ومعاملته فى السجن معاملة اللصوص ، وفاتها انها بحبس العقاد قد غيبت قلمه ، وفضحت نفسها ، فاتها انها هى نفسها ، وفى تهمة كهذه التهمة نفسها ، لم تقرر القبض على متهم آخر ، لا لسبب الا انه لم يكن عباس العقاد » . ثم يذكر مكرم بعد ذلك النموذج الذى يثبت وجهة نظره ، وهو تغير موقف القانون « بتغير نظام الحكم » :

« ... ما معنى القبض على العقاد وعدم القبض على غيره فيما مضى ، كالاستاذ محمود عزمى مثلا ،! والتهمة واحدة فى الحالتين . والنيابة هى هى لم تتغير . فما الذى تغير اذن ؟ ... هو نظام الحكم ولا ريب . فقد كانت الوزارة وقتئذ دستورية شعبية ، وأصبحت الان استبدادية رجعية . هى الرجعية اذن التى تحرك النيابة ، فتنطق بلسانها وتقبض بسلطانها . اليس كذلك يا رجال النيابة ؟ وإلا فأفتونا كيف تكيلون بكيلين .. فتحللونه عاما وتحرمونه عاما » .

ثم يتحدث مكرم عبيد بعد ذلك عن مرض العقاد ، وسوء معاملته فى السجن ، ويورد مكرم نص رسالة ارسلها العقاد يقول فيها لمدير السجن :

« اننى اذا قلت يا صاحب السعادة : ان الرطوبة فى الزنزانة تتلف صحتى ، وتعرض حياتى للخطر ، فلست اقول غير الواقع ، الذى يتساوى فى العلم به الطبيب وغير الطبيب ، فاننى أصبت فيما مضى بالالتهاب الرئوى والنزلات الشعبية ، وحالة الانف والحنجرة والصدر ، هى عندى معرضة للنزلات التى لا

يسهل شفاؤهامع جو الرطوبة . بل لا تزيدها الرطوبة الا تفاقما واشتدادا ، وهذا عدا عسر الهضم المزمن ، ومرض الاعصاب ، ومن كان فى مثل هـذه الحالة ، يحتـاج الى الشمس حاجتـه الى الحياة ، ويتـوقى الرطوبة كمـا يتوقى السم القاتل » .

ثم يقول العقاد فى رسالته الى مدير السجن ، والتى قـرأها مكـرم عبيد فى مرافعته :

« خلاصة ما اقول ان صحتى تتلف فى هذا الجو الرطب الذى اعيش فيه ، وأن حياتى نفسها معرضة للخطر ، واننى لا اطلب الا الشمس فى المكان الذى ابيت فيه ، وليس من العسير تدبير ذلك » .

ويعلق مكرم عبيد على هذه الرسالة فى مرافعته فيقول :

« أليس هـذا هو التعـذيب بكل معـانيه فى عصـرنا هـذا ، عصر المـدنيـة والنور ؟ ... سجين مريض بصدره يطلب الشمس فيحرمها ؟ ! ورجل فـذ من أنبغ الكتاب المصريين ، واكبرهم نفسا ، وأطهرهم يدا ، يرجو ان ينتقل الى سجن الاجانب ، ليعامل كما يعامل القتلة واللصوص من الاجانب فيستكثـرون عليه ذلك » .

ثم يركز مكرم عبيد بعد ذلك فى دفاعه على تحديد معنى الرجعية عند العقاد ، ليؤكد ان العقاد لم يكن يعنى الملك ، وانما كان يعنى « كل فكرة او شخص او هيئة مسئولة الان ، او فيما مضى عن هدم دستور البلاد والعبث بحرياتها ، وأن لفظ الرجعية لا ينصرف لا فى مبناه ولا فى معناه الى شخص الملك ، سيما وأن الدستور يخلى جلالته من المسئولية ، وينص صراحة على ان اوامر الملك الشفهية او الكتابية لا تخلى الوزارة من المسئولية » .

ويسخر مكرم من موقف النيابة التى تتهم العقاد بـالعيب فى الذات الملكية فيقول :

« ... اما الدليل الاول والاكبر الذى ترتكز عليه النيابة فى تحقيقها ومرافعتها ، فهو من اغرب ما رأينا من ابواب التدليل . فتقول النيابة ان عبارة الرجعية تعنى جلالة الملك . ولماذا ! ؟ الانها لا يمكن ان تعنى الا جلالة الملك . وهنا يتساءل العقاد ايضا لماذا هذا والعبارة عامة لا ذكر فيها لشخص معين ، فتجيب النيابة

بصوت الظافر المنتصر : نعم ... فان عدم ذكرك لشخص معين ، هو الدليل على انك تقصد صاحب الجلالة الملك ... »

ويمضى مكرم عبيد بعد ذلك فى تحليل مقالات العقاد ، لاثبات المعنى العام الذى كان يقصده من الرجعية ، وأنه لم يكن يقصد الملك بهذه العبارة ...

يقول مكرم عبيد :

« ان الرجعية هى من العبارات المصطلح عليها ، والتى تستعمل لذاتها ، فيفهم الناس مدلولها بمجرد الاطلاع عليها ، من غير حاجة الى تعيين اشخاص او نظم ، مثلها فى ذلك مثل عبارات الديمقراطية ، والارستقراطية ، والديماجوجية ، والاستعمار الخ وليس أدل على ما ذكرنا من تعريف الاستاذ العقاد نفسه للرجعية ، فقد سئل منذ أول التحقيق عن المعنى الذى يقصده من كلمتى الرجعية والرجعيين فى مقالاته فأجاب من غير تردد « الرجعية هى مجموعة عوامل مختلفة ، تكره التقدم ، وتدعو الى الجمود على القدم فى كل شىء ، سواء كان سياسة أو اجتماعا أو تفكيرا ، وهى قديمة العهد فى مصر بطبيعة تكوينها ، ولها مظهر تبدو به فى كل ظرف من الظروف فى تاريخ النهضة المصرية » ـ ثم تكلم عن الرجعيين فى الادب والدين إلى أن قال . « وفى السياسة يوجد رجعيون يكرهون الدستور ، ويشيعون عنه اشاعات باطلة ، ويستعينون على هدمه بطلاب المصالح الشخصية ، وقد كان هؤلاء الرجعيون موجودين فى مظهر من المظاهر قبل خمسين سنة » .

نكتفى بهذا القدر من تلخيص دفاع مكرم عبيد عن العقاد ، ويستطيع من يحب مراجعته ، أن يقرأه فى آخر هذا الكتاب ، حيث حرصنا على نشره كاملا ، كما سبقت الاشارة لقيمته كوثيقة تاريخية . على ان هذا الدفاع السياسى والقانونى الممتاز ، الذى قدمه مكرم عبيد عن العقاد ، لم يغن شيئا امام المحكمة التى أدانت العقاد ، وان كانت قد سجلت تقديرها لجهد مكرم عبيد بقولها ، فى حيثيات الحكم : « ان الدفاع عن المتهم الثانى ـ العقاد ـ قد بذل جهدا محمودا ، محاولا طى هذه الصحف التى سودها المتهم المذكور بقلمه ، وإسدال ستر على ما فيها ، ولكن الجهد مهما بلغ ، ما كان ليستطيع ان يدارى جريمة واضحة ، وأدلة قائمة بينة ، بل أن مهمة الدفاع كانت فوق كل مجهود ، والتهمة لا دافع لها » .

وهكذا انتقمت الرجعية سنة ١٩٣٠ من العقاد ، ولكن هذا الانتقام لم يستطع ان يمحو اثر كلمات العقاد القوية فى نفوس الجماهير ، حتى لقد كانت المحاكمة نفسها تشهيرا بالرجعية ، وتمجيدا لقلم العقاد الحر . حيث استفاد مكرم عبيد من دوره كمحام ليؤكد آراء العقاد ، ويدافع عنها ، ويرددها ويشرحها ويفسرها ، فجاءت المحاكمة فصلا آخر ، من فصول الحرب العنيفة التى شنها العقاد، مع القوى الوطنية فى مصر ضد الرجعية ، ممثلة فى الملك وفى حكومة اسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ . وفى السجن قام على ماهر وزير الحقانية فى وزارة صدقى ، بزيارة العقاد ، ولكن العقاد رفض أن يرد تحية على ماهر ، بل استقبله وهو مستلق فى سريره ، وقد مد رجليه وجعل حذاءه فى وجه الوزير ، ويبدو أن العقاد قد أحس بأن على ماهر كان يزوره ليتشفى فيه ، كما أن على ماهر – من ناحية – كان الوزير المسئول عن القضاء ، ولا شك أن القضاة الذين حاكموا العقاد وأدانوه ، قد فعلوا ذلك بتوجيه وتشجيع من وزير الحقانية ، فهو مسئول بالمشاركة فى محاكمة العقاد ، وفى ادانته والحكم عليه بالسجن ، على أن على ماهر يقول أن زيارته للعقاد فى السجن ، كانت محاولة بريئة من جانبه ، للاطمئنان على العقاد ، والتخفيف عنه ، ولم تكن محاولة للتشفى والانتقام ، ولكن الذى لا شك فيه ، ان على ماهر كان احد المسئولين الرئيسيين عن محاكمة العقاد وسجنه ، ولا يمكن تبرئته من مسئولية هذه الجريمة التاريخية .. وعندما خرج العقاد من السجن لم يخرج متخاذلا خائفا ، بل استمر فى هجومه على الرجعية منذ اليوم الاول ، وكان استمراره فى معركته عاملا من العوامل القوية ، التى ساهمت فى اسقاط حكومة اسماعيل صدقى سنة ١٩٣٤ ، لقد انتهى طغيان صدقى ، وكان للعقاد فى القضاء على هذا الطغيان دور كبير واضح ، وهو دور مشرق ومشرف معا . وفى اليوم الذى خرج فيه العقاد من سجن مصر العمومى بالقلعة ، فى ٨ يونيو سنة ١٩٣١ ذهب إلى ضريح سعد ، وألقى هناك قصيدته المشهورة ، التى يؤكد فيها ولاءه للثورة الوطنية ، والتى قال فيها مشيرا الى الشهور التسعة التى قضاها فى السجن :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر   وهأنذا فى ساحة الخلد أولد

عداتي وصحبي لا أختلاف عليهما سيعهدني كل كما كان يعهد

وكتب العقاد بعد خروجه من السجن مقالا بعنوان « بقية من مداد » نشره فى جريدة مصر فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٣١ ... وفى هذا المقال يتحدث عن القلم الذى تسلمه من « الامانات » ، بعد خروجه من السجن . وتصور ان هذا القلم بعد تسعة اشهر من السجن ، لابد ان يكون خاليا من المداد ، ولكنه فوجيء بأن مداده القديم مازال فيه ... أو فيه منه بعض القطرات ، وفى كلمات شعرية جميلة يتحدث العقاد عن قطرات المداد التى وجدها فى قلمه ، ويتحدث من خلالها عن واجب الكاتب ورسالته ، وفى هذه الكلمات يكشف العقاد عن اصراره على موقفه الوطنى بعد خروجه من السجن وحرصه على ان يواصل رسالته ويؤدى دوره كاملا دون خوف او ارتباك ، بعد ما اصابه من السجن والاضطهاد ... يقول العقاد فى هذا المقال الجميل ـ ولعله اول مقال كتبه بعد خروجه من السجن ، منددا بارهاب صدقى وحكمه الرجعى الذى بدل الدستور ، وأراق دماء الاحرار فى الطرقات :

« قطرات من المداد ، بعد زهاء مائتين وسبعين يوما فى غيابات السجون ... يا لك من قطرات كريمة فى قلم كريم ! . وتريدين ايتها القطرات ان تلمسى النور كما كنت تلمسين ، وتريدين ان تؤدى الامانة كما يجب ان تؤدى ، وان تقولى فى هذا الزمن الاسود أشد من سوادك ـ كل ما يجب ان يقال ؟ يالك اذن من قطرات كريمة فى قلم كريم ! .

« انك اذن لا تعلمين ما حدث بعدك فى مصر ، وما يحدث فيها من غير وكوارث ، لا يحصرها قلم طليق ولا حبيس ، ولا يشملها حساب عسير ولا يسير ... انك اذن لا تعلمين ان دستورا تبدل ، وشريعة نسخت ، وارواحا فاضت على قوارع الطرقات ، ارخص ما تفيض الارواح وبيوتا اصبحت سجونا لساكنيها ، وسجونا اصبحت بيوتا للمحشورين فيها ، وحقا هان ، وباطلا عز ، ونفوسا آدمية بات كل ما عندها من حرية تحت سماء الله وفوق ارضه ان تأكل وتشرب ، ان وجدت سبيلا الى الشراب والطعام ... انك اذن لا تعلمين كل هذا ، ولا تعلمين فيما حدث كل هذا ... لا تعلمين انه من اجلك انت ومن اجل مثيلاتك من أقلام الكاتبين ، وكلمات الناطقين ، قد وضعت هذه الاسوار ، وأرصدت هذه

الارصاد . ولا تعلمين كيف اعتد قوم لكل قطرة منك طوفانا من المدافع والحدود ، وبركانا من البروق والرعود ، ولا تعلمين كيف فزع منك ومن مثيلاتك ايما فزع ، وفيما اتقوك انت ومثيلاتك ايما اتقاء ، فلو كنت سيلا من سيول العرم تجرفين وتعصفين وتفرقن وتزهقين ، لما خافوك بعض هذه المخافة ، ولا تحصنوا منك بعض هذه الحصانة ... فى قوانين الصحافة » .

« انت لا تعلمين هذا ولا تعلمين اى طراز من القلم يريدون ، واى صفة من صفات القلم يشرطون . فأما عهدك بهذه الاداة الضعيفة المخيفة ، فذاك ان تريها جواد ميدان بكر بفارسه ، حيث يحمله الاقدام ويدفعه الواجب وتدعوه حومة الجهاد » .

« وأما شرطهم فى هذه الاداة الضعيفة ، فذاك ان يروها حصان بهلوان ، يظل حياته يقفز بين الحواجز ، ويرقص على الطبل ، ويركع بين يدى النظارة ، وتحت هوامز المرتزقة بالالاعيب » .

« شرطهم ان يكون المداد أرخص مبذول ، وهو حين يحمل امانة الضمير اغلى من الدم الغالى ، وأصون من ماء العيون : فهل تريدين بعد هذا ايتها القطيرات ، ان تؤدى الامانة كما يجب ان تؤدى ، وأن تقولى فى هذا الزمن الاسود ، اشد من سوادك ـ كل ما يجب ان يقال ؟ »

ويختم العقاد مقاله المؤثر الجميل بقوله :

« فعلى بركة الله ايتها البقية من مداد ، وعلى بركة الله كل قطرة تلحق بك وتجرى فى مجراك . شأنك والحرية ! ولا شأنك معنا ولا شأن مثيلاتك طول العمر ، الا كشأن كل فيض لا يغيض وكل مد لا ينفد وستنظرين وينظر القوم غدا ، انك لن تفقدى ـ بعد ـ قطرة تشيعينهم بها كما شيعت غيرهم ، وتذكرينهم بها كما يطيب للناس ذكرهم ، وسيبحثون هم يومئذ عن بقية مداد فى أقلامهم ، يصدرون بها الاوامر ويصوغون بها القوانين فلا يجدون ... ولا تغنى عنهم الاوامر ولا القوانين » .

وهكذا التزم العقاد بعد خروجه من السجن بنفس موقفه قبل السجن .. التزم بأن يكون كاتبا ثوريا حرا ، معبرا عن آمال الشعب ومطالبه ، وعدوا لا يهدأ للرجيعة ومؤامراتها على الحرية والدستور والوطن .

وقد واصل العقاد بالفعل موقفه بنفس الصلابة والقوة ، حتى حوالى سنة ١٩٣٧ ... وبعدها انتقل من موقفه الثورى ، الى مواقع الرجعيين ، تحت تأثير ظروف عديدة ، سوف نعرض لها فى الفصول القادمة من هذا الكتاب .

ومن المصادفات الغريبة ان يصدر العقاد عن حياته فى السجن كتابا ، هو « عالم السدود والقيود » ، وقد أصدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ ، بعد ان انتقل من معسكر الثورة الوطنية ، الى معسكر الرجعيين ... ومن هنا جاء هذا الكتاب بعيدا تمام البعد عن تصوير حقيقة قضية العقاد ، وصراعه السياسى العنيف ضد الرجعية ... لقد اقتصر العقاد على تسجيل ملاحظاته الانسانية والنفسية « السيكولوجية » على السجن والسجناء ، فهو يتحدث عن ضرورة توفير اسباب العلاج الجسدى والنفسى للسجناء ، ولا يتعرض ابدا فى هذا الكتاب لقضيته الحقيقية ، أو لاسباب سجنه ، وكأنه كان مسجونا فى حادث سرقة ، او هتك عرض ، او جريمة قتل ، ولم يكن مسجونا من اجل فكرة حرة ودعوة ثورية ! .. ان العقاد لا يتعرض فى هذا الكتاب لمعركته مع الرجعية وصراعه ضدها ، وهو الصراع الذى ادى به الى السجن . لقد تجاهل العقاد فى كتابه هذا الجانب من جوانب قضيته ، وهو جانبها الاساسى ، ولذلك جاء الكتاب قاصرا كل القصور ، وضعيفا أشد الضعف ، وهو بعد ذلك محاولة من العقاد ، لطمس معالم قضيته السياسية ، ولا تفسير لذلك الا انه كان فى تلك الفترة ، سنة ١٩٣٧ ، يسعى الى الصلح مع الرجعية ، التى كانت معركته ضدها سببا فى سجنه ... لقد بدأ العقاد صلحه مع الرجعية بهذا الكتاب الغريب « عالم السدود والقيود » ، وحرص على الا يذكر موقفه فى البرلمان ضد الملك فؤاد ، ولا كتاباته الثورية المتطرفة ضد الرجعية ، ولا حقيقة المحاكمة الارهابية التى أعدت له كلون من ألوان العقاب والتهديد والتأديب ، وبذلك حاول العقاد أن يطمس صفحة من اغلى صفحات تاريخه الوطنى والسياسى ، فى سبيل صلحه مع الرجعية ... وكأنه يطلب منها

الغفران ، ويقدم شهادة ميلاد جديدة له ، يريد بها من الرجعية ان تنسى ماضيه وتغفره فى نفس اللحظة .

وقد نسيت الرجعية ماضى العقاد وصفحت عنه ومدت اليه يدها سعيدة بأن تكسب كاتبا مثله بين صفوفها ، وكان هذا الكتاب بأكمله عملا مؤسفا ، بدأ به العقاد طريقا جديدا فى السياسة ... فبعد ان كان كاتب الشعب اصبح كـاتب الرجعية .

على ان قصة العقاد مع الثورة الوطنية لم تنته بعد ، ومازال فيها صفحات مثيرة أخرى ، قبل ان نصل إلى سنة ١٩٣٧ .

العقاد وحرية الفكر

كانت حرية الفكر من أثمن ما دافع عنه العقاد ، وحرص على تأييده خلال ارتباطه بالثورة الوطنية فى مصر ، وقد وصل فى دفاعه عن حرية الفكر الى الحد الذى أدى به كما رأينا فى الفصل السابق الى دخول السجن ، من اكتوبر ١٩٣٠ الى يوليو ١٩٣١، وذلك على اثر هجومه على الملك فؤاد، لانه كشف نواياه فى تغيير دستور ١٩٢٣ ، ليقضى بهذا التغيير على ما ينادى به هذا الدستور من حرية فى التفكير والتعبير . ولم يكن موقف العقاد من حرية الفكر موقفا نظريا ينادى بهذا الرأى ، دون ان يعمل على تطبيقه ، ولم يكن موقفا سياسيا يدافع فيه عن حزب من الاحزاب ، وهو حزب الوفد الذى كان ينتسب اليه سنة ١٩٣٠ ضد طغيان الملك والاحزاب المؤيدة له ... كلا ... بل لقد كان موقف العقاد أبعد من ذلك ، فقد كان يلتزم بموقف الدفاع عن حرية الفكر حتى مع اعدائه السياسيين ، وحتى مع الذين يختلفون معه فى الرأى والفكر والنظرة الى الامور .

وفى حياة العقاد ثلاثة مواقف تكشف لنا بوضوح عن شدة ايمانه ـ فى فترة ارتباطه بالثورة الوطنية من ١٩١٩ الى ١٩٣٧ ـ بحرية الفكر وحرية التعبير .

اما الموقف الاول فهو موقفه من قضية كتاب « الاسلام واصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق . وقد صدر هذا الكتاب فى ابريل ١٩٢٥ . فأثار الكتاب ضجة واسعة ، وأدى الى محاكمة دينية لمؤلفه ، انتهت فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥ بقرار هذا نصه :

« حكمنا نحن شيخ الجامع الازهر ، باجماع اربعة وعشرين عالما معنا ، من هيئة كبار العلماء ، باخراج الشيخ على عبد الرازق ، احد علماء الازهر ، والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ، ومؤلف كتاب

« الاسلام وأصول الحكم » من زمرة العلماء » ... وكان هذا القرار موقعا من الشيخ محمد ابو الفضل شيخ الجامع الازهر آنذاك ، وهو الذى كان يرأس المحكمة الدينية ، التى عقدت لمحاكمة الشيخ على عبد الرازق . وقد صدر هذا الكتاب على اثر قيام مصطفى كمال فى تركيا فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ بالغاء الخلافة العثمانية ، وما تبع ذلك من اتجاه عدد من الملوك العرب ، الى العمل على وراثة لقب خليفة المسلمين ، لما يحمله ذلك اللقب من تدعيم للمركز السياسى لمن يحصل عليه ، فالمفروض ان يمتد نفوذ هذا الخليفة الى أبعد من منطقة نفوذه السياسى الحقيقى ، لانه سوف يصبح خليفة للمسلمين فى كل مكان . وكان من بين الطامعين فى هذا اللقب الملك فؤاد . وقد بذل فؤاد كثيرا من الجهد ، لكى ينال هذا اللقب الكبير . وفجأة ظهر كتاب الشيخ على عبد الرازق ليقول « ان الخلافة ليست اصلا من أصول الاسلام ، وليس فى القرآن - او السنة النبوية ما يشير الى الإمامة والخلافة » ... وأخذ الشيخ على عبد الرازق يبرهن فى كتابه على سلامة هذا الرأى ، الذى كان يعنى من الناحية الواقعية نسفا لكل محاولات الملك فؤاد فى ان يصبح خليفة للمسلمين . كما ان على عبد الرازق قد اثار فى هذا الكتاب كثيرا من الآراء والمناقشات التى دفعت عددا كبيرا من رجال الدين للوقوف ضده ، مثل قوله « ان حكومة ابى بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة « لا دينية » بدلا من وصفها - كما يقول الاستاذ محمد عمارة فى كتابه الاسلام وأصول الحكم دراسة ووثائق صفحة ١٧ - ، « بأنها حكومة سياسية مدنية مثلا » وذلك فى وقت كانت كلمة لا دينية تعنى « الزندقة والالحاد » ... كل ذلك وأمثاله - كما يقول الاستاذ عمارة ايضا « يجعل وقوف العديد من رجال الازهر ، ضد هذا الكتاب امرا بديهيا والاعتراض عليه من قبلهم امرا طبيعيا ، بل ويجعل الامر غير الطبيعى والشاذ هو سكوتهم عنه ، ناهيك بالرضى عما جاء فيه » ... على ان الذى يعنينا فى هذه الدراسة عن العقاد ، هو ما أثاره كتاب على عبد الرازق من اختبار لمدى الايمان بحرية الرأى والفكر والتعبير لدى الاطراف المختلفة فى الحياة الفكرية عند صدور الكتاب . فقد لقى على عبد الرازق هجوما شنه عليه كثير من المفكرين كان على رأسهم صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا ، ولكن العقاد كان على رأس الذين دافعوا عن الشيخ على عبد الرازق ...

ودافعوا على وجه الخصوص عن حريته فى التفكير والتعبير عن آرائه . ولا تبدو لنا قيمة دفاع العقاد عن الشيخ على عبد الرازق ، وأهمية هذا الدفاع ودلالته على مدى ايمان العقاد بحرية الرأى والتفكير والتعبير ، الا اذا وضعنا امامنا هذه الاعتبارات الثلاثة :

الاعتبار الاول - ان كتاب الاسلام وأصول الحكم قد تضمن فى بعض صفحاته هجوما جريئا يكاد ان يكون هجوما مباشرا على الملك فؤاد . فمؤلف الكتاب يقول على سبيل المثال : « لولا ان نرتكب شططا فى القول ، لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة الى وقتنا هذا ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة ، وليتبين ان ذلك الذى يسمى عرشا ، لا يرتفع الا على رؤوس البشر ، ولا يستقر الا فوق أعناقهم ، وان ذلك الذى يسمى تاجا ، لا حياة له الا بما يأخذ من حياة البشر ، ولا قوة الا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم »[1] ... هذا نموذج مما كتبه على عبد الرازق ... وهو يكشف عن ان الدفاع عن مثل هذا الكتاب ، معناه الوقوف بوضوح ضد الملك فؤاد ومعاداته والتعرض لبطشه وغضبه ... وقد كان هذا الامر - ولا شك - واضحا تماما فى ذهن العقاد ، وهو يحمل قلمه للدفاع عن على عبد الرازق ، فالعقاد كان يعيش فى قلب الحياة السياسية آنذاك ، وهو يعرف حقيقة موقف الملك فؤاد ، ويعرف ميله الواضح الى الطغيان والاستبداد .

الاعتبار الثانى - ان الهجوم ضد على عبد الرازق ، قد امتد الى اتهامه ببعض التهم العنيفة ، التى كانت تبدو خطيرة ومثيرة ، الى أبعد الحدود فى ذلك الحين « سنة ١٩٢٥ » .

ومن هذه التهم ما وجهه الشيخ محمد شاكر ، احد كبار علماء الازهر ، فى مقال له الى الشيخ على عبد الرازق من اتهام يقول فيه ان على عبد الرازق « يحبذ أن تقوم فى مصر جمهورية لا دينية ، وانه ثائر على الحكومة وخارج عن نظمها الثابتة » .

---

١ — محمد عمارة - الاسلام واصول الحكم ، دراسة و وثائق ، ص ١٠ .

بل لقد جاء فى حكم هيئة كبار العلماء ضد الشيخ على عبد الرازق ، اتهام أخطر ـ فى ذلك الحين ـ من الاتهام السابق ، وخاصة بالنسبة للرأى العام المتدين ... تقول هيئة كبار العلماء فى قرارها : ان الشيخ على عبد الرازق يقف فى كتابه من المسلمين ، « موقف الطاعن على دليلهم الدينى ، والخارج على اجماعهم المتواتر على شكل حكومتهم الدينية ، او موقف المجيز للمسلمين اقامة حكومة بلشفية ، وكيف ذلك والدين الاسلامى فى جملته وتفصيله يحارب البلشفية ، لان البلشفية فتنة فى الارض وفساد كبير . لقد وضع الدين الاسلامى للمواريث احكاما ، يلجأ اليها أحيانا غير المسلمين ، لما فيها من الرحمة والعدل ، وأوجب على المسلمين مقادير من الصدقات ، تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، وأمر باقامة الحكومة الدينية التى تحفظ لكل ذى حق حقه ، ولكل عامل ثمرة عمله ، وجعل للدماء والاعراض والاموال حرمة لا يجوز انتهاكها ، وضرب على أيدى المفسدين فى الارض ، وحسبنا فى ذلك ان نقول : ان البشلفية تهدم نظام المجتمع الانسانى ، وتضيع حكمة الله فى جعل الناس درجات ينتفع بعضهم من بعض(١) » .

هذا هو الاتهام الخطير الثانى الذى وجهه علماء الدين الى على عبد الرازق ، فبعد اتهامه بأنه يدعو الى جمهورية لا دينية ، يقوم ضده اتهام جديد أعنف وأخطر بأنه داعية الى البشلفية أى الشيوعية .

وهاتان التهمتان الخطرتان فى ذلك الحين ، تعطيان لدفاع العقاد عن الشيخ على عبد الرازق مزيدا من القيمة ، والتعبير عن الجرأة والشجاعة الفكرية .

الاعتبار الثالث : وهو اعتبار دقيق وهام بالنسبة للعقاد ولدفاعه عن على عبد الرازق ، فقد كان العقاد وفديا مرتبطا أشد الارتباط بحزب الوفد وزعيمه سعد زغلول ، وكان على عبد الرازق مرتبطا أشد الارتباط بحزب الاحرار الدستوريين ، وهو الحزب الذى قام على اساس معارضة الوفد والوقوف ضده ، ومن هنا يكون موقف العقاد تجاوزا للموقف الحزبى ، فى دفاعه عن مفكر يقف فى صفوف حزب معارض .

---

١ ــ المرجع السابق ص ٨٩ .

.. هذا الموقف من جانب العقاد ، هو دليل لا شك فيه على شدة ايمان العقاد بالقيمة التى يدافع عنها ، وهى حرية الفكر والتعبير والرأى . ويتضح لنا هذا الموقف بصورة أعمق ، عندما نعلم ان سعد زغلول زعيم الوفد كان معارضا لكتاب على عبد الرازق ، ولا شك ان العقاد كان يعرف رأى زعيم الوفد ، فقد كان وثيق الصلة به ، وليس من المعقول الا يناقشه فى مثل هذه القضية الهامة ، وقد جاء هذا الرأى فى كتاب « سعد زغلول ذكريات تاريخية طريفة » لمحمد ابراهيم الجزيرى الذى كان سكرتيرا خاصا لسعد زغلول ، وقد صدر هذا الكتاب بعد وفاة سعد زغلول بفترة طويلة .. يقول سعد زغلول عن كتاب « الاسلام وأصول الحكم » :

«لقد قرأت هـذا الكتاب بـامعان لا عـرف مبلغ الحملات عليـه من الخطأ والصـواب ، فعجبت كيف يكتب عالم دينى بمثـل هذا الاسلوب فى مثـل هذا الموضوع ؟ ! ... وقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن منهم فى الاسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير ، على نحـو ما كتب الشيـخ على عبد الرازق .. لقد عرفت انه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياتـه ، وإلا كيف يدعى ان الاسلام ليس مدنيا ولا هو نظام يصلح للحكم ؟ فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الاسلام ؟ هل البيع والاجارة اوالهبة او اى نوع آخر من المعاملات ؟ ألم يدرس شيئا من هذا فى الازهر ؟ أو لم يقرأ ان امما كثيرة حكمت بقواعد الاسلام فقط عهودا طويلة كانت انضر العصور ؟ وأن امما لا تزال تحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة ؟ فكيف لا يكون الاسلام مدنيا ودين حكم ؟ » .

ثم يقول سعد زغلول بعد ذلك :

« ... وما قرار هيئة كبار العلماء باخراج الشيخ عـلى من زمرتهم الا قـرار صحيح لا عيب فيه ، لان لهم حقا صريحا ـ بمقتضى القانون او بمقتضى المنطق والعقل ـ ان يخرجوا من يخرج على انظمتهم من حظيرتهم ، فذلك أمر لا علاقة له مطلقا بحرية الرأى ...» .

ثم ينهى سعد زغلول رأيه فى كتاب على عبد الرازق بقوله : « وكم وددت ان

يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين قواعد الاسلام الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها » .

هـذه هى الاعتبارات الثـلاثة التى تعـطى لدفاع العقـاد عن الشيخ عـلى عبد الرازق قيمة وأهمية كبرى حيث تدل دلالة راسخة على مدى ايمانه بحرية الرأى ... فهو يدافع عن الشيخ على عبد الرازق رغم انه يواجه الملك فؤاد بعنف فى كتابه ، ورغم انه معرّض لتهمة هدم نظام الحكم وتهمة البشلفية ، ورغم انه لا يحظى بأدنى تأييد من زعيم حزب الوفد الذى ينتسب اليه العقاد .

بقى أن نقرأ ما كتبه العقاد فى دفاعه عن على عبد الرازق ، ففى عدد ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٥ من جريدة البلاغ مقال بعنوان : « روح الاستبـداد فى القوانـين والآراء » وفى مقدمة هذا المقال يقول العقاد :

« من معانى الاستبداد فى القوانين ، أن تكون أحكامها مطلقة غير مقيدة بنص يتواضع عليه الحاكمون والمحكومون ، ويلتزم القضاء حدوده ، كما يلتزمها كل فرد يدان بتلك الحدود ، فان القوانين توضع لتقييد القضاء ، كما توضع لتقييد المأخوذين بها ، ولا معنى لقانـون لا يعرف منـه المتهم هل هـو برىء ام مـدين الا اذا نطق القاضى بالحكم ورجع الى تقديره الشخصى الذى قد يختلف عن تقدير اكثر الناس ، بل قد يختلف احيانا عن تقدير غيره من القضاة ، والمشتغلين بالقانون . وليس الحكم المطلق الا نوعا من اطلاق « الشريعة » وردها الى الآراء المتضاربة ، والتقديرات المتفاوتة ، لا الى النصوص الواضحة التى يتفق عليها الجميع » .

ثم يتحدث العقاد فى نفس المقال عن قضية الشيخ على عبد الرازق فيقول :

« على أننا نخشى ان تكون الروح الاستبدادية ، قد سرت من هذه الوزارة الى بعض جوانب الرأى العام ، فنسينا ما يجب لحرية الفكر من الحرية وما ينبغى للباحثين من الحقوق . اقول هذا بمناسبة الضجة التى أثارها بعض الكاتبين ، حول كتاب صدر حديثا فى « الاسلام وأصول الحكم » لاحد القضاة الشرعيين ، فقد رأينا أناسا يطلبون محاكمة المـؤلف ، أو تقديمـه الى مجلس ينشأ لاجله خصيصا ، ثم لمن يقتدون به فى المستقبل من المؤلفين ، أو رأينا أناسا يطلبون من الوزارة أن تصـادر الكتاب ... وهى الوزارة التى نستكثـر عليها ان تصـادر الصحف بعد تقديمها الى القضاء ! فهالنا الامر ، ورجعنا الى الكتاب الذى اقاموا

حوله هذه الضجة ، فما وجدنا فيه مسوغا لشيء من هذا الذى يجترئون على طلبه ، وينسون انهم يطلبون به خنق الحرية ، وتسليم الوزارة وأتباعها سلاحا تشهره فى كل لحظة على رؤوس الكتاب والباحثين ، وما وجدنا فى الكتاب الا أن صاحبه يرى فى الخلافة رأيا يستند فيه الى الاحاديث النبوية ، ومأثورات الصحابة وأقوال الفقهاء ، وليس يعنينا هنا أخطأ فى الاستناد والتخريج أو أصاب وانما الذى يعنينا انه صاحب رأى يباح له أن يعلنه ، كما يباح لغيره أن يرد عليه ويفنده ، أما ان يحاكم او يقسر على ترك رأيه ، لانه خالف به بعض العلماء او غير العلماء ، فهذا ليس من روح الحرية التى تحمينا جميعا ، ويجب علينا ان نحميها جميعا ، وليس من روح الدين الذى يغارون عليه ، ويشنون هذه الغارة باسمه ... وان من العزاء للمتشائمين فى هذه الضجة التى ثارت حول « الاسلام وأصول الحكم » ان نعلم ان اكثر القائمين بها ، مدفوعون اليها بدوافع لا علاقة لها بالعقائد والآراء ، وأنها لم تمنع ان يروج الكتاب بين الخاصة والعامة ، وأن يقبل على قراءته الذين حذروا من الاطلاع عليه ، وان فى ذلك لعبرة فى الرأى بالمصادرة والاستبداد ، ودرسا لمن يحاربون التفكير بغير البحث الحر والانتقاد المشروح » .

ثم يختم العقاد مقاله بقوله عن الشيخ على عبد الرازق :

« أننا لا نعرف صاحب « الاسلام وأصول الحكم » اذا رأيناه فى الطريق ، وليس هو من شيعتنا فى السياسة او غير السياسة ، فنحن لا ندافع عن شخصه ، ولا عن مذهبه السياسى ، حين نكتب هذه الكلمة ، ولكننا نود أن يعلم الذين لا يعلمون ، ان قد مضى الزمان الذى يتصدى فيه جماعة من الناس ، بأى صفة من الصفات ، لاكراه الافكار على النزول عند رأيها ، واستمداد الحرية فى البحث من فضلات ما تسخو به لانصارها والمتمسحين فيها » .

هذا هو موقف العقاد فى دفاعه عن حرية الرأى والفكر والتعبير ... لقد اتخذ هذا الموقف الصريح ، رغم ما فى هذا الموقف من مخاطر ؛ فهو رأى يثير الملك فؤاد ورأى يثير علماء الدين المعارضين للشيخ على عبد الرازق ، والذين يتهمونه بأعنف الاتهامات ، وهو رأى يناصر مفكرا يقف بقوة فى صفوف الحزب المعارض

لحزب العقاد ، وهو أخيرا رأى يتعارض مع رأى زعيم الوفد سعد زغلول ... وهو الحزب الذى كان العقاد ينتسب اليه ويكتب فى صحفه ويحتل فيه مكانا بارزا .

على أن موقف العقاد من حرية الفكر ، قد امتد الى معارك اخرى فى هذه الفترة ، فقد اشترك العقاد فى الدفاع عن طه حسين ، عندما ثارت عاصفة حول كتابه « الشعر الجاهلى سنة ١٩٢٦ » فقد دافع العقاد عن طه حسين ، وحقه فى البحث الحر ، والتفكير الخالى من القيود . ونستطيع ان نعرف قيمة موقف العقاد هنا أيضا فى دفاعه عن طه حسين ، لو عرفنا الظروف المختلفة المحيطة بموقف العقاد فى هذه القضية . فمن ناحية نجد ان العقاد فى تلك الفترة كان وفديا ، بل كان أبرز كاتب من كتاب الوفد ، وكان عضوا فى مجلس النواب الذى يرأسه زعيم الوفد سعد زغلول ، بينما كان طه حسين منتميا الى حزب الاحرار الدستوريين ، وهو الحزب المعادى للوفد والمعارض له . ولكن العقاد لم يحسب حسابا لهذا الاختلاف الحزبى ، وسارع الى الوقوف بجانب حرية الرأى والبحث والتفكير والتعبير .

ومن ناحية أخرى نجد ان زعيم الوفد سعد زغلول ، كان له رأى خاص فى كتاب « الشعر الجاهلى » لطه حسين ، فقد خطب سعد زغلول فى احدى المظاهرات التى قامت ضد طه حسين فقال :

« ان مسألة كهذه لا يمكن ان تؤثر فى هذه الامة المتمسكة بدينها ، هبوا ان رجلا مجنونا يهذى فى الطريق ، فهل يضير العقلاء شىء من ذلك . ان هذا الدين متين ، وليس الذى شك فيه زعيما ، ولا إماما تخشى من شكه على العامة ، فليشك من يشاء ، ماذا علينا اذا لم تفهم البقر » .

هذا هو رأى سعد زغلول فى طه حسين وكتابه فى الشعر الجاهلى ، وقد كان من المنتظر ألا يعارض العقاد ، وهو كاتب الوفد الاول ، زعيمه سعد زغلول بهذه الصورة العلنية الواضحة ... ولكن العقاد قد تجاوز فكرة التعارض بينه وبين زعيم حزبه ليؤيد مبدأ من المبادىء التى كان فى ذلك الحين مؤمنا بها اشد الايمان . وهو مبدأ « حرية الفكر » و « حرية الرأى والتعبير » .

وبذلك تعرض العقاد فى دفاعه عن طه حسين ، لخطر اتهامه بعدم الانضباط الحزبى ، وبمعارضته لزعيم الحزب وغير ذلك من الاتهامات التى كانت كفيلة

باضعاف مركزه الممتاز فى صفوف حزب الوفد ، ولكن العقاد قد تجاوز هذه الاحتمالات جميعا فى سبيل دفاعه عن حرية الفكر .

ومن ناحية ثالثة نجد ان العقاد كان معرضا لان تمسه الاتهامات الخطيرة التى كانت موجهة الى طه حسين ، فدفاع العقاد عن طه معناه الوقوف فى وجه هذه الاتهامات الخطيرة والتصدى لها ، وقد كان طه حسين متهما بعدة اتهامات هى كما جاءت فى قرار النيابة سنة ١٩٢٦ :

« ان طه حسين أهان الدين الاسلامى بتكذيب القرآن فى أخباره عن ابراهيم واسماعيل ، وأن طه حسين أنكر القراءات السبع المجمع عليها ، فزعم أنها ليست منزلة من الله تعالى ، وأن طه حسين طعن فى نسب النبى ، وأنه أنكر ان للاسلام أوليته فى بلاد العرب وأنه دين ابراهيم » .

كل هذه الاتهامات كانت موجهة الى طه حسين ، مما جعل جانبا كبيرا من الرأى العام فى مصر والوطن العربى معارضا لطه حسين ، ولقد كانت هذه الظروف كفيلة بأن تجعل العقاد يتردد فى الدفاع عن طه حسين ... ولكنه على عكس ذلك تماما لم يتردد فى الدفاع عن حرية الفكر ممثلا فى حق طه حسين فى التعبير عن آرائه المختلفة .

أما المعركة الثالثة التى خاضها العقاد فى سبيل حرية الفكر فهى معركة متصلة بمسرحية « جان دارك » لبرنارد شو ... ويحدثنا العقاد نفسه عن هذه المعركة فى كتابه عن برنارد شو ص ١٤٧ فيقول : « تقرر فى سنة من السنين الدراسية « ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ » تدريس رواية جان دارك لبرنارد شو فى الجامعة المصرية ، فأثار القرار اعتراضا شديدا ممن سمعوا بالرواية ولم يطلعوا عليها ، لان النبى عليه السلام يذكر فيها باسم راعى الإبل » .

« ووصلت الحملة على الرواية الى مجلس النواب ، وتصدى اربعة من النواب لاستجواب الحكومة فى هذه المسألة ، وكان كاتب هذه السطور عضوا فيه ، فاشتركت فى المناقشة لبيان الحقيقة ، وذكرت المجلس بموقف برنارد شو فى قضية دنشواى ، وقلت ان العبارة المشار اليها قد وردت على لسان شخص من شخوص الرواية لا على لسان المؤلف ، وأن المؤلف وضع على لسان شخص آخر رده المفحم عليها ، فقال ان أتباع محمد عليه السلام أوفر أدبا من هذا فى كلامهم

عن السيد المسيح ، وأنهم يوقرون الحواريين ولا يقولون عن واحد منهم أنـه « صياد سمك » .

ويواصل العقاد شرح القضية فيقول :

« ونمى الخبر أثناء ذلك الى برنارد شو فقال لمندوب صحيفة « نيوز كرونيكل » الذى قصد اليه لمحادثته فى شأنه : ان ما جاء فى الرواية لم يكن رأيى انا بل هو رأى الكنيسة فى القرون الوسطى ـ وكان ناقلو الخبر قد أساءوا نقله وأفهموا برنارد شو ان الاعتراض على الرواية قد جاء من قبل الاساتذة والطلبة فقال :

« ان الطلبة المصريين فاتهم على ما يظهر ان العبارة التى لم ترقهم لم تصدر منى ، وانما صدرت من كوشون الذى عاش فى القرن الخامس عشر ، وانني أفهم أن تسيء هذه العبارة وأمثالها الى جماعة من الاميين ، بيد أننى لا أدرى كيف يـأتى سوء الفهم من هيئـة علمية كـالجامعـة المصريـة ، ألم يستطع اولئـك الجامعيون أن يروا ما فى المقارنة من المديح والثناء على النبى ؟ ... ولمـاذا لم يقرأوا ما قال « إيرل وارديك » من الاشادة بالاسلام على حساب المسيحية ، ثم ختم برنارد شو الحديث بشطحة من شطحاته فقال : ان آخر كلمة أقولها فى هذه القصة ، ان الاساتذة يستحقون العـزل العاجـل جزاء لهم امـا الطلبة فقـد يستحقون الصفح والاغضاء ... وعزاء الاساتذة الذين عناهم شو ، ان العقوبة التى اختارها لهم ، أخف عقوباته لمن يتهمهم بالجمود والتضييق على الحـرية الفكرية ... فهى رحمة وغفران منه ، حيث لا تقبل الرحمة والغفران » .

هذه هى المعركة التى خاضها العقاد دفاعا عن برنارد شو ، وكما يرويها لنا العقاد بنفسه ... ولقد كان دفاع العقاد عن شو ، هو فى جوهره دفاع عن الحرية الفكرية ، ودفاع عن حرية الرأى ، ودعوة الى عدم الضيق بآراء المعارضيين مهما كانت هذه الآراء عنيفة وحادة ، مع مواجهة الرأى بالرأى ، والفكرة بالفكرة . وهكذا وقف العقاد بقوة وشجاعة ، فى فترة ارتباطه بالثورة الوطنية من ١٩١٩ الى ١٩٣٧ ، موقفا قويا وصريحا فى الدفاع عن حرية الفكر ، وقد كانت مواقفه الثلاثة التى قدمناها كنموذج لايمانه بحرية الفكر ، متصلة كلها بالدين ، وهو ميدان من أخطر الميادين الفكرية ، التى يتعرض فيها المنادون بالحرية ، والمدافعون عنها ، لاتهامات واسعة سواء من المفكرين الدينيين ، أو من الرأى العام نفسه ، ومع

ذلك فان العقاد لم يتردد فى المسارعة الى الدفاع عن حرية الفكر ، رغم ما كان يعرفه من ان هذا الدفاع عن الحرية الفكرية ، وخاصة فى ميدان الدين ، يمكن ان يجر عليه الكثير من المتاعب ، والمشاكل المعقدة . ومن الملاحظات الواضحة حول موقف العقاد فى تلك الفترة ، انه لم يكن يدافع عن حرية الفكر دفاعا نظريا ، بل كان على الدوام يرتبط بمواقف عملية ومعارك واقعية ... كان يدافع عن حرية الفكر ويده فى النار ... أى انه كان يعرض نفسه لمخاطر عديدة فى سبيل دفاعه عن حرية الفكر ، ولقد كان دفاعه عن دستور ١٩٢٣ ضد طغيان الملك فؤاد ، دفاعا قويا صريحا مدويا ، وقد دفع ثمن موقفه بأن حوكم ودخل السجن تسعة اشهر ، وكذلك كانت مواقفه الاخرى ... فانه لم يقتصر على الكتابة فى الدفاع عن حرية الفكر ، بل كان يقف فى البرلمان اذا كان عضوا فيه لينـاصر على الدوام هـذه الحرية ، وفى البرلمان لا تكون القضية قضية كلمات تقال ، بل انها تتعدى ذلك الى قرارات سياسية لها تأثيرها الفعلى عـلى الواقع العمـلى ، ولقد سـاهم العقاد مساهمة فعالة ، فى الدعوة الى اصدار مثل هذه القرارات السياسية التى تؤيد حرية الفكر وتناصرها مناصرة عملية .

لقد كان موقف العقاد من حرية الفكر ، واحدا من أثمن مواقفه فى تلك الفترة الذهبية من حياته ... فترة ارتباطه بالثورة الوطنية « ١٩١٩ ـ ١٩٣٧ » وتعبيره بأمانة واخلاص وشجاعة عن هذه الثورة .

أزمة وانتكاسة :
الخلاف مع النحاس والخروج على الوفد

وقف العقاد بقلمه ونشاطه السياسى مع الثورة الوطنية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٥ ، وكانت هذه الثورة تهدف الى تحرير البلاد من الاحتلال الانجليزى ، وتدعيم سلطة الطبقة الوسطى الجديدة الناشئة ، وخلق مجتمع سياسى « ليبرالى » يعتمد على الانتخاب والبرلمان ، وحرية الرأى والتعبير ، وتعدد الاحزاب السياسية ، وحكم الاغلبية البرلمانية ، ولم يتخلف العقاد عن معركة من معارك هذه الثورة الوطنية ، بل كان دائما فى المقدمة . لقد وقف العقاد من الانجليز والرجعيين مواقف صلبة ، سواء فى مقالاته العنيفة النارية او مواقفه السياسية العملية ، وكان العقاد يهاجم قوى الثورة المضادة للدستور بعنف ، كما رأينا فى الفصول السابقة بالتفصيل ، ولم تكن مواقفه السياسية خافتة او هادئة ، بل كانت مواقف مدوية ، ولها اثرها الواسع العنيف على الجماهير . وقد كانت الفترة الممتدة من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ فترة معارك متصلة فى حياة العقاد السياسية ...

بدأت هذه المعارك بدفاعه عن ثورة ١٩١٩ ، وامتدت بعد ذلك الى دفاعه عن الوفد وسعد زغلول ، وهجومه على الانجليز ، ثم هجومه على الحكومات الرجعية ، وهى حكومات أحمد زيور ومحمد محمود واسماعيل صدقى بل امتدت هذه المعارك الى هجومه على الملك فؤاد نفسه .

وفى هذه المعارك كلها كان العقاد مرتبطا أشد الارتباط بالجناح اليسارى المتطرف فى الثورة الوطنية ، والتى كان يقودها حزب الوفد .

وجاءت سنة ١٩٣٥ ، وكانت سنة حاسمة فى حياة العقاد ، حيث بدأت أزمته مع الوفد .

وقد بدأت هذه الازمة عندما هاجم العقاد وزارة توفيق نسيم التى جاءت بعد وزارتى اسماعيل صدقى وعبد الفتاح يحيى ، وكان رأى الوفد هو مهادنة هذه الوزارة ، على اعتبارها وزارة انتقالية ، تمهد لانتخابات حرة ، تؤدى الى عودة الوفد الى الحكم ، ولكن العقاد رأى ان الوزارة لم تكن صادقة فى أداء مهمتها الانتقالية ، وأنها كانت امتدادا لوزارة صدقى السابقة فى عدائها للدستور ، ولذلك اندفع العقاد فى الهجوم على هذه الوزارة هجوما عنيفا بدون اذن الوفد ، ومعنى هذا الموقف ان العقاد كان اكثر تطرفا من حزب الوفد نفسه ، اى انه كان يقف على اقصى اليسار بالنسبة للوفد وللثورة الوطنية فى أهدافها العزيزة ، وعلى رأسها المحافظة على دستور ١٩٢٣ ، والمطالبة باستكمال الاستقلال السياسى ، والواقع ان موقف العقاد كما اثبتت الحوادث بعد ذلك ، كان أكثر صوابا من موقف الوفد ، فقد ثبت بالفعل ان حكومة توفيق نسيم هى حكومة تمييع وتهدئة ، وأنها حكومة مترددة الى أقصى الحدود فى اعادة دستور ١٩٢٣ الى الحياة بدلا من دستور ١٩٣١ الزائف الذى أعده صدقى . وفى هذا العام بالذات عام ١٩٣٥ ، وفى ظل حكومة توفيق نسيم التى هاجمها العقاد ، واختلف فيها مع الوفد ، أصدر وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الحين ، صمويل هور ـ تصريحا شهيرا قال فيه : « عندما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور ، نصحت بألا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣١ . اذ ظهر ان الاول غير صالح للعمل والثانى لا ينطبق على رغبات الامة » .

اذن فقد كانت حكومة توفيق نسيم تستشير الحكومة الانجليزية فى مطالب الشعب وتنتظر أوامرها ، وكشفت حكومة توفيق نسيم حقيقتها أمام الشعب الذى ثار عليها ثورة عنيفة قاسية ، وسقط منه شهداء كثيرون ، وكان شهداء هذا العام من بين الطلبة والعمال ؛ ومن بين سكان العاصمة وسكان الاقاليم على السواء ، ومن أشهر شهداء هذه الانتفاضة محمد عبد الحكم الجراحى الذى

كان طالبا بكلية الطب بجامعة القاهرة ، والذى كان موضوعا لاكثر من قصيدة قالها الشعراء فى ذلك العام ، وفى انتفاضة هذا العام بالذات كان بين الجرحى طالب صغير عمره سبعة عشر عاما هو : جمال عبد الناصر . ولم ينس الطالب الصغير ذكريات هذا العام الدامى ، فى كل مراحل حياته السياسية بعد ذلك .
هكذا اصطدم العقاد بالوفد ، لانه كان أكثر تطرفا من الوفد نفسه ، وكان أكثر يسارية منه فى ميدان الثورة الوطنية .

ويروى لنا الاستاذ طاهر الجبلاوى صديق العقاد وتلميذه ، قصة اللقاء الذى تم بين مصطفى النحاس زعيم الوفد وبين العقاد ، وذلك عندما بدأ العقاد يهاجم توفيق نسيم على غير رأى الوفد ... يقول طاهر الجبلاوى وكان شاهدا لهذا اللقاء :

« استدعى النحاس « باشا » الاستاذ العقاد لمقابلته بالاسكندرية ، فسافر الاستاذ العقاد الى الاسكندرية وأنا فى صحبته ، وجلست معه فى القطار وأنا صامت طوال الوقت ، فلما وصل الى الاسكندرية توجه مباشرة لمقابلة النحاس « باشا » وحدثت بينهما مناقشة حادة .

قال النحاس : لماذا تحمل على الوزارة (وزارة توفيق نسيم) يا استاذ عقاد ؟

العقاد : لانها انحرفت عن الطريق السوى ، وهى تماطل فى اعادة الدستور ، وتعمل لصالح السراى والانجليز ، ووزير معارفها نجيب الهلالى يضطهد الوطنيين .

النحاس : ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة ، وعند توليته الحكم يصلح كل شىء .

العقاد : انا لا أستطيع ان أغض الطرف عن أعمال الوزارة ، ولن أقف موقف الاغضاء عن مساوئها ، وهى تنكشف يوما بعد يوم .

النحاس : أنا زعيم الامة فما عساك ان تصنع يا عباس يا عقاد ؟

العقاد : أنت زعيم الامة لأن هؤلاء انتخبوك (مشيرا الى بضعة اشخاص من أعضاء الوفد) ولكنى كاتب الشرق بالحق الإلهى .

النحاس : ان وزارة توفيق نسيم باقية ما دام الوفد يؤيدها ، ويضع ثقته فيها .

العقاد : لن تنتهى برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة ، « وأخرج العقاد قلما صغيرا من جيبه » .

وانصرف العقاد والحاضرون يتشبثون به حتى يزيلوا ما بينه وبين النحاس ، ولكن العقاد أصر على الانصراف وكانت اول كلمة سمعتها منه بعد هذه المقابلة : « لسنا مع الوفد بعد اليوم » .

هذه هى الرواية التى يقدمها لنا صديق العقاد وتلميذه طاهر الجبلاوى فى كتابه « مع العقاد » صفحة ٣١ . على اننا نجد رواية اخرى لهذه الحادثة يقدمها لنا مكرم عبيد ، فى مقال له ضد العقاد سنشير اليه بعد قليل ... ومكرم يروى لنا نفس الحادثة ولكن بطريقة مختلفة ، يقول مكرم :

« ... لما اشتدت حملة العقاد البذيئة على وزير المعارف أحمد نجيب الهلالى ، لفت دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس نظر العقاد الى ما كتب قائلا: «انه يحبذ الانتقاد ولكنه يكره التحامل ، فما كان من عباس العقاد الا أن أجاب متعاظما أنا كاتب الشرق ، فرد عليه الرئيس متواضعا وأنا يسرنى أن أكون رئيسا على كاتب الشرق » .

وسواء كانت الحادثة قد وقعت كما رواها مكرم عبيد ، او وقعت كما رواها طاهر الجبلاوى ، فان هذه الحادثة كانت تمثل نهاية العلاقة بين العقاد والوفد ، فبعدها لم يلتق العقاد بالنحاس ، وانفجرت الازمة بين الحزب وكاتبه الاول ... وظاهر الازمة ان العقاد كان اكثر تطرّفا ويسارية من الوفد فى موقفه من حكومة توفيق نسيم الانتقالية ... كان الوفد يؤمن بنفس الاهداف والمبادىء التى يؤمن بها العقاد ، ولكن الوفد كما يتضح من الحوار بين النحاس والعقاد فى رواية طاهر الجبلاوى ـ كان يؤمن بسياسة المراحل وأسلوب التهدئة حتى يحقق اهدافه . بينما كان العقاد يرفض هذه السياسة ، ويؤمن بالمعارضة العنيفة حتى تسقط حكومة توفيق نسيم وغيرها من حكومات الاقليات المناصرة للانجليز والسراى ، والمعارضة للدستور والمصالح الشعبية . على ان هناك عاملا آخر كان ولاشك من أسباب الازمة بين العقاد والوفد ، هذا العامل الجديد هو العامل الشخصى ، فالعوامل الشخصية تلعب فى حياة العقاد دورا كبيرا ، وكم من المواقف حدثت فى حياته بسبب صداقته لشخص او عدائه لشخص آخر ، ويعود ذلك الى ان العقاد

كان شديد الحساسية شديد التأثر ، وأنه كان على الدوام معتدا بنفسه معتزا بها ، وكان كثيرا ما يحس أن ما يتناقض مع اعتداده بنفسه لا بد ان يكون خطأ فى خطأ ، وكانت هذه الحساسية الشديدة مظهرا من مظاهر الذاتية فى نظرة العقاد للحياة . حيث كانت هذه الذاتية تبعده احيانا عن الفهم الموضوعى الصحيح الكامل للامور ، وتملأ أمامه الدنيا بالضباب ، فلا يستطيع ان يرى الاشياء كما هى ، انه هنا أشبه بالفنان منه بالعالم والباحث الموضوعى ، فالفنان يقيم نظرته الى الحياة على أساس من الانفعال بالاشياء ، لا على أساس من الدراسة والتأمل العقلى والبحث ، وان كان العقاد لديه دائما تلك القدرة الخارقة التى لازمته منذ بداية حياته العقلية ، على ان يبرر موقفه الانفعالى تبريرا فكريا يستفيد فيه من ثقافته الواسعة ، غير ان مثل هذا التبرير يعجز احيانا عن اخفاء حقيقة موقفه الانفعالى الاساسى ... وخاصة فى اللحظات التى يغلب فيها انفعاله العاطفى على تفكيره ومنطقه العقلى .

ويروى مكرم عبيد فى مقاله الذى أشرت اليه ان السبب المباشر فى أزمة العقاد مع الوفد هو سبب شخصى خاص بالعقاد ، فقد كان سبب هجوم العقاد على وزارة توفيق نسيم ووزير معارفها نجيب الهلالى ، هو ان وزير المعارف قد نقل صديقين من أصدقاء العقاد من القاهرة الى الصعيد ، وهذان الصديقان اللذان لم يذكرهما مكرم فى مقاله وذكرهما الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه « عصر ورجال » هما : طاهر الجبلاوى وعبد الرحمن صدقى ... وقد حول العقاد هذا الموقف الشخصى كما يقول مكرم الى موقف سياسى عام . ونترك مكرم ليروى هذه القصة فيقول :

« ان العقاد اشترط لايقاف الحملة ضد وزير المعارف ان ينقل صديق له من وظيفته الكتابية بقنا الى وزارة المعارف بمصر ، وأن يعود صديق له فى أسيوط - وهو كاتب آخر - الى مقر الوزارة بمصر .

وفى ذات يوم زارنى فى الفندق بالاسكندرية حضرات الاساتذة محمد صبرى أبو علم والشيخ عباس الجمل وابراهيم عبد الهادى - وحضر بعدهم مصادفة صديقى أحمد ماهر - وتكلمنا معا فى وجوب ايقاف حملة العقاد التى أصر عليها حضرته تحديا لامر دولة الرئيس الجليل ، فاقترح حضراتهم علىّ وعلى صديقى

ماهر ، ان نعد العقاد بالتوسط لدى وزير المعارف فى نقل هذين الموظفين الى مصر على ان يوقف العقاد حملته ، فرضينا بهذا الحل ، وقام أحد الزملاء فعلا وتكلم مع العقاد تلفونيا من غرفتى بالاسكندرية فهاج العقاد وماج واشترط لوقف الحملة شروطا ثلاثة :

اولا ـ ان يتكلم مكرم فورا مع وزير المعارف لنقل الموظفين الاثنين الى مصر (وكان صديقى ماهر قد اخبرنى انه علم ان احدهم فاسد الخلق والآداب) .

ثانيا ـ ان يتم نقلهما من أسيوط وقنا الى مصر فى ظرف ثلاثة أسابيع لا أكثر !

ثالثا ـ اذا لم يتم النقل فى الميعاد المحدد ، او تأخر عنه قليلا ، عادت الحملة على الوزير بأشد مما كانت !

ضحكنا كلنا من هذا الانذار النهائى ... وغضب احد الزملاء ، وطلب مؤاخذة العقاد على هذا التحدى وهذا الصلف ... ولكن الذى يعنينى من هذه الرواية المضحكة المبكية ان عباس العقاد كان يكيف سياسته بأهوائه ؟ فاذا نقل الصديقان الى القاهرة حسنت سياسة الوزير وسكت عليه ، واذا لم ينقلا قبحت سياسة الوزير وحمل عليه ... أرأيت أيها القارىء الكريم الى اى حد بلغت وطنية هذا العقاد ، والى أى درك هوى تقديره للصالح العام ، والى أية غواية شخصية تسخر الجرائد السياسية ؟ ! » .

هذا هو ما قاله مكرم عن احد الاسباب الرئيسية لمخالفة العقاد لسياسة الوفد ... وقد قال العقاد فى كتابه « أنا » متحدثا عن نفسه ومؤكدا حساسيته الشديدة بكل ما يتصل بشخصيته :

« اننى اذا عوملت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان أبدا ، واذا هاجمنى احد لا أرحمه » .

على ان العامل الشخصى فى ازمة العقاد مع الوفد كان أبعد من مجرد غضبه وانفعاله بسبب ما أصاب صديقين له ، بل كان هذا العامل الشخصى يتمثل فى شىء أساسى آخر هو اختلاف نوع الزعامة التى يتعامل معها العقاد بين سعد زغلول ومصطفى النحاس . كان سعد الزعيم الاول سياسيا مرنا حسن التصرف الى أبعد حد ، وكان يتميز فى عمله السياسى بالدهاء وسعة الحيلة والصبر الطويل ، ولم يكن يحقق اهدافه أبدا بضربة واحدة ، بل كان فى حقيقته

فلاحا مصريا ، يضرب الارض بفأسه مئات الضربات المتتالية قبل ان يشعر انه سيطر على الارض ، وأعدها اعدادا كاملا لكى تثمر وتخصب ، وهو ينتظر الشهور الطويلة لا يسأم ولا يمل ، حتى تظهر الثمرة فى الارض بعد ان كانت بذرة مدفونة فى جوف التراب . لا يفكر ابدا فى ان يحقق هدفه بين يوم وليلة ... هكذا كان سعد زغلول ، واذا فكر سعد فى أن يضرب ضربة عنيفة كما فعل سنة ١٩١٩ ، فهو يفعل ذلك بعد أن يتأكد كل التأكد ان الوقت قد أصبح مناسبا لهذه الضربة بعد طول الاعداد ، ففى سنة ١٩١٩ قال سعد كلمته المشهورة « لا بد من قارعة » ... و« القارعة » هى الثورة فى كلمة أخرى أبسط وأوضح . ولم يعلن سعد الحاجة الى « القارعة » الا وقد رأى كل الظروف مهيأة لهذه القارعة . ولو ألقينا نظرة سريعة على حياة سعد زغلول السياسية ، لعرفنا فيه على الدوام هذا الرجل المرن الداهية واسع الافق . فلقد تعاون سعد زغلول مع وزارة مصطفى فهمى وكان وزيرا للمعارف فى هذه الوزارة سنة ١٩٠٦ ، ثم تولى الوزارة بعد ذلك عدة مرات ، ولعل سعدا فى ذلك الوقت كان يميل الى الاختفاء ويؤثر زرع بذور صغيرة متناثرة هنا وهناك حتى يأتى اليوم الذى يمكن فيه ان يعلن الثورة او القارعة ، بعد ان يتهيأ لها الشعب وتتهيأ الظروف . ويا لها من مسيرة طويلة صابرة فى حياة سعد زغلول السياسية .. تبدأ من التعاون مع الانجليز سنة ١٩٠٦ ، وتنتهى بقيادة ثورة شاملة ضدهم سنة ١٩١٩ ، وهى مسيرة لا يقدر عليها بهذا الصبر وبهذه المرونة سوى سياسى فلاح مثل سعد زغلول .

هذه خطوط عامة فى شخصية سعد زغلول الذى كان العقاد يعمل معه فى المرحلة الاولى من الثورة الوطنية ، وقد كان سعد بدهائه وسعة أفقه يفهم العقاد فهما كاملا ، وكان يعرف اعتداده بنفسه وحساسيته الشخصية ويعرف ان الاحتفاظ برجل مثل العقاد فى صفوف حزبه يحتاج الى معاملته بطريقة خاصة ، واعطائه الفرصة الكاملة لكى يشعر ان شخصيته مستقلة كل الاستقلال ، وأنه ليس هناك أحد على الاطلاق يفكر فى أن يرغم العقاد على شىء ، وكان الاحتفاظ بالعقاد يحتاج أيضا الى احتمال بعض نزوات عناده وتمرده، وحبه للانفراد برأيه وموقفه.. كان سعد الفلاح الصبور الداهية ، يفهم هذا كله، ويعامل العقاد على هذا الاساس، وهناك مواقف عديدة اتخذ فيها العقاد رأيا مخالفا لرأى سعد

ورأى الوفد فى ظل سعد، مثل اعتراض العقاد الصريح على خطبة العرش الاولى التى ألقاها سعد بعد أن ألف وزارته سنة ١٩٢٤ .. وكانت مثل هذه المواقف تؤلم سعدا ولكنه كان يعالجها باللين، وكان يحرص على الا يقف مع العقاد أبدا موقف الحزب من كاتب الحزب ، ولا شك أن هذا الموقف من جانب سعد لم يكن راجعا فقط إلى دهائه ومرونته ، ولكنه كان ايضا يعود إلى احترامه للفكر ، وايمانه بأن المفكر يجب أن يعامل بطريقة تحفظ عليه استقلاله واحترامه لنفسه :

يقول العقاد فى كتابه عن سعد زغلول « ص ٥٥٧ » .

« وقد لازمت سعدا سنوات ووافقته كثيرا وخالفته كثيرا كما يعلم القراء فلا اذكر يوما انه طلب منى أو طلب من غيرى امامى ان نكتب فى رأى بغير ما نراه ، وانما كان أسلوبه فى هذه الحالة ان يفتح باب المناقشة فيما يريد الكتابة فيه ، فان خالفناه وأقنعناه لم يطلب منا كتابة ولم يلمح الى طلبها أقل تلميح ، وكثيرا ما كان يتلطف فيقول : انت جبار المنطق يا فلان ... وهذا هو اللقب الذى تفضل فأطلقه على كاتب هذه السطور » .

هذا ما كتبه العقاد عن سعد ، وبهذه الطريقة استطاع سعد ان يتفادى الاصطدام بالعقاد ، وأن يحتفظ به : قوة فكرية من قوى الثورة الوطنية طيلة زعامة سعد للوفد وللثورة الوطنية ... لقد كان سعد يعلم فى نهاية الامر ان العقاد لا يمكن ان يقبل وليس من الضرورى ان يقبل الوصاية عليه حتى لو كان ذلك نوعا من الانضباط الحزبى .

أما النحاس ، فقد كان طرازا آخر من الرجال ... فقد كان يميل الى فرض نوع من السلطة الابوية على الجميع وكان يميل الى الذين يذوبون فيه بالحب أو الطاعة ، وكان ـ لكثرة ما تعرض للعدوان عليه والانشقاق عنه والتآمر ضده ـ يشعر بشىء من سوء الظن فى موقف المختلفين معه ، ولم تكن اهتماماته الادبية والفكرية من ناحية أخرى بنفس العمق والاتساع كما نرى فى شخصية سعد : الذى تعلم فى الأزهر وتتلمذ على محمد عبده، مما أعطى شخصية سعد بعدا ثقافيا وأدبيا لم يتوفر فى خليفته مصطفى النحاس ، ومن ناحية أخرى فان النحاس على ما فيه من جاذبية واخلاص واصالة وقدرة على اكتساب محبة الجماهير لشدة بساطته وصدقه ـ لم يكن يتمتع بما عرف عن سعد زغلول من

دهاء ومرونة وبعد نظر ، بل كان صريحا واضحا لا يخفى انفعالاته حتى ما كان منها قريبا سهلا ، وحتى ما كان ينبغى على السياسى الماكر ان يخفيه ولا يظهره ، ولهذا لم يستطع النحاس ان يفهم العقاد بما فيه الكفاية ولم يستطع ان يعرف التركيب الحقيقى لشخصيته، وعامله كأى كاتب حزبى آخر، وكان هذا كفيلا بأن يؤدى الى فصم العلاقة بين العقاد والوفد فى عهد النحـاس ... لقد أراد النحاس ان يملى ارادته على العقاد ، وأن يطالب العقاد بالتـزام موقف الوفـد التزاما نهائيا من وزارة توفيق نسيم ... ومثل هذا الخلاف لو حدث فى عهد سعد لما تشدد سعد زغلول على الاطلاق مع العقاد ، ولترك للعقاد حريته مهما كان فى قرارة نفسه غاضبا من موقفه غير راض عنه ، وكانت هذه الزوبعة بالتأكيد يمكن ان تمر دون ان ينشق العقاد عن الوفد .. خاصة ان الوفد التقى بعد ذلك بوقت قليل مع العقاد فى موقفه من وزارة توفيق نسيم ، فعارضها ووقف ضدها بقوة وحزم .

والعقاد نفسه فى كتابه عن سعد يقدم لنا نماذج للخلاف بينه وبين الزعيم ، ويكشف لنا عن طريقة سعد فى معالجة هذا الخلاف . يقول العقاد « سعد زغلول سيرة وتحية ص ٥٥٨ » :

« ... ومن ذاك أننا كتبنا مع الكاتبين عن زيارة اللورد جورج لويد للمنيا ، واستقباله فى الاقاليم استقبال أصحاب العروش . واشتدت الحملة على اللورد من جراء هذه الزيارات حتى اشترك فيها مجلس النواب على اختلاف الاحزاب ، فبلغ الحنق باللورد ان يخلق بعدها أزمة يستحضر من جرائها سفن الاسطول الى الاسكندرية ليزيل ما أصاب هيبته من تلك الحملات . كل ذلك وسعد لا يشير الينا ولا الى غيرنا بكلمة ولا ايحاء . وظل كذلك حتى انقضت الازمة ومضى على انقضائها اسابيع ، ودخلت عليه يوما فقال :

اتدرى ماذا صنعتم لنا يا فلان ؟ ان اللورد جورج يتهمنا بأننا كنا الموعزين بحملة الصحافة وحملة مجلس النواب على زيارته للاقاليم ... أما أنا فأقول له : انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .

هكذا كان سعد زغلول يعامل العقاد عندما يكـون هناك خـلاف بينـهما ... وبهذه الطريقة استطاع سعد ان يحتفظ بالعقاد ويحافظ عليه ، بينما لم يستطع

النحاس ان يحافظ على العقاد فى صفوف الوفد الى النهاية ، بل حاسبه حسابا عنيفا بسبب خروجه على الخط السياسى للوفد . على ان الخطأ لم يكن خطأ النحاس وحده ، فالمراجع المختلفة التى تحدثت عن أزمة العقاد مع الوفد ، تؤكد ان الوفد لم يسارع الى اتخاذ قرار بفصل العقاد من الحزب ، بل تريث الوفد طويلا فى اتخاذ القرار ، وحاول عدد كبير من اعضاء الحزب استرضاء « العقاد » وتصفية الازمة ، ولكن العقاد تشدد فى موقفه ، ورفض كل المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل ، بل لقد سد جميع الابواب المفتوحة بينه وبين الوفد ، مما يرجح ان العقاد كان قد اتخذ موقفا لا رجعة فيه ، بالانفصال عن الوفد والوقوف منه موقف المعارضة .

ومن بين الذين تدخلوا وحاولوا استرضاء العقاد وتهدئته أم المصريين صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول فقد ذكرت السيدة فاطمة اليوسف فى مذكراتها « ص ١٨٤ » أن أم المصريين « حاولت ان تنهى الخلاف بين العقاد وبين جريدة « الجهاد » التى كانت ناطقة بلسان الوفد فى ذلك الحين ، فاستدعت السيدة صفية زغلول العقاد ورجته فى ايقاف الحملة على « الجهاد » .

... وتوقفنا عن الحملة فعلا ، ونشرنا كلمة فى العدد ٢٠٠ من روز اليوسف نقول فيها : اننا نسكت بناء على تدخل شخصية جليلة المقام ... وقلنا ان « الجهاد » اذا عاد الى الحملة فليس أمامنا الا ان نعود ، ولم يسكت الجهاد » .

هذا ما ذكرته السيدة روز اليوسف فى مذكراتها ، ويبدو ان صحيفة الجهاد فى هجومها على العقاد ، كانت تعبر عن عدم رضا القيادة الوفدية عن موقف العقاد الاساسى ، وهو هجومه المستمر على وزارة توفيق نسيم ، وبالتحديد على وزير معارفها أحمد نجيب الهلالى ... وقد حاولت السيدة روز اليوسف كما تقول فى مذكراتها ـ ان تعمل هى نفسها على حل المشكلة بين العقاد والوفد ، حرصا على صحيفتها التى اكتسبت مكانتها وتأثيرها على اساس انها جريدة وفدية ، وقد نشرت السيدة روز اليوسف فى مذكراتها رسالة كتبتها الى مكرم عبيد سكرتير الوفد فى ذلك الحين ، وتحاول روز اليوسف فى هذه الرسالة ان تستعيد ثقة الوفد فى جريدتها وفى كاتبها الاول : عباس العقاد ، وفى هذه الرسالة تقول روز اليوسف :

« حضرة المجاهد الكبير الاستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد المصرى ـ اخبرنى حضرة مراد افندى عبد الرحمن احد مخبرى جريدة « روز اليوسف » فى الثغر ان دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس غير راض عن المجلة وعن الجريدة . لان ادارتى تحريرهما قد أمعنتا منذ زمن فى مهاجمة الوزارة القائمة « وزارة توفيق نسيم » . كما اتخذتا موقفا يكاد يكون عدائيا ضد فردين من أفراد الوزارة هما صاحبى السعادة أحمد عبد الوهاب باشا وأحمد نجيب الهلالى بك . أما عن سياسة المجلة فأقول ان مجلة « روز اليوسف » الاسبوعية لم تتخذ ضد الوزارة الحاضرة موقفا عدائيا لانها تعرف ان الوفد يؤيدها ... » .

« ... أما عن الجريدة فأصرح بأن الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد وفدى صميم له من ماضيه المجيد فى الدفاع عن الوفد ، وعن القضية المصرية ، ما يجعله فوق الشبهات . وقد فاتحت الاستاذ العقاد فى هذا الامر فأخبرنى بأنه مستعد لان يقابل دولة الرئيس الجليل ليطلعه على وجهة نظره فى كتاباته التى ينتهجها » .

وكان رد مكرم عبيد على رسالة روز اليوسف عنيفا ، حيث قال فى هذا الرد : « انك لتعلمين ان الوفد لا يحجر على حرية انسان ما أو صحيفة ما ـ ولكن اذا رأت احدى الصحف المنتمية الى الوفد ان تنتهج خطة تغاير خطة الوفد ، فعليها ان تتحمل نتائج ما تنتهج » .

وانتهت المعركة بذلك اللقاء العاصف بين النحاس والعقاد ، والذى اشرنا اليه فى بداية هذا الفصل ... وخرج العقاد من هذا اللقاء ليقول كلمته : « لسنا مع الوفد بعد اليوم » .

وتدخلت السيدة صفية زغلول مرة ثانية لتصفية الخلاف بين الوفد من جانب ، وبين روز اليوسف والعقاد من جانب آخر ، ولكن المحاولة فشلت ، واصدر الوفد بيانا فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٥ يقول فيه :

« قرر الوفد المصرى بجلسته المنعقدة اليوم فى بيت الامة برياسة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا انه نظرا لان جريدة روز اليوسف قد اجترأت على نشر مقالات تتضمن الطعن على الوفد ومكانته من الامة فان هذه الجريدة لا تمثل الوفد فى شىء ولا صلة لها به » .

وواضح ان قرار الوفد لم يتعرض للعقاد بصورة مباشرة ، ولكن « فصل » روز اليوسف من الوفد كان من أسبابه الاساسية ما كتبه العقاد من مقالات ضد وزارة توفيق نسيم وضد وزير معارفها نجيب الهلالى ، ومن هنا يكون القرار قد تضمن اخراج العقاد من الوفد وان لم يشر الى ذلك ، وقد أصدر الوفد بعد ذلك بأيام قرارا صريحا بفصل العقاد من الوفد .

بدأت المعركة بين العقاد والوفد ، لهذا السبب الجزئى الذى لا يمثل خلافا جذريا فى الاتجاه السياسى بل كان خلافا جزئيا يمكن تسويته بشىء من الجهد ، ولكن العقاد أصر على موقفه ، وأصر الوفد على موقفه ، ويبدو ان القيادة الوفدية فى ذلك الحين ، رأت فى موقف العقاد ما هو بداية انشقاق مدبر ضد الوفد ، خاصة وأن « روز اليوسف » كانت معروفة بصلتها بعلى ماهر ، رجل القصر ، وأحد كبار المهندسين العاملين على اضعاف الوفد ، ولذلك فقد واجه الوفد موقف العقاد بشدة وعنف ، قاصدا بذلك ان يوجه ضربته لمن يعملون فى الخفاء ضد الوفد . ومن ناحية اخرى اخذ العقاد منذ اليوم التالى لصدور قرار الوفد بفصل « روز اليوسف » بمهاجمة الوفد وقادته ، وقال فى اول تعقيب له على هذا القرار فى مقال نشرته « روز اليوسف » فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٥ :

« برئت من الوفدية الف مرة ان كانت هذه هى الوفدية » .

« ما علمناها حين أيدناها الا حرية وكرامة فكيف نفقد حريتنا وكرامتنا لاننا نطلب الحرية والكرامة للناس اجمعين ؟ ما علمناها حين أيدناها الا الامة كاملة لا الامة منصرفة سائمة كما شاءت سياسة مكرم والنحاس ، فكيف تتعطل وظيفة النقد فى أمة كاملة ، من اجل وزارة لم ترفض قط للانجليز مطلبا ، ولم تحقق قط أملا للمصريين ؟ ...

« وانى لآسف ان يصير النحاس باشا بالوفد الى هذا المصير ، وان ينعكس المقصود من ثقة الامة على يديه ، فيصبح قصارى نفعه ان يتقرب بضمائر الانصار على مذابح الخصوم . ولكنى على أسفى هذا أحمد الله أن قيض لى الحرية الكاملة ، وساق النحاس باشا نفسه الى اطلاق قلمى فيما يعقب به على الاعمال والآراء والهيئات والتبعات ، لا فرق بين النحاس باشا ونسيم باشا وسائر المسئولين عن سياسة البلاد ، ويزيدنى حمدا اننى حين انفصل الرأى

بينى وبين النحاس باشا وجماعته كنت أنا فى مكانى وكان هو الذى تحول عن مكانه واستقبل حياة الدعة والرخاء ، وحصر القضية كلها فى التسبيح للوزارة المعبودة عسى ان تسبح هى للانجليز ، عسى ان ترق لنا بدستور ممسوخ او حكومة دستورية يعصفون بها فى لمحة عين ! وما كان انتظار الرحمة على هذا المنوال بالبرنامج الخطير الذى يفتقر الى زعامة ومشاورة وخطط ظاهرة وخطط خفية فيما به يلغطون . ولكنه برنامج قانع وادع سقيم عقيم ندركه ونحن نائمون ، « فاذا كان لا بد من انفصال الرأى بينى وبين هذه السياسة الخاشعة الخانعة ، ففى هذا المفترق الكريم فلننفصل على بركة الله والحمد لله على ذلك ، الحمد لله » .

واستمر العقاد فى هجومه على الوفد بهذا الاسلوب الحاد العنيف، وركز هجومه على النحاس ومكرم عبيد . قال عن النحاس فى مقال آخر فى تلك الفترة « روز اليوسف ٢ اكتوبر ١٩٣٥ » .. « وسيرى القراء غدا ما هى تلك الخرافة التى يسمونها صلابة مصطفى النحاس قبل وزارة توفيق نسيم ، فسيعلمون انه ما وقف موقف الصلابة قط الا عن اضطرار لا فضل له فيه ، وما اتسع له باب الاستسلام مرة الا وذهب فيه الى أبعد مراميه وقد أتيح له باب الاستسلام اليوم ، والوقوف بين الصفين فاذا هو أضعف المستسلمين ، واذا هو اعدى للرأى الصريح والصلابة فى الحق من كل عدو عرفناه » .

واستمرت حملة العقاد على الوفد والنحاس ، منذ انفصاله عن الوفد سنة ١٩٣٥ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ . وفى هذا الهجوم على الوفد تراجع العقاد عن كل آرائه السابقة فى تأييد الوفد وفى تأييد زعامة النحاس ، ووصل به الامر سنة ١٩٤٤ الى الطعن على النحاس فى « صفة » كانت جديرة بأن تكون مصدرا لتقديره ، وهى احساس النحاس بشعور الجماهير ، وادراكه لما تحس به وتفكر فيه ، ولكن العقاد قلب هذه الصفة وجعل منها خنجرا يطعن به النحاس والجماهير على السواء ، فوصف النحاس بأنه رجل يشبه العامة فى الذوق والشعور ... وهو المنطق الذى أصبح مناسبا للعقاد ، بعد ان أعلن عداءه للافكار الشعبية والجماهيرية فى شتى صورها وأشكالها ، وأصبح مرتبطا بأحزاب الاقلية الرجعية .

يقول العقاد فى هذا المقال الذى نشره فى روز اليوسف فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

« النحاس باشا قاعدة ولا تمثال . فليس له حجم يرى بالعين اذا زالت من تحته القاعدة التى يقوم عليها ... والقاعدة التى يقوم عليها هى بناء الوفد الذى أسسه وعلاه زعيم مصر الاكبر سعد زغلول رحمه الله ... فالنحاس باشا بغير سمعة سعد رحمه الله لا شىء ، وليس بالخطيب ، وليس بالكاتب ؛ وليس بالمحضر الجذاب ولا بالمنظر المهيب ... وليس فيه من دواعى الشهرة الا مشابهته للعامة فى الذوق والشعور والرجاء ، فهو لا يقيس الشهرة ولا العظمة ولا المجد ولا أقدار الرجال الا بالمقياس الذى يعرفه العامى فى الاسواق ، والزفة التى تعجبه وتطربه ، فهى الزفة التى تعجب ذلك العامى وتطربه بغير اختلاف كبير ولا صغير ... »

ثم يتحدث العقاد فى نفس المقال عن خطب النحاس فيقول :

« ان النحاس يتكلم منذ ثلاثين سنة ولا يقول كلمة واحدة يهتز لها الشعور ويتناقلها السامعون ... كل خطبة من التفاهة بحيث تخلو من الشعور كما تخلو من التفكير ومن حسن التعبير ... فهى كمحضر الجرد ، او سجل التركات ، او حجج البيوت التى تفيض بالارقام ، والتواريخ ، والعناوين ، ولا تحتوى شيئا غير ذلك يستعيده الذهن او يتملاه الخاطر او يتحرك له الضمير » .

هذا مثال لما أخذ العقاد يكتبه بعد انفصاله عن الوفد . وكما هو واضح فان العقاد يخالف فيه كل ما كتبه عن الوفد والنحاس قبل ذلك ، فهو يكتب عن الوفد منذ ثورة ١٩١٩ بالتمجيد والتأييد ، وهو يكتب عن النحاس بالتمجيد والتأييد ايضا منذ ان تولى زعامة الوفد بعد وفاة سعد سنة ١٩٢٧ . وهو الذى أهدى النحاس كتابه عن « الحكم المطلق فى القرن العشرين » وكتب فى الاهداء :

« الى مصطفى النحاس باشا خليفة سعد وعنوان ثقة الامة » . على ان النقد الرئيسى الذى يمكن توجيهه الى العقاد حول الكلمات السابقة هو اتهامه للنحاس بأنه يشبه العامة ، والعامة هنا هى الجماهير فى كلمة أخرى ، واذا كان النحاس قد عرف عنه طيلة حياته انه زعيم قريب الى الجماهير شديد الاحساس بمشاعرها وأفكارها ، قادر على التأثير فيها ، فان هذه الصفة ولا شك تعتبر من أفضل

صفاته ، بل من أفضل الصفات التى يمكن ان يتحلى بها أى زعيم شعبى ، ولكن العقاد وجد فيها عيبا ، وانحرف بهذه الصفة حتى أصبح نقده للنحاس نقدا للجماهير فى نفس الوقت ، والجماهير ليست مقدسة وليست فوق النقد ، ولكن اتهامها المطلق بالتخلف فى الذوق والشعور والتفكير هـو موقف خـاطىء وغير سليم ، ففى ميدان السياسة بالذات ، يكون الاقتراب من الجمـاهير وفهمهـا وحسن التعبير عنها ، هـو الموقف السليم من وجهـة نظر السيـاسة الوطنيـة والتقدمية ، حيث تطالب مثل هذه السياسة بأن يكون العمل السياسى خدمـة للجماهير وتعبيرا عنها . ولكن العقاد قد ابتعد عن هذا المنطق ، وأصبح مرتبطا بمنطق سياسى يستنكـر الجماهـير ، ويستنكر الزعـامات التى تعبـر عن هذه الجماهير ، خاصة بعد ان تخلت الجماهير عن العقاد ، عـلى اثر خـروجه من الوفد .

ونتابع بعد ذلك قصة خروج العقاد من الوفد .

لقد بدأ العقاد هجومه الصريح على الوفد بعد صدور قرار الوفد بفصل « روز اليوسف » واعتبارها جريدة خارجة على سياسة الوفد ، وبدأت الصحف الوفدية الاخرى مثل « الجهاد » و « كوكب الشرق » تردان على مقالات العقاد ، ولكن اهم رد على العقاد هو الرد الذى كتبه مكرم عبيد حيث تشاء الظروف أن يتولى مكرم عبيد بالذات مواجهة العقاد بأعنف التهم وأقساها وهو الذى كان يقف منذ خمس سنوات ـ فى سنة ١٩٣٠ ـ ليقدم دفاعـه المجيد عن العقـاد فى ساحـة القضاء .

ان الموقف يتغير الآن ويصبح محامى العقاد هو ممثل الاتهام ضد العقاد .

ففى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٥ نشرت جريدة « كوكب الشرق » الوفدية مقالا بقلم المجاهد الكبير مكرم عبيد وكان عنوان المقال « آخـرة عباس العقـاد ـ حقيقة الكاتب وما كتب » . وفى هذا المقال الذى كتبه مكرم عبيد جانبـان : الاول هو ما يتصل بواقعة خـروج العقاد عـلى الوفد ، والثـانى هو جـانب عام يتصـل بشخصية العقاد ، ورأى مكرم فى هذه الشخصية ، حيث يوجه مكرم للعقاد تهما قاسية مثل الغرور الشخصى ، والعمل مع الانجليز فى بداية حياته الصحفية ، كما يتهمه مكرم بالالحاد الدينى ، فيقول أن العقاد تعود أن يقسم بقوله « والله

الذى لا وجود له » كما يقول ان العقاد قد رد على بعض اعضاء الهيئة الوفدية ، الذين حاولوا ان يوقفوا حملته على النحاس ومكرم بقوله « أنا باشتم ربنا ، أفلا أشتم هذين الولدين » والعقاد يقصد بالولدين : النحاس ومكرم .

وسوف أعرض هنا ما يتصل بالجانب الاول فى مقال مكرم عبيد وهو خروج العقاد من الوفد ، أما الجانب الثانى وهو اتهام مكرم للعقاد فى دينه فلا أظن إلا أنه كان نوعا من التحريض والإثارة ، أمر لا يحتاج إلى التعليق ، وقد نشرت نص مقال مكرم عبيد ورد العقاد عليه فى آخر هذا الكتاب كوثيقة تكشف عما كان يحيط بالعقاد من تناقض ... سواء فى موقف العقاد من الحياة السياسية ، أو فى موقف الحياة السياسية من العقاد .

بدأ مكرم بتسجيل تناقض العقاد بمدحه السابق للوفد والنحاس ومكرم ، ثم هجومه العنيف بعد ذلك عليهم وتنكره لما قاله بالامس .... يقول مكرم فى مقاله :

«اسبوع كامل دبج فيه الاستاذ العقاد بمعاونة حليفه الجديد الاستاذ عزمى - المقالات والشذرات والمختارات على اختلاف أحجامها وعناوينها ... ولما أشرفا على اليأس خيل اليهما ، ولليأس خيال فخيال - انهما قديران فى ظل السيدة روز اليوسف ، على هدم ذلك الطود الشامخ الذى شيده المصريون حجرا بعد حجر ، على أعناق المجاهدين ، وأشلاء المستشهدين ، ذلك الطود الذى هو الزعامة والنحاس » . « ولعلهم حسبوا ان الامة لم يتم لها النضوج السياسى والفكرى بعد ، وأن عملية الهدم عندهم لا تقتضى أكثر من بعض الالفاظ الضخمة والدعاوى المبهمة فراحوا ينبشون ما افتراه الخصوم قديما على الوفد ، واتخذوا من تلك المفتريات معاول جديدة للهدم والتحطيم ، ناسين أو متناسين أنهم كانوا حتى الامس القريب يسبحون بحمد من جحدوا وينكرون كل الانكار ما عادوا فأكدوا ! .... أليس عجيبا أن يطعن العقاد بعد مديح فى زعامة النحاس وصلابة النحاس ووطنية مكرم ؟ .... وهلا أدرك المسكين أنه بذلك يضع نفسه بين شقى الرحى ، إذ لا مفر له من أحد أمرين : فأما انه كان يبغى بالمديح نفاقا ... او انه كان يبغى من ورائه أجرا أو جزاء وفاقا ... كلا الامرين شر وأحلاهما مر » .

وبعد ان يتحدث مكرم عن هذا التناقض بين دفاع العقاد عن الوفد والنحاس ومكرم قبل سنة ١٩٣٥ وبين هجومه العنيف على الوفد والنحاس ومكرم سنة

١٩٣٥ .... بعد الحديث عن هذا التناقض فى موقف العقاد يركز مكرم على النقطة الرئيسية وهى ان موقف العقاد ليس مجرد موقف فردى ، بل هوو موقف مدبر ، وأنه تم بالاتفاق بين العقاد وبين بعض « الجهات » ، وان هذا الموقف انما هو جزء من مؤامرة كبيرة ضد الوفد ، والحقيقة التاريخية تؤكد ان خروج العقاد قد تبعه بعد سنتين انشقاق كبير فى الوفد حيث خرج أحمد ماهر والنقراشى ، وتم تأليف الحزب السعدى الذى انضم اليه العقاد ، وبقى مرتبطا به حتى قيام ثورة ١٩٥٢ وحل الاحزاب ، كذلك لقى خروج العقاد على الوفـد ترحيبـا كبيرا من الأحزاب المعادية للوفد ، وعلى رأسها حزب الاحرار الدستوريين ، بزعامة محمد محمود ، وهو حزب رجعى كبير ، وقد قام أساسا لمحاربة الوفـد والعمل عـلى هدمه ، والحلول محله فى قيادة العمل السياسى فى مصر ، وكان فى معظم مراحل حياته السياسية حزبا معاديا للمطالب الشعبية . وقد حضر العقاد بعد خروجه من الوفد بشهر واحد تقريبا مؤتمرا عقده الاحرار الدستوريون فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٥ وقد رحبت جماهير الدستوريين بالعقاد ترحيبا غير عادى وطالبته بالكلام فى هذا المؤتمر تعقيبا على خطاب محمد محمود ، وألقى العقاد كلمة موجزة علق فيها على الخطاب بالتأييد ، وكان مما ذكرته الصحف يوم ذاك أن جماهير الاحرار الدستوريين ما ان رأت العقاد حتى دوى الهتاف بحياة كاتب الشرق الحر ، ولم تدعه الجماهير يسير على قدميه قاصدا المكان الذى يجلسن فيه الصحفيون ، فحملته على الاعناق الى أن جلس فى مكانه الذى اختاره بين زملائه الصحفيين ، ومعنى هذا ان الاحرار الدستوريين أعداء الوفد ، والذين طالما تلقوا من العقاد أعنف الضربات فى الماضى قد فرحوا أشد الفرح بخـروج العقاد عـلى الوفد ، ووجدوا فى ذلك كسبا كبيرا لهم حتى ولو أن العقاد لم يعلن انضمامه اليهم ... لقد غفروا له كتاباته العنيفة القديمة ضدهم ، ورحبوا بموقفه الجديد ولكن ... ما هى براهين مكرم عبيد فى أن خروج العقاد على الوفد ، كان جزءا من خطة شاملة مدبرة ؟ ....

يقول مكرم فى مقاله عن هدف هذه الخطة الشاملة :

« ... أنها لخيانة ما بعدها خيانة أرتكبها العقاد بصفة كونه مصريا ، فقد حاول أن يخرب بيديه المعقل المصرى الاوحد ، يعلم ان الوطن المصرى مهدد

بخطر الحرب الداهم ، وأن مصر بأسرها متحدة فى وفدها واقفة للانجليز بالمرصاد ، تطالبهم باستقلالها وازالة العقبات من طريق دستورها ... فلو أن الزعامة انهارت ودب الانقسام فى صفوف الشعب بفضل جريمة العقاد ومن معه ، فما الذى كان يبقى لنا فى أشد الأوقات حرجا ؟ اللهم الا أشتاتا مبعثرة لا يحسب المستعمرون لمغاضبتها أو محاسبتها حسابا » ... ثم يقول مكرم بعد ذلك عن الخطة المدبرة ضد الوفد :

« ... ولقد كانت الخيانة دسيسة مدبرة مأجورة ، وأريد بها أن تكون واسعة النطاق ، لولا أن الله قد وضع فى نفوس الامة غريزة تلهم الحق الهاما فقتلت المؤامرة فى مهدها ، واذا كانت المصلحة الكبرى تأبى أن أكشف عن خبايا هذه الدسيسة فى الوقت الحالى ، فحسبى أن أقول محددا ومؤكدا أن العقاد وبعض من على شاكلته كانوا من ورائها ، وأن من وراء هؤلاء خصوما للوفد معينين ... وبعبارة أصرح فمن الثابت « أولا » أن العقاد ومن معه طرف فى المؤامرة « ثانيا » أن وراءهم جماعة من خصوم الوفد يمونون المؤامرة بالمال « وثالثا » أن الغرض الاول من المؤامرة هو هدم الوفد فى زعامته وسياسته ..» ثم يقول مكرم بعد ذلك :

« ولقد كانت هناك مقابلات واتصالات بين العقاد وبعض خصوم الوفد المعينين ، ومثلها بين عزمى وبينهم ، ولدينا على هذه الاتصالات أدلة لا يتطرق اليها الشك ، ولكن واجبا أكبر يحتم علينا كتمان ما نعرف ، وحسبنا ما يأتى من الادلة المستمدة من نفس الوقائع ، ففيها ما يغنى عن كل دليل سواها .

أولا ـ قبل صدور القرار باقصاء جريدة روزاليوسف سبق جماعة العقاد ومحرضوهم الحوادث فأصدروا منشورين بتوقيع مستعار ، ينضحان بأقذر السباب وأكذب المفتريات ، ضد دولة الزعيم وضدى ، وقد وزع المنشوران على أعضاء الهيئة الوفدية ، واللجنة السعدية للسيدات ، وكثيرين من أعضاء اللجان الفرعية والطلبة والموظفين ، الخ ... وكان الطبع متقنا ، والتوزيع واسع النطاق ، مما دل على أن من وراء الطابعين والموزعين أشخاصا من ذوى الجيوب الرحبة الواسعة .

ثانيا ـ بعد صدور قرار الوفد بفصل الجريدة والعقاد معها ، رأينا فى الجريدة

مقالات وعناوين واطارات تتفق فى المعنى وفى اللفظ مع المنشورات البذيئة المشار اليها ، فردت المنشورات جميعها الى أصلها ، لانها هى أيضا سبق أن أخذت عن الجريدة مطاعن منقولة بألفاظها فضلا عن معانيها .

ثالثا ـ ولعل اقطع دليل على تآمر العقاد ومن معه انه منذ أكثر من شهر وقبل أن يعرف جمهور الناس شيئا عن الخلاف بين الوفد والعقاد ، صدر منشور « نمرة ١ » موقعا عليه بنفس التوقيع ولقد حذر المنشور رئيس الوفد من المساس بالعقاد العظيم ، وتهجم على الزعامة مهونا من شأنها بالقياس الى عظمة العقاد .

أما ما خفى فكان أعظم . وسيأتى وقت يعلم فيه الناس ما يجهلونه من أغراض الجريمة وأشخاص المجرمين .. فلقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين »

تلك هى أدلة مكرم على تامر العقاد ، وارتباط خروجه من الوفد بخطة شاملة لتدمير هذا الحزب الشعبى الكبير ... ولا شك أنه كانت هناك مؤامرة لتحطيم الوفد ، ولسنا بحاجة الى البحث عن أدلة لاثبات وجود هذه المؤامرة ، فكل الصفحات فى تاريخ مصر الحديث منذ سنة ١٩١٩ حتى ١٩٥٢ تؤكد أن القصر والانجليز والجناح الاكبر من الاقطاعيين والراسماليين فى مصر ، كانوا جميعا يعملون على تدمير الوفد من خارجه بالاضطهاد ، ومن داخله بتشجيع الانشقاق عليه ، وفتح أبواب مغرية لهذا الانشقاق .. ولكن السؤال الذى يهمنا هنا : هل كان العقاد مرتبطا بمؤامرة صريحة من هذا النوع عندما خرج على الوفد ؟

ان الحجج التى يرددها مكرم عبيد ، تشير الى احتمال اشتراك العقاد فى مؤامرة من هذا النوع ، ولكنها لا تكفى للقطع باشتراك العقاد فى المؤامرة . ولكننا عندما نفكر ـ عموما ـ فى شخصية العقاد ، وفيما حدث أثناء أزمته مع الوفد ، وبعد الازمة بسنوات قليلة ، نستطيع القول بأن العقاد لم يكن على اتفاق من البداية مع أحد فى معركته ضد الوفد ، ولكن موقفه العنيد ضد الوفد أرضى اعداء الوفد وأسعدهم ، فاستغلوه واستفادوا منه فائدة واسعة ، واصبح العقاد بعد أن قام وحده بالخطوة الاولى ضد الوفد ، جزءا من الخطة العامة لهدم الوفد بعد ذلك .

لقد كان سبب الخلاف كما أشرنا غير جوهرى ، وهو إعتراض العقاد على وزارة توفيق نسيم الانتقالية ، وهجومه على وزير معارفها نجيب الهلالى ، وكان

يمكن تسوية هذا الخلاف داخل نطاق الوفد ، ولكن أعداء الوفد والذين يخططون لهدمه وهدم الحركة الوطنية من خلاله ، استفادوا من الفرصة وأشعلوا النار فى الخلاف بين العقاد والوفد ، ولا شك أن العقاد قد لقى تشجيعا بطريقة أو أخرى من المعسكر المعادى للوفد . أما أن يكون قد اتفق فى الخفاء مع أحد أعداء الوفد ـ مثل على ماهر أو غيره ـ فهو أمر لا يتفق مع الطبيعة الشخصية للعقاد ، ولا يتفق مع اعتداده بنفسه ، ورفضه لان يكون أداة سهلة فى يد الآخرين .

والذى لا شك فيه ، ان التدبير والتخطيط قد تم فى الظلام بين بعض الاطراف ، وأن العقاد كان موضعا للاستغلال فى هذه المعركة للهجوم على الوفد .. ربما دون أن يدرى بأنه يعمل لحساب خطة متكاملة مدبرة ، ومما يدل على أن هناك نوعا من التدبير فى هذه الخطة ، أن الخلاف لم يكن بين الوفد وبين العقاد وحده ، بل قام الخلاف فى وقت واحد بين العقاد ومحمود عزمى وروزاليوسف مجتمعين ، ولو كانت المسألة مجرد خلاف بين الوفد والعقاد ، لاكتفى الوفد بفصل العقاد منه والتزمت روز اليوسف بقرار الوفد وأنتهى الامر ... ولكن المسألة أخذت طابعا عاما هو الانشقاق عن الوفد بأسلوب جديد ، يتمثل فى خروج جريدة بكل هيئة تحريرها عن الوفد فى وقت واحد ... مما يقطع بوجود نوع من التخطيط والتآمر وراء هذا الموقف وأن لم يكن العقاد على علم كامل به ، لما يعرفه المخططون لمثل هذا التدبير ، من صعوبة اقناع العقاد بأن يلعب دور الكاتب الذى تحركه خيوط خفية بهذه الصورة المباشرة .

على ان العقاد بعد خروجه من الوفد فى أواخر سنة ١٩٣٥ ، بقى ما يقرب من سنتين دون أن يرتبط ارتباطا واضحا بحزب سياسى محدد ، ويمكننا فى هذه الفترة أن نسميه باسم ، « اللامنتمى » حيث أنه كان شبه وحيد فى بحر الحياة السياسية المصرية .. قبل أن يلتقى آخر الامر بأحمد ماهر والنقراشى ، اللذين انشقا على الوفد سنة ١٩٣٧ ، ليبقى معهما بعد ذلك حتى نهاية الحياة الحزبية فى مصر .

ماذا فعل « اللامنتمى » عباس محمود العقاد فى هاتين السنتين : من ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ وقبل أن يتحول نهائيا الى صف الرجعية السياسية فى مصر ؟

بعد الوفد :
اللامنتمى

انفصل العقاد عن الوفد سنة ١٩٣٥ ، فالى أين يذهب بعد ذلك ، وهو الذى عاش طويلا فى قلب الحياة السياسية والعمل السياسى ؟ أين يذهب هذا الكاتب الوطنى ووراءه تاريخ حافل بالنضال والكفاح ، ووراءه ذكريات اشتراكه فى ثورة ١٩١٩ ، ووقوفه الدائم ضد حكومات الثورة المضادة والانقلاب على الدستور ؟ أين يذهب ومعه ذكريات موقفه ضد الملك فؤاد والرجعية .. هذا الموقف الذى قاده يوما الى السجن ، فسجل بذلك أنه مستعد أن يقف على أقصى اليسار بالنسبة للثورة الوطنية ، وأن يدفع الثمن مهما كان غاليا ؟

ليس من المعقول أن يستجيب هكذا بسهولة الى اغراءات الرجعيين له بعد خروجه على الوفد ، وكان هؤلاء الرجعيون يتجمعون حتى الآن « ١٩٣٥ » فى بعض من يسمون أنفسهم بأسم المستقلين ، وفى حزب « الاحرار الدستوريين » الذى يتكون من كبار الاقطاعيين ، لقد رحب « الاحرار الدستوريون » على وجه الخصوص بالعقاد ، والتقى بهم العقاد فى مؤتمر سياسى ـ كما أشرنا فى الفصل السابق ـ ولكن هذا اللقاء لم يبلغ حد الاتفاق الكامل ، والتعاون النهائى ، فلقد كان لقاء عابرا ولم يطل كثيرا .

لقد وقف العقاد بعد أن خرج من الوفد : وحيدا ، لا منتميا ، يعتمد على عناده الشخصى ، واعتداده بنفسه ، وأخذ يبحث عن طريق جديد ، وفى هذه الفترة كان هناك حزب جديد ظهر فى الحياة السياسية المصرية هو حزب « مصر الفتاة » وكان اعلان قيام هذا الحزب فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، وقد نشأ هذا الحزب

الجديد متتبعا خطوات الحزب النازى فى المانيا ، ورفع الحزب الجديد منذ نشأته شعار « مصر فوق الجميع » ، مقلدا بذلك شعار النازيين « المانيا فوق الجميع » ، وكانت حفلة افتتاح الحزب تقليدا للحفلات النازية ، حتى فى طريقة التحية برفع اليد الى الامام ، وبالطبع لم يعلن العقاد انضمامه الى هذا الحزب ، لانه كان حزبا عاطفيا تائها بلا جذور شعبيـة ، وكان يشكـو على وجـه الخصوص من الضعف الفكرى ، فلم يكن وراء هذا الحزب أى تراث فكرى عميق ، بل كان فى نشأته مجرد رد فعل للحزب النازى الالمانى ، الذى كان يعيش أكثر فترات حياته ازدهارا فى ذلك الحين ، صحيح أن الاحزاب المصرية الاخرى كانت ضعيفة فى جانبها الفكرى ، ولكن صفوف هذه الاحزاب كانت ممتلئة بالشخصيات الفكرية اللامعة ، التى كانت تعطى لهذه الاحزاب بعض الحيوية الفكرية ، وتضفى عليها قيمة سياسية أعمق .

أما « مصر الفتاة » فلم يكن فيها أنذاك غير شبان متحمسين يعيشون حياتهم الحزبية على الطاعة المطلقة ، ويقلدون النازية والفاشية فى تنظيماتهم المختلفة ، ولقد كان كثيرون منهم بالتأكيد شبانا وطنيـين ، ولكنهم كانـوا محدودين من الناحية الفكرية الى حد بعيد .

ومع ذلك فقد أرتبط العقاد بنوع من الصداقة والتعاطف مع حزب « مصر الفتاة » ، بعد أزمة خروجه من الوفد سنة ١٩٣٥ ، وبعد أن بدأ العقاد يهوى بقلمه على الوفد ، وزعماء الوفـد فى صحيفة « روزاليـوسف » فى أواخر عـام ١٩٣٥ .

وقد تردد فى تلك الفترة أن « على ماهر » هو المحرض على أنشاء حزب « مصر الفتاة » ، كوسيلة من وسائله المختلفة للقضاء على الوفد ، وتبديد شعبيته ، ومن هنا أشاع مكرم عبيد سكرتير الوفد آنذاك ، أن مقالات العقاد ضد الوفد ، هى من وحى « على ماهر » وبتحريض منه ، وقد رد العقاد على هذه التهمة بعنف ، وكتب يقول فى « روزاليوسف » :

« قد يقال لستم عملاء المستعمرين ولا الطليان ولا الوزارة ، ولكنكم أجراء على ماهر باشا كما يهمس مكرم بين أصحابه وفلوله من حين الى حين .. حسن أيضا .. نحن لا نذكر القراء ما ضينا مع على ماهر ، كلما شاع ترشيحه لمنصب

أو وزارة أو رئاسة وزارة ، ولا نذكر القراء ماضى على ماهر معنا ، مما هو مشهور أو غير مشهور ، ولكننا نختصر الجدال والكلام بدعوة صريحة ندعو اليها مكرم والمكرميين أجمعين ... ها هى ذى أبواب الصحيفة مفتوحة لكل من يشاء منهم أن يكتب نقدا عنيفا أو رقيقا لسياسة ماهر باشا ، حاضره أو ماضيه أو مستقبله ، ونحن ننشره على الدوام كلما شاءوا الكتابة فى هذا الموضوع الى أجل غير محدود » .

وهكذا نفى العقاد نفيا قاطعا أى صلة له بعلى ماهر ، الذى كان معروفا أنه كان صديقا لحزب « مصر الفتاة » ... سواء صح ما قيل أن هذه الصداقة كانت صداقة رعاية وتمويل وتحريض لهدم الوفد ، أو كانت صداقة بريئة . على أن من الثابت أن حملة العقاد العنيفة على الوفد قد لقيت ترحيبا من الحزب الناشىء، حزب « مصر الفتاة » ، وتطلع الحزب الى « العقاد » ، لعل خروجه على الوفد أن يكون فرصة لضم شخصية فكرية بارزة مثله الى حزب مصر الفتاة ، أو تكون الفرصة على الاقل مناسبة لكى يكون العقاد صديقا للحزب الناشىء متعاطفا معه .

لقد كانت نقطة اللقاء هى العداء الحاد للوفد .

ولقد كتب أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة رسالة الى العقاد ، يؤيد فيها حملته على الوفد ويمد يده اليه باسم مصر الفتاة . ولا شك أن « مد اليد هنا » يعنى دعوة العقاد الى الانضمام للحزب ، وان لم يطلب أحمد حسين ذلك بصورة صريحة مباشرة .

يقول أحمد حسين فى رسالته الى العقاد :

« عزيزى الاستاذ الكبير :

... أن القضية المصرية لن تحل بسياسة التفاهم وسياسة اللين والاستسلام ، ولكنها ستحل بسلاح واحد هو أن نكون أقوياء وأقوياء أولا وأخيرا ... هو أن نكون صفا واحدا متراصين ، وأن نقاطع الانجليز والا نمكنهم من الحصول على موافقتنا الا على شىء واحد هو الاستقلال التام لمصر والسودان ... ولقد رميت بالخيانة اذ قلت هذه الكلمات بالامس .. ولقد حيكت لى الدسائس التى تحاك لك اليوم ، والقرآن الكريم يقول :

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » ، ولقد كنت أدعو الله دائما : اللهم أن كنت على حق فانصرنى .. وهذا أنت تمد يدك لكل عامل ، وكل راغب فى الجهاد ، غير ناظر للاشخاص ، وغير مقيم وزنا الا للمبادىء والاعمال .. وهذى يدى أمدها لك ، لاكون جنديا وأياك ، نعمل تحت لواء الكفاح الخفاق .. نشاطر الجهاد والقتال ، ولنقتسم فى نهاية الأمر ما قد ينتظرنا من سجن وأغتراب وأعدام .. هذا أنا أيها العقاد الثائر ، وليس لى من برنامج سوى مكافحة الاستعمار عن طريق العمل ، وحتى الرمق الاخير ... وليس يعنينا أن ننتصر أو نموت فى الطريق .. وليس يعنينا أن نكون عشرة أو أن نكون ألوفا ، ما دمنا مطمئنين الى أن هناك من يتولى الكفاح بعدنا .. وأن مصر الباقية لن تغلب أو تموت .. هذا أنا أمد يدى اليك وليس يخيفنى السجن أو العذاب أو الاضطهاد ، وحياتى كلها وروحى وقف على مصر ومجدها ..»

« هذا أنا باسم مصر الفتاة ، التى تضم اليها أعز شباب مصر ، وأصدقهم جهادا وتضحية ، أمد اليك يدى وأعاهدك على العمل ... ولست أعرف ماذا سيكون نصيب هذا التقدم من ناحيتى ، ولكنى أقوم بواجبى وهذا حسبى ، وهذا جل ما أصبو اليه .. تحية أيها العقاد الظافر أرسلها اليك . والمجد لمصر »[1] .

وقد رد العقاد على رسالة أحمد حسين فى روزاليوسف فى اليوم التالى لنشرها ، أى فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .. وبدأ العقاد رده بأنه كان يشك فى جماعة « مصر الفتاة » ، لانها نشأت فى عهد وزارة صدقى ، وكانت تصدر مجلة منتظمة دون أن يعرف أحد مصدر تمويل هذه المجلة ، كما أن حكومة صدقى لم تتعرض « لمصر الفتاة » ، رغم أن هذه الحكومة قد فرضت أرهابها العنيف على جميع الاحزاب والمنظمات السياسية .. وقد قال العقاد أنه تحدث بهذه الشكوك جميعا للأستاذين أحمد حسين وفتحى رضوان وهما زعيما مصر الفتاة فردا عليه بما يلى :

« فأما الرد على الشبهة الاولى « الخاصة بانشاء صحيفة منتظمة للحزب » ،

١ ـــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ـ ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

فقد أطلعنى الاستاذ «تحى رضوان على أوراق كثيرة ، فيها بيان للديون التى استدأنتها الجماعة ، والرهون التى عقدها بعض انصارها ، والمبالغ التى أنفقت من هذه الديون والرهون ، وقال لى الاستاذ أحمد حسين : أن الصحيفة كانت تجمع فى بعض الاوقات ما يسد نفقاتها ، وكانت تجمع من أجور الاعلانات ما يساعدها على استمرار الظهور . أما الرد على الشبهة الاخرى ، « أى عدم تعرض صدقى للحزب » فهو أن الوزارة الصدقية لم تقابل الجماعة بالقمع والمصادرة والتشتيت ، لانها تعلم أنها مستقلة عن القيادة الوفدية ، التى انحصر هم الوزارة الصدقية فى محاربتها ، فكانت تحسب أن جماعة « مصر الفتاة » ، ستقصر همها على تلك المحاربة ، فأغضت عنها فى انتظار تلك النتيجة ، ولكنها لما رأت ورأى معها الانجليز ، أن محاربة الاستعمار هو غرض الجماعة الاول ، وأنها جادة فى تحقيق هذا الغرض لا هازئة ولا متوانية ، قلبت لها ظهر المجن ، وتعقبتها بالمصادرة والقسوة والاتهام والمحاكمة فى كل مكان » .

وختم العقاد مقاله بالاجابة على نداء الاستاذ أحمد حسين له فقال :

« جوابى للاستاذ » أحمد حسين : « اننى أقوم بواجبى حين أرحب بدعوته المشكورة ، وأرحب معها بكل عمل مصرى يتجه الى أحياء الجهود القومية وتنظيمها ، حتى تنتظم كلها فى قبضة الزعامة التى تستقل بتلك الجهود القومية عن مناصب الوزارة ومطامعها ، ولا تجعل « الروح الوطنى » قوة خاضعة للمناصب والمطامع ، حكمها فى ذلك حكم الموظفين فى الدواوين ، وهيهات ان تظفر بالاستقلال أمة كل من يجاهد فيها موظف فى ديوان » .

وهكذا نجد أن العقاد يقدم شهادة براءة لحزب « مصر الفتاة » ، من التهم التى كانت تتردد ضد هذا الحزب الناشىء ، وأهمها تهمة « التمويل والحماية من القصر أو من الانجليز لهدم الوفد » ، وموقف العقاد يعتبر دفاعا صريحا عن الحزب فى وقت ثارت حوله الشكوك المتعددة .

على أن العقاد ـ رغم دفاعه عن جماعة مصر الفتاة ، وتبرئته لها من التهم الموجهة اليها ـ فأنه لم يرتبط معها بوعد للعمل فى صفوفها ، بل كان رده على نداء أحمد حسين ردا فيه من المجاملة والتأكيد على المعانى العامة ، أكثر مما فيه من الارتباط والالتزام بالحزب الجديد .

وهذا الموقف من جانب العقاد موقف يتناسب مع طبيعته وتاريخه وطريقة تفكيره ، فلقد كان العقاد حتى أوائل سنة ١٩٣٥ معدودا فى الصف الأول من كتاب الشعب ، وكان قد عاش فى المقدمة مع أكبر حزب وطنى عرفه الشعب ، وهو حزب الوفد ، عاش خلال هذه الفترة كلها مرتبطا بزعيمين كبيرين هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، وكان يحمل الكثير من الاعتزاز بنفسه والاعتداد بقلمه .

مثل هذه الطبيعة وهذا التاريخ ، لا يمكن أن يسمحا للعقاد بالانضمام الى حزب ناشىء زعيمه شاب صغير ، هو فى مقام تلاميذ العقاد .. أن هذا الحزب يمكن أن يحظى بعطفه أو تعاطفه ، ولكنه لا يمكن أن يحل أزمته الرئيسية ، وهى أزمة الانتماء الى حزب سياسى كبير .

وقد كتب العقاد فى صحيفة « مصر الفتاة » ، عندما ضاقت عليه حلقات الحياة السياسية بعد أن ترك الوفد ، وخاصة عندما تصدى لنقد معاهدة ١٩٣٦ ، حيث كانت الاحزاب المصرية جميعا قد شاركت فى توقيع هذه المعاهدة ما عدا الحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة ، واذا كان الحزب الوطنى قد رفض التوقيع على المعاهدة تأكيدا لمبدئه المشهور « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ، فقد كانت القوى السياسية المختلفة متفقة بالنسبة لحزب « مصر الفتاة » ، على أنه حزب ناشىء يتكون من جماعات صغيرة لا وزن لها فى الحياة السياسية فى تلك الفترة ، ومن هنا لم يفكر أحد فى دعوته الى الاشتراك فى توقيع المعاهدة ، وكان الحزب من ناحية أخرى يعارض المعاهدة أشد المعارضة .

وهكذا وجد العقاد لفترة قليلة من حياته حزبا صغيرا ناشئا متحمسا ، فعاش فى ظله من سنة ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ ، دون أن ينتمى اليه انتماء صريحا ، ودون أن يصبح جزءا من هذا الحزب فى أى صورة من الصور .

كانت تلك الايام فترة من فترات الجرأة والشجاعة والصمود فى حياة العقاد ، فقد تحدى فى هذه الفترة الزعامة الشعبية للبلاد ممثلة فى الوفد والنحاس ، ولعله كان يتصور لشدة اعتزازه بنفسه أنه سوف يهدم هذه الزعامة ، ولكن الذى حدث هو أن الزعامة الشعبية حاصرته وعزلته عن الجماهير ، حتى كاد أن يختنق ، لولا ما حدث بعد ذلك من تطورات سياسية ، وتطورات فى حياة العقاد الفكرية .

أما التطور السياسى فهو الانشقاق فى الوفد ، وانشاء الحزب السعدى بزعامة احمد ماهر والنقراشى ، وانضمام العقاد الى هذا الحزب ، حيث ظل مرتبطا به حتى نهاية الاحزاب السياسية فى مصر سنة ١٩٥٤ .

أما التطور الفكرى : فهو اتجاه العقاد الى الكتابة فى « الاسلاميات » ، وكانت هذه الاسلاميات هى طريق العقاد الى الشهرة الشعبية الواسعة من جديد ... وهى الشهرة التى خسرها بالانفصال عن الوفد وكسبها ، بل كسب أضعافها بمجموعته الاسلامية .

وكانت فترة ارتباط العقاد بمصر الفتاة فترة قصيرة ، ولكنها كانت فترة حارة فى حياته .

كان فيها عنيفا الى أقصى درجات العنف .

وكان فيها وحيدا ... يحس لاول مرة بقسوة هذه الوحدة فى الميدان السياسى ، فلم يكن شباب مصر الفتاة قادرين على أن يملأوا حياته ، وهم الذين كانوا ما زالوا يبحثون عمن يملأ حياتهم ، وعمن يحدد لهم طريقا أوضح وأعمق وأقوى ... كانوا يجتمعون فى بيت العقاد ، ويلتفون حوله كما يقول لنا فتحى رضوان ، أحد زعماء مصر الفتاة فى كتابه « عصر ورجال » (ص ٢٢١) :

« ... فى هذه الفترة فكر حزب مصر الفتاة أن يقيم اجتماعا سياسيا فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، على أن يكون العقاد من خطبائه ، ولكن وزارة نسيم منعت الاجتماع فى نفس اليوم ، وكنا قد اجتمعنا فى منزل العقاد فى مصر الجديدة ، فبدا أن هناك رايين ، رأى يقول باذاعة أمر المنع قبل موعد الاجتماع ، ورأى يقول باخفاء أمر المنع حتى يذهب المدعوون الى الاجتماع فى موعده ومكانه ... »

على أن هذا الاجتماع الذى كان الاعداد له يجرى فى بيت العقاد ، مع زعماء « مصر الفتاة » لم ينعقد واستطاعت الحكومة أن تمنعه .

رغم هذه الصلة الوثيقة فى تلك الايام بين « العقاد » و « مصر الفتاة » فان العقاد كان يشعر بالوحدة والعزلة السياسية .

ومما يكشف احساس العقاد بالوحدة فى هذه الفترة نفسها ، ما يرويه فتحى رضوان أيضا فى كتابه السابق ، من أن العقاد عندما خرج عن الوفد « ذهب يبحث عن زعيم » و « كتب مقالا افتتاحيا فى جريدة صباحية يحدد فيها شرائط

الزعيم المطلوب ومواصفاته » و « ذكر له البعض عزيز المصرى » ولكنه لم يوافق « ثم جاء العقاد الينا ، وقال ما رايكم فى « محمد فريد وجدى ؟ » وكان العقاد قد أشتغل معه فى تحرير جريدة الدستور، وكان الاستاذ فريد وجدى قد ترك حياة الصحافة السياسية ، ولم يباشر عملا سياسيا منذ ١٩٠٨ ، ولم يحضر اجتماعا يضم اثنين . ولذلك كان هذا الترشيح من جانب العقاد مفاجئا لنا » .

هذا هو ما يكشفه لنا فتحى رضوان ، وما يكشف لنا ، بدوره أن العقاد كان يبحث عن شيء آخر ، لم توفره له « مصر الفتاة » ..

كان يتذكر زعامة سعد التى عاش فى ظلها الشعبى الوارف .. ويتذكر زعامة النحاس التى سرعان ما تكونت لها شعبيتها ودورها النضالى ، ويتذكر حزب الوفد الذى وفر له « الدفء الشعبى » الكامل منذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥ .

أنه الآن يقضى فترة قلق وانتظار فى ظل مصر الفتاة .

ولابد له من شيء جديد .

ولقد كانت هذه الفترة القصيرة « من ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ » هى نقطة التحول الاساسية فى حياته السياسية كلها ، فأنتقل بعدها من المعسكر الشعبى فى السياسة الوطنية ، الى معسكر الاقليات والحكومات الرجعية .

وفى سنة ١٩٣٦ أتيحت للعقاد فرصة أخيرة يقف فيها موقفا يساريا متطرفا فى القضية الوطنية ، فقد تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ عن طريق جبهة وطنية بقيادة النحاس وحزب الوفد . وسجلت هذه المعاهدة بعض التنازلات من جانب انجلترا ، بسبب ظهور بوادر المعركة العالمية بين انجلترا من جانب والمانيا النازية وايطاليا الفاشية من جانب آخر. لقد أرادت انجلترا أن تحمى ظهرها ، وتنشر نوعا من الهدوء النسبى فى المستعمرات ، ولذلك سعت الى عقد معاهدة ١٩٣٦ .

ولقد كانت معاهدة ١٩٣٦ قاصرة بالنسبة لاهداف الثورة الوطنية قصورا ملموسا ، وقام النحاس نفسه ـ فى موقف وطنى مشهود ـ بالغاء هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ وقال فى البرلمان كلمته المشهورة « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بالغائها » .

ولقد كان الكسب الواضح فى هذه المعاهدة هو الغاء الامتيازات الاجنبية ،

وحصول مصر على مزيد من الاستقلال وحرية الحركة ، وخاصة فى ميدان بناء الجيش وبناء الدولة ، وقد دخل عدد كبير من الشبان المصريين الجيش بعد المعاهدة ، حيث فتحت لهم وزارة النحاس أبواب الكلية الحربية التى كانت مغلقة فى وجوههم ، وكان من بين أفراد « الدفعة » التى دخلت الجيش على أثر توقيع معاهدة ١٩٣٦ : جمال عبد الناصر وعدد كبير آخر من زملائه الذين اشتركوا فى تكوين تنظيم الضباط الاحرار ، وقاموا بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان دخولهم الجيش جميعا نتيجة من نتائج زيادة عدد الجيش المصرى على أثر توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

على أن المعاهدة كانت قاصرة فى جوانب أخرى كثيرة . فقد سمحت المعاهدة ببقاء القوات الانجليزية فى القاهرة والاسكندرية اولا ، ثم فى القناة بعد ذلك ، ويكفى أن نلقى نظرة سريعة على الشروط العسكرية للمعاهدة ، حتى يتبين لنا مجافاتها للمطالب الوطنية الكاملة ، فقد فرضت المعاهدة بقاء قوات انجليزية فى أرض مصر ، « بحيث لا تزيد على عشرة الاف من القوات البرية ، واربعمائة من الطيارين مع الموظفين اللازمين لاعمالهم الادارية والفنية ، وهذا التحديد هو فى وقت السلم ، أما فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة ، فان انجلترا لها الحق فى أن تزيد قواتها الى ما تشاء » .(١)

ومن الطرائف المضحكة المبكية والتي وردت فى نصوص هذه المعاهدة ، ان انجلترا اشترطت عدم نقل قواتها من القاهرة والاسكندرية الى القناة ، الا بعد أن تقوم مصر ببناء الثكنات والمنشآت الصالحة فى منطقة القناة ، وفقا لا حدث النظم ، لا قامة القوات البرية والجوية ، مع المستلزمات الفنية بما فيها ايصال المياه ، وتوفير أسباب الراحة للجنود ، بغرس الاشجار وانشاء الحدائق والملاعب ، مع بناء مساكن للمتزوجين من الضباط ، ومن دونهم من مراتب الجندية ، واقامة معسكر استشفاء على ساحل البحر الابيض المتوسط بالعريش .. ولذلك كان على مصر بحكم هذه المعاهدة ان تهتم حتى بأماكن النزهة بالنسبة لافراد الجيش البريطانى ، ولم يكن كافيا ان تحتمل اقامتهم فى

---

١ ــ عبد الرحمن الرافعى فى اعقاب الثورة المصرية جـ ٢ ص ٢١ .

أراضيهـا ، وهـذا من عجـائب التسلط الاستـعمـارى ضـد الشـعـوب .

ومهما يكن من أمر فان معاهدة ١٩٣٦ كانت فى حينها خطوة الى الأمـام ، بالنسبة للمطالب الوطنية ، ولكنها كانت خطوة ناقصة ، تركت كثيرا من مظاهر المرض الاستعمارى فى مصر كما هى ، أو عدلت فيهـا تعديـلا طفيفا لا يحقق الامانى الوطنية الصحيحة .

وقد وقف العقاد من هذه المعاهدة موقف المعارضة العنيفة ، ففندها واحتج عليها أشد الاحتجاج ، ومرة أخرى نجد العقاد ـ بعد موقفه من وزارة توفيق نسيم ـ يمضى فى طريق اليسار الوطنى المتطرف ، وكـان موقف العقـاد هنا فى صعود ثورى ، وكان هذا الموقف أيضا هو آخر وأعلى نقطة ثورية وصل إليها العقاد فى تاريخه السياسى . لقد أزدادت المسافة بينه وبين الوفد بعدا ، وأزدادت الجفوة بينهما عمقا ، لانه كان أكثر ثورية من الوفد فى ذلك الحين ، ولقد كان من الضرورى أن يلتقى العقاد فى هذه اللحظة من تاريخه بطرف خيط جديد .. لقد كان عليه أن يبحث عن فكرة تفتح له عالما جديدا ، يطل فيه على وجه جديد للثورة فى مصر ، بعد أن بدأ الوجه القديم للثورة يذبـل ويشيخ ، ويميـل الى المرونـة والمهادنة . وكانت الفكرة التى يمكن أن تمنح العقاد ضوءا جديدا ، ينظر به الى الامور ويفكر من خلاله فى المستقبل هى الفكرة الاشتراكية ، ولكنه فى أزمته مع الوفد لم يهتد الى هذه الفكرة .. بل ابتعد عنها ـ على العكس ـ أشد الابتعاد .

وقد ركز العقاد نقده لمعاهدة ١٩٣٦ فى أنها أعطت الكثير للانجليز ، وخاصة فيما يتصل « بالمواد العسكرية » حيث اعتبر العقاد أن المواد العسكريـة هى أساس الاحتلال ، وأن ما كسبه الانجليز فى هذه المعاهدة هو تدعيم للاحتلال ، ويستشهد العقاد على ذلك بما قاله اللورد « جورج لويد » وهو من أشـد دعاة الاستعمار الانجليزى ومن أكبر الممثلين له .. يقول العقاد فى مقال له بعنـوان « غنيمتنا التى كسبناها » نشره فى جريدة الضياء فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٦ :

« ... قال ذلك اللورد جورج لويد وألفى نفسه أمام حقيقة ناصعة لا تحتمل المكابرة ولا التشكيـك ، فلم يسعه الا أن يصـرح « بأن المـواد العسكريـة فى المعاهدة جاءت أفضل بما لا يقاس من كل ما أتفق عليه من قبل » ثم يواصل العقاد فى نفس المقال نقده للمعاهدة، على أساس ما فيها من شروط عسكـرية تحقق أهداف الانجليز ، دون أهداف مصر :

« ... وجاءت « التيمس » فى اليوم التالى تقول : ان شهادة المستميتين للمعاهدة «أى المؤيدين لها بشدة » قد دلت على أنها لم تدع شيئا قط للطوارىء وللمصادفات » .

« فالشروط العسكرية ليست خيرا من الشروط فى المعاهدات السابقة .. وليست مثل الشروط فى المعاهدات السابقة .. وليست أفضل قليلا من الشروط فى المعاهدات السابقة .. كلا ، بل هى أفضل بما لا يقاس من تلك الشروط جميعا : يصرح بذلك واحد من المعروفين بالغلو فى بخس القضايا الوطنية ، والقضية المصرية خاصة ، « هو لورد لويد » ولا يصرح به واحد من العمال أو من الاحرار أو من عامة المحافظين . هذا هو الحكم فى الشروط العسكرية فما هى قضية الاحتلال كلها غير قضية الشروط العسكرية ؟» .

ثم يقول العقاد فى نفس المقال عن معاهدة ١٩٣٦ :

« نال الانجليز أفضل ما نالوه بتلك المعاهدة » .

« نالوا بها قطرين عظيمين هما مصر والسودان ، وهما أكبر من البلاد الانجليزية مرات ... »

ويفسر العقاد بعد ذلك سر الترحيب والتهليل فى مصر للمعاهدة ، رغم ما فيها من خسارة للمصريين ، مع عدم الترحيب والتهليل بها فى انجلترا مع انها كسب واضح للانجليز .. يفسر العقاد هذه الظاهرة بجهل الزعماء المصريين ، وهو يقصد زعماء الوفد على وجه الخصوص .. ويقارن العقاد بين هذا الجهل وبين ثقافة السياسيين الانجليز ، أمثال أنتونى أيدن .. يقول العقاد :

« أفتدرى الفرق بين الجلبة هنا والوقار هناك .. أفتدرى ما الفرق بين تهليل الخاسرين وسكوت الرابحين ؟ هو فرق واحد لا فرق غيره بين جميع الاخلاق وجميع الاعتبارات .. هو الفرق بين الجهل والثقافة .. هو الفرق بين الرجل الذى لا ثقافة له غير الصناعة التى يأكل منها العيش ، وليس هو فيها من المبرزين المعدودين ، وبين الرجل الذى هو على مثال أنتونى ايدن يعرف الجندية ويعرف الحياة الفكرية ، ويؤلف رسالة عن المصور « سيزان » ورحلة عن « اماكن تحت الشمس » حين سافر الى القارة الاسترالية ، ويتعلم اللغة الفارسية واللغة العربية ليستوفى حظه من أدب اللغتين ، غير مترجم الى لغة أخرى ، ويلتقى هو

ورئيس وزارة فرنسا « ليون بلوم » فلا ينقضيان من بحث المسألة السياسية ، حتى يستغرق كلاهما فى بحث اسلوب « بروست » والمقارنة بينه وبين سائر الاساليب !

هذا هو الفرق بين الوزراء والزعماء .

وهذا بعينه هو الفرق بين الحواشى والاتباع ..

وهذا بعينه الفرق بين الزبد وما ينفع الناس .. »

استمر العقاد على هذا الاسلوب ، ينقد معاهدة ١٩٣٦ ويهاجمها أعنف الهجوم ، ويتخذ منها فرصة لشن حملته ألحادة ضد الوفد وزعمائه ، ويرى أن المعاهدة كانت تنازلا عن المطالب الوطنية ، وتضحية بها والتماسا للمهادنة والاستسلام ، فى سبيل الوصول الى كراسى الحكم دون معارضة أو عقبات من الانجليز أو من السراى .

وهكذا اتخذ العقاد موقفا ثوريا متطرفا فى تلك الفترة من تاريخه السياسى ، وقد أحتمل العقاد وحده مسؤولية موقفه الوطنى المتطرف ، بعد أن كان يستند الى حزب كبير قوى هو حزب الوفد ، وفى هذه الفترة أيضا تحمل كثيرا من المتاعب الخاصة ، وضاقت به ظروفه الاقتصادية ضيقا شديدا ، نتيجة للحرب التى شنها الوفد ضده ، وأحس العقاد بالمرارة تملأ وجدانه وتلون شعوره كله وقد أصدر العقاد فى هذه الفترة جريدة يومية هى جريدة « الضياء » حيث اشترى امتيازها من صاحبها الاستاذ عبد الحميد حمدى ، ليصدرها باسمه ، وكان العقاد يمول الجريدة من تبرعات قدمها اليه – سرا – احد أبناء بلدته ، وهو ابراهيم باشا عامر ، كما يقول الاستاذ عامر العقاد فى كتابه عن معارك العقاد السياسية ، على أن الجريدة لم تستطع الصمود فى وجه المقاطعة الشاملة من جماهير الوفديين ، فانقطعت عن الصدور بعد أيام قليلة .

وفى هذه الفترة أخذ العقاد يستعيد ذكرياته عن السنوات الذهبية للثورة الوطنية ، فأصدر فى سنة ١٩٣٦ ، قمة سنوات الازمة با لنسبة للعقاد ، كتابا عن « سعد زغلول » وكان هذا الكتاب أشبه بأغنية بديعة حزينة ، تبكى على الماضى الذى راح ، حيث كان الثوريون لا يترددون ، وحيث كانت الاهداف الوطنية واضحة لا مساومة عليها ، وحيث كان الكاتب الوطنى الموهوب عباس العقاد ،

يعيش فى ظل زعيم يعرف قدره تمام المعرفة .. لقد كان كتاب سعد زغلول للعقاد هو « الحل الروحى الخاص » الذى استطاع العقاد عن طريقه ان يخرج من الايام العصيبة ، التى كان يعيشها فى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ الى حيث الذكريات الجميلة للنضال الوطنى فى ظل سعد زغلول .

ولا شك أن مما زاد أزمة العقاد فى ذلك الحين ، أن الجماهير التى تعودت أن تجد فيه كاتبها الاول ، وتعود هو على استجابتها السريعة لما يكتب ، قد انفضت من حوله على أثر خصومته مع الوفد ، وتعرضت الصحف التى كان يكتب فيها مقالاته السياسية للبوار الشديد ، نتيجة لمقاطعة الجماهير الوفدية الكبيرة . ولعل هذا الموقف من جانب الجماهير كان من الاسباب التى أعادت العقاد الى فكرته الرئيسية عن « العبقرية الفردية » .. فالعبقرية الفردية لا تجد مأمنها الصحيح ـ من وجهة نظر العقاد ـ مع الجماهير الكثيرة العادية ، وأنما تجد هذا المأمن بالعزلة والانطواء ، أو بالحياة وسط النخبة أو الصفوة الممتازة فى المجتمع ، لا شك أن نفس العقاد كانت تحدثه بهذا كله من خلال ازمته الخاصة ، ولم يكن غريبا أن تكون الفترة التى جاءت بعد الازمة مباشرة ، هى الفترة التى أصدر فيها العقاد كتبه عن العبقريات الاسلامية ، والعبقريات العالمية المختلفة ، ولا شك أن لهذا الاتجاه نحو العبقريات مغزاه .. فقد أصبح العقاد منذ الآن يميل الى الحياة وسط النخبة أو الصفوة ، بدلا من الحياة بين الجماهير التى لا تقدر العبقرية ، ولا تدرك حقيقتها بما فيه الكفاية . واذا كان العقاد يميل فى حياته الخاصة الى الابتعاد عن الجماهير التى خذلته فى أزمته مع الوفد ، فهو يميل الان أيضا الى التفكير فى النخبة والصفوة .. أو فى « العباقرة » على حد تعبيره الخاص .

ولم يكن العقاد قد أصدر حتى الآن ـ سنة ١٩٣٦ ـ سوى ثلاثة كتب تتناول دراسة الشخصيات من بين ما يقرب من خمسة وعشرين كتابا كان العقاد قد أصدرها حتى ذلك الحين ، وهذه الشخصيات الثلاث التى درسها هى : أبن الرومى ، وجيته ، ثم سعد زغلول . أما بعد سنة ١٩٣٦ فقد تركز معظم انتاجه على دراسة العبقريات والشخصيات البارزة فى تاريخ الاسلام أو فى تاريخ الفكر العالمى .

كانت سنة ١٩٣٧ هى آخر سنوات الازمة بالنسبة للعقاد ، وفى سبتمبر من هذا العام تعرض العقاد للسجن مرة أخرى ، وكان ذلك فى عهد وزارة الوفد ، وبقى فى السجن أربعة أيام ، ثم أفرج عنه بغرامة قدرها عشرون جنيها ، وكان المحامون الاساسيون عن العقاد هم : فتحى رضوان ، واحمد حسين ، وكامل البندارى ، وكانت التهمة التى وجهت للعقاد هى « اهانة رفعة مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء ، وصاحب المعالى مكرم عبيد باشا وزير المالية » . ولا شك أن ما كان يكتبه العقاد من مقالات عنيفه جارحة ضد النحاس وحكومته ، فى جريدة البلاغ فى ذلك الحين ، وكانت البلاغ قد خرجت على الوفد .. لا شك أن مثل هذه المقالات القاسية ، كانت كفيلة بأن تدفع العقاد الى السجن مدة طويلة مثلما حدث له سنة ١٩٣٠ .. ولكن الفضل فى جعل عقوبته مجرد غرامة تبلغ عشرين جنيها ، يعود الى أن حكومة النحاس الشعبية لم تكن تملك أو ترضى أمام سمعتها الشعبية أن تعبث بالقانون على نفس الصورة التى كان يقبلها ويمارسها الآخرون من اعداء الدستور ، وأعداء الحرية ، أمثال اسماعيل صدقى ومحمد محمود وعلى ماهر وغيرهم ، حيث كان هؤلاء يفرضون سلطانهم بالارهاب والضغط والعبث بالقانون .

وفى هذه السنة بالذات سنة ١٩٣٧ كانت مجموعة من شباب الوفد اللامعين تتمرد على الحزب . لقد انفجر نوع من الصراع على السلطة فى داخل الحزب ، وخاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، فقد تصور الحزب أن بامكانه ان يبقى فى السلطة فترة طويلة بعد توقيع المعاهدة ، وبعد أن سويت المشكلة الى حد بعيد مع الانجليز وبدأت قيادة الوفد التى كانت تقف فى طليعة الحركة الثورية سنة ١٩١٩ تستقر وتهدأ ، وتجد لنفسها مكانا بارزا فى المجتمع ، وأصبح الذين سجنوا أو تعرضوا للنفى من البلاد أو حكم عليهم بالاعدام خلال ثورة ١٩١٩ وما تلاها من انتفاضات ثورية .. أصبح هؤلاء الثوار وزراء وموظفين كبارا وأعضاء فى البرلمان ، وأعضاء فى مجالس ادارات شركات كبرى ، وبدأ الصراع فى داخل الوفد يأخذ شكل التنازع على السلطة ، مما أدى الى انفجارات متعددة فى صفوفه .

وكان من أبرز الانفجارات فى داخل الوفد ، خروج بعض الشبان المثقفين اللامعين ذوى التاريخ النضالى المعروف من صفوف الوفد .. لقد خرج هؤلاء سنة ١٩٣٧ من الحزب ، وكونوا حزبا جديدا هو الحزب السعدى أو الهيئة السعدية كما كانت تسمى عند نشأتها . وكان على رأس هذا الحزب الجديد من الوفديين السابقين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى . وقد رأس أحمد ماهر هذا الحزب عند أنشائه ، وكان من الواضح أن هذا الحزب الجديد قد نشأ بتشجيع القصر وتحريضه .

ومنذ سنة ١٩٣٧ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كان العقاد مرتبطا بالحزب السعدى . لقد أصبح العقاد هو كاتب الحزب السعدى الاول ، والمدافع عن مواقفه المختلفة . وخرج العقاد من الفترة الحرجة التى كان فيها وحيدا لا منتميا فى الحياة السياسية المصرية .. هذه الفترة التى أستمرت من ١٩٣٥ الى أواخر ١٩٣٧ ، والتى عانى فيها العقاد كثيرا من المصاعب فى حياته الخاصة وحياته العامة على السواء .

ومنذ سنة ١٩٣٧ بدأت فترة النكسة فى موقف العقاد السياسى ، فقد بدأ طريقه ككاتب بارز فى المعسكر اليمينى الرجعى فى السياسة المصرية ، بعد أن كان فى طليعة كتاب اليسار الوطنى . أن كاتب الشعب الاول فى ثورة مصر الوطنية سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٧ يبحث لنفسه الان عن سند فى الحزب السعدى ، ذلك الحزب الذى سرعان ما أصبح أداة فى يد السراى والانجليز ، لقد أنفصل العقاد عن حركة الثورة الوطنية فى صورها المتطرفة وصورها المعتدلة على السواء ، وأصبح مرتبطا بالحكومات الرجعية المختلفة .. لم يعد حادا متطرفا فى موقفه من السراى ، بل على العكس ، أصبح وجها من الوجوه التى تعتز بها حكومات السراى . فالكاتب الثورى الوطنى الذى كان عضوا فى مجلس النواب بالانتخاب الحر ، والتأييد الشعبى سنة ١٩٢٦ وما بعدها ، هذا المناضل الذى وقف فى البرلمان يتحدى الملك فؤاد سنة ١٩٣٠ يصبح عضوا فى مجلس الشيوخ بالتعيين سنة ١٩٤٤ ، وهذا التعيين معناه أنه حصل على منصبه النيابى ، بقرار موقع من الملك فاروق ، وفى ظل حكومة من الحكومات التى فرضها الملك وهى حكومة أحمد ماهر .

وقد ظل العقاد ملتزما بهذا الموقف ، حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ ، وحتى الغيت الاحزاب سنة ١٩٥٤ .

فما سر هذا التحول السياسى فى حياة العقاد ؟ ما هو السبب الذى جعل منه قريبا من السراى والانجليز بعد أن كان مناضلا لا يهدأ ضد السراى والانجليز ؟

هناك أكثر من سبب واحد قوى يقف وراء هذا التحول الكبير . وكما هى العادة فى حياة العقاد لعب العنصر الشخصى دورا كبيرا فى هذا التحول ، فقد كان العقاد على صداقة حميمة مع محمود فهمى النقراشى أحد زعماء الحزب السعدى ، ورئيس الحزب بعد اغتيال أحمد ماهر سنة ١٩٤٥ وقد ظلت هذه الصداقة قائمة بين الاثنين حتى حدث أغتيال النقراشى فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ . أن العقاد فى علاقته بالنقراشى يستعيد مرة أخرى « طعم » علاقته بسعد زغلول ، فلقد كان النقراشى مثل سعد ، يحترم العقاد ويضعه فى مكان رفيع بالنسبة له ولحزبه . ولقد كان لهذا العامل الشخصى أثره الكبير فى حياة العقاد السياسية ، فالعقاد ـ كما أشرت من قبل ـ يتأثر بمثل هذه العوامل الشخصية أشد التأثر . ويكفى أن نقرأ بعض سطور من مقالة كتبها العقاد بعد اغتيال النقراشى بعنوان « المثل الاعلى فى عالم الحقيقة » لكى ندرك من خلال هذه الكلمات كم كان العقاد مرتبطا أشد الارتباط بشخصية النقراشى .. يقول العقاد فى هذا المقال من كتابه « بين الكتب والناس ص ٣١٣ » :

« ذكرى النقراشى تراث خالد يعلو على آفق السياسة ، ويفيض من نطاق الانسانية الذى يحيط بجميع الحدود . ذكرى النقراشى أنفع الذكريات فى هذا الزمن لانها الترياق الذى يعالج داء الزمن ، بل يعالج شر أدوائه ، وليس للزمن الحاضر داء شر من التهالك على المنفعة ، والجنون بالثراء ، والايمان يقيم المادة وحدها دون قيمة للخلق والضمير .. ذكرى النقراشى ترياق من هذا الداء الذى سرى واستشرى فى كل مكان ، وفى كل أمة ، فهذه الازمات التى تتحرج فى السياسة العالمية ، وهذه الفتن التى تنهش النفوس بأنياب الحسد من جانب ، وأنياب الطمع من جانب ، وهذه التخمة التى يتأذى بها قوم حيث يتأذى بالجوع قوم آخرون ، وهذا الشقاق فى غير جدوى بين الامم والآحاد ، وبين الرعاة

والرعايا . وهذه البلايا كلها داء واحد من جرثومة واحدة هي : جرثومة العصر الذي نحن فيه ، جرثومة المنفعة والايمان بالذات ، والكفران بالواجب والفداء .. وذكرى النقراشي رحمه الله هي الترياق من كل هذا الداء » .

« من هذا الشهيد الذي عاش من الفقراء ومات من الفقراء ؟ من هذا الرجل الذي استطاع ما لا يستطاع فهزم الغواية التي لم يهزمها أحد من الناس ؟.. هذا الشهيد الفقيد هو رئيس وزارة مصر وحاكمها العسكري في أبان السيطرة على أموال الدولة وأموال الاعداء . هذا الشهيد الفقير هو وزير الخزانة في أبان التصدير والايراد والاثراء مما تطلبه البلاد أو ما يطلب من البلاد ... هذا الشهيد الفقير هو صاحب الوزارة الكبرى التي يباع نفوذها لو شاء بالالوف وعشرات الالوف . هذا الفقيد لو مات وعنده عشرة ملايين لما استكثرها طلاب الكثير ـ قد مات وليس عنده شيء .. وقد خرج من كل شيء ليفدي بلاده بالراحة والروح والنعمة الثراء » .

هذه هي النغمة التي كان يتحدث بها العقاد عن النقراشي ، وهي نغمة تكشف عن عاطفة صادقة نحو النقراشي . ولعل النقراشي هو السياسي المصري الوحيد الذي سلم من قلم العقاد ، فقد هاجم العقاد معظم السياسيين غير الوفديين عندما كان في معسكر الوفد ، وعندما خرج على الوفد هاجم معظم السياسيين البارزين في الوفد بما فيهم أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي بعد ذلك ، وصديق النقراشي الحميم ، وعندما خرج العقاد من الوفد كان النقراشي ما زال عضوا بارزا في الوفد ، ولكن العقاد لم يمسه بسوء ، بينما نجده يتناول معظم السياسيين الوفديين في تلك الفترة ، بالنقد القاسي والهجوم العنيف .. ولقد كتب العقاد سنة ١٩٣٥ عن أحمد ماهر يقول وكان ذلك خلال أزمة العقاد مع الوفد :

« يادكتور ماهر .. انني رجل أعني ما اقول ، واعرف الصدق كما يعرفه الناس في كل حرف مما أقول . أما أنت يادكتور ماهر فكاذب منافق : كاذب حين تفتري على الابرياء الذين لا تعرفهم ولا يعرفونك ، وتسمح لصديقك الدجال « مكرم عبيد » أن يعزو اليك الافتراء وتنشره في صحيفتك بغير حياء « والصحيفة هي كوكب الشرق التي كان أحمد ماهر يراس تحريرها سنة ١٩٣٥ » ومنافق حين تقول في صحيفتك غير ما تقول لصحبك .. الخ » .

بمثل هذا الاسلوب العنيف الجارح كتب العقاد عن أحمد ماهـر ، قبل أن يلتقى الاثنان فى الحزب السعدى بعد ذلك بسنتين .. أما النقراشى فلم يتعرض له العقاد الا بكل حب وتقدير ، خلال حياة النقراشى السياسية كلها ، حتى وقع حادث اغتياله فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

هذه الصداقة الشخصية وهذا الود العميق المتبادل بين العقاد والنقراشى ، كانت من الاسباب القوية التى دفعت العقاد الى الارتباط بالسعديين بعد انشاء الحزب الجديد ، وكانت من أقوى الاسباب التى حافظت على أرتباط العقاد بهذا الحزب من ١٩٣٧ حتى نهاية الحياة الحزبية فى مصر سنة ١٩٤٥ .

على أن العامل الشخصى وحده رغم أهميته لم يكن يكفى أن يقود العقاد الى هذا التحول الخطير ، فقد كانت هناك عوامل أخرى لها قيمتها الكبيرة ، وعلى رأس هذه العوامل يأس العقاد من حزب الوفد .

لقد أحس العقاد أن الوفد فقد الكثير من وحدته وتماسكه ، ولم تعد تلك القوة الشاملة ، التى تظلل الحركة الوطنية فى شتى انحاء البلاد ، لم يعد الوفد كما كان سنة ١٩١٩ وما بعدها . ولكن العقاد لم يتساءل عن السر فى اضطراب الوفد ، وكان السر واضحا وهو قوة التآمر الاستعمارى ضد هذا الحزب الشعبى الكبير . ولقد كانت نظرة العقاد الى الوفد والى غيره من الاحزاب تعتمد على رأيه فى قيادة هذه الاحزاب ، خاصة أن معظم هذه الاحزاب لم تكن ذات برامج فكرية واضحة محددة ، بل كانت برامجها مجموعة من الشعارات العامة البعيـدة عن العمق الفكرى ، والتحليل السياسى الدقيق . ان الاحزاب المصرية الرسمية قبل ثورة ١٩٥٢ تعتبر من أفقر أحزاب العالم فى فكرها السياسى . وأذا حاولنا أن نعود الى خطب الزعماء السياسيين الذين قادوا هذه الاحزاب ، والى بيانـاتهم المختلفة لوجدنا أن كل ما تتضمنه هذه الخطب والبيانات فى النهاية ، هو تأييد لموقف أو معارضة لموقف آخر . أى أن الاحزاب كانت تحدد سياستها من خلال مواقفها العملية ، لا من خلال منهج فكرى محدد واضح ، حيث أن هذه الاحزاب لم تعن بالفكر السياسى عناية كافية . ولذلك كنا نجد بعض الاحزاب تنتمى فى شعاراتها لنفس المبادىء ، ومع ذلك فالخلاف بينها واسع وحاد ، فالوفد هو حزب سعد زغلول ، والهيئـة السعدية تنتسب حتى فى الاسم الى سعـد زغلول ، والكتلة

الوفدية التى أنشأها مكرم عبيد فى الاربعينيات تنتسب أيضا الى سعد زغلول ، ومع ذلك كان الخلاف حادا بين هذه الاحزاب ، والفرق لم يكن فى الشعارات والمبادىء ، بل كان فرقا فى المواقف السياسية العملية .

هذا النوع من التقارب فى المبادىء والشعارات بين الاحزاب ، كان يجعل عملية الانتقال من حزب الى حزب آخر امرا غير عسير . ومن هنا لم يجد العقاد صعوبة فى الانضمام الى السعديين بعد خروجه من الوفد ، بل لقد كان انضمام العقاد الى السعديين فى البداية مقبولا ، لأن انشقاق النقراشى وماهر عن الوفد سنة ١٩٣٧ أخذ فى اللحظة الاولى صورة الاعتراض على انحرافات الوفد والوقوف ضدها ، ولذلك كان الوقوف مع السعديين فى البداية امرا يمكن تبريره .

ولكن حركة السعديين تكشفت بعد ذلك ، عن ارتباط كامل بالسراى ومحاولة لتنفيذ خطط القصر ضد الشعب والحركة الوطنية فى مصر ، وأصبح الإرتباط بحركة السعديين بعد فترة قصيرة من قيامها ، معناه الوحيد هو خدمة احزاب الاقليات ، التى كانت بدورها تخدم القصر وتخدم الرجعية ، ولا تستطيع أن تجسد المطالب الوطنية الحقيقية امام الانجليز .

واذا كان من المقبول ان ينتقل العقاد من معسكر الوفد الى معسكر السعديين المنشقين على الوفد فى بداية نشأة السعديين ، فان التجارب السياسية والمواقف المختلفة للسعديين ، قد أثبتت بعد ذلك ان الانتماء الى السعديين معناه انتماء الى الرجعية السياسية فى مصر .

ومن هنا كان انتماء العقاد الى السعديين نقطة ضعف فى حياته السياسية ، وكان انعطافا واضحا منه نحو اليمين الرجعى فى السياسة المصرية .

ومن الغريب ان الحركة اليسارية الناشئة فى مصر ، قد أحست بالامل الكبير فى أن ينتمى العقاد اليها بعد اصطدامه بالوفد سنة ١٩٣٥ ، فكتبت مجلة يسارية كانت تصدر فى القاهرة باسم « الطليعة » فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٥ ، أى بعد أزمة العقاد مع الوفد بحوالى شهر .. كتبت هذه المجلة تقول تحت عنوان « عباس محمود العقاد يدافع عن العمال » :

« أهم ما يمتاز به الكاتب الكبير اخلاصه لفكره ، اذا تبين الحق فى مكان لا يرى غضاضة من أن يلتحق به ، وينكر من أجله كل حياته السابقة .. هذا

ما حدث لأناتول فرانس وهو فى آخر حياته ولا ندريه جيد وهو فى الثانية والستين من عمره ، ولعباس محمود العقاد الآن . لقد قضى هؤلاء الشطر الاكبر من حياتهم متأثرين بثقافة الوسط الرجعى الذى يعيشون فيه ، مقتنعين بتلك المبادىء الكاذبة ، التى اخترعها ادباء البرجوازية وهى ان الفنان أعلى من المجتمع ، وأرفع من أن يهتم بغير الجمال ، ثم أنكشف لهم الحق فجأة ، ورأوا أنهم يخونون رسالة الادب والفن بتعاميهم عن فساد المجتمع وشقاء العدد الاكبر من الناس ، كان هؤلاء الادباء يحسبون أنهم طالما يعيشون عيشة نزيهة لا يقتلون ولا يسرقون ، فانهم قد قاموا بواجبهم الاخلاقى نحو الحياة . ولكن وهمهم هذا ما عتم ان تبدد ، وايقنوا أنهم لا يقلون عن السارقين والقتلة اجراما ، اذا هم سكتوا عن ظلم الظالمين وجشع المستغلين » .

ثم تتحدث المجلة اليسارية بعد هذه المقدمة عن العقاد وسوف ننقل هنا حديثها بالكامل ، ذلك لان حديث المجلة يكشف بوضوح ، عن ذلك الامل الذى داعب الشيوعيين سنة ١٩٣٥ ، حيث تصوروا أن بالامكان جذب العقاد الى الحركة الشيوعية بعد خروجه العنيف على الوفد ، وقد خاب هذا الامل بالطبع ، وأبتعد العقاد عن الحركة الشيوعية ، بل كان العدو الفكرى الاول لها فى الاربعينات والخمسينات والستينات ...

تقول المجلة اليسارية عن العقاد :

« كان العقاد فى أول عهده منصرفا للادب الصرف ، ثم استيقظت فيه العاطفة الانسانية فأحس بكل ثقل القيود التى ترزح تحتها من جراء الاستعمار ، فأنضم الى الحركة الوطنية ، وكان مجليا سابقا فى ميدانها ، ثم تبين له أن تلك الحركة الوطنية ناقصة مشوهة ، تضم مع ذرة من الحق أكداسا من الفساد ، وأيقن أن أكثر القائمين بها تجار ، يستثمرون سذاجة الشعب ليصلوا الى الشهرة أو الثروة ، متلاعبون يصرخون فى المظاهرات فى وجه الظلم والاستبداد ، وهم يبنون رفاهيتهم على بؤس الفلاحين والعمال .

أزاء ذلك عرف العقاد أن أمامه واقعا أوسع ، وميدانا أشرف وأنظف ، يجمع بين غيرته الوطنية ونزعته الانسانية الشريفة ، فأتجه نحو حركة العمال ، ينفخ

فيها من قوة بيانه وتوقد ايمانه ، وكان أتجاه العقاد هذا جوابا بليغا على الذين يحسبون أن ثمة تعاكسا بين النزعة الوطنية والنزعة الانسانية ، وأن الثانية تضعف من قوة الاولى فى حين أنهما متفقتان ومكملتان الواحدة للاخرى، فالنزعة الوطنية اذا تحررت من النزعة الانسانية تظل لفظا بلا معنى ، تنقصها روح العدل وقوة الجماهير ، والنزعة الانسانية اذا مشت منعزلة عن الحركة الوطنية تكون مشوشة الخطى ، ضعيفة الحماسة . عسى ان يكون مثل العقاد مشجعا لبعض أدبائنا ووطنيينا كى يقلعوا عن أساليبهم البالية ، فيتمشوا مع روح العصر ومقتضياته ، ويعلموا أن المناداة « بالامانى القومية » و « الحقوق المهضومة » و « الحرية السياسية » مناداة عقيمة، وتمثال بلا روح، اذا لم يبثوا فى داخلها برنامجا واقعيا محسوسا لا صلاح الاوضاع الاجتماعية الحاضرة ، والاهتمام بالعدد الاكبر من الشعب ، وفيما يلى بعض أبيات من قصيدة العقاد فى حفلة افتتاح دار العمال فى القاهرة :

حى دار العمال بالاقبال
وترقب لها بلوغ الكمال
وأنتظر رافعى الدعائم حتى
يرفعوا بينهم عزيز المثال
رفعوا أمس ما علا من صروح
ولهم فى غد صروح عوالى

وقال مخاطبا العمال :

لكم العدة التى ما أستطاعت
أمة قط تركها فى نزال
ولكم أذرع شداد ، وأيد
من حديد ، وأظهر من جبال
ولكم صيحة يهاب صداها
سادة من نفوسهم كالموالى

ثم خاطب الاغنياء المصريين :

لا يكن من بنى الكنانة باغ

يملأ الناس دوره وهو خال

ويكيل النضار وهو دماء

جمعت من مصارع الاجيال

وهنا أخذ يصف حالة العامل :

ينسج الخز والحرير ويمشى

حافيا فى الرقاع والاسمال

ويشيد القصور وهو شريد

فى زوايا الكهوف والاطلال

ويدر الغنى وما فى يديه

شبعة الوالدين والاطفال

يهب المترفين عمر فراغ

وهو باكى الايام باكى الليالى

ثم يبقى هنا أن قضية البلاد هى فى آن واحد قضية العمال ، فلا يمكن لاحداهما الاستقلال عن الثانية ، وتحريرهما من الاستغلال والعبودية لا يكون الا باتحادهما المتين :

أيها المنقذون بنية مصر

من فتور ومن ضنى وكلال

أنتم الكف والذراع وأنتم

قوة فى يمينها وشمال

كلما نالها نصيب من الخير

فأنتم لكم نصيب تال

أعجب الناس عامل فى بلاد

صاح فيها : ما للبلاد ومالى

أن مصرا تنال من غاصبيها

أجر بخس وخدعة ومطال

وهى أرض للواغلين عليها

سطوة أشعبية الإيغال

كل من فى جوانب النيل عان
مستغل الجهود والآمال
وإذا ما تفرقوا طبقات
جمعتهم جوامع الاغلال
حققوا الامر ما قضية مصر
بعد إلا قضية العمال »

هذا نص مقال المجلة اليسارية ، ولا شك أن المجلة قد وجدت فى قصيدة العقاد عن العمال مناسبة للحديث عن اتجاه العقاد التقدمى ، ولكن السبب الأكبر لحماس المجلة اليسارية للعقاد هو صدام العقاد مع الوفد ، ووقوفه على يسار الوفد فى هذا الصدام ، حيث كان أكثر من الوفد تطرفا وعنفا فى هجومه على الرجعية المحلية فى عهد توفيق نسيم سنة ١٩٣٥ .. ولقد كان هذا الموقف من جانب العقاد يوحى بأنه سوف يبحث عن معسكر اكثر تطرفا من الوفد ، ولم يكن هناك معسكر آخر يقف على يسار الوفد سوى الشيوعيين . ومن هنا كان حلم الحركة الشيوعية بأن تكسب العقاد ... وتمثل حلم الشيوعيين فى كسب العقاد فى المقال السابق الذى نقلناه بالنص عن مجلة الطليعة اليسارية القديمة بنت الثلاثينات ، وهى بالطبع مجلة أخرى غير مجلة الطليعة الجديدة التى صدرت فى الستينات .

لو أن العقاد ترك حزب الوفد ، ورفض الاحزاب المصرية جميعا ، وتخطى هذه الاحزاب ... لو أنه فعل ذلك لكان موقفه مقبولا ، فبعض الاحزاب كانت تعانى من الفساد والازمة الشاملة منذ البداية بحكم تكوينها مثل « الاحرار الدستوريين » الذين كانوا يمثلون تجمعا سياسيا للعائلات الاقطاعية فى مصر ، وبعض هذه الاحزاب التى نشأت نشأة وطنية شعبية مثل حزب الوفد كانت معرضة لتسلل قام به بعض كبار الاقطاعيين والرأسماليين ، ولذلك كان يمكن لاى مفكر تقدمى أن يرفض هذه الاحزاب جميعا رفضا تاما كاملا ،باعتبارها غير قادرة على تجسيد مطالب الشعب بصورة سليمة ونهائية ، ومثل هذا المفكر كان له كل الحق فى أن يتطلع خارج نطاق الاحزاب المصرية باحثا عن أمل جديد ، أما اذا كان الاختيار محصورا فى نطاق الاحزاب المصرية ، فلقد كان الوفد أفضلها وأصدقها وطنية وأقربها الى المطالب الشعبية .

ولكن هل كان العقاد يستطيع أن يرفض الاحزاب المصرية جميعا ويبحث عن أمل جديد ؟

أنه فى الحقيقة لم يكن يستطيع ان يرى هذه الرؤية لان الامل الجديد كان يكمن فى الطبقات الشعبية ، وفى دراسة مشاكلها العملية والتعرف على مأساتها . ولقد كان هذا كله يحتاج الى ثقافة سياسية مختلفة عن ثقافة العقاد ، فلا شك أن ثقافة العقاد السياسية كان ينقصها الفهم الدقيق للمشاكل الاجتماعية وهو الفهم الذى لا يستطيع أن يصل اليه ألا مفكر درس الاشتراكية واستوعبها وأدرك تفسيرها للحياة وللتطور الاجتماعى . ولكن العقاد كان يعتمد فى ثقافته السياسية على الفكر الذى ولدته الديمقراطية الغربية ، فالديمقراطية عنده هى الانتخابات ، والبرلمانات ، وحرية الصحافة والرأى والتعبير وما الى ذلك ، أما الديمقراطية الاقتصادية فلم يعرفها العقاد ، وأستطيع أن أقول دون أن أخشى الخطأ أن هذه العبارة .. عبارة « الديمقراطية الاقتصادية » لم ترد اطلاقا فى كتابات العقاد . صحيح أنه كتب كتابات قليلة متفرقة عن الاشتراكية ولكنه لم يتعمق فى دراسة الاشتراكية ولا فى الدفاع عنها . ان الديمقراطية الاقتصادية تطالب وتلح على ضرورة توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الناس وضرورة هدم الاقتصاد القائم على الامتلاك الاستغلالى ، والذى يتمثل على وجه الخصوص فى الاقطاع والرأسمالية . لم يدرك العقاد هذا المعنى ، ولم يدع اليه فى كتاباته ، ولم يكن الاقطاع والرأسمالية وشتى أشكال الامتلاك والاستغلال من أعدائه الواضحين الذين يحاربهم ويقف ضدهم . صحيح أنه لم يدع الى الاقطاع أو الرأسمالية بل لقد هاجم الاقطاع والرأسمالية فى بعض مقالاته القليلة المتفرقة ، ولكنه كان بوجه عام سلبيا فى هذه المعركة من ناحيتها الفكرية ، أما من الناحية العملية فقد كان سندا منذ ١٩٣٧ لحكومات وأحزاب تتكون من الاقطاعيين والرأسماليين وبعض الخبراء والفنيين المتحالفين مع الاقطاع والرأسمالية .

وبالنسبة لجيل العقاد كان هناك أدباء يناضلون بصور مختلفة ودرجات متفاوتة ضد الاقطاع والرأسمالية . وعلى رأس هؤلاء الادباء سلامة موسى الذى أدرك الفكرة الاشتراكية وأستوعبها منذ بداية هذا القرن ، وظل يدعو اليها حتى توفى سنة ١٩٥٨ ، كذلك نجد أثرا واضحا لهذه الفكرة فى كتابات طه حسين . لقد

كان طه حسين يتحول تحولا هاما ، فى نفس الوقت الذى ارتبط العقاد فيه بالرجعيين سنة ١٩٣٧ . كان طه حسين يترك صفوف الاحرار الدستوريين « حزب الاقطاعيين » فى هذا الوقت بالذات ، وقد ظل مرتبطا بهؤلاء الاقطاعيين منذ أوائل القرن حتى سنة ١٩٣٠ . ولكن تحول طه حسين كان تحولا عكسيا تماما ، بالنسبة لاتجاه التحول عند العقاد ، ففى الوقت الذى بدأ فيه العقاد يلتقى بالرجعيين ويرتبط بهم ، كان طه حسين يقترب من المطالب الشعبية ويدرسها ويحاول أن يعبر عنها سواء فى عمله كأستاذ جامعى ، أو فى مواقفه السياسية ، أو فى كتاباته المختلفة ، ولعل السبب الرئيسى فى اتجاه طه حسين الجديد ، هو أرتباطه الوثيق بالحياة العامة ، فقد كان معلما صاحب تلاميذ ... كان أستاذا فى الجامعة يناقش تلاميذه ويرتبط من خلال احتكاكه معهم بالواقع الخارجى ، وقد دخل طه حسين فى الجامعة معارك عديدة ، كانت كلها ضد الرجعيين والفكر الرجعى ، مثل المعركة التى دخلها من أجل السماح المرأة بالتعليم الجامعى ، ومثل معركته من أجل حرية البحث والدراسة فى الجامعة .. تلك المعركة التى آثارها سنة ١٩٢٦ بكتابه « فى الشعر الجاهلى ». ومن خلال هذه المعارك اقترب طه حسين يوما بعد يوم من المطالب الشعبية الصحيحة ، حتى أنتهى به الامر الى أن ينفصل عن حزب الاحرار الدستوريين الذى أرتبط به فى البداية، ومنذ ذلك الحين وطه حسين يقف فى جانب الدعوات التقدمية المختلفة التى ظهرت فى بلادنا ، منذ ١٩٣٦ حتى قيام ثورة ١٩٥٢ وقد أصدر بعض الكتب التى دعا فيها دعوة صريحة واضحة الى العدالة الاجتماعية ، مثل كتابه « المعذبون فى الارض » وقد صودر هذا الكتاب قبل الثورة .

أما العقاد فقد ظل يبتعد منذ ١٩٣٧ عن المعركة الاجتماعية التى بدأت تتضح فى بلادنا والتى نشبت بين الطبقات الشعبية من جانب وبين الاقطاعيين والرأسماليين وحلفائهم من جانب آخر ، بل لقد ابتعد العقاد أيضا عن المعركة الوطنية التى أشترك فيها وعاش معها فى عز أيامها وأكثرها صعوبة وعنفا من ١٩١٩ الى ١٩٣٦ .

هناك عامل آخر على جانب كبير من الاهمية ، غير العوامل السابقة ، كان له تأثيره فى تحول العقاد من اليسار الى اليمين فى الحركة الوطنية .. هذا العامل

الجديد هو ظهور المعركة العالمية بين الديمقراطية الغربية من جانب وبين النازية والفاشية من جانب آخر . لقد بدأت هذه المعركة فى السنوات التى تلت ١٩٣٦ مباشرة ، وبلغت قمتها باشتعال الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ . لقد كان هذا الصراع عاملا من العوامل التى جعلت العقاد يغير نظرته الى الانجليز الذين كانوا يقودون الحلفاء فى معركتهم ضد النازية . لقد أصبح العقاد عدو الانجليز بالامس مؤيدا لقضية الانجليز على المستوى العالمى ، وكان فى تأييده لهذه القضية مؤيدا فى الحقيقة للديمقراطية الغربية ولقيمها السياسية والفكرية . ودخل العقاد المعركة بكل عنفه وقوته ، وألف كتابا عن « هتلر » أصدره سنة ١٩٤٠، أى بعد قيام الحرب العالمية بسنة واحدة وفى الوقت الذى كان هتلر يسجل فيه أهم انتصاراته العسكرية ، وكان الكتاب هجوما قاسيا من جانب العقاد ضد هتلر ، وكان فى نفس الوقت دفاعا حارا عن الديمقراطية الغربية وقيمها . ولقد كان العقاد أبرز أعداء النازية من رجال الفكر العربى أثناء الحرب العالمية ، حتى أنه أضطر للهرب من مصر الى السودان أثناء معركة العلمين ، لان الالمان كانوا على أبواب مصر ، ولو دخلوا مصر فى ذلك الحين لكان العقاد ـ على الاغلب ـ قد حكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم ، فتلك عادة النازيين مع أعدائهم البارزين فى أى بلد يدخلونه . ولقد اعتمدت الدعاية الانجليزية ضد الالمان فى الوطن العربى كله اعتمادا اساسيا على كتاب العقاد ووزعت منه السفارة الانجليزية آلاف النسخ فى مختلف البلاد العربية ، وقد قيل الكثير ضد العقاد بسبب هذا الكتاب ، وحاول البعض أن يجد فى هذا الكتاب دليلا على ان العقاد كان عميلا للانجليز ، ولكن النظرة المنصفة تؤكد ان العقاد كان فى غاية الاخلاص لا فكاره وثقافته عندما أصدر هذا الكتاب ، ولم يصدره بدافع الرغبة فى الكسب أو الرغبة فى الاستفادة من الانجليز بقدر ما أصدره تعبيرا عن آرائه الحقيقية ، التى ظل يدافع عنها باستمرار . لقد كان يؤمن حقا بأن الديمقراطية الغربية هى المثل الاعلى للحضارة الصحيحة ، حتى عندما كان يقف فى مقدمة الصفوف فى الثورة الوطنية ضد الاحتلال الانجليزى فانه كان يدافع بالدرجة الاولى عن الدستور والبرلمان ، والحريات التى تحميها الديمقراطية الغربية ، مثل حرية الرأى والتعبير وما الى ذلك من قيم الديمقراطية الغربية ، أى أنه كان يحارب

انجلترا من أجل أن يأخذ بأساليبها فى حياتنـا السياسيـة ، ولم يكن يحارب انجلترا وفى ذهنه مثلا أن يطالب باعادة تنظيم الاقتصاد المصرى ، وأعادة توزيع الثـروة فى مصر ... لم يكن يحارب انجلتـرا وفى ذهنـه قيم مختلفـة غـير قيم الديمقراطية الغربية التى تمثلها انجلترا خير تمثيل بكل ما فى هذه الديمقراطية من خير وشر ، ولذلك كتب فى مقال له فى عدد خاص أصدرته مجلة الهلال عن الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية يقول : « ان الانجليز هم الحلفاء الطبيعيون للمصريين » .

ولا شك أنه كان يعنى بذلك أن القيم التى يجب أن يستنـد عليها التقـدم السياسى فى مصر هى قيم المجتمع الانجليزى الديموقراطى ، ولذلك كانت انجلترا فى نـظره ـ بهذا المعنى ـ « حليفـة طبيعية لمصر » . وقـد قادتـه المعركـة بين الديمقراطية الغربية والنازية الى الوقوف المتحمس المخلص فى صف الديمقراطية الغربية ... أدى به هذا الموقف الى مهادنة الانجليز الى أقصى حـد . إن القيم الجوهرية فى الديمقراطية الغربية مهددة الان بأن تقتلعها النازية من جذورها ، ولذلك نسى العقـاد معركـة الانجليز مـع مصر ، ووقف مع انجلتـرا ، زعيمـة الديمقراطية الغربية ، فى معركتها ضد النازية . ولاشك ان هذا الموقف هو موقف صائب فى جوهره ، حيث كانت النازية خطرا على تقدم جميع الشعوب ... ومع ذلك فإن الحرب ضد النازية لم تكن تزيد أهمية عن الحـرب ضد الاستعمـار الانجليزى ولكن العقاد نسى المعركة ضد الانجليز ، فى حرارة صراعه ضد النازية ودفاعه عن الديمقراطية الغربية . ومنذ ذلك الحين خفت صوت العقاد فى حملته على الانجليز ، بعد أن خفت صوته من قبل فى حملته على السراى ، منذ ارتبط بالسعديين وحكوماتهم الرجعية المختلفة .

ولكن من العجب أن تكون فترة « الانتكاسة » فى علاقة العقاد بالثورة الوطنية هى فى نفس الوقت فترة من أزهى فترات الانتاج الفكرى عند العقاد ... لقـد أصدر فى هذه المرحلة النسبة الكبرى من مؤلفاته ، وكان أبرز هـذه المؤلفـات سلسلة العبقريات المعروفة ، وسبب ذلك ولا شك هو أن العقاد قد حصل فى هذه الفترة على نوع من الرعاية الكاملة التى أبعدته عن المشاكل الشخصية والهموم الخاصة ، وأبعدته عن الحياة السياسية اليومية ، فلم يضطر الى ترشيح نفسه

ليكون عضوا فى البرلمان ، أنه الان يدخل مجلس الشيوخ بالتعيين ، وقد أصبح أيضا غير خاضع لرقابة الحزب الذى ينتسب اليه ، فلقد كان الحزب السعدى يفخر بانتساب العقاد اليه وتأييده له ، وكان هذا الحزب لا يطلب من العقاد أكثر من أن يكتب فى صحفه وان يكتب ما يشاء ، فالعقاد عبقرية فكرية تضفى على الحزب قيمة ، وتجعل له وزنا وتأثيرا حتى عند أعدائه ، وقد وفر له الحزب بعض الامتيازات المادية ، غير تعيينه فى مجلس الشيوخ ، فقد قرر عددا كبيرا من كتبه على تلاميذ المدارس ، فتم بذلك طبع آلاف النسخ من هذه الكتب ، ولا شك أن كتب العقاد ـ من حيث قيمتها الفكرية ـ كانت تستحق الرعاية الى أقصى حد ، وأن كان هذا الحزب الذى ساعد فى نشر كتب العقاد وتوزيعها على هذا النطاق الواسع ، لم يكن يفكر الا فى ان العقاد كان ينتسب اليه ويرتبط به أكثر مما كان يفكر فى قيمة كتبه وأهميتها . لقد أتيح للعقاد خلال أنتكاسة علاقته بالثورة الوطنية ، ما يشبه التفرغ للانتاج الفكرى والادبى ، ولذلك عمل هذا الكاتب ذو الارادة القوية العنيدة باجتهاد لا حد له .. وأصدر عشرات الكتب الهامة فى هذه الفترة ، بل يمكننا ان نقول أن فترة الانتكاسة فى علاقة العقاد بالثورة الوطنية جعلت منه مفكرا وكاتبا بالدرجة الاولى ، أما السياسة ، فقد أصبح وجوده فى ميدانها وجودا « شرفيا » لا يقتضى ما كان يقتضيه أرتباطه بالوفد والثورة الوطنية فى مرحلتها الاولى من جهود ضخمة اساسية ، حيث كان يشترك فى العمل السياسى اشتراكا فعليا مباشرا ، لذلك لم يفقده أرتباطه بالرجعية السياسية قيمته كمفكر عميق مستنير واسع الثقافة ، لأنه استفاد من هذا الارتباط فى التفرغ لانتاجه وأجادة هذا الانتاج الى أبعد مدى ، وهكذا كان لفترة الانتكاسة هذه فضيلتها الكبرى فى حياة العقاد الفكرية ، رغم أنها ابعدته عن التأثير السياسى المباشر ، وعن الارتباط العميق بالحركة الوطنية فى اتجاهها الشعبى التقدمى الصحيح .

العقاد واليسار

كان من أهم الظواهر فى حياة العقاد السياسية فى الفترة التى انتكست فيها علاقته بالثورة الوطنية وهى الفترة التى تبدأ منذ سنة ١٩٣٧ وما بعدها .. كان من أهم الظواهـر فى هذه الفتـرة ظاهرة الصـراع الدائم بين العقـاد والفكـر اليسارى .. لقد خاض العقاد هذه المعركة بعنف وقسوة ، حتى آخر لحظة فى حياته . ولا بد أن تكون هذه الظاهرة موضع بحث ودراسة وتفسير . فالعقاد لم يكن تافه الشأن ، بحيث يمكن أن نكتفى بأن نقول عنه أنه كان رجعيا وننتهى من الامر . على العكس ، لقد كان العقاد كاتبا مثقفا موسوعيا عظيم الخطر ، وقد ظل حتى وفاته فى أوائل ١٩٦٤ صاحب نفوذ واسع على جماهير القراء العرب .

لذلك لم يكن اصطدام العقاد بالفكر اليسارى مسألة فردية محدودة ، فالعقاد فى نهاية الامر كان ممثلا لتيار فكرى كامل يجب فهمه ومعرفته على حقيقته .

والاختلاف الاساسى بين العقاد وبـين الفكر اليسـارى كله ، ينبع من فهم العقاد لدور الفرد فى الحياة ، فالعقاد يرى أن الفرد هو الاساس فى تطور التاريخ والمجتمع ، وأن العبقرية الفردية هى القوة التى تدفع الحياة الى الامام . وهذه النظرة الى التطور تقف على النقيض من النظرة اليسـارية ، حيث يقيم الفكـر اليسارى بمختلف مدارسه ، وزنا كبيرا للظروف الخارجية المحيطة بالفرد .

ومهما كانت قيمة العبقرية الفردية ، فان هـذه العبقريـة فى ميزان الفكـر اليسارى لا تستطيع أن تحرك التاريخ الا اذا كانت هناك ظروف ملائمة لهذه الحركة ، كما أن العبقرى لا يستطيع أن يخلق شيئا من العدم ، بل تكمن عبقريته فى أنه يفهم الظروف الموضوعيـة ويستغلها الاستغـلال الصحيح . هنـا يكون ميدان التجديـد والابتكار

واسعا أمام العبقرية الفردية فى نظر الفكر اليسارى . فلا يوجد مفكر يسارى يستطيع مثلا أن يقبل تلك الاحكام التاريخية الشائعة مثل القول « بأن أنف كليوباترا قد غير التاريخ » لأنه أنف جميل ساحر مما أغرى أنطونيو بحبها أو أن تاريخ فرنسا فى القرن الماضى كان يمكن أن يتغير تماما لو أن نابليون كان قد مات فى أحدى معاركه قبل أن يصبح امبراطورا على فرنسا . أن مثل هذه المصادفات قد يكون لها تأثير على شكل الاحداث التاريخية أما حركة التاريخ الاساسية فلابد أن تمضى فى طريقها ، سواء كان أنف كليوباترا ساحرا أو غير ساحر ، وسواء مات نابليون قبل أن يصبح امبراطورا أو عاش كما حدث بالفعل .

قد تتعدل الاحداث قليلا فى حركة التاريخ أو تتأجل .. ولكن الصورة الجوهرية تبقى فى نهاية الامر كما هى . والعقاد بالطبع ليس من أنصار المدرسة التى تؤمن بتأثير « أنف كليوباترا » فى التاريخ .. فهذه المدرسة ولا شك مدرسة تبسيطية ، تميل الى النظرة السهلة للامور ، وتقيم للمصادفات الصغيرة وزنا كبيرا ، ولكن العقاد يشترك مع أصحاب هذه المدرسة فى الايمان بأن العنصر الفردى له أثره الحاسم الاكبر فى حركة التاريخ ، ولكنه يبحث عن هذا العنصر الفردى فى أرقى صورة وأعمقها وأكثرها اصالة وعظمة ، ألا وهى صورة العبقرية الانسانية ، حيث تبلغ قدرة العبقرى فى رأى العقاد حدا يمكنه من أن يكون مركزا لحركة التاريخ فى مرحلة من المراحل .

وقبل أن نتحدث عن منابع فكرة العقاد عن الفرد ، نود أن نقف لحظة عند بعض الادلة التى تؤكد بوضوح مكان الفرد فى فلسفة العقاد .

وأول ما نلاحظه فى كتابات العقاد عموما ، وخاصة بعد سنة ١٩٣٧ هو أن معظم هذه الكتابات تدور حول الفرد والعبقرية الفردية ، فهو عندما أراد ان يكتب عن الاسلام والثورة الاسلامية وجد التجسيد الحى لهما فى الافراد ، فكتب عن « عبقرية محمد » ، ولم يكتب عن « عبقرية الاسلام » ، أو « عبقرية العرب » ، ثم كتب بعد ذلك عن عبقرية أبى بكر وعمر وعلى وخالد وغيرهم من رجال الثورة الاسلامية . والعقاد فى كتاباته عن الاسلام عموما لم يلتفت كثيرا الى تلك القوى التى انبعثت من الصحراء العربية فى ظروف قاسية عنيفة ، لتحقق انتصارات حضارية ضخمة ، على مدى قرون طويلة فى أجزاء واسعة من العالم ،

وأقصد بهذه القوة ، قوة الجماهير العربية المؤمنة بالدين الجديد ، والتى استجابت لمبادىء الثورة الاسلامية ، تم انتقلت فى موجات هائلة لتحقق أنتصاراتها الكبيرة العظيمة ، أن هذه العبقرية فى الجماهير لم تلفت نظر العقاد ، فلم يحاول أن يقترب منها ويفسرها ويعنى بها عنايته بالعبقريات الفردية فى الاسلام .

وفى كتابة العقاد عن الاسلام ، كان كثيرا ما يتجنب الشخصيات التى التقت فى عصر واحد مع أزمات عامة عنيفة . فقد تجنب العقاد أن يكتب عن عثمان بن عفان لمدة طويلة جدا ، ثم أصدر عنه كتابا صغيرا فى المرحلة الاخيرة من انتاجه ، وعندما نطالع هذا الكتاب نشعر بوضوح أنه أقل بكثير من الكتب الاخرى ، التى كتبها العقاد عن عبقريات اسلامية أستطاعت أن تسيطر على أحداث عصرها ، مثل شخصية « عمر » ، أو عبقريات كان لها من الاحداث موقف عنيف واضح مثل الحسين ، الذى كان يمثل نموذجا عاليا من نماذج الاستشهاد فى سبيل المبدأ . ولا شك أن سبب ابتعاد العقاد عن شخصية عثمان بن عفان لفترة طويلة ، هو أن النظرة الاولى الى هذه الشخصية تؤكد ضرورة البحث فى تكوين المجتمعات الاسلامية فى عصر عثمان ، فقد سيطرت الازمة فى هذه المجتمعات على كل شىء بحيث يصبح من المستحيل دراسة عثمان بدون دراسة التحولات التى طرأت على الجماهير المختلفة ، فى المجتمعات الاسلامية ، وهنا لم يجد العقاد فرصة لتطبيق منهجه فى دراسة العبقرية الفردية والتغنى بها ، فظل يؤجل دراسته عن « عثمان » حتى كتبها فى آخر الامر كنوع من الحرص على اكمال سلسلة العبقريات الاسلامية ، وجاءت هذه الدراسة أضعف ما كتبه العقاد فى سلسلة العبقريات . ونستطرد هنا قليلا فنقول : أن « عثمان أبن عفان » بالذات كان موضوعا لا حسن الدراسات الاسلامية التى كتبها الدكتور طه حسين ، وذلك فى الجزء الاول من كتابه « الفتنة الكبرى » والسبب فى هذا الاختلاف بين ماكتبه العقاد عن عثمان، وماكتبه عنه طه حسين هو اختلاف المنهج بين الكاتبين: فقد أستطاع طه حسين أن يطور منهجه فى فهم التاريخ ، وذلك لاهتمامه بادراك العوامل الاجتماعية والاقتصادية فى تكوين الاحداث التاريخية ، مما ساعده على فهم الازمة التى نشأت فى المجتمعات الاسلامية فى عصر عثمان ، بينما بقى العقاد على

منهجه .. حيث ينظر الى التاريخ من زاوية العبقرية الفردية أولا وقبل كل شىء . وعندما أراد العقاد أن يكتب عن ثورة ١٩١٩ ، التى شارك فيها مشاركة ايجابية وكان كاتبها الاول ، وجد أن هذه الثورة أنما تتجسد فى شخص سعد زغلول ، فكتب عنه كتابا رائعا فى غاية الشمول والعمق ، وفى هذا الكتاب كان اللحن الاساسى الذى هز قلب العقاد هو « عبقرية سعد » أما اللحن الثانوى فهو عبقرية ثورة ١٩١٩ ، وعبقرية الجماهير التى قامت بهذه الثورة .

صحيح أن العقاد بدأ كتابه بفصل هام عن شعب مصر بعنوان « الطبيعة المصرية فى أوهام الناس » والفصل الثانى من الكتاب هو « الطبيعة المصرية فى حقيقتها » ، ثم انتهى العقاد من هذا الحديث الى القول بأن سعد زغلول كان «نموذجا للمصرى القوى بلا استثناء خصلة من الخصال ولا خلة من الخلال ولا عمل من الاعمال . فهو فى خلائقه العملية وفكاهته وكراهيته للغفلة ، وايمانه بالغيب مصرى فلاح من طينة المصريين الفلاحين : طبيعته هى طبيعة الفلاح فى صورة واسعة وإطار كبير ، وطبيعة الفلاح هى طبيعة سعد فى صورة ضيقة وإطار صغير أو منحرف بعض الانحراف ، ولكنهما على نموذج واحد فى الوضع والصناعة » ..

صحيح أن العقاد قد كتب هذا كله فى كتابه الكبير عن سعد زغلول ، ولكن الموقف الاساسى مع ذلك ـ على طول صفحات الكتاب ـ هو موقف الذى يدرس عبقرية سعد زغلول أولا ، وهو اذا عاد الى مصر فانما يعود اليها لتفسير العبقرية « الزغلولية » ـ اذا صح التعبير ـ وما الحديث عن مصر الا مجموعة من اللمحات المتفرقة مهما بلغت من ذكائها فانها لا تغير من موقف العقاد الاساسى فى شىء .. انه معجب بسعد مفتون به كل الفتنة ينظر من خلاله الى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ . وينظر من خلاله الى نفسية شعب مصر وطبيعته الخاصة ، وعندما ننتهى من قراءة هذا الكتاب نحس ان العقاد قد بنى فى كتابه هرما عظيما هو شخصية سعد .. وكل شىء بعد ذلك يعيش فى ظلال هذا الهرم الاعظم وفى حماه .. كل شىء حتى ثورة ١٩١٩ ، وحتى شعب مصر ونضاله الطويل .. ولم يقل العقاد فى كتابه .. أنه لولا سعد زغلول لما قامت ثورة ١٩١٩ ، ولكنك مع ذلك تحس هذا المعنى كامنا فى أعماق هذا الكتاب الهام .

وهذه النغمة فى تفسير العقاد لثورة ١٩١٩ ، هى نغمة العقاد الخاصة بين كتابنا وأدبائنا الذين تحدثوا عن هـذه الثورة ، فمعـظم هؤلاء الادبـاء كانـوا يتحدثون عن الثورة بنغمة أخرى مختلفة ، فتـوفيق الحكيم على سبيـل المثال عندما تحدث عن ثورة ١٩١٩ فى « عودة الروح » كان يعزف على لحن العبقرية الشعبية ، وكان يؤكد أن هذا الشعب بجماهيره البسيطة ، يستطيع أن يفعل الكثير ، وكان الحكيم يهىء نفوسنا دائما ـ خلال صفحات روايته ـ للايمـان بمعنى واحد محدد هو أن الشعب ينتظر قائده الذى يخرج من بين صفوفه ، ليقوده الى التجارب العظيمة ، فالقائد بالنسبة لحركة الشعب اشبه بالراية التى يحملها الشعب ؛ أو بالشعـار الواحد الذى يلتف حـوله الشعب ، ان القائـد لا يخلق الثورة من العدم وانما يخلقها الشعب ثم يقودها الزعيم ، كمـا يفعل المايسترو مع الفرقة الموسيقية .

نفس هذا الموقف نجده فى ثلاثية نجيب محفوظ ، الذى يعتبر أبنا للجيل التالى لجيل العقاد ، فالنغمة الرئيسية فى هذه الثلاثية هى أن ثورة ١٩١٩ ، أنما كانت من عمل الجميع ، وأن الجميع قد أشتركوا بصور مختلفة ودرجات متفاوتة فى هذه الثورة .. أى أن العبقرية الشعبية هى فى النهاية صانعة الثورة .

وفى كتابات العقاد نماذج أخرى متعددة لهذا الموقف الفلسفى ، وهو الموقف الذى يؤمن أكبر الايمان بالعبقرية الفردية ، ثم يضع العبقرية العامة بعد ذلك فى الدرجة الثانية من الاهمية .

ففى مقال للعقاد عن الملك « ديموس » يحدثنا العقاد عن رأيه فى الجماهير ، و « ديموس » كلمة يونانية معناها الشعب ، ومن هذه الكلمة أشتق اليونان كلمة ديمقراطية التى بقيت الى اليوم ، تدل على معنى أساسى هـو : حكم الشعب ، وأنقل هنا فقرة لها دلالتها من هذا المقال الذى كتبه العقاد سنة ١٩٢٤ ... يقول العقاد :

« ان الامر يا صاحبى للملك ديموس الاول والاخير ، لا لى ولا لك ، فى الآداب والفنون ، وهل تدرى ما هو هذا الملك ديموس ؟.. الملك ديموس هذا ، هو مستبد قاهر ، يدعون اليه كثيرا ، ولكنه بعد كل ما يقال فى مدح لسياسته ، وثناء على حكومته عتل أحمق ، مأفون الرأى ، بليد الطبع ، قذر العينين والاظافر ، قـد

يستحق الصفع أحيانا ، ولكنه لا يجد الكف الغليظة التى تملأ له خده العريض الطويل ، فلذلك لا يصفعه أحد ، أو هم يصفعونه بكف غير الكف التى تصلح له ، فيعتبر الصفع مزاحا رشيقا ، وتربيتا رقيقا . الملك ديموس لا يحب الوعاظ والانبياء ، ولا يألف الفلاسفة والعلماء ، ولكنه يحب المهرجين والسخفاء ، ويألف المتزلفين والادعياء ، وفى عهد حكمه السعيد ، كثر هؤلاء الندماء الاماثل وانتشروا ، وظهرت البركة فى صفوفهم ، فامتلأ بها بلاطه العامر ، وانفسح لهم عقله الضيق ، وما أوسع العقول الضيقة لصنوف الجهالة والحماقة وما أحفلها بدروب السماجة والصفاقة .. ألا فليحيا الملك ديموس أذن .. ولا فليسقط فانه لا يستطيع السقوط » .

هذه هى نظرة العقاد الى الجماهير أو الى الشعب ، وهى نظرة منطقية مع فكر لا يؤمن الا بالعبقرية الفردية ، والجماهير فى نظر العقاد لا تصغى بما فيه الكفاية الى العباقرة ، الى الافراد المتازين البارزين ، بينما يجد المهرجون والادعياء مكانهم وسط الجماهير .

ان العقاد هنا ثائر من أجل حماية الفرد الممتاز من طغيان الافراد العاديين .

وكان من الطبيعى ان تنعكس هذه النظرة الى الحياة والتاريخ عند العقاد على نظرته الى الأدب ، فنحن نجده يفسر الشعر الجيد ، بأنه الشعر الذى يدل على شخصية خاصة متميزة ، لا تختلط بغيرها من الشخصيات ولا تتساوى معها .

فهو ينقد أحمد شوقى نقدا عنيفا ، ويبرر هذا النقد بقوله فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » :

« أن شعر شوقى ليس بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس الخاصة ان أردنا أن نضيق معنى الامتياز . وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذى هو رسالة حياة ، ونموذج من نماذج الطبيعة ، والفرق بينه وبين شعر « الشخصية » ان الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هى ، لا كما تنقلها بالسماع والمجاورة من أفواه الآخرين . وهذه هى الطبيعة وعليها زيادة جديدة ، تطلبها ابدا لان الحياة والفن على حد سواء « موكلان » بطلب الفرد الجديد أو النموذج الحادث ، أو « موكلان » بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته ، والوصول منه الى خصوص بعد خصوص ، او أمتياز بعد أمتياز ، واقرب ما نمثل به لذلك زارع

يستنبت صنوف الثمار ، لينتقى منها المميز فى صفة من الصفات المطلوبة ، فاذا عثر بالثمرة الواحدة التى وصل فيها الى غرضه قومها وحدها بعشرات الافدنة من الثمرات الشائعة عند غيره ، لانه بهذه الثمرة الواحدة يستأثر بالطلب والاقبال ويعفى على ثمرات الشيوع والعموم ، وهكذا الشخصية الممتازة فى عالم الحياة عامة : هى عندنا وعند الحياة التى أنشأتها أقوم من جميع المتشابهات الشائعات » .

هذا هو جوهر نظرة العقاد الى الشعر ، وهو الفن الرئيسى الذى بذل العقاد فى ميدانه أهم جهوده النقدية . ان نظرته هنا تدل بصورة واضحة على أن الشعر الجيد - فى رأيه - هو الذى يبرز الخصائص الفردية ، دون أشارة الى أى نوع من الصلة بين العبقرية الفنية والواقع الذى تعيش فيه هذه العبقرية ، بل تكاد كلمات العقاد تنادى بأن العبقرية الفنية ، تزداد قيمتها كلما ازدادت « غربتها » عن الناس ، واختلافها اختلافا كاملا عنهم . ونحن نجد فى هذه الكلمات روحا من ثقافة القرن التاسع عشر فى انجلترا ، وهى الثقافة التى سوف نتحدث عن تأثيرها الخطير على العقاد ، بعد قليل ، فهذه الكلمات هى ، الى حد كبير ، ترجمة ادبية للتعبيرات التى شاعت عن « داروين » ونظريته فى نشأة الحياة وتطورها . فالعقاد يكاد يقول ان البقاء للاقوى فى ميدان الشعر ، وأن هناك نوعا من الانتخاب الطبيعى ، يبقى أصلح العناصر ، ويقضى على العناصر الضعيفة .. ومثل هذه الافكار تساعد العقاد على تأييد نزعته ، نحو الايمان بالعبقرية الفردية كأساس للتطور فى الفن والحياة ، والاعتراض على مثل هذه النظرة كبير ، فاذا سلمنا أن العبقرية الفردية فى ميدان الفن ، هى التى تستطيع أن تبقى وتعيش ، بينما يتلاشى أصحاب المواهب العادية ، فان هناك سؤالا آخر لم يفكر فيه العقاد ، ذلك السؤال هو :

ماذا تمثل لعبقرية الفردية فى ميدان الفن ؟ هل تمثل نفسها فقط ، أو أنها فى الحقيقة تمثل عصرها ومجتمعها من خلال شخصيتها الذاتية ؟

كل عبقرية فنية أنما تجسد بالتأكيد بعض خصائص عصرها ومجتمعها ، حتى لو لم يكن ذلك واضحا أمام النظرة الاولى السريعة . ولكن العقاد فيما يبدو لا يعترف بهذا المعنى الكامن فى كل عبقرية فردية . بل أن الذى يلفت نظره هو

ـ بالدرجة الاولى ـ مدى تميز العبقرية الفردية عن الآخرين ، وتفوقها عليهم وأستقلالها عنهم .

أن من الممكن أن ندين شوقى بأنه لم يستطع أن يفهم روح عصره أو يعبر عنها اذا صح لدينا هذا العيب فى شعر شوقى ، ولكن العقاد يكاد أن يلوم شوقى على العكس ، فلو تتبعنا رأى العقاد بدقة فأننا نشعر أنه يأخذ على شوقى تشابه مشاعره واحساسه بالحياة مع الآخرين من ابناء عصره . كل هذه النماذج المختلفة من آراء العقاد تكفى لاثبات المكانة الاساسية التى يحتلها الفرد فى فلسفة العقاد ، سواء كان ذلك فى ميدان التاريخ والمجتمع ، أو كان فى ميدان الادب والفن .

علينا بعد ذلك أن نبحث عن منابع هذا الموقف فى شخصية العقاد وثقافته .

كيف نشأ عند العقاد هذا الايمان الذى لا يتزعزع ، بأن حركة الحياة انما تعتمد أساسا على الفرد الممتاز ، وأن التطور فى المجتمع أنما يتفجر من بين أصابع العباقرة ؟

أن أول منبع لهذه الفكرة عند العقاد يبدو بوضوح فى تجربة العقاد الشخصية الخاصة فى الحياة . لقد نشأ العقاد فى أسرة فقيرة ، وتعرض لالوان عديدة من المتاعب والمصاعب ، فى سبيل الوصول الى القمة الفكرية التى وصل اليها بالفعل .

لقد كافح الفقر والمرض والتقاليد الاجتماعية ، ونجح فى كفاحه ، وكان سلاحه فى هذا الكفاح الطويل هو نبوغه وامتيازه . ولم تتح له الظروف الصعبة ان يتم تعليمه ، فوقف عند حدود الشهادة الابتدائية ويقال إنه لم يحصل حتى على هذه الشهادة المتواضعة .

ومع ذلك كله فقد وصل فى الميدان العلمى الى مستوى يفوق مستوى الكثيرين ممن درسوا فى أكبر الجامعات الاجنبية . وقد أكتسب العقاد من تجربته الخاصة اعتزازا لا حد له بنفسه ، واحساسا بأن الحياة لا تدين الا للنابغين ، والعقاد كثيرا ما يؤكد هذا المعنى فى احاديثه وكتاباته ، وقد دفعه هذا المعنى نفسه ـ ولا شك ـ الى أن يسعى دائما للحياة فى عالم العباقرة ، حتى لو كان هذا العالم من صنع الوهم والخيال ، حيث يجد العقاد بينه وبين هؤلاء العباقرة عاطفة

حقيقية ، وحيث يساعده هؤلاء العباقرة على تأكيد ذاته ، وتبرير فكرته الرئيسية عن دور العبقرية الفردية فى حركة التاريخ .

والعقاد فى ايمانه بنفسه واعتداده بعبقريته ، لم يستطع أن يكتشف حقيقة هامة كانت سرا رئيسيا من أسرار نجاحه . هذه الحقيقة هى أن نجاحه لم يكن مردودا الى عبقريته الخاصة فقط بل كان مـردودا بدرجـة كبيرة الى ان هـذه العبقرية قد استجابت لحاجات رئيسية فى جماهير القراء . فمنذ بدايات القرن التاسع عشر ، حتى أوائل القرن العشرين حيث بدأ العقاد يكتب ويتصل بـالجمهور ، كانت مصر تتهيأ يوما بعد يوم للخـروج من عزلتهـا الحضاريـة ، فى أحضان سلاطين المماليك ، الى نور العصر الحديث الذى بدأ يسطع فى أوربا ، وقد تم بذل جهود ضخمة فى سبيل تهيئة المجتمع فى مصر لتقبل أساليب الحضارة الاوربية ، فى الفكـر والحياة .. اشتـركت الحملة الفرنسيـة فى بذر بـذور هـذه العمليـة الحضارية الكبيرة ، ثم اشترك بعد ذلك فى هذا المجال العلماء والزعماء المختلفون خلال القرن التـاسع عشر من أمثـال : رفاعـة الطهطاوى الذى فتـح مدارس متعددة ، ووضـع مناهج علمية على الطريقة الاوربية ، ومن أمثال أحمد عرابى ، من الذين طالبوا على أوسع نطاق بخلق مجتمع ديمقراطى عصرى فى مصر ، ثم من أمثال جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده من الذين طالبوا بتجديد الفكر الدينى ، حتى يتلاءم مع الحضارة العصرية .

كل هذه الجهود انتهت بتهيئة الجو فى مصر لظهور كتاب ومفكرين من أمثال العقاد : يتمتعون بثقافة غربية واسعة ، ويطبقـون مناهـج هذه الثقـافة عـلى دراساتهم المختلفة ، بما فيها دراساتهم عن الحضارة العربية الاسلامية . لقد كان الجمهور فى مصر فى أوائل هذا القرن ، يشعر بحنين هائل الى أن يفكر تفكيرا عصريا ، ويعيش حياة عصرية ، ولذلك أستقبل هـذا الجمهور جميـع الكتاب الذين يستجيبون لهذا الحنـين ويعبرون عنـه استقبالا رائعـا ، وتقبل أدبهم وانتاجهم الفكرى ووضعهم بسرعة فى مقدمة الصفوف ، ولم تكد ثورة ١٩١٩ تشتعل ، حتى كان العقاد وطه حسين والمازنى وغيرهم من أبناء جيلهم فى مقدمة الصفوف ، فى الفكر العربى المصرى ، واستفاد هؤلاء الكتـاب ـ وعلى رأسهم العقاد ـ من الجمع بين المعرفة بالتراث العربى والاسلامى وبين المعرفة بالمناهج

الاوربية الحديثة ، ولذلك كان تأثيرهم على الجمهور والرأى العام أقوى من تأثير كاتب تقدمى ممتاز مثل سلامة موسى، ذلك لأن سلامة موسى انفصل عن التراث العربى فى معظم انتاجه ، فبدا صوته غريبا على الناس ، ولم يستطع أن يقتحم أسوار العقل العربى المصرى بسهولة ، وعلى نطاق واسع ، بينما استطاع العقاد وأمثاله أن يخاطبوا الجمهور من خلال الموضوعات التى تهمه مثل الموضوعات الدينية ، ولكن بطريقة جديدة ، وأسلوب عصرى ، ومنهج يعتمد على الثقافة الغربية . لقد كان سلامة موسى فى ذلك الوقت أشبه بمفكر أجنبى يكتب بالعربية ، بينما كان العقاد وأمثاله مفكرين عربا يكتبون على ضوء مناهج اجنبية .

وهكذا كان جانب هام من نجاح العقاد ، يرجع الى الواقع الخارجى ، وظروف هذا الواقع ، ولم يكن هذا النجاح راجعا الى مجرد عبقرية العقاد الخاصة ... لقد لبى العقاد بعض الاحتياجات الفكرية الرئيسية فى عصره ، وكانت كتاباته ـ فى نهاية الامر ـ انعكاسا للظروف الموضوعية فى هذا العصر . ولكن العقاد أغفل هذا الجانب ، بينما أهتم بتقدير جانب واحد هو جانب عبقريته الخاصة .

هذا العامل الذاتى فى نظرة العقاد الى العبقرية الفردية فى التاريخ ، وعدم انتباهه بصورة كافية الى دور الظروف الموضوعية، ليس هو العامل الوحيد فى تكوين نظرة العقاد الخاصة ، فهناك عاملان آخران يضافان الى هذا العامل الذاتى الخاص .

أما العامل الاول فهو نابع من ثقافة العقاد الغربية . والتتبع الدقيق لكتابات العقاد يوضح لنا انه اعتمد فى ثقافته على الفكر الانجليزى فى القرن التاسع عشر . ونستطيع أن نقول بصورة عامة : أن العقل الانجليزى عموما عقل محافظ ، وأن هذا العقل لا يميل كثيرا الى الثورة والتمرد ، بل هو يميل دائما الى المحافظة واحترام التقاليد ، ومعظم المفكرين الانجليز الذين يدعون الى التطور ، انما يدعون عادة الى ذلك النوع من التطور الهادىء الخالى من العنف ، أما المفكرون أو الادباء الذين يثورون على العقل الانجليزى ، أو الواقع الانجليزى فهم عادة يلقون مصيرا من أثنين : أما الموت ، وإما الهروب من انجلترا ، وعبور المانش الى فرنسا أو الى ايطاليا أو الى أى مكان آخر فى أوربا ، والمثل الذى يقدم

لنا نموذجا للمفكر المتحرر الذى أعدمته انجلترا هو « توماس مور » صاحب « اليوتوبيا » الشهير .

أما الذين هربوا من أنجلترا ورفضوا جوها الهادىء الراكد فهم كثيرون جدا ، ويكفى أن نذكر من بين هؤلاء الشاعرين الكبيرين : بيرون وشيلى . لقد كان هذان الشاعران اللامعان يمثلان الثورة فى صورتها الرومانسية خلال القرن الماضى ، ولم يطيقا البقاء فى انجلترا ، فخرجا منها وماتا غريبين عنها . أحدهما وهو بيرون مات فى اليونان ، أما الثانى وهو شيلى فقد مات فى إيطاليا . ومنذ سنوات قليلة هرب الى فرنسا الكاتب المسرحى الشاب جون أسبورن ، وكتب رسالته المشهورة بعنوان « عليك اللعنة يا انجلترا » وهاجم فى هذه الرسالة المجتمع الانجليزى ، والعقل الانجليزى ، هجوما عنيفا قاسيا . ويمكن أن نتذكر فى هذا الميدان الكاتب الكبير برنارد شو . لقد عاش شو فى انجلترا رغم آنه كاتب تقدمى اشتراكى يدعو الى التغيير والثورة. وظاهرة برنارد شو لا تغير الحقيقة الاسلسية ، وهى الطابع المحافظ للفكر الانجليزى والمجتمع الانجليزى فبرنارد شو ليس انجليزيا ولكنه ايرلندى وقد ظل طيلة حياته لا يشعر ابدا بالانتماء الى المجتمع الانجليزى ، كما أنه هاجم انجلترا فى كثير من كتبه ومسرحياته ، وكان عاملا من أكبر عوامل الهدم للاستعمار الانجليزى .

وعلى العكس من الطابع المحافظ للفكر الانجليزى ، نجد الفكر الفرنسى فكرا حيا متجددا مليئا بالثورة . ولعلنا نذكر فى هذا المجال الفيلسوف الفرنسى الكبير ديكارت الذى كان من كبار الفلاسفة الثائرين المتمردين ، والذى أصبح مذهبه فى « الشك » معروفا للمتخصصين فى دراسة الفلسفة ، بل ومعروفا لغير المتخصصين . و « الشك » هو بغير جدال عنصر اساسى من عناصر الفكر الثورى ، فالفكر الثورى يهدف الى تغيير الواقع ، ولا يمكن تغيير الواقع بدون الشك فيه ، وهذا كله بالطبع هو نوع من التبسيط الشديد لمنهج ديكارت ، ولكنه رغم ذلك يكشف لنا عما فى هذا المنهج – منذ النظرة الاولى – من عناصر ثورية .

وقد أمتلأت فرنسا فى القرن الثامن عشر بالمفكرين الثوريين العظام من أمثال : فولتير وروسو وديدرو . وقد عبأ هؤلاء المفكرون جميعا ، جو فرنسا خاصة وجو أوربا عامة بالافكار الثورية ، ومن الواضح أنهم كانوا هم الذين مهدوا تمهيدا

قويا لاول ثورة كبرى فى تاريخ العالم الحديث ، وهى الثورة الفرنسية . ولقد أصبح معروفا أن هذه الثورة قد قوضت أركان العالم الاقطاعى القديم فى أوربا ، وفتحت الطريق أمام الطبقة الجديدة أو الطبقة الوسطى « البورجوازية » ، وكانت هذه الثورة علامة من علامات التحول الجذرى فى تاريخ الحضارة الانسانية كلها .

وليس هنا بالطبع مجال لتفسير الفروق الدقيقة بين العقل الانجليزى والعقل الفرنسى ، ولماذا كان الاول عقلا محافظا فى الغالب ، وكان الثانى فى الغالب أيضا عقلا ثوريا متحررا . فهناك عوامل كثيرة جدا أدت الى هذه الظاهرة وهى عوامل تحتاج الى دراسة خاصة مستقلة .

ولكن المهم بالنسبة لموضوعنا هو أن العقاد ، قد أستقى ثقافته الاساسية من الفكر الانجليزى ، وخاصة فكر القرن التاسع عشر ، ولقد أثر هذا الفكر على العقاد تأثيرا كبيرا . وظل حتى أواخر ايامه أسيرا لهذا الفكر . وبامكاننا فى هذا الميدان أن نلحظ تأثير « كارلايل » المفكر الانجليزى الكبير على العقاد ، فكارلايل هو صاحب كتاب « الابطال » الشهير ، وتكاد تكون فكرته عن التطور التاريخى قريبة جدا من فكرة العقاد . فكارلايل يهتم أعظم الاهتمام بالعبقرية الفردية فى تفسيره لحركة التاريخ ، بدلا من اهتمامه بالعوامل الموضوعية التى تخرج على نطاق العبقرية الفردية ، وتؤثر فيها ، ولا شك أن العقاد تأثر بهذا المنهج تأثيرا كبيرا ، إنه لم يقلد كارلايل تماما فللعقاد عبقريته الخاصة وأصالته واستقلاله ، ولكنه مع ذلك كان يتحرك فى نفس الدائرة الاساسية التى رسمها كارلايل فى كتابه عن « الابطال » ، ويمكننا أن نجمع عبقريات العقاد تحت عنوان واحد هو « الابطال » أيضا دون أن يكون فى ذلك أى خروج على طبيعة كتابات العقاد بحال من الاحوال .

كذلك تأثر العقاد بالعلماء الانجليز ، وبخاصة دارون ، وفكرة دارون عن الطبيعة تشبه الى حد كبير فكرة «العبقرية الفردية وتأثيرها فى التاريخ» فالكائنات الحية عند دارون تعيش وتتطور عن طريق أفضل عناصرها وارقاها ، بينما تنقرض العناصر الضعيفة وتزول ، أى أن الطبيعة تستمر عن طريق « القوى العبقرية » التى تتصل بالتفوق والتميز على غيرها من القوى الاخرى فى

الطبيعة . ولنأخذ مثالا صغيرا ضربه العقاد نفسه ، حيث يفسر لنا هذا المثال مذهب دارون ، فدارون ـ كما يقول العقاد ـ « يفسر طول عنق الزرافة بالتفاوت بين الزرافات فى طول العنق ، فما كان منها طويل العنق أدرك الاوراق الطرية فى ذؤابات الشجر فعاش وبقيت ذريته ، وما كان منها قصير العنق فاته الطعام فانقرض ولم تبق له ذرية » .

هذا هو تقريبا المذهب الذى أخذ به العقاد فى تفسير التاريخ عن طريق العبقرى المتفرد الممتاز .

ومذهب دارون ولا شك يصلح تماما لتفسير الكثير من الظواهر الطبيعية ، ولكن تطبيقه بصورة حرفية على المجتمع الانسانى يؤدى الى أخطار كثيرة .. انه سيؤدى مثلا الى الاقتناع بأن الاقوياء سوف يبتلعون الضعفاء ، وأن تنافس البقاء هو القانون المطلق للمجتمع الانسانى ، والصحيح ان تنافس البقاء هو قانون المجتمع الرأسمالى فقط ، اما المجتمع الاشتراكى فيقوم على أساس آخر هو تعاون البقاء .

هكذا اكتسب العقاد من فكر القرن التاسع عشر فى انجلترا ، ما ساعده على تأكيد ايمانه بالعبقرية الفردية . وما دعم ايضا نزعته الفكرية المحافظة ، ونستطيع ان نتذكر هنا زميلا للعقاد هو طه حسين . لقد استمد طه حسين ثقافته الأساسية من الفكرى الفرنسى . ولذلك كانت النزعات التحررية فى فكر طه حسين اكثر منها فى فكر العقاد . ولقد أثار طه حسين فى بداية حياته الفكرية زوبعة واسعة فى المجتمع العربى ، وذلك لأنه حاول أن يطبق مذهب ديكارت الفرنسى فى « الشك » على تاريخ الأدب العربى ، وبذلك تخلص طه حسين من بعض الآثار الرئيسية للنزعة الفكرية المحافظة ، التى نجدها عند العقاد ، ولقد أدى هذا كله الى ان يشارك طه حسين فى كثير من المواقف التحررية التى وقف العقاد موقفا سلبيا من بعضها ، ووقف موقفا معاديا من بعضها الآخر ، فالعقاد لم يدع مثلا الى قضية مثل قضية مجانية التعليم التى دعا اليها وتبناها وكتب عنها طه حسين كثيرا ، والعقاد لم يدع الى تحرير المرأة تحريرا حقيقيا عميقا ، بل كان يبرر ـ بمنطقه الحاد القوى وثقافته الغزيرة ـ تدهور وضع المرأة فى المجتمع ، ويؤكد

ان هذا التدهور ، الذى كان يسميه اختلافا بين الرجل والمرأة ، انما هو من صنع الطبيعة نفسها وأنه أمر لا غبار عليه .

وهكذا كان موقف العقاد من المرأة موقفا قريبا جدا من المواقف الرجعية . بينما كان طه حسين يحارب على الدوام ، فى سبيل تحرير المرأة بأوسع معنى من معانى التحرير .

بقى العامل الاخير فى تكوين موقف العقاد من العبقرية الفردية وتأثيرها فى التاريخ ، هذا العامل هو ارتباط العقاد ارتباطا كبيرا بالبورجوازية ، أو الطبقة الوسطى المصرية فى مرحلة نموها منذ بداية هذا القرن . لقد بدأ العقاد الكتابة حوالى سنة ١٩٠٧ تقريبا ، وفى ذلك الوقت كانت الطبقة الوسطى المصرية تحاول ان تنهض بنفسها ، وبالشعب كله ، من مأساة الاحتلال البريطانى التى وقعت سنة ١٨٨٢ ، وأخذت الطبقة الوسطى المصرية تسترد أنفاسها ، بعد اليأس الشامل الذى اصاب المجتمع كله ، فى أواخر القرن الماضى نتيجة لكارثة الاحتلال .

ومع الاقتراب من سنة ١٩١٩ كانت الطبقة الوسطى المصرية تزداد ثورية كل يوم ، حتى استطاعت هذه الطبقة ان تجمع نفسها ، وتقود الثورة المصرية ، التى اشترك فيها الشعب كله ، ولكن قيم الثورة الرئيسية ظلت هى قيم الطبقة الوسطى ... لم تتبن الثورة مثلا مشاكل الفلاحين والعمال ، وانما جعلت أهدافها الرئيسية هى التوسع فى التعليم ، وتمصير الوظائف فى مصر ، ومحاولة بناء اقتصاد مصرى رأسمالى ، له بعض الاستقلال عن الاقتصاد الانجليزى . اى ان الطبقة الوسطى المصرية استفادت من ثورة ١٩١٩ فى افساح المجال لنفسها حتى تعمل ، وتحتل بعض مراكز النفوذ الرئيسية فى الدولة .

والطبقة الوسطى عادة ـ وفى كل المجتمعات ـ تميل الى مثل هذه الفكرة الرئيسية التى جسدها العقاد فى كتابته ، وهى فكرة سيطرة العبقرية الفردية على حركة التاريخ . ان الفرد بالنسبة للفكر الشائع بين الطبقة الوسطى ، هو أهم عنصر فى تكوين المجتمع ، وهو أهم هدف بالنسبة للفكر الفلسفى الصادر عن هذه الطبقة . وقد ارتبط العقاد بهذه الطبقة ارتباطا كبيرا فى مدها وثوريتها ، ثم فى جزرها وبداية انحسارها عن قيادة المجتمع ، وساعد هذا الارتباط بين العقاد

وبين هذه الطبقة مع بقية العوامل الاخرى التى ساهمت فى تكوين شخصية العقاد ، على ان يركز العقاد جهوده الفكرية فى النظر الى التاريخ وتطوره من زاوية الفرد العبقرى الممتاز .

ولقد وقفت الموجة الثورية سنة ١٩١٩ منذ البداية ضد البذور اليسارية التى أراد البعض أن يبذرها فى المجتمع المصرى . فقد ألف بعض الشبان بعد ثورة ١٩١٩ حزبا هو الحزب « الاشتراكى المصرى » وكان من هؤلاء الشبان : سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان وحسنى العرابى وغيرهم . ولكن هذا الحزب حورب بشدة ولم ينجح ، لأن الظروف لم تكن مهيأة على الاطلاق لنجاحه ، ولنسمع رأى شاهد من أهل العصر ، ومن الذين شاركوا فى هذه التجربة الاشتراكية ، وهو سلامة موسى حيث يقول فى كتابه « تربية سلامة موسى » عن هذا الحزب الاشتراكى الذى انشىء بعد ثورة ١٩١٩ :

« كان من المحال ان نفرض نجاح الدعوة الاشتراكية ، التى كان الانجليز والباشوات والاقطاعيون يتحدون لمقاومتها ... ومع ذلك انشأنا حزبا اشتراكيا قتله سعد زغلول ، مع انه لو كان قد تركه لكان وسيلة الى الدراسات الاقتصادية التى تنحاز فى اتجاهها نحو الطبقات الفقيرة فى بلادنا ... ولكن سعد زغلول كان « باشا » وكان هذا التفكير أبعد ما يكون عن ذهنه » .

ورغم ما فى كلام سلامة موسى من المبالغة ، وعدم الدقة فى تحميل سعد زغلول وحده مسئولية فشل ذلك الحزب الاشتراكى المصرى القديم ، فان كلام سلامة موسى يعطينا فكرة واضحة عن الواقع الفكرى لثورة ١٩١٩ . فقد كان واقعا مستمدا بالدرجة الأولى من أفكار الطبقة الوسطى ومصالحها ، ومن الأهداف الوطنية العامة مثل الاستقلال والجلاء، ولم يكن فكر ثورة ١٩١٩ مستمدا من مصالح الطبقات الشعبية من فلاحين وعمال .

فى هذه البيئة الفكرية نشأ العقاد ، وساهم فى صياغة أفكار هذه المرحلة ، كما استمد منها الكثير من أفكاره فى نفس الوقت .

ومن هنا كان العقاد مناصرا للثورة الوطنية ، ضد الاحتلال الاجنبى ... هذه الثورة التى قادتها الطبقة الوسطى المصرية ، ولكن عندما بدأت المطالب الاجتماعية لجماهير الشعب تظهر فى ميدان الحركات السياسية المختلفة ، كان

العقاد مازال مقيما فى مواقعه الفكرية الرئيسية، كمفكر كبير من مفكرى الطبقة الوسطى ، ومن هنا ظل متمسكا حتى النهاية بفكرته عن الدور الحاسم العظيم للعبقرية الفردية فى التاريخ ، دون التفات الى الظروف الموضوعية التى تعيش فيها هذه العبقريات الفردية ، ودون التفات الى حركة الجماهير والشعوب التى تؤثر ولا شك تأثيرا هاما وقويا على حركة التاريخ .

ومن هنا كان الصدام الكبير بين العقاد واليسار ، فقد شن العقاد حملة عنيفة على شتى مدارس الفكر الاشتراكى فى السياسة الدولية ، وشن حملة عنيفة أخرى على الدعوة الواقعية فى الادب . ولسوف نكتشف كثيرا من مظاهر الصدام بين العقاد وبين الفكر اليسارى ، خلال الفصول المختلفة لهذا الكتاب ، وقد ظل هذا الصدام بين العقاد واليسار مستمرا حتى وفاة العقاد سنة ١٩٦٤ . لقد كان العقاد محاميا عنيدا صلبا من أجل فكرته الجوهرية عن دور العبقرية الفردية فى التاريخ . وقد التزم بهذه الفكرة دائما حتى فى اللحظات التى كان عليه ان يمتد بنظرته الى حركة الجماهير الفقيرة ، والتى تسعى الى تحقيق آمالها فى المساواة والعدل .

ويمكن فى النهاية ان نلخص الصدام بين العقاد واليسار فى هذه المواقف الرئيسية :

أولا ـــ انه لم يتبن منذ ١٩٣٧ تقريبا حتى وفاته أى دعوة اجتماعية مثل مجانية التعليم أو تحرير الاقتصاد الوطنى ، او تحديد الملكية الزراعية ، او الاهتمام بقضايا الطبقات الشعبية المختلفة ، كما فعل طه حسين عندما نادى بمجانية التعليم ، وعندما دافع عن الطبقات الشعبية فى عدد من كتبه واهمها « المعذبون فى الأرض » ، وكما فعل سلامة موسى عندما نادى بتحرير الاقتصاد الوطنى من سيطرة الرأسمالية المحلية ، والرأسمالية الاجنبية ، أو مثلمافعل محمد مندور عندما نادى بالكثير من المبادىء الاشتراكية ، وخاصة فى كتاباته فى الاربعينات ومعظمها منشور فى كتابه « كتابات لم تنشر » .

ثانيا ـ ارتبط العقاد بعد ١٩٣٧ بالحكومات الرجعية التى كان يساندها القصر والاستعمار الانجليزى، ارتباطا كاملا ، وكانت هذه الحكومات جميعا

معادية لكل المطالب الشعبية ، فى السياسة والمجتمع . وكانت موضعا للنقد والاعتراض من جانب القوى الوطنية والتقدمية فى مصر .

ثالثاً ــ اصطدم العقاد بالدعوات التى نادت بالادب الواقعى ، وحاربها بعنف، ووجه اليها اتهامات حادة قاسية، ولم يكتف بشن حرب فكرية على اصحاب هذه الدعوات ، بل تجاوز الخلاف الفكرى الى اتهام اصحاب هذه الدعوة فى وطنيتهم ، والادعاء بأنهم عملاء لقوى أجنبية .

رابعا ــ وقف العقاد بعنف ضد حركات التجديد الادبية البارزة ، وعلى راسها حركة الشعر الجديد .

خامسا ــ حارب العقاد الفكر الاشتراكى ، تحت دعوى انه يحارب الفكر الماركسى . وكان باستطاعة العقاد ان يختلف مع الماركسية ، دون ان يدفعه ذلك الى رفض كافة مدارس الفكر الاشتراكى .

هذه هى المظاهر الرئيسية لمعركة العقاد ضد اليسار ، وهى المعركة التى خاضها بعد ان اصطدم بالوفد ، وابتعد عن موقعه القديم فى ثورة ١٩١٩ ككاتب كان فى مقدمة كتاب الثورة ، بل لقد كان أبرز كاتب شعبى ثائر منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٦ ... على ان هذا الموقع الجديد للعقاد فى حضن الرجعية السياسية ، لم يفقده مكانته العالية ككاتب مثقف مستنير ، وكواحد من أبرز الذين قدموا التراث العربى فى الفكر والادب والدين فى ضوء عصرى ساطع وجديد، ولولا هذه المساهمة الثقافية من جانب العقاد ، فى فترة انتمائه الى الرجعية السياسية ، لانتهى تاريخه منذ سنة ١٩٣٦ وأسدلت عليه الستائر وغاب فى ظلام كثيف .

العقاد والماركسية

بعد ان درسنا فى الفصل السابق موقف العقاد من اليسار بصورة عامة ، نجد من الضرورى ان ندرس بالتفصيل موقف العقاد من المذاهب السياسية الرئيسية المعروفة فى عصر العقاد ، والتى كان له منها موقف واضح محدد ، وهذه المذاهب الرئيسية هى بالتحديد أربعة مذاهب عارضها العقاد أشد المعارضة ، ومذهب واحد وافق عليه وتبناه وانتمى اليه . أما المذاهب التى عارضها العقاد بشدة وعنف فهى : الماركسية ، والنازية ، والاخوان المسلمون ، والصهيونية كمذهب وحركة سياسية معا ، أما المذهب الذى انتمى اليه ودافع عنه فهو الديمقراطية الغربية أو الليبرالية .

وسوف نتعرض لموقف العقاد من هذه المذاهب المختلفة التى عارضها ، أما موقفه من الديمقراطية فهو واضح فى شتى فصول الكتاب . واذا درسنا موقف العقاد من هذه المذاهب السياسية ، فاننا نجد فى هذا الموقف بعض الظواهر الرئيسية المشتركة .

فالعقاد بصورة عامة يرفض المذاهب « الشمولية »

اى انه يرفض كل مذهب يحدد موقفا شاملا متكاملا من كل نواحى النشاط الانسانى ، فالماركسية تقدم نظرية شاملة فى الحياة و المجتمع ، والنازية تقدم نظرية أخرى فى الحياة والمجتمع ، والاخوان المسلمون يتحركون ايضا حسب نظرية متكاملة تشمل كل وجوه النشاط الانسانى ، وهذه النظريات الثلاث تتناقض مع بعضها البعض أشد التناقض ، ولكنها من ناحية أخرى تتفق فى انها

تحاول ان تمد نفوذها الى شتى جوانب النشاط الانسانى ، من بناء الدولة الى الامور الشخصية التى تتصل بحياة الفرد ، كالزواج والأسرة والاخلاق والسلوك . والعقاد من ناحية أخرى يرفض كل النظريات التى تؤدى الى قيام حكم مطلق على يد فرد واحد ، أو على يد حزب واحد ، او على يد طبقة واحدة ، فالماركسية تنادى بقيام حكم الحزب الواحد ، والطبقة الواحدة ، وهى الطبقة العاملة ، والنازية تنادى بحكم الزعيم ، أو القائد الذى يتحقق الخلاص على يديه ، وهى تنادى بنظرية عنصرية تضع الجنس الآرى الجرمانى فوق غيره من الشعوب ، وتعتبره سيد الاجناس البشرية جميعا ، والاخوان المسلمون كانوا فى تنظيمهم السياسى ينادون بسيادة « الزعيم » أو « المرشد العام » ويعتبرون مخالفته نوعا من الخروج على قواعد الدين ، وقواعد التنظيم فى نفس الوقت .

ويرفض العقاد من ناحية ثالثة أى نظرية سياسية تستخدم العنف عند التطبيق أو تعتمد عليه أو تبرره . والنظريات الثلاث التى عارضها قد استخدمت العنف بشكل من الأشكال ، واعتمدت عليه بصورة من الصور ، رغم اختلاف النتائج واختلاف الغايات والأهداف ، فالماركسيون استخدموا العنف الثورى ، واستطاعوا أن يقيموا بناء جديدا فيه الكثير من مظاهر التقدم ، رغم ما تعرض له عنف الماركسيين من نقد شديد ، حتى من بعض أنصار النظرية الماركسية نفسها . اما النازية فقد استخدمت العنف من أجل تصفية الأعداء فى الداخل ، ومن أجل السيطرة العالمية فى الخارج ، وقد انتهى الأمر بالنازية الى الهزيمة والخراب ، أما الاخوان المسلمون فقد استخدموا العنف فى سبيل الوصول الى السلطة السياسية ، ولكنهم لم ينجحوا فى تحقيق هدفهم ، ولم ينجحوا فى الوصول الى غايتهم المنشودة .

تلك هى الظواهر الرئيسية التى كانت تدفع العقاد الى معارضة المذاهب السياسية الثلاث ، ولكن هناك نقطة أخرى رئيسية كانت دائما تساهم فى تعميق معارضة العقاد لهذه المذاهب الرئيسية ... هذه النقطة هى معارضة تلك المذاهب للدين من وجهة نظر العقاد ، فالدين عند الماركسيين هو نوع من الفكر المثالى الذى لا يحل مشاكل الانسان ، ولا يفسرها تفسيرا صحيحا ، والدين عند النازية لون من الضعف وميل الى الرقة ، وهو أحيانا وهم من أوهام العقلية

الشرقية السامية ، وهذا كله يتناقض مع ما تدعو اليه النازية من أخلاق القوة والسيادة الجرمانية وعدم المساواة بين الاجناس البشرية ، أما الاخوان المسلمون فقد انحرفوا بمعنى الدين انحرافا كاملا ـ فى رأى العقاد ـ وابتعدوا تماما عن المعنى الصحيح للدين .

تلك هى اذن الظواهر المشتركة بين المذاهب السياسية التى رفضها العقاد ، ومصدر رفضه لها هو فى كلمات : ايمانه بالدين ورفضه للعنف ، وايمانه بالحرية الفردية والحرية الفكرية التى هى أثمن ما فى حرية الفرد ، وضرورة الحوار وتنوع الآراء فى المجتمع الواحد ، بدلا من أن يكون المجتمع كله خاضعا لفكرة واحدة تسيطر عليه وتقوده وتمنع التعدد والتنوع فى داخله . وكل هذه المبادىء والأفكار التى يؤمن بها العقاد ، متوفرة من وجهة نظره فى الديمقراطية الغربية « الليبرالية » ومن هنا كانت الديمقراطية هى مذهبه المختار الذى آمن به ودعا اليه على الدوام .

بعد هذه النظرة العامة الى موقف العقاد من المذاهب السياسية نقف أمام كل مذهب على حدة ، لنرى كيف نظر اليه العقاد وماذا كان موقفه منه ... ونبدأ بمناقشة موقف العقاد من الماركسية .

كانت الماركسية هى المذهب الفلسفى السياسى الذى لقى من العقاد أعنف ألوان الهجوم والاعتراض ، وقد أصدر العقاد عددا كبيرا من الكتب والمقالات فى الهجوم على الماركسية، وكان العقاد كعادته دائما، يخرج من مجال المناقشات الموضوعية النظرية الى المناقشة التى تشبه الى حد كبير تلك المناقشات الحزبية الحادة ، فكان هجومه على الماركسية من أعنف ما عرفه تاريخ الفكر السياسى العربى المعاصر ، وكأن العقاد فى هذا الهجوم إنما يعبر عن وجهة نظر حزب فى حزب آخر معارض ومنافس له فى ميدان العمل السياسى . ولذلك لم يكتف العقاد برفض الماركسية ومعارضتها عن طريق المناقشة الفكرية ، وانما لجأ الى التحريض على الماركسيين والتشهير بهم ، واستخدام جميع الاسلحة فى سبيل الوصول الى هزيمتهم الفكرية والسياسية أمام الرأى العام العربى .

واذا حاولنا أن نبحث عن دراسة للماركسية قريبة من الهدوء والموضوعية فى كتابات العقاد ، فاننا سنجد أمامنا صعوبة كبيرة ، ولا شك ان ما كتبه العقاد فى

كتابه الصغير « فى بيتى » والذى أصدره سنة ١٩٤٥ يعتبر أقرب كتاباته عن الماركسية الى الروح الموضوعية ، رغم انه لم يخل من العنف والحدة . وقد بدأ العقاد حديثه عن الماركسية فى كتابه بمناسبة محددة هى تفضيله للشعر على القصة ، وهو رأى مشهور له سوف نتعرض له بالمناقشة فى دراسة أخرى عن نقد العقاد ، وفى تفسير العقاد لشيوع القصة وانتشارها رغم انها تحتل مكانة أدبية أقل فى نظره من مكانة الشعر ، توصل العقاد الى ان الماركسية والشيوعية كان لهما فى هذا الأمر دخل كبير .

يقول العقاد « صفحة ٢٨ من كتابه فى بيتى ـ الطبعة الثانية » :

« ... وجاء بعد شيوع القراءة وشيوع الصور المتحركة شيوع آخر ، هو شيوع الدعوة الشيوعية بين طائفة من طلاب الهدم والانقلاب ، فعند هؤلاء أن القصة أشرف ابواب الادب ، لأنها تكتب للجهلاء وتصلح لبث الدعاية الشيوعية ... وعندهم انها لا ينبغى أن تدار على موضوع غير موضوع القضايا الاجتماعية . كأنهم يضربون الجهل على الفقير ضربة لازب ، أو كأنما هذا الفقير لا يكفيه الضنك الذى يضنيه فى ساعات العمل ، أو فى طلاب العيش ، فلا يزال فى ضنكه حين يفتح الكتاب ، وحين يقرأ الصحيفة ، وحين يحلم ، وحين يناجى ضميره ، وحين يجب أن يعرف له من خصائص الانسانية شيئا غير المعدة والزاد »

ويواصل العقاد هجومه على الماركسية فى نفس الكتاب ، حيث يرى ان الماركسية فى نظريتها وتطبيقها انما تقف ضد الحرية الفردية والكرامة الانسانية فيقول :

« ... ليس من البر بالفقير أن يسلب الكرامة الانسانية ، أو يسلب الحرية الفردية ، كأنها حلية يزدان بها الغنى وحده ، ولا يحفل بها الفقير ، وليس بالصحيح على كل فرض من الفروض ، وكل ظن من الظنون أن الشيوعية تدبر الزاد للفقير ، بفضل ما تقوم عليه من الأسس وما تشتمل عليه من الآراء . فكل مذهب يدعو إليه الدعاة الاجتماعيون ، يستطيع أن يدبر الزاد للعاملين فى سنوات معدودات ، اذا صرف النظر عن الغايات البعيدة وانحصر همه فيما بين يديه . لقد دبرته النازية حين حصرت همها فى صنع السلاح وادارت المصانع على

العدد الحربية والمطالب العسكرية . وقد دبرته الفاشية فى ايطاليا على قلة مواردها حين حصرت همها فى هذا المطلب العاجل وهذه السياسة الوبيلة .

فلم يبق فى ايطاليا ولا فى المانيا عامل لغير عمل موقوت ، ولم تبق فيها مشكلة للمتعطلين ، وكان ثراثرة الاجتماع ينظرون الى ذلك ، فينعونه على الديمقراطية ، ويؤكدون به ما يعيبونه عليها من بطء الوسائل ، وتردد العزائم ، وطول المطال ، ولكن الديمقراطية أيضا قد سبقت النازية والفاشية معا فى المضمار ، فخلقت الأعمال لعشرات الملايين فى بلادها وغير بلادها ، حين أدارت مصانعها على الدخيرة والسلاح ، وظهر أنها حيلة لا تعيى أحدا يقبلها على علاتها ، ويأخذها بتبعاتها ، وما تبعاتها الا الخراب والفساد ، وغشيان الأرض كلها بطائف من الفزع والحسرة ، تهون معه مشكلة البطالة ، وكل مشكلة مثلها من مشكلات الاجتماع . ويخطىء كل الخطأ من يحسب وعود الشيوعية فى هذا المطلب بشارة جديدة من داع جديد ، فليس أقدم من هذه البشارة ولا أسبق من هذا الداعى فى تاريخ الدعايات » .

ويواصل العقاد فى نفس الكتاب هجومه العنيف على الماركسية ، وهو الهجوم الذى كرره وتوسع فيه بعد ذلك فى كتب ومقالات عديدة ، وقد ركز العقاد نقده على الماركسية فى عدة نقاط ، جمعها كلها فى كتابه « فى بيتى » ويمكننا تلخيص انتقادات العقاد على الماركسية فيما يلى :

«أولا — انها فلسفة ضد الحرية الفردية للانسان ... بل لقد جمع العقاد فى هذه التهمة بين الماركسية والنازية فيقول « من كتابه فى بيتى ـ الطبعة الثانية صفحة ٤١ حيث يتحدث عن الجوار بين الكتب الماركسية والكتب النازية فى مكتبته » :

« ... أما الجوار بين الشيوعية والنازية ، فيا له من جوار ، لو انتقل الى عالم المحسوس لا نبعث من هذه الرفوف القليلة فرقعة لا تسمعها من ألف طربيد ، ولا من ألف غيمة تومض بالبروق والرعود .

ولكنها لو انتقلت الى عالم المعنى ، لكان الجوار بينهما أقرب جوار وأرفق جوار ... لأن الفرق بين المذاهب الاجتماعية أو المذاهب السياسية أن شئت ان

تسميها بالسياسة ـ هـو فارق واحـد ، يهديك بينها جميعـا ولو بلغت المئات والألوف : أهو الفارق فى الحرية الفردية ؟ أو هو الفارق فى التبعة التى يحملها الفرد فى علاقته بأمته وبعالم الانسان على اتساعه ؟ فاحسبها مائة مذهب ، أو ألف مذهب، او ما فوق هذا أو ما دون ذاك، فانما هى فى النهاية مذهبان اثنان: مذهب يقدس الحرية الفردية ، ومذهب يستخف بها ، تقديسا لسلطان الدولة أو سيادة الزعيم ، ولا عبرة باختلاف الاسماء والعناوين » .

ثانيا ـــ يتهم العقاد الماركسية بأنهـا فلسفة آليـة ، بمعنى انها تنـظر الى الانسان كما تنظر الى الآلة او كما تنظر الى الحيوان . يقول العقاد « فى بيتى ـ الطبعة الثانية ص ٣١ » :

« ان صاحبهم كارل ماركس ليزعم انه يتنبأ عن مصير الأحياء الانسانية ، وهو لم يحيى فى زمانه قط حياة انسان ، ولم يشعر الا بشعور الجداول والأرقام ، حيثما كان يجمعها فى المتحف البريطانى صباح ومساء ، ولهذا حسب الآدميين آلات تقاس حركتها بالارقام ، ما تقاس حركات السكك الحديدية والسيارات » .

ثم يقول العقاد فى نفس الكتاب عن الماركسية ص ٤٧ : « ان آفة هذا المذهب البغيض انه لا يرى اكرم العلتين للحادث الواحد إلا حاد عنها الى أحقر العلتين ، وأنه لو وضع لعالم من الحيوان ، لما احتاج الى تضييق ولا تقصير ، ولا اعادة تفصيل او تحرير ، لأنه لم يفهم من الانسان الا جانب الحيوان » .

ثالثا ـــ يتهم العقاد الماركسية بأنها فلسفة مادية بمعنى خاص من معنى المادية ، نفهمه من قول العقاد فى كتابه « فى بيتى ص ٣٤ » وهو يقارن بين موقفه من الرأسمالية وموقف الماركسيين منها :

« ... ان المـاركسيين لا يستـطيعون ان يمقتـوا تلك العيوب « أى عيـوب الرأسمالية » كما أمقتها ، لأنهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع ان يلوم عشاقها كل اللوم ، أو يعذرهم فى عشقها بعض المعذرة » .

رابعا ـ يتهم العقاد الماركسية انها تهدم الاخلاق ، فيقول فى كتابه « فى بيتى » ص ٣٤ : « ... ان جشع المستغلين شر ، ولكن الشيوعية ليست بخير ، وان رأس المال محنة للاخلاق ولكن الشيوعية محو للاخلاق لا تقوم لها فيه قائمة » .

خامسا ـــ يتهم العقاد الماركسية بأنها دعوة تبشرية ، تحاول أن تحل محل الدعوات الدينية ، مع تغيير الأهـداف والدوافع ، يقـول العقاد فى كتـابه « فى بيتى » ص ٣٠ : « ... وهـذه الدعوة التى يـزعمونهـا « علمية » هى تبشـير لا يعـوزه شبـح الشيـطان ، ولا العقيـدة العميـاء ، وغـايـة الفـرق بينهـا وبين سابقتها ، ان الشيطان هنا هو « الرأسمالية » التى تـرجع اليهـا جميع الشرور والخبائث ، وان الفردوس هو العصر الموعود الذى يسود فيه الصعاليك ، وأن حماسة العقيدة هنا هى حمـاسة المعـدات والاحقاد . وليس أكـذب ممن يخاطب المعدة ويخاطب الحسد والحفيظلة ، فلا اقناع هنا ولا اقناع فى غير هذا من ضروب الحماسة والبغضاء ، وليس الاقناع بالمعدة بعد الاقناع بالروح تقدما نغبط عليه ».

وأخيرا فان العقاد يتهم الماركسية بأنها « انكرت بعض المبادىء الرئيسية فى حياة المجتمعات ، ثم اضطر أنصارها الى الاعتراف بهذه المبادىء ، تحت ضغط الواقع الذى كشف لهم أخطاءهم ... » يقول العقاد « فى بيتى ص ٣٣ » :

« ... ان كان للنبوءات الماركسية فضل بعد هذا ، فى ثورة الروس فهو الفضل المعكوس، لأن المؤمنين بها حاولوا تطبيقها كما آمنوا بها فضيعوا عشرين سنة فى هذه التجارب المخيبة وضاعت معها ملايين الأرواح التى فنيت بالسلاح ، أو فنيت بالقحط والوباء ، ثم آل بهم الامر الى اقرار ما انكروه وحاربوه ، وقتلوا الملايين من أجله، وهو اقتناء الملك، وايداع المال فى المصارف، وتوريث الأبناء وإباحة الفروق فى المعاش ، واعلان العصبية الوطنية ، ولو لم يؤمنوا ذلك الايمان بالنبوءات الماركسية ، لبلغوا هذا المطلب فى سنة واحدة ، وعافوا أنفسهم وعافوا الناس من شرور تلك التجارب وخطوب تلك المحاولات » .

هذه هى جملة انتقادات العقاد على الماركسية بأسلوبه العنيف الحاد ، حيث يعتبر العقاد نفسه مع الماركسية فى معـركة حـزبية ، تبيـح استخدام جميـع الاسلحة ـ من المناقشة العلمية الى التشهير والسخرية .

وقد رد الماركسيون على العقاد ردودا مختلفة ، وقبل ان نعرض هذه الردود نود ان نقف قليلا مع رأى العقاد فى الماركسية لنسجل بعض الملاحظات .

ان الماركسية نظرية عالمية واسعة الانتشار ، كما ان هناك مجتمعات كبيرة ، وعلى رأسها روسيا والصين ، قد اقامت تجاربها الجديدة فى التقدم والتطور على أساس هذه النظرية ، وقد لقيت الماركسية أنصارا كثيرين ، كما واجهت عديدا من المعارضين ، حتى من بين صفوف الماركسيين أنفسهم ، فظاهرة نقد الفكر الماركسى ، ظاهرة واضحة عند بعض المفكرين المعاصرين ، الذين كانوا فى الاصل ملتزمين بالفكر الماركسى ، مثل المفكرين الفرنسيين المعروفين : لوفافر وجارودى .

ولا شك ان من حق العقاد كمفكر عربى كبير ان يتصدى بالرأى والمناقشة لنظرية بحجم « الماركسية » لها تأثيرها الفكرى وتأثيرها العملى بصورة ملموسة واضحة بالنسبة لعدد كبير من المجتمعات الانسانية ، وبالنسبة لعدد كبير من المفكرين المعاصرين حتى فى أمريكا وأوربا الغربية .

ولكن خطأ العقاد الاساسى هو انه وضع نفسه لا فى صف المعارضين للماركسية والناقدين لأسسها النظرية والتطبيقية فقط ، بل تجاوز ذلك الى التشهير بهذه النظرية ، وبالمجتمعات التى أخذت بها وآمنت بمبادئها المختلفة ، و« التشهير » عادة يؤدى بالكاتب الى عدم التزام الدقة العلمية ، والى اصطياد الاخطاء وتضخيمها ، والبعد التام عن الموضوعية المطلوبة فى ميدان المناقشة الفكرية ... ان « الماركسية » ليست نظرية مقدسة ، وقد تعرضت هذه النظرية ـ كما قلت ـ للنقد العلمى ، حتى فى صفوف بعض أنصارها المعروفين . ولكن النقد شىء والتشهير شىء آخر .

وقد أدى تشهير العقاد بالماركسية ، الى ان ينزلق فى بعض الأخطاء الواضحة ، ومن هذه الاخطاء ربطه بين الماركسية والنازية ، بحجة انهما تصدران عن ضعف فى الاخلاق ، فالماركسية مبنية على الحسد والنازية مبنية على الغرور ... وهذا بالطبع تبسيط بالغ الخطأ والسطحية ، فالماركسية والنازية نقيضان فى كل شىء ، ويكفى ان نشير الى فارق رئيسى واحد : فالماركسية تقوم على ازالة الفوارق بين القوميات أو ما يسمى بالنزعة الاممية التى تسعى الى توحيد البشر ، وتحقيق المساواة بينهم ، بينما تقوم النازية على القومية العنصرية ؛ وتنادى بسيادة جنس واحد ، هو الجنس الآرى ، على غيره من الاجناس

البشرية ، وهو ما ترفضه الماركسية تمام الرفض ، وتنكره أشد الانكار . وهناك بعد ذلك فوارق جوهرية أخرى بين النازية والماركسية ، وهذه الفوارق يعترف بها أعداء الماركسية أنفسهم قبل أن يشير اليها انصارها المتحمسون .

ومن أخطاء العقاد أيضا فى هجومه على الماركسية انه لا يدقق أبدا فى تحديد المعنى العلمى الصحيح للكلمات التى يستخدمها ، فكلمة « المادية » مثلا هى عند العقاد : الطعام والشراب والملذات وكل ما يتناقض مع التفكير والشعور والاحساس . وهذا الفهم لكلمة « المادية » هو فهم عامى كان ينبغى على العقاد ان يتجنبه تماما ، لان المادية عند بعض النظريات الحديثة ومن بينها الماركسية معناها الاعتراف بالعالم الواقعى ، وبقوانينه المستقلة ، وبقدرة هذا العالم الواقعى على التأثير فى الانسان والحياة تأثيرا عميقا واساسيا .

وليس فى هذا المعنى ابدا ما يتصل بالمعنى العامى الشائع لكلمة المادية .. ان « المادية » هنا كلمة تقابل « المثالية » فى الفكر ... فالمادية تفسر ظواهر الحياة والمجتمع بالظروف المحيطة بهذه الظواهر ، أما المثالية فتفسر هذه الظواهر بالأفكار والنوايا القائمة فى العقول والرؤوس .

وقد وقع العقاد فى اخطاء اخرى مثل قوله : ان الفردوس الذى تبشر به الماركسية هو « العصر الذى يسود فيه الصعاليك »... والصعاليك فى لغة العقاد هم الطبقة العاملة فى لغة الماركسية ، والعقاد هنا يغالط الحقيقة عندما يصف « العمال » بأنهم « صعاليك » ... فالصعلوك شخص يمثل عبئا انتاجيا وأخلاقيا على المجتمع ، اما العامل فهو قوة انسانية وانتاجية داخل المجتمع ، وسيادة العمال شيء وسيادة الصعاليك شيء آخر ، ويكاد الانسان يشعر ان العقاد انما يعبر عن نظرته الخاصة الى العمال ، عندما يصفهم بأنهم صعاليك .. وهى نظرة خاطئة وظالمة فضلا عن انها نظرة غير علمية .

ومع ذلك فهناك جانب ايجابى صحيح ولكنه محدود ، فى نقد العقاد للماركسية، هذا الجانب هو اعتراضه على رفض الماركسية للقومية، فتلك نقطة صحيحة من الناحية العلمية ، وهى نقطة ضعف أخذها الكثيرون من النقاد على الماركسية ، وقد أتضح هذا الجانب الخاطىء والضعيف فى الماركسية ، فى الوطن العربى على وجه الخصوص ، وفى الفترة التى ظهرت فيها حركة الوحدة العربية ،

فى ظل الدعوة الى « القومية العربية » التى تجمع شعوب المنطقـة المتدة من الخليج العربى الى المحيط الاطلسى ، وقد عـارض بعض الماركسيـين ـ افرادا وأحـزابا ـ الوحـدة العربيـة فى بعض الاحيان ، انـطلاقا من رفـض الفكـرة القومية ، ولكن حركة الوحدة العربية والفكرة القومية العربية ، ثبتت لهذا النقد الماركسى وانتصرت عليه .

وهناك نقاط أخرى فى نقد العقاد للماركسية تعتبر من النقد الايجابى وسوف نعود لهذا النقد فى آخر هذا الفصل . ومجال مناقشة الماركسية ونقدهـا قائم وموجود ... بشرط ان تتوفر للمناقشة والنقد روح علمية موضوعية سليمـة ، ومعرفة دقيقة بهذه النـظرية نفسهـا ، ومن الواضح أن العقـاد لم تتوفـر له الموضوعية الكافية ، ولا المعرفة العلمية الكافية فى نقده للماركسية .

نعود بعد ذلك الى ردود الماركسيين على العقاد ، ونقـدم نموذجـين من هذه الردود ، أما الرد الأول فقد كتبه ابراهيم عامر فى مجلة الرسالة فى ٢٣ يوليـو سنة ١٩٤٥ حيث يقول فى مقال قصير له :

« يقول الاستاذ العقاد : ان الحرية الفردية ، والتبعة الشخصية هى مقياس التقدم التاريخى ، وأن الماركسية تقضى على هذه الحرية كما تقضى على التبعة الشخصية ، وهو اتهام قديم طالما وجه الى المـاركسية ، فـالماركسيـة لا تنفى الفـردية ، وانمـا تنفى الانفراديـة ، وهى لا تهدم الشخصيـة ولكنهـا تهـدم الانعزال . والانفرادية معناها تجريد الفرد من المجتمع ، وعزلته عن الجماعة التى يعيش بين ظهرانيها ، ومعناها انكار المحيطات والظروف الاجتماعية فى حياة الفرد ، ومعناها ان الدوافع الحقيقية التى تسيطر على الانسان تظل مجهولة له ، فيتخيل دوافع زائفـة أو ظاهريـة ، ليست فى الحقائق والمعقـولات ، ولكنها فى المثاليات التى نحتفظ بها لا بـلا شعور ، ولكن بشعـور زائف ، وعندمـا تقول الماركسية بأثر التطور فى وسائـل الانتاج فى التـطور التاريخى ، وفى الروابـط القائمة بين الافراد ، وبين الطبقات وبعض ، او على الأصح بين الطبقتين اللتين يتكون منهما المجتمع ، فانها تبنى هذا القـول على ان الطبيعـة ليست احداثا فجائية ، لا رابطة تقوم فيها بين الشىء والظاهـرة ، ولكنها كـل مرتبط ببعضه ، فيه الأشياء والظواهر مرتبطة حيويا ارتباطاً يجعل كلا

منها أساسا للآخر ، ومعتمدا عليه ومكيفا له ، وعلى هذا لا يمكن تجريد اى شيء فى الطبيعة وأخذه فى ذاته ، وعلى هذا فالانفرادية شيء يتعارض مع قوانين الطبيعة . والماركسية تؤكد الشخصية والفردية كما تؤكد الحرية حين تقول انها تقدير الضرورة ، وحين تقول ان الضرورة عمياء ، مادامت غير مفهومة ، وحين تبنى التحول فى فهم ماهية الأشياء من كونها ذات قيمة ذاتية ، الى كونها ذات قيمة لنا ، وحين تقول ان الحرية الفردية اذا لم يدعمها استقلال مالى ، ومستوى معيشة مرتفع ، والغاء للملكية الفردية لوسائل الانتاج ، والاستغلال الاقتصادى ، تصبح لا قيمة لها ، وحين تعمل على دعم الحرية بعناصرها الحقة ، فان تكافؤ الفرص وتساويها هى عنصر الحرية الأول . اما الانفرادية البرجوازية ، انفرادية الأبراج العاجية والارستقراطية الفكرية والجهل المطبق بروح الجماعات وميزات الشعوب ، وأما الاستقلالية البرجوازية ، استقلالية الاستغلال والرجعية ، وأما الحرية البرجوازية حرية الأقلية فى سلب الأغلبية ثمار عملها ...

هذه الانفرادية ، وهذا الاستقلال ، وهذه الحرية ، هى التى تنادى الماركسية بهدمها ، وتكافح لإلغائها لأنها تتعارض مع اجتماعية الانسان » .

هذا هو رد ابراهيم عامر القصير الموجز على العقاد ، وهو - رغم دقته وروحه العلمية - يقتصر على العموميات ولا يناقش التفاصيل ، ولا يدخل فى الجزئيات ... ولكننا نلتقى بعد صدور كتاب العقاد « فى بيتى » سنة ١٩٤٥ بقليل . وبعد شهور من رد ابراهيم عامر على العقاد ، برد تفصيلى واسع على آراء العقاد فى الماركسية ، فقد أصدر « أبو سيف يوسف » احد اعلام الفكر الماركسى فى مصر كتيبا صغيرا فى ٥٧ صفحة بعنوان « حول الفلسفة الماركسية - رد على العقاد » وقد صدر هذا الكتيب فى مارس سنة ١٩٤٦ ، ويعتبر هذا الرد وثيقة هامة لأنه - فى معظمه - رد علمى تفصيلى على كل ما أثاره العقاد ضد الماركسية . صحيح ان « ابو سيف يوسف » لم يكن يملك قوة التعبير التى يملكها العقاد ، ولكنه كان يملك فى هذه الرسالة الصغيرة معرفة علمية واسعة بالماركسية ، بالاضافة الى ما كان يملكه فى هذه الرسالة من الايمان العميق بهذه النظرية ، وقد

اتاح له ايمانه بالماركسية ، ومعرفته الواسعة بها ان يقدم أفضل رد ماركسى فكرى ونظرى على العقاد ، خلال المعركة الطويلة بين العقاد والماركسيين .

ولأهمية الرسالة التى كتبها أبو سيف يوسف فسوف نعرض لها هنا بشىء من التفصيل .

يبدأ ابو سيف يوسف فى الصفحات الأولى من رسالته متأثرا بأسلوب التشهير الذى لجأ العقاد اليه فى الهجوم على الماركسية ، فلا ينجو ابو سيف يوسف من هذا الاسلوب التشهيرى نفسه فيقول فى صفحة ٤ من رسالته :

« كان المفهوم أن يوقف كاتب مثل العقاد جهوده على الكفاح من أجل شعبنا المصرى ضد المستعمر الذى أذله واستغله سنين طويلة ، ولكن العقاد ـ ويا للاسف ـ تنكب عن طريق الحرية ، فلم نعد نسمع له صوتا يرتفع ضد مؤامرات الاستعمار البريطانى ، وريث الفاشية وحليفها السابق قبل الحرب . نهض الشعب يطالب بحقوقه وانضم العقاد الى معسكر الوزارة النقراشية ، يسبح لها صباح مساء، فى الوقت الذى كانت فيه الوزراة تقمع الحريات، وتنكل بالأحرار، وتساوم المستعمر الانجليزى سرا وعلنا وتنفذ سياسة المستعمر فى تخدير الشعب وقمعه وصرفه عن كفاحه السليم » .

« فى كل يوم تطالعنا شواهد وبينات عما يفعله المستعمر الانجليزى بحريات الشعوب . يقتل الاندونيسيين والاحرار اليونانيين ، ويميت الملايين من الهنود جوعا ، وكأن الاستاذ العقاد لا يعنيه فى الأمر شىء ، ولا يرى ان قضية الحرية واحدة لا تتجزأ ، بل ينصرف الى تنفيذ سياسة استعمارية مفضوحة . هذه السياسة الاستعمارية تتمثل فى انصرافه الكلى عن قضيتنا وكفاحنا الشعبى ، الى ترديد آراء الاستعماريين الانجليز فى مذاهب وفلسفات معينة ، فتراه يهاجم الماركسية ، ويقحم هذا الهجوم اقحاما فى كل وقت وفى غير مناسبة .. »

« وليته يفعل هذا بدافع علمى ، وليت نقده للماركسية يسير وفق تقاليد النقد العلمى المنزه ، ولكنه للأسف يطيح بنزاهة وشرف القلم المصرى ، عندما يلجأ الى الاختلاق والادعاء والى تشويه الفلسفة الماركسية والتقول على مؤسسيها وواضعيها ، بأقوال لم تصدر عنهم ، ولم توجد قط فى كتابتهم » ثم ترتفع لها

لهجة الكاتب بعد ذلك وتحتد ، حيث يتهم العقاد بالخيانة الوطنية فيقول : « والعقاد بخيانته لقضيتنا الوطنية ، وقضية الحرية فى العالم بتشويهه للحقائق ، انما يضرب المثل السىء للكاتب الذى خرج من صفوف الشعب ، وانضم الى أعدائه فأصبح بوقا للمستعمر وأعوانه ، وأصبح من الواجب ان نكشف عن مغالطاته وترهاته ... عن هذا الكاتب الذى خانت نهايته بدايته وتنكر حاضره لماضيه » .

واتهام الكاتب للعقاد بالخيانة الوطنية ، هو نوع من التشهير لا يختلف عن اسلوب العقاد فى التشهير بدلا من المناقشة العلمية الموضوعية . ولكن « ابو سيف يوسف » يناقش العقاد بعد هذه المقدمة التشهيرية فى بقية رسالته مناقشة علمية هادئة عميقة يتصدى فيها لآراء العقاد المختلفة حول الماركسية .

ففى موضوع الحرية الفردية التى يرى العقاد ان الماركسية تعارضها وتقف ضدها ، يرد « ابو سيف يوسف » على ذلك بقوله : « لقد اجتمعت الهيئة السياسية فى عهد الوزارة النقراشية ، لتنظر فى المطالب القومية ، واجتمعت عندما أرادت وتصرفت بآرائها حسبما أرادت ، وهذه الهيئة - كما لا يخفى - مكونة من كبار الماليين ، ومديرى البنوك وأعضاء الشركات ... الخ . وأراد العمال أن يجتمعوا ليبدوا رأيهم الصريح فى مطالب وطنهم ، وأحبوا أن يستغلوا ويفيدوا من الحريات المكفوله لهم ، غير أن هذا الاجتماع لم يتم ، ولم تشعر الطبقة المسيطرة بأنها قد اعتدت على الحرية ، ولم تر فى منع العمال من ابداء رأيهم والتعبير عن شعورهم القومى ، ما يتنافى مع الحرية التى ينادون بها - ولم ير العقاد فى هذا التصرف - وهو الكاتب الذى نصب نفسه للدفاع عن الحرية الفردية .... لم ير ما يشين الحرية ويهددها ، حدث كل هذا وصمت العقاد وكان صمته عميقا .. » .

ويستنتج الكاتب من هذا النموذج ان الحرية فى مجتمع طبقى هى « اذن حرية طبقية ، ومن الخطأ الخداع ، ان نتحدث عن الحرية بكيفية عامة ومبهمة » .

ثم يقول الكاتب بعد ذلك : « اذا كان العقاد يرى أن المتعلم أكثر حرية من الجاهل ، فالتعلم اذن شرط لازم لقيام الحرية ، وهو اذن حق طبيعى لكل انسان سوى . ولكن هذا الحق تتمتع به فى المجتمع الطبقى طبقة دون أخرى . فقد ذكر

سدني وبياترس ويب أن تسعة أعشار الآباء فى انجلترا ليس لهم حرية أو خيار ، فى ارسال ابنائهم الى المدرسة أو المعهد الذى يفضلونه . ولكنهم بحكم أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية مجبرون على ارسال أولادهم الى أقرب معهد أيما كان مستواه أو اتجاهه . والأقلية الضئيلة هى التى تستطيع أن تختار المعاهد الخاصة والجامعات ، لأنها تستطيع أن تتحمل نفقات الدراسة الباهظة ، وتكاليف السفر والانتقال : الأمر الذى يعجز عن أتيانه جميع العاملين بأجر ، والغالبية العظمى من أفراد الطبقة المتوسطة أيضا » والنتيجة الأساسية التى يؤكد عليها « ابو سيف يوسف » هى « ان التاريخ يعلمنا انه لا وجود للحريات الفردية ، طالما انقسم المجتمع الى طبقة تستغل ، وغالبية تخضع وتشقى ، وأن هذه الحريات ان كان قد اكتسب بعضها ، فلم يكن ذلك الا عن طريق الشعوب وكفاحها ضد مستغليها ، وان نهوض الافراد بالتبعة الاخلاقية ، قد حدث بفضل توسيع حقوق الانسان والدفاع عنها دفاعا مستمرا » .

ويرد أبو سيف يوسف على اتهام العقاد للماركسية بأنها تنظر إلى الانسان نظرتها الى الآلة فيقول : « مادام العقاد قد كتب لآلاف القراء يقنعهم بفساد الماركسية ، فان القارىء السوى لا يتم اقتناعه بما يقول ألا اذا تحققت أمور ثلاثة ...

١ — أن يورد العقاد نصوصا من ماركس تثبت انه يحسب الآدميين آلات ، وهذا ما لم يفعله العقاد .

٢ — ان يثبت العقاد خطأ شراح الفلسفة الماركسية ، ثم الشراح الذين نفوا عنها الطابع الآلى . ولكن العقاد أيضا لم يفعل شيئا من هذا القبيل .

٣ — أن يدلل العقاد بأدلة قاطعة وبراهين مقنعة ، على أن ماركس كان يعامل الآدميين بحسبانهم آلات . وقد قام الاستاذ بمحاولة فى هذا السبيل ، ولكن أدلته — للاسف — لم تكن ملزمة ، بل كانت تافهة سطحية ، فأورد فى ذلك قضيتين أو مقدمتين ، إحداهما خاطئة فاسدة وهى أن ماركس « لم يحى فى زمانه قط حياة انسان » ، وأما الثانية فهى مقدمة ضيقة جدا ، رتب عليها الاستاذ العقاد — بمنطقة العبقرى — أوسع النتائج ، حين قال : ان ماركس لم « يشعر قط الا بشعور الجداول والارقام، حيثما كان يجمعها فى المتحف البريطانى صباح

مساء » واستنتج من ذلك انه « لهذا حسب الآدميين آلات ... الخ » والاستدلال فى نظرنا تافه للأسباب الثلاثة الآتية .

الاول — انه اذا كان ماركس قد جمع الارقام والجداول ، فما ذلك الا لانه كان معنيا بدراسة الظواهر الاقتصادية بوجه عام ، والنظام الراسمالى بوجه خاص . وأظن أن الاستاذ العقاد يتفق معنا على أن استخدام الجداول والارقام فى البحوث والدراسات الاقتصادية أمر لازم ، تقتضيه طبيعة هذه الدراسات ، من حيث أنه اسلوب فى البحث يحقق مطلبا من مطالب الدقة العلمية . وأظن ان اصطناع علماء الاقتصاد لهذا الاسلوب ، لا يعنى مطلقا بل ولا يستنتج منه انهم يعاملون الآدميين معاملة الآلات .

الثانى — اذا كان المقصود بالجداول والأرقام استخدام الاحصاء ، فان مؤاخذة العقاد لماركس انما تكشف عن جهل غير لائق بقيمة الاحصاء ووظيفته ، كطريقة من طرائق البحث فى العلوم الاجتماعية . فالواقع أن للاحصاء قيمة كبرى فى الكشف عن الصلة بين الوقائع المدروسة ، والتغيرات المتلازمة . ويكون المنهج الاحصائى مخططا على وجه الخصوص ، عندما ينصب على ملاحظة فترات الانتقال والتحول السريع - أعنى فترات الأزمات . ففى هذه الحالة يمكن أن يرى الانسان على هذه الظواهر مكبرة ، وفى شىء كثير من الوضوح والجلاء .

ولقد كان ماركس - كما نعلم - يعيش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان النظام الرأسمالى قد بلغ فى تطوره يومها حدا أخذ يعانى فيه تناقضا حادا بين الانتاج الحشدى الهائل ، وبين امتلاك وسائل الانتاج . وكان هذا التناقض يسبب أزمات دورية درسها ماركس دراسة وافية ، ووضع فى ذلك نظريته المعروفة عن الأزمات ... كان من الضرورى أن يستعين ماركس فى دراسته الاقتصادية بالجداول والأرقام .

ولكن هذا لا يعنى أن ماركس بعمله هذا ، كان ينظر الى الناس نظرته الى السيارات وقطر السكة الحديدية ، فالواقع أن الاحصاء يعد مرحلة من مراحل المنهج الاجتماعى ، ولا يمثل المنهج الاجتماعى كله .

ونحن نعلم ان الاحصاء يصطنع فى دراسة الظواهر الصحية والتعليمية ، وظواهر الزواج والطلاق والمواليد والوفيات ، ولكن استخدامه لهذا الغرض

لا يعنى أن القائمين على شؤون الصحة والتعليم ... الخ لا ينظرون الى الآدميين نظرتهم الى القطارات والسيارات .

الثالث ـــ اذا كان الاحصاء يمثل جانبا أو مرحلة واحدة من مراحل البحث الاجتماعى ، فمن الخطأ كل الخطأ أن ننظر الى الجداول والأرقام او الاحصاءات كتعبير نهائى مطلق عن الظاهرة الاجتماعية المدروسة .

وقد تنبه ماركس الى هذه الحقيقة فاستخدم الاحصاء ، ولكنه ـ كما يلاحظ كفيليه ـ استخدمه بطريقة ديالكتية ، أعنى بطريقة نسبية وليست مطلقة : هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لم يكن الاحصاء الاسلوب الوحيد الذى اصطنعه ماركس ، فقد قرنه وربطه بمنهج له قيمة عظمى ، فى دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، ونعنى به المنهج التاريخى المقارن .

وهكذا حاول العقاد أن يدلل على أن ماركس ينظر الى الآدميين نظرته الى الآلات . فجاءت أدلته غثة سطحية ، تقوم على محض السفسطة ومحاولة استغلال ثقة قارئه به » .

ثم ينتقل ابو سيف يوسف بعد هذه المناقشة الدقيقة الى الرد على العقاد فى اتهامه للماركسية بأنها فلسفة مادية ، بالمعنى الخاص الذى فهمه العقاد من كلمة المادية ... فيقول الكاتب ...

« انتهز العقاد كل فرصة للتقول على الماركسية ، واستخدم فى ذلك كل اساليب المغالطة التى تجافى التفكير النزيه . ولذلك نراه يتهم الماركسيين بالمادية القذرة فيقول : « ان الماركسيين لا يستطيعون ان يمقتوا تلك العيوب ـ عيوب الرأسمالية ـ كما أمقتها ، لأنهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع أن يلوم عشاقها كل اللوم ... »

« وأول ما يلاحظ على كلام العقاد ، هذه المغالطة التى تتمثل فى استعماله لكلمة مادة استعمالا غامضا غير دقيق . صحيح أن الماركسيين يؤمنون بالمادة ولكنها ليست على كل حال « المادة » التى يؤمن بها الراسماليون ولذلك ينبغى أن نوضح هذه الفكرة التى كثيرا ما يتعثر فيها السطحيون . يقول انجلز : يفهم ذو العقل الضيق من المادية الطعام والشراب ولذة النظر والافراط فى الشهوات الجنسية . انه يعنى بها حياة مليئة بالبهرج ، والشهوة والبخل ، والشر ،

واقتناص المنافع والدس فى سوق الأوراق المالية ، وباختصار كل الرذائل القذرة التى يلقى بنفسه فى حمأتها سرا ويعنى ذو العقل الضيق « بالمثالية » الايمان بالفضيلة وحب الجار ... الى آخر هذه الصفات التى يباهى بها أمام الآخرين ، ولا يؤمن بها فى قرارة نفسه ، الا فى الوقت الذى يمر فيه بفترة الضيق أو الازمة التى تستتبع بالضرورة استغراقه المادى فيردد لنفسه هذا القرار المفضل : ما هو الانسان ؟ انه نصف حيوان ، نصف ملاك ! »

ويواصل « ابو سيف يوسف » تخطيئه لفهم العقاد لمعنى « المادية عند الماركسيين » فيقول :

« اذا كانت المادية فى نظر انجلز لا تعنى الانانية والجشع وسرقة جهد الكادحين ، والاستغراق فى شهوات الحس ، فالعقاد اذن يفترى ويغالط عندما يتعمد الجمع بين الماركسيين والرأسماليين فى حب المادة » .

« على ان لينين قد عرف المادية الماركسية تعريفا لا يدع مجالا للتخبط عندما قال : ان الخاصية الوحيدة للمادة وهى الخاصية التى ترتبط الفلسفة المادية بمعرفتها ارتباطا وثيقا - انما تتمثل فى أن المادة حقيقة موضوعية موجودة خارج عقولنا ومعنى ذلك أنه عندما تقول الفلسفة الماركسية بأنها فلسفة مادية فانها ترمى من وراء ذلك :

أولا — الى الاعتراف بوجود العالم الخارجى ، أو الطبيعة الخارجية وجودا مستقلا عن عقولنا .

وثانيا — الى دراسة هذا العالم كما هو ، اى دراسة موضوعية بمعزل عن الخرافات والأوهام والتصورات السابقة .

وثالثا — الى فهم العالم على حقيقته حتى يتسنى اخضاعه وتغييره ، وهذه هى وجهة النظر العلمية ، والماركسية والعلم فى هذا الصدد صنوان » .

وبعد ذلك يرد أبو سيف يوسف على قول العقاد « ... ان الرأسمالية محنة للاخلاق ، ولكن الشيوعية محو للاخلاق ، لا تقوم لها فيه قائمة » ... يقول الكاتب فى رده على العقاد .. « الاخلاق وظيفة من وظائف المجتمع ، ومعنى ذلك ان المجتمع هو مصدر الاخلاق ، وعندما نقول الاخلاق فنحن نعنى بذلك مجموعة من التصورات والأوامر والنواهى ، تحدد الخير والشر ، وتعين سلوك الانسان

بازاء أشباهه . واذا كانت الاخلاق وظيفة من وظائف المجتمع ، وكانت المجتمعات متطورة ومتغيرة ، كان مضمون هذه النواهى والأوامر الاخلاقية متغيرا متطورا بالمثل ، من عصر الى عصر ، ومن مجتمع الى آخر . ربما اعترض معترض بقوله : ان المبادىء والنواهى والأوامر الاخلاقية تكاد تكون واحدة فى كل المجتمعات ، وانها ثابتة على ممر الاجيال ، بدليل أننا ما نزال نستشهد بأمثال الاقدمين وحكمهم ، وبدليل أن قدماء المصريين تكلموا عن الخير والحق والعدالة كما تكلم العرب ، وأن اليونان والرومان تتشابه أقوالهم وتصوراتهم الاخلاقية مع أقوال العرب والمصريين وتصوراتهم ، على أن مثل هذا الاعتراض خطأ أو وهم كشفت عنه وبينته الدراسة العلمية المقارنة للاخلاق ، وهى الدراسة التى ساهم فى وضع أسسها ـ كما نعلم ـ المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، وكان من المبرزين فى ذلك المجال « ليفى بريل » الذى أكد حقيقة بالغة الأهمية ... وهى أن التصورات الاخلاقية اذا كانت تتشابه ، فمصدر التشابه هو اللغة وحدها ، وليس مضمون هذه التصورات ومحتوياتها ، فاللغة لها قدرة على التجريد ، ولكن مضمون الكلمات المجردة يختلف ، وقد ضرب « ليفى بريل » مثلا لذلك الحكمة اللاتينية التى تقول : « لا تؤذ أحدا وأعط لكل ما له » . فقد عرفها كل مجتمع من المجتمعات القديمة ، ولكن كل مجتمع أيضا طبقها تطبيقا يلائم تنظيمه وتكوينه الخاص، ولذلك فان « أحدا » هذه لم تكن تشمل الغريب أو الأجنبى، بدليل أن العواصف عندما كانت تلقى بسفينة على شاطىء من الشواطىء ، لم يكن يسلم راكبوها من القتل أو الاسترقاق . وفكرة العدالة التى تشير اليها الشطرة الثانية من الحكمة «أعط لكل ما له» فقد وجدت بالمثل فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة على السواء . ففى المجتمعات القديمة لم تر الطبقات الغنية المسيطرة أن فكرة العدالة تتنافى مع المستوى الذى تعيش فيه الطبقة الاخرى ، وهى طبقة العبيد والارقاء ، بل أن أرسطو نفسه كان يرى أن نظام الرق طبيعى وضرورى لسلامة المجتمع » .

« ووجدت فكرة العدالة أيضا فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولم يجد رأسماليو انجلترا أنها تتنافى مع الستة أو الثمانية عشرة ساعة التى كان يعملها الاطفال والنساء بحجة أن هؤلاء كانوا يتقاضون أجورا عن عملهم ، وكان بعض

أصحاب المصانع لا يتردد فى اقفال مصنعه ، وتشريد العمال ، اذا رأى أن هذا أربح له ، ولم يكن يتألم ، ولم يكن يجد فى عمله ما ينافى العدالة ، بحجة أنه كان ينقد العمال اجورهم يوما بعد يوم » .

« المبادىء والتصورات أذن : تعبر فى مضمونها عن النظم الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى مجتمع معين ، وفى عصر معين أيضا ، وهى تفسر دائما تفسيرا يلائم هذه النظم ... وفى كل مجتمع طبقى تتغلب أخلاق الطبقة المسيطرة » .

ويقول أبو سيف يوسف بعد ذلك : « نستخلص من هذا أن حل المشكلات الاخلاقية مرتبط اوثق ارتباط بحل المشكلات الاجتماعية والسياسية . فان تنظيم الحياة الواقعية تنظيما يقوم على العقل والعلم ، هو الشرط لكل تجديد روحى وأخلاقى . وان ما يحدث تغييرا عميقا فى سلوك الناس ، هو فى الغالب تغيير اقتصادى واجتماعى ، ولا يتم هذا على نطاق واسع الا فى مجتمع اشتراكى ، تنظم فيه الحياة الاقتصادية وتوجه توجيها فى صالح الجميع » .

ثم يقول ابو سيف يوسف بعد الردود العلمية المحددة : « .. وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع ان نسفه آراء الاستاذ العقاد فى غير ما مشقة ..

أ — يقول العقاد اننا نسلب كرامة الناس حين نوفر لهم الخبز ، وهذا قلب للحقائق ، لأن توفير الخبز والعمل والتعليم للناس انما يتيح لهم التحرر من تفكير البطون ، ويصرفهم الى مستوى أعلى من النشاط الانسانى ، واذا كان توفير الخبز للناس يسلبهم الكرامة ، فهل من الكرامة أن يكون هناك جياع ومتخمون ؟ واذا قال العقاد ان الناس يفضلون الجوع عن سلب الحرية ، فاننا نحب أن نتساءل وهل هناك حرية مع الحرمان ؟ .

ب — يرى العقاد أنه اذا تعفف الناس عن الشرور فى المجتمع الاشتراكى ، فان هذه العفة اضطرارية وهى أشبه بفضيلة المسجون ، لأنه اذا امتنع الناس عن السرقة مثلا فذلك لأنهم « لا ينتفعون بالمال اذا سرقوه ... وتلك فضيلة المضطر الى العفاف ، وليست هى بخير من محنة الاخلاق التى تمحصها التجارب ، ويتعفف عنها الناس وهم قادرون » ثم يقول ولذلك يحسب الماركسيون ان الشر قد زال لأنه محبوس وراء الأقفاص والسدود » « واذا صرفنا النظر عن

تصوره السقيم ، لشروط الفعل الاخلاقى الخير ، فاننا نلاحظ انه ما دام قد ثبت لدينا ان البنية الاجتماعية هى التى تصدر عنها الاخلاق فليس هناك محل للقول بأن ثمة اقفاصا تحبس فيها الفضائل ، واخرى تحبس فيها الرذائل ، فاذا قلت الشرور وانخفضت فى المجتمع الاشتراكى ، فما ذلك الا لأن العلاقات الأجتماعية الناتجة عن تنظيم الفوضى الاقتصادية ، لا تسمح بوجود الشرور الرئيسية الكبرى المشاهدة فى النظام الرأسمالى ، والتى تتمثل فى الفقر والبطالة والجهل والجفاء والنفاق ، الذى يمثلها بعض الكتاب ورجال العلم ، الذين يؤجرون أقلامهم وعلمهم ضد الشعب وفى صالح مستغليه » .

وأخيرا يرد أبو سيف يوسف على العقاد فى اتهامه للماركسية بأنها ضد الملكية الخاصة وضد الوطنية أو القومية .

يقول أبو سيف يوسف : « ان القارىء يستنتج من كلام العقاد أن الماركسية تنكر حق الملكية الخاصة ، وأنها ترمى الى محق كل شكل من أشكالها ، والواقع أن هذا غير صحيح بالمرة ، فقد كان انجلز يعترف منذ البدء بأن الملكية الخاصة هى الدافع الى الابتكار والاجادة ، ولكنه فى الوقت نفسه ينكر أن يكون هذا الحق الطبيعى فى التملك وسيلة لأن يستغل انسان انسانا آخر ، وقد لاحظ انجلز أيضا أن تسعة أعشار أعضاء المجتمع الذى يعيش فيه محرومون من الملكية الخاصة وبالتالى كان العشر الباقى يمارس هذا الحق ممارسة سيئة ، تحول بين التسعة أعشار وبين الارتفاع الى مستوى لائق ببشريتهم . وقد طبق هذا المبدأ الماركسى بكيفية تتفق مع ظروف المجتمع الداخلية والخارجية هناك « أى فى روسيا » ، وبحسب شكل هذا المجتمع وتكوينه ، وطبقا للأوضاع التى قضت بها الثورة الاشتراكية فى تطورها ، فنرى أن ثمة نوعين من التملك فى المجتمع السوفييتى :

١ — الملكية الاشتراكية وهذه تتناول وسائل وادوات الانتاج ، أى أن هذه الوسائل والادوات بعبارة أخرى ملك للدولة ، أى لكل فرد من أفراد المجتمع .

٢ — الملكية الخاصة وهذه تشمل أدوات ووسائل الاستهلاك ، وحق المواطنين فى ملكية هذه الادوات يكفله لهم القانون : فالدخل الشخصى ، والاقتصاد الخاص ، وادوات الاستعمال الشخصى ، كل هذه من حق مالكيها ، كما أن توريث هذه الملكيات الخاصة من الحقوق التى يكفلها القانون للمواطنين .

وفى الاتحاد السوفييتى يتقاضى العامل أجره بحسب عظم المسؤولية الملقاة عليه ، وتبعا لكيف وكم العمل الذى يؤديه ، ومن ثم هناك تصاعد فى الاجور . ولذلك يستطيع العمال المهرة ، وكبار الموظفين ، والفنانين ، أن يقتصدوا من دخولهم وأن ينفقوا المبالغ المقتصدة فى شراء ما يريدون من الكماليات : كالسيارات والراديو والحلى ... الخ ولكن مهما ارتفع رصيد الفرد وتضخم ، فانه لا يستطيع أن يجنى من ثروته ربحا عن طريق استغلال جهود مواطنين مثله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان ثمة مبدأ يطبق بكل دقة وهو أن كل من لا يعمل لا يأكل » .

أما بالنسبة للماركسية وموقفها من القومية أو الوطنية فان « أبو سيف يوسف يرد على العقاد بقوله :

« كتب ماركس يقول : ان الشيوعيين يتميزون عن أجزاء الطبقة العاملة الاخرى ، بأنهم فى النزاع الوطنى لعمال البلدان المختلفة ، يشيرون الى مصالح البروليتاريا المشتركة ويقدمونها ، وذلك بمعزل عن كل قومية ـ ثم يقول « ماركس » فى موضع آخر : ليس للطبقة العاملة وطن ، اننا لا نستطيع أن نأخذ منهم ما لم يحصلوا عليه » .

« هذه الأفكار التى نراها فى كتب ماركس ، لا ينبغى أن تؤخذ على حرفيتها ، ومن المغالطة كل المغالطة أن نجردها عن ملابساتها التاريخية التى قيلت فيها ، فقد كتب ماركس هذا فى الوقت الذى كانت فيه الطبقات الحاكمة تنزع الى تحقيق مطامعها الاستعمارية تحت ستار براق من الوطنية الخادعة ، وهذا ما اظهرته لنا بجلاء حرب سنة ١٩١٤ وهى الحرب التى اكتوت بنارها الطبقات العاملة وكانت وقودا لها ، فكانت الدعوة التى وجهت الى العمال بعدم الاشتراك فيها دعوة سليمة الأساس ، ولكن عندما تعلن أمة من الأمم الحرب لقضية عادلة ، قضية ترتبط أوثق ارتباط بتقدم البشرية كما حدث فى الحرب الأخيرة ضد الفاشية ، التى تمثل أبشع أنواع الاستعمار ، فانه يتحتم على الطبقات العاملة ان تشترك فى النضال وأن تكون فى طليعته » .

« صحيح أن ماركس وانجلز قد حملا على وطنية البرجوازيين المبتذلة ، ولكنهما كانا أبعد من ان يعاديا الوطنية أو يحقرا من شأنها . ومبدأ اللاوطنية

مبدأ لا تسلم به الماركسية . وقد أشار ماركس وانجلز الى ان الطبقة العاملة عندما تكون فى الحكم ، فانها تكون بنفسها الأمة باعتبارها الطبقة القائدة ، ومن ثم تكون وطنية ، وان كانت وطنيتها مجردة عن الطابع العدوانى ، الذى تتميز به وطنية البورجوازية المستغلة . وهذا ما أظهرته الحرب الأخيرة ، فقد كان الماركسيون قادة الكفاح ضد النازية والفاشية ، فى فرنسا واليونان ويوغسلافيا ، وقد حققوا انتصارات باهرة ، فى الوقت الذى كان فيه راسماليو جميع البلاد المحتلة ، يتعاونون علنا مع المستعمر النازى ، ولا ينبغى فى هذا المقام أن يغيب عنا مثال بيتان نصير النازيين ، وممثل الوطنية المتطرفة قبل الحرب » .

« الماركسية اذن لم تنكر ولا تنكر الوطنية والشعور الوطنى ، ولذلك يخطىء العقاد حين يدعى ان « الروس قضوا عشرين سنة يناهضون مبادىء الوطنية ، ثم عادوا فاعترفوا بالعصبية القومية » فالواقع أن الاتحاد السوفييتى قد عمل منذ نشأته على حل مشاكل القوميات المتعددة ، التى كانت تشيع فى أرجاء روسيا القيصرية، فقد كانت هذه القوميات تلاقى اضطهادا وظلما، ولم يكن يعترف بلغتها الاصلية ، بل ان بعض القبائل لم تكن لها لغات مكتوبة ، ولكن الثورة الاشتراكية تعهدت هذه الاقليات القومية ، وأجازت لها استخدام لغتها الأصلية كلغة رسمية ، تستعمل فى محاكمها ومدارسها ومعاهدها ، والمعاملات الحكومية ، فاستطاعت كل أقلية أن تقيم المسارح وتنشر الكتب والجرائد بلغتها القومية » .

هذه هى خلاصة آراء العقاد فى الماركسية وخلاصته رد الماركسيين عليها . ورد « ابو سيف يوسف » بالذات على العقاد يتسم بالعمق والشمول ، والروح العلمية والموضوعية الدقيقة ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن هناك جوانب أساسية فى نقد العقاد للماركسية لم تجد ردا مقنعا ، فاذا كانت الماركسية ـ فى النظرية والتطبيق ـ قد اهتمت اهتماما واسعا بمفهوم الحرية الاجتماعية ، وبالمؤثرات الاقتصادية التى تحدد مفهوم الحرية وتؤثر فيها هذا التأثير البالغ ... اذا كانت الماركسية قد أهتمت بهذا المعنى الخاص الصحيح والعميق للحرية ، وقدمت اضافات ملموسة وبارزة فى هذا المجال الى الفكر الانسانى، الا أن الماركسية لم تقدم حلا ـ لا فى النظرية ولا فى التطبيق لمشكلة حرية التعبير ، فالمجتمع القائم

على اساس الفكر الماركسى ، لا يبيح لغير الماركسيين أن يعبروا عن أرائهم ، أو وجهات نظرهم المختلفة ، وهذا الجانب بالذات هو مصدر اعتراض على الماركسية ومصدر نقد لها ، صحيح ان بعض المجتمعات الرأسمالية تحارب الفكر الماركسى بقسوة وعنف ، ولكن الخطأ لا يبرر الخطأ كما اننا نلاحظ من ناحية اخرى حرية الفكر الماركسى فى التعبير، داخل بعض مجتمعات أوروبا الغربية، التى تأخذ سياسيا بالنظام الديموقراطى الليبرالى ، مثل فرنسا وايطاليا وانجلترا .

ومن ناحية ثانية فان المسألة القومية ـ التى أشار اليها العقاد تبدو غامضة فى الفكر الماركسى الى أبعد الحدود ، فهناك نصوص تقرر أن الماركسية لا تعترف بالقوميات ، وترى ان الرابط الاساسى بين البشر هو « الأممية » فى ظل مبدأ وحدة الطبقة العاملة ، ونجد نصوصا أخرى لدى بعض المفكرين الماركسيين يؤيدون فيها القوميات الضعيفة ويناصرونها ، وقد أورد « أبو سيف يوسف » فى رده على العقاد نصا لماركس ضد الوطنية هو قوله « ليس للطبقة العاملة وطن ، اننا لا نستطيع أن نأخذ منهم ما لم يحصلوا عليه » ونجد نصا ماركسيا آخر يورده «أبو سيف يوسف» فى رده على العقاد، وهذا النص هو كلمة قالها لينين فى سنة ١٩١٧ يناصر فيها القوميات ... يقول لينين فى هذه الكلمة :

« يا مسلمى روسيا ، وتارتار الفولجا والقرم ، يا قرغيز وسارتيس سيبيريا والتركستان ، يا أتراك وتارتار عبر القوقاز ، ان معتقداتكم ومؤسساتكم ، وثقافتكم القومية ، ستكون منذ الآن حرة لا يعتدى عليها » ... واذا كانت كلمة لينن فى روحها لا فى نصها المباشر ـ مؤيده للقوميات، حيث لم يتحدث صراحة عن القوميات ، وانما تحدث عن المعتقدات والمؤسسات والثقافة القومية !!... اذا كانت صيحة لينين تؤيد القوميات ، فان كلمة ماركس تسجل رفضا صريحا للقوميات ، وهذا ما نلاحظه عموما فى الفكر الماركسى ....

ان موقف الماركسية من قضية « القومية » يشوبه الغموض والتناقض أحيانا ، ولقد فرضت القضية القومية نفسها فى تجارب تاريخية واقعية هامة ، من بينها التجربة التاريخية للأمة العربية ، حيث تتجه هذه الأمة الى الوحدة فى ظل مبدأ القومية العربية ، ولقد كان الوطن العربى وما زال يخوض فى سبيل الوحدة نضالا أصيلا فى سبيل التقدم ، ولا يمكن وصفه بأنه نزعة عنصرية ، كما

لا يمكن التقليل من شأنه كنضال قومى تاريخى ضد الاستعمار والتخلف . كذلك ظهرت أيضا القضية القومية فى ميدان الصراع بين روسيا والصين ، رغم أنهما معا يؤمنان بنظرية واحدة هى الماركسية ، وكانت مشاكل الحدود بين روسيا والصين ـ ومازالت ـ مظهرا من مظاهر الصراع بين القوميات .

فالقضية القومية اذن ومكانتها الحقيقية فى الفكر الماركسى ما تزال قضية غامضة ... وهى مصدر آخر من مصادر النقد الموجه الى الماركسية ، وهى نقطة أثارها العقاد بأسلوبه التشهيرى غير العلمى ، ولكنها مع ذلك نقطة صحيحة ، ولم يكن رد « أبو سيف يوسف » على العقاد ردا وافيا أو مقنعا فى هذا المجال بالذات ، رغم انه كان قويا ومقنعا فى القضايا الأخرى التى ناقشها وأشار اليها . بقى ما أشار اليه العقاد من استخدام العنف فى الثورات التى فجرتها الماركسية ، وهى نقطة صحيحة .

فالعنف الذى ارتبط بميلاد الثورات الشيوعية، وارتبط أيضا بتكوين المجتمعات الشيوعية ، سيظل مصدرا للنقد حتى لدى الذين يحترمون النظرية الماركسية، ويعترفون لها بالعمق والقيمة. صحيح أن عددا من الثورات الكبرى فى التاريخ ، قد أتسمت بالعنف ، حتى قبل ظهور الفكر الماركسى ، مثل الثورة الفرنسية ، ولكن الثورة الفرنسية أيضا تعرضت للنقد بسبب هذا الاتجاه الى العنف رغم ما للثورة الفرنسية من فضل على التاريخ الانسانى ، وستظل نقطة استخدام العنف فى المجتمعات الشيوعية ، بوحى من نظرية « الصراع الطبقى » فى الماركسية ، مصدرا من مصادر النقد للماركسية .... وهذا النقد ليس موجها من أعداء الماركسية مثل العقاد فقط ، ولكنه ـ كما أشرت ـ نقد موجه أيضا من الذين يحترمون الماركسية ويعترفون بقيمتها وأهميتها .

هذه بعض القضايا الرئيسية التى تمثل مصادر لنقد الماركسية ، والتى ما تزال حتى الآن فى حاجة الى رد مقنع عليها من جانب الفكر الماركسى .. فالماركسية ـ رغم اضافاتها الهامة والعميقة الى الفكر الانسانى ـ لم تقدم ردا مقنعا على بعض القضايا وفى مقدمتها : حرية التعبير فى المجتمع الشيوعى ، وموقف الماركسية من القضية القومية ، واستخدام العنف فى بناء المجتمعات الشيوعية الجديدة .

على ان العقاد من ناحية أخرى رغم انه قد مس هذه القضايا التى تمثل مصدرا من مصادر نقد الماركسية ، الا انه وقع فى اخطاء واضحة وأساسية أشار الى كثير منها ابو سيف يوسف وسجلها عليه .

ومن هذه الأخطاء التى يمكن أن يأخذها أى باحث محايد على العقاد فى نقده للماركسية ، أن العقاد كما هو واضح لم يهضم الفكر الماركسى ولم يدرسه بدرجة تسمح له بنقده على هذه الصورة الشاملة العنيفة ، فاستخدام العقاد كلمة « المادية » يكشف تماما ان العقاد يفهم المادية بمفهوم شديد القصور ، وهو مفهوم عامى وليس مفهوما علميا ، كما أن العقاد يكشف من ناحية اخرى عن عدم المام بأبسط المعلومات عن الاقتصاد وعن دروه فى تكوين المجتمعات الانسانية ، ومثل هذه الدرجة من الجهل بالاقتصاد ، لا تتيح لصاحبها فرصة سليمة لمناقشة نظرية مثل الماركسية ، تقيم وزنا كبيرا للفكر الاقتصادى ، كما أن ربط العقاد - وقد أشرنا الى ذلك من قبل فى بداية هذا الفصل - بين النازية والماركسية مرة وبين الرأسمالية والماركسية مرة أخرى ، يدل على أنه تعرف على الماركسية من بعيد، فأصيب بضعف فى الرؤية الفكرية، ولم يتمكن من التمييز بين الماركسية ونقائضها ، حيث أن النازية والرأسمالية يقفان تماما فى الموقف المناقض للماركسية ، من الجانب النظرى والجانب التطبيقى على السواء ، كذلك كان أسلوب العقاد التشهيرى فى نقد الماركسية هو أحد العناصر التى أضعفت موقفه ، لأن اللجوء للسب والشتم والحط من آدمية المفكرين الماركسيين على غير أساس ليس أسلوبا علميا ، انما هو اسلوب حزبى مكروه ، وهو فى بعض الأحيان أسلوب تستخدمه القوى السياسية المختلفة ، كوسيلة من وسائل الدعاية أو الحرب النفسية ... أحيانا يستخدمه الراسماليون ضد الشيوعيين ، وأحيانا يستخدمه الشيوعيون ضد اعدائهم ... وهو فى الحالين نوع من الحرب السياسية ، وليس نوعا من الفكر العلمى الموضوعى .

وقد وقع العقاد فى هذا الخطأ ، ووصل فيه الى أبعد مداه ، عندما استخدمته السفارة الأمريكية فى تقديم بعض الكتب المعادية للشيوعيين ... ولا شك عندى أن العقاد لم يكن عميلا لأحد، ولكنه - فى رأيى - وقع فى هذا الخطأ من فرط حماسته وكراهيته العاطفية للشيوعيين ، وهى الكراهية التى لم تمكنه من أن

يضبط تفكيره ومواقفه ، على اساس من القواعد العلمية والقواعد الاخلاقية السليمة .

وأخيرا فقد كان خطأ العقاد الرئيسى هو انه لم ينطلق فى اعتراضه على الماركسية من موقف فكرى متكامل ، فلم يكن صاحب نظرية محددة ينقد الماركسية من خلالها ، ولم يقدم بديلا للماركسية ، بل قدم أفكارا متناثرة لا يتكون منها فى مجموعها أى موقف متكامل ... فهو ينادى فى كتابه « فى بيتى » بالتعاون كحل للمشاكل الاجتماعية ، وعندما نحاول أن نتتبع فكرة « التعاون » هذه عند العقاد ، فاننا نجدها فكرة غامضة ، اقرب الى ان تكون فكرة اخلاقية تتصل بتنمية الضمير الفردى ، وتعتمد عليه فى تنظيم المجتمع وتحقيق العدالة .. وفكرة التعاون على هذه الصورة لا تحل مشكلة فردية ولا مشكلة اجتماعية ... ولو أن العقاد تعمق فى الفكر السياسى الغربى المعاصر بصورة ناضجة ، لوجد على سبيل المثال أن المفكرين الانجليز المعاصرين له من أمثال برنارد شو ولاسكى وسيدنى وبياترس وييب قد فهموا الماركسية حق الفهم ، واستفادوا منها أعظم الفائدة، ثم اختلفوا معها فى نقاط معينة ، وشقوا لأنفسهم طريقا خاصا فى الفكر السياسى ، وأصبحوا من أعلام الاشتراكية « غير الماركسية » ... فاستفادوا من الماركسية بقوة وعمق ، دون ان يذوبوا فيها ، أو ينقادوا وراءها فى كل تفاصيلها ، ولكن العقاد عارض الماركسية دون ان يدرسها دراسة عميقة ، ودون أن يقدم بديلا واضحا لها ، ودون أن يتمكن من وضعها فى حجمها الصحيح بالنسبة للفكر الانسانى ، والعداء للماركسية على طريقة العقاد لا يمكن ان يقبله أى مفكر تقدمى نزيه بحال من الاحوال .

وقد تحول موقف العقاد من الماركسية فى نهاية الأمر الى حالة نفسية قريبة من المرض ، وهذه الحالة هى التى « يصورها لنا أحمد بهاء الدين خير تصوير فى كتابه « مبادىء وأشخاص » حيث يقول » ص ١٠٣ ، ١٠٤ »... وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٥٦ أى قبل وفاة العقاد بحوالى ثمانى سنوات :

« ... أصبح الخلاف مع الاستاذ العقاد شيئا رهيبا مخيفا حقا ! .. فقد أعلن فى حديث له مع مجلة « الرسالة الجديدة » أن كل الذين يتصدون له بالنقد أو الخلاف ... شيوعيون ! ... وطالب بأن يعاملهم الناس بوصفهم جواسيس

رسميين ! الأمر الذى لم يصل اليه « مكارثى » نفسه فى حملته على حرية الفكر ، واحراقه للكتب فى أمريكا . ورأى العقاد فى الشيوعية من شأن الشيوعيين وحدهم ، فليس يعنينى أن أتعرض له . ولكن الذى يعنى مثلى هنا ... هو تلك الهستيريا التى استولت على العقاد فأصبح يرى أن كل من يخالفه فى الرأى أو كل من يقذف محرابه بحصاة ، شيوعى ... وأن كل فكرة يرفضها أو يعجز عن الايمان بها شيوعية ! هذه الهستيريا تذكرنى أحيانا بوزير حربية أمريكا السابق ، جيمس فورستال ، الذى فقد عقله ونقل الى مستشفى المجاذيب ، فكان كلما رأى مخلوقا أسرع يختبىء تحت السرير وهو يصيح : الجيش الاحمر !

فالعقاد لا يكاد يتعرض له أحد ، حتى يسرع بالاختباء خلف ستار من السباب ويصيح : الشيوعيون ! » .

هذه هى الصورة التى رسمها أحمد بهاء الدين للعقاد ، فى عدائه للشيوعية والفكر الماركسى عموما ، وخاصة فى السنوات الأخيرة من حياته ، وهى للأسف صورة صحيحة ... وقد أصبح موقف العقاد من الماركسية أشبه بحالة نفسية مرضية ، مجرد موقف فكرى يعارض وينتقد ويرفض .

ولابد أن نشير هنا الى ما اندفع اليه العقاد من اتهامات تشهيرية بالفكر الماركسى ورجاله ، وعلى رأسهم كارل ماركس ، تحت تأثير تلك الحالة النفسية التى أصيب بها ، فخرج بذلك من مجال نقد الماركسية ، الى مجال التجريح العنيف لمفكريها وزعمائها . وقد سبق ان نقلنا عبارة العقاد فى وصف ماركس بأنه « لم يحى حياة انسانية قط » وعلى هذا الاساس فقد اتهم العقاد ماركس بأنه لا يعرف العواطف الانسانية الصحيحة ، وانما هو رجل جامد العاطفة ، جامد الاحساس ، ومن هنا فلا يمكن أن تخرج على يديه نظرية انسانية سليمة ، وحول هذا الجانب الشخصى الذى طالما ردده العقاد كاتهام ضد كارل ماركس ، ردت مجلة « الفجر الجديد » الماركسية التى كانت تصدر بالقاهرة فى الاربعينات ، بترجمة فقرات من كتاب « الماركسية والفرد » من تأليف « أسقف كنتربيرى » الانجليزى المعروف ، والذى كان يطلق عليه اسم « الاسقف الاحمر » .

وتبدأ مجلة « الفجر الجديد » ترجمة هذه الفقرات بمقدمة عن موقف العقاد

من مـاركس تقـول فيهـا : « مجلة الفجـر الجـديـد عـدد ٩ ـ ١٦ سبتمبـر سنة ١٩٤٥ :

« يتهم العقاد الماركسية بالباطل فى كل شىء ، ولقد زعم ان ماركس لم يحى حياة انسان ، وحقا أن ماركس لم يكن يتصف بالصفات الاساسية التى تجعله انسـانا فى نـظر العقاد وأشبـاهه، فهـو لم يكن أنـانيـا، ولا بـوقـا للرأسمـاليـين والمستغلين ، ولا داعيا يفسد كل القيم ليعيش فى لين ويسر ، بينما الملايين من البشر مستعبدون مضطهدون لقد كانت حياة كـارل ماركس وحـدة كاملة من العواطف والآراء ، وكانت حياته الشعورية فياضة زاخرة لأن مادتها المجتمع الانسانى كله ، وكانت اغنية دافقة ، لأن معينها العقل ، وكانت فى أرقى ما تكون الحياة الانسانية لأنها جمعت الى فيض الشعور ، سيطرة الفكر وجهاد الحـر الكامل لتتحرر الانسانية » . وبعد هـذه المقدمـة التى كتبتها الفجـر الجديـد « تعليقا على رأى العقاد فى ماركس » نقلت فقرات من كتاب « أسقف كنتربيرى » وفى هذه الفقرات يقول الاسقف الانجليزى :

« جاءت الماركسية خلافا للآراء الشائعة من روح رقيق عطوف هو روح كارل ماركس » ثم يقول الاسقف الانجليزى :

« كان نشاط ماركس انعكاسا لعاطفة لا تهدأ ، أثارها ما خلفته الرأسمالية وراءهـا من مخاز ، ونفـخ فيهـا رغبـة مـاركس وزميله انجلز فى تخفيف آلام الانسانية ، والعمل على تحسين حالها ، لقد وقفا حياتهمـا على أثمن مـا يقف انسان حياته عليه ... على تحرير الجنس البشرى والسير به الى حياة كلها غناء وضحك » .

ثم يتحدث الاسقف الانجليزى عن علاقة ماركس بزوجته فيقول :

« لقد قيل عن ماركس انه يعبد قديسين ثلاثة : « أباه وأمه وزوجته » ـ فأما حبه لزوجته فقد كان يضطرم فى الكبر بنفس العنف الذى اضطرم به فى سن الشباب ، وتروى ابنته ما حدث بين أبويها حينما دخل الأب على أمها وهى تعانى آلام السرطان ، وكان هو قد شفى منذ وقت قريب من داء ذات الجنب فتقول : لن انسى هذه اللحظة ما حييت ، لقد أرتدا صغيرين مرة أخرى ... عادت هى شابة محبة ، وانقلب هو الفتى المحب يعبدها ، وكأنما كانا يبدآن الحياة معا ، وليس

رجلا شيخا هده المرض ، وعجوزا تموت يودع احدهما الآخر !! » ... ثم يتحدث الاسقف الانجليزى عن الحياة القاسية التى عاشها ماركس فى لندن فيقول :

« جاء فى خطاب أرسلته جين ماركس ـ زوجته ـ الى صديقتها مسـز « ويد يمير » وصف ليوم فى حياتها قالت فيه : كان استخدام مربية تقوم على أطفالى شيئا خارجا عن الطوق ، وعلى هذا قررت أن أتولى الطفل بنفسى ... ولكن الملاك الصغير المسكين كان يرضع الهم منى مع اللبن . فمرض أول يوم فى حياته ولزم الفراش ليله ونهاره .... ولم نكن نستطيع أن ندفع الايجار مرة واحدة ، فدخل علينا رجلان من رجال البوليس جمعا أشيائى كلها : من سرر وفرش وملابس ، ولم يتركا حتى مهد طفلى المسكين ودميات الفتـاتين الصغيـرتين اللتـين وقفتا وتبكيان بكاءا مرا . وهددنا الرجلان بأن يأخذا كل شىء لدينا فى ساعتين ... أما أنا فكنت أرقد على الأرض العالية ، وحولى أطفال تجمدوا من البرد ، وقد ورم منى الثديان » .

« ثم يتحدث الاسقف الانجليزى عن علاقة ماركس بالأطفال فيقول :

« ....ثم انتقل ماركس الى غرفتين صغيرتين فى شارع دين ، وكانت العائلة بأكملها تنام فى احدهما ، وكانت الثانية تستعمل مطبخا وغرفة للجلوس ومكتبا فى وقت واحد ... وفيها كتب مـاركس معظم « رأس المـال » والأطفال من حـوله يلعبون . ومن حسن الحظ أن ماركس كان يحب الاطفال ويحدثنا « ليبكينيخث » وغيره عن حبه العميق لأطفاله وأطفال غيره ، مما هـون عليه أمـر الغرفتـين المزدحمتين ... وكان أطفال تلك الجيرة الفقيرة من شارع دين يسمونه « بابا ماركس » ، ولطالما كان يتنزه معهم فى البقعة المسماة « هامبستيد هيث » وكثيرا ما قال لأصدقائه : ان اكثر ما يؤثر فيه من أمر المسيح حبه العظيم وحدبه على الصغار » .

بهذه الفقرات التى نقلتها مجلة (الفجر الجديد) الماركسية عن « أسقف كنتر بيرى » ردت المجلة على اتهام العقاد لماركس بالنقص والقصور فى عواطفه ومشاعره الانسانية . ولا شك أن العقاد تجـاوز فى نقده للمـاركسية الميـدان الموضوعى الى التشهير والتجريح لمفكريهـا وزعمائهـا دون أن يستند فى هـذا التشهير والتجريح على معلومات دقيقة .... وكان باستطاعة العقاد أن يقتصر فى

نقده للماركسية على نقد أفكارها المختلفة ، ويحصر معركته مع الماركسية ـ كما يفرض الموقف العلمى ـ فى ميدان النقد الموضوعى وحده ... ولكنه تجاوز هذه الحدود ، حتى أصبحت كراهيته للماركسية كما أشار أحمد بهاء الدين بحق نوعا من المرض النفسى ، ولم يقتصر الأمر على مجرد النقد العلمى الموضوعى للماركسية ... وهو الموقف الذى يحق للعقاد ولغيره من الكتاب أن يأخذوه من الماركسية ومن غيرها من الافكار والمذاهب ، خاصة وأن الماركسية بالذات قد تعرضت لموجة من النقد حتى بين صفوف أنصارها ومؤيديها فى الغرب .

بقيت نقطة أخيرة حول علاقة العقاد بالماركسية ، تلك النقطة هى أن العقاد لم يهاجم الماركسية من موقع فكرى فحسب ، وانما هاجمها من موقع آخر كمفكر دينى يرى فى الماركسية رفضا للأديان وانكارا لها ، وهاجمها من ناحية اخرى ككاتب « حزبى » ارتبط فى حياته السياسية بمجموعة من الاحزاب المعارضة للحركة الشيوعية معارضة كاملة .

وموقف العقاد كمفكر دينى لا يحتاج الى ايضاح ، فمن الطبيعى أن يرفض مفكر دينى مثله فكرا « لا دينيا » مثل الفكر الماركسى . أما الذى يحتاج الى ايضاح فهو موقف العقاد ككاتب حزبى .

لقد مر العقاد كما سبقت الاشارة ـ بمرحلتين فى حياته السياسية ، المرحلة الأولى هى مرحلة ارتباطه بالوفد المصرى من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٥ ، والمرحلة الثانية هى مرحلة ارتباطه بأحزاب الاقلية الرجعية من سنة ١٩٣٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ . وفى الجزء الثانى من حياة العقاد الحزبيـة ، حيث ارتبط بأحزاب الاقلية الرجعية يبدو من الطبيعى أن يكون العقاد معارضا للفكر الماركسى ، فقد كانت أحزاب الاقلية تعتمد على الاقطاعيين والرأسماليين ، وهم بحكم مصالحهم معارضون للفكر الاشتراكى بشتى مدارسه واتجاهاته .

أما بالنسبة للجزء الأول من حياة العقاد الحزبية ، وهو الجزء الذى ارتبط فيه بالوفد فهو الجزء الذى يحتاج الى وقفة قصيرة .

لقد اصطدم الوفد سنة ١٩٢٤ تحت قيادة سعد زغلول ، وفى ظل رئـاسته للوزارة ، بالشيوعيين اصطداما عنيفا ، وكانت الحركة الشيوعية الناشئة أنذاك تأمل أن تجد لنفسها مكانا فى الحياة السياسية بعد اعلان دستور ١٩٢٣ وقيام

الحكم الديمقراطى البرلمانى فى مصر ، وحاولت الحركة الشيوعية أن تستغل الظروف السياسية التى نشأت بعد ثورة ١٩١٩ للظهور بقوة فى الحياة السياسية المصرية . وقد قام العمال تحت تأثير الشيوعيين وتحريضهم وقيادتهم بحركة استيلاء على بعض المصانع فى أوائل ١٩٢٤ ، ويحدثنا الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه عن « تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ » عن رد فعل سعد زغلول وحكومته ازاء موقف الشيوعيين فيقول فى صفحة ٥٤٣ :

« اعتبرت حكومة سعد باشا انفجار هذه الحركة بمثابة أشارة البدء فى تنفيذ الفكرة الشيوعية بالاستيلاء على المصانع . فقد اعتبرت احتلال المصانع عملية اغتصاب ، ويفهم هذا من نداء سعد باشا الذى وجهه الى العمال حيث قال : « انكم ان احترمتم ملكية الغير وخرجتم من مكان الشركة طوعا ، فانكم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن ، وان أبيتم الا احتلال ملك الغير اغتصابا فانكم تعاملون معاملة الخارجين على القانون » .

ثم يقول الدكتور عبد العظيم رمضان بعد ذلك .

« هبت وزارة سعد باشا لمقاومة الحركة بكل قواها ، واتخذت الاستعدادات اللازمة لقمعها بالقوة المسلحة اذا اقتضت الحال ، وفى ذلك أوفدت الى الاسكندرية على جمال الدين باشا وكيل وزارة الداخلية ، ووضعت تحت تصرفه قوة من الجند أرسلت خصيصا من القاهرة ، كما أوفدت المستر « كين بويد » رئيس القسم الأوروبى فى ادارة الأمن العام للمساعدة وتركزت جهودها فى ضرب الحزب الشيوعى ، واتحاد النقابات التابع له . فقد بدأت بمنع المؤتمر الشيوعى من الانعقاد فى المدينة ، وأناطت بالبوليس هذه المهمة ، ثم اشارت على النيابة العمومية الأهلية بتفتيش نادى الحزب فى الاسكندرية ، ومنازل أعضائه والمنتسبين اليه فى سائر بلدان القطر . وبناء على هذا تم كبس منازل أعضاء اللجنة المركزية ، ونادى الحزب واتحاد النقابات . وكان البحث يدور على ما يثبت اشتراك الحزب فى حركة العمال أو تحريضه عليها . وفى ٥ مارس أصدر النائب العمومى أمرا باعتقال كل من حسنى العرابى ، وأنطون مارون ، والشيخ صفوان ابى الفتح ، والشحات ابراهيم ، من زعماء الحزب الشيوعى المصرى . ثم أصدر سعد زغلول نداءه السالف الذكر الى العمال الذى هددهم فيه

بمعاملتهم معاملة الخارجين على القانون والمغتصبين ، وقد فهم العمال هذا التحذير فخرج عمال معمل الخواجات أبى شنب من المعمل فى هدوء ، وانتدبوا بعض رؤسائهم للمطالبة بحقوقهم ، أما عمال الغزل وعمال شركة الزيت ، فقد خرجوا من المصنع بناء على تدخل على جمال الدين باشا » .

وانتهى الصدام بين حكومة سعد زغلول وبين الشيوعيين باعتقال زعماء الحزب الشيوعى ، والحكم عليهم بالسجن ، وكان اشهرهم حسنى العرابى وقد حكم عليه بثلاث سنوات .

وهكذا نجد ان الوفد قد اصطدم منذ بدايته بالحركة الشيوعية اصطداما عنيفا ، وكانت أول قضية شيوعية فى مصر يحاكم فيها الشيوعيون ، هى القضية التى أقامتها حكومة الوفد الأولى سنة ١٩٢٤ ، ضد الحزب الشيوعى وزعمائه .

وكان من الطبيعى ان يصطدم الوفد بالشيوعيين فالوفد حزب وطنى « بورجوازى » ديمقراطى ، يعتمد بالدرجة الأولى على الطبقة الوسطى ، التى كانت قد بدأت تقوى وتشتد ، فى الربع الأول من هذا القرن ، والتى كانت تحمل الكثير من الملامح الثورية الوطنية فى مواجهة الاحتلال والاقطاعيين . ولكن حزب الوفد لم يستطع ان يمتد بجذوره الى العمال والفلاحين على نطاق واسع ، فالظروف لم تكن تمكن الحزب من هذا الامتداد ، كما ان المعركة الوطنية الاساسية كانت قائمة ضد الاستعمار وأعوانه من الرجعيين المحليين ، ولم يكن بالامكان ان تكون طبقة العمال الناشئه الضعيفة هى قائدة ثورة ١٩١٩ ، وكان لابد أن تكون القيادة للطبقة الوسطى التى وجدت زعيمها فى شخص سعد زغلول ، فالطبقة الوسطى هى التى نالت قدرا من التعليم ووصلت الى مستوى من الوعى ، مكنها من أن تحتل مكان القيادة فى الثورة الوطنية التى قامت أساسا لمحاربة الاحتلال الانجليزى .

فى هذه البيئة الوفدية المعادية للشيوعيين ، تفتح وعى العقاد السياسى ، وعن هذه البيئة أخذ بذور معارضته للشيوعيين ، وقد ظلت معارضة العقاد للحركة الشيوعية هادئة وغير حادة عندما كان فى صفوف الوفد ، ذلك لأن المعركة بين الوفد والشيوعيين ، باستثناء الاصطدام الأول العنيف فى عهد سعد زغلول ، كانت معركة هادئة ، بل لقد كان الشيوعيون والوفديون يتحالفون أحيانا فى بعض

المواقف ، كما ظهر فى حزب الوفد نفسه جناح يسارى متطرف ، كان يمثله ما سمى فى الاربعينات باسم « الطليعة الوفدية » ... فلقد كان الوفد بحكم تكوينه التاريخى حزبا شعبيا ، لا يستطيع ان يدخل فى صدام نهائى مع الحركات اليسارية التى تحاول ان تعبر عن مصالح الطبقات الشعبية المختلفة .

على أن عداء العقاد للشيوعيين قد اشتد واحتد وازداد عنفا ، بعد انضمامه لاحزاب الاقليات الرجعية ، وكل كتابات العقاد العنيفة ضد الماركسية وضد الشيوعيين ، ظهرت بعد انضمامه للسعديين سنة ١٩٣٧ ، فالسعديون وغيرهم من الاحزاب الرجعية كانوا يعتمدون على مصالح طبقية ، هى مصالح الاقطاعيين والرأسماليين ، وهذه المصالح متناقضة أشد التناقض مع فكر الشيوعيين وسائر الأفكار اليسارية والتقدمية ... ومن قلب هذا المعسكر الرجعى شن العقاد هجومه على الماركسية .

العقاد والنازية

فى كتاب « عصر ورجال » يقول الاستاذ فتحى رضوان فى الفصل الذى كتبه عن العقاد :

« لقد بزغ نجم هتلر سنة ١٩٣٣ ، وشاعت الدعوة النازية فى كثير من بلاد العالم ، حتى وصلت الى بريطانيا معقل الديمقراطية ، عدوة الأنظمة الكلية والدكتاتورية ، وقد كانت مهاجمة هذا المذهب وهو فى البداية أولى ، لأن الناس فى حاجة الى من يبصرهم بخطر المذهب الضار أول سماعهم به ، لكى لا يقعوا فريسة له ، ولكن العقاد لم يقل فى حق هتلر شيئا ، أو شيئا ذا قيمة ، حتى اذا قامت الحرب ، وانعقدت الخصومة بين المانيا بلد هتلر وبريطانيا ، سارع العقاد بتأليف كتابه « هتلر فى الميزان » وراح يعدد عيوبه ، وعيوب مذهبه فأقام على نفسه الحجة ، بأن الكتاب كان خدمة لجهاز الدعاية البريطانية ، فبعد اندلاع الحرب بين المانيا وبريطانيا ، لم يعد كتاب العقاد مطلوبا ، الا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها ، بعد أن بات الأمر للمدفع والطيارة ، ولقد عزز العقاد كتابه بأحاديث فى الاذاعة التى كان يشرف عليها بدورها الانجليز ، خلال فترة الحرب وما بعدها ، وقد فهم بعض شباب العرب موقف العقاد هذا الفهم ، فلما زار فلسطين فى سنى الحرب حاولوا اغتياله باطلاق الرصاص عليه ، ولما خيل اليه أن الالمان سيقتحمون مصر بعد أن وصل جيشهم الى العلمين ، هاجر الى السودان » « ص ٢٣٩ و ٢٤٠ من كتاب « عصر ورجال » .

هذه الكلمات التى كتبها الاستاذ فتحى رضوان عن موقف العقاد من النازية ،

هى الفكرة الشائعة عن العقاد ، والتى رددها الكثيرون ، وخاصة من نقاد العقاد وأعدائه ، حيث يعتبر هؤلاء ان العقاد كان معارضا للنازية لحساب الانجليز ، وأن كتابه عن هتلر كان جزءا من الدعاية الانجليزية ضد المانيا والنازية .

فهل كان هذا الاتهام حقيقيا ام ان العقاد قد وقف ضد النازية عن عقيدة واقتناع ؟ . ان الدليل الاساسى ضد العقاد هو انه لم يهاجم « هتلر والنازية » الا بعد قيام الحرب . ولكن هذا الدليل نفسه غير صحيح من الناحية التاريخية . فالعقاد كان من أسبق الكتاب فى الشرق كله الى مهاجمة النازية ، حتى قبل ان تظهر فى ألمانيا ، فالجذور الأولى للنازية هى الفاشية الايطالية ، وقد ظهرت الفاشية وظهر زعيمها موسولينى فى العشرينات ، وكان ظهور الفاشية تمهيدا لظهور النازية بعد ذلك . والفاشية والنازية هما وجهان لعملة واحدة ، ومظهران مختلفان لاتجاه سياسى واحد ، وقد تحالفا فى الحرب العالمية الثانية حتى النهاية .

وفى سنة ١٩٢٨ نجد ان العقاد يصدر كتابا هو « الحكم المطلق فى القرن العشرين » وفى هذا الكتاب الذى الفه العقاد وهو كاتب الوفد الأول آنذاك ، وبعد وفاة سعد زغلول بعام واحد ، وأهداه الى « مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول وعنوان ثقة الأمة المصرية » ... فى هذا الكتاب يهاجم العقاد الفاشية هجوما عنيفا ، وكانت الفاشية فى أوج أزدهارها ونجاحها ، بل ان العقاد فى هذا الكتاب يكشف ـ فى وقت مبكر جدا ـ عن العلاقة بين الفاشية فى بدايتها وبين النظم الرأسمالية الغربية . وهى العلاقة التى تكررت بعد ذلك بين النازية والنظم الرأسمالية الغربية فى بداية ظهور النازية .

يقول العقاد فى هذا الكتاب كاشفا عن العلاقة بين الرأسمالية الغربية ، والرأسمالية الانجليزية على وجه الخصوص ، وبين الفاشية « ص ٤٥ وما بعدها من كتاب الحكم المطلق فى القرن العشرين » :

« كتبت عن الفاشزم فى أوربا وأمريكا عشرات من الكتب ، ومئات من الرسائل والمقالات ، اكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التى يقوم بها الفاشيون فى كل مكان ، وكثرة الاغراض التى تدور حول الدفاع عن هذا المذهب ، بين اصحاب اموال يحبون ان تشيع القوانين الصارمة فى معاملة

الصناع ، أو محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية ، أو خصوم سياسيين لخصوم موسوليني ، يساعدونه للنكاية بأبناء وطنه الآخرين . ويجب الحذر على الاخص مما يكتب عن الفاشية فى بلاد الانجليز ، لأن السياسة البريطانية تمالىء موسوليني ، لأسباب منوعة ، يتعلق بعضها بالتفاهم السرى على الشرق وأوربا الشرقية ، ويرجع بعضها الى مايأتي وهو :

« أولا — ان موسوليني داعية الحرب فى صفوف الحلفاء حين وقف الساسة الايطاليون موقف الحياد ، او المحاباة السلمية لدولتى أوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم ، فمن مصلحة السياسة البريطانية ان تؤيده فى ايطاليا ، وتخذل خصومه بكل ما تستطيع .

ثانيا — ان موسوليني انشق عن الاشتراكيين ، وافرط فى محاربة الشيوعية ، وهى عدو لدود للسياسة البريطانية ، يهمها ان تؤلب عليه الانصار .

ثالثا — انه ينافس فرنسا فى البحر الابيض ، فهو قرين موافق للسياسة البريطانية .

رابعا — ان السياسة البريطانية احتاجت بعد الحرب العظمى - الحرب الاولى - الى رد فعل للمبادىء الولسنية ، والأفكار العامة التى أطلقت آمال الشعوب ، ودفعت بها فى وجهة الحرية والديمقراطية ، فهى تجد فى الفاشيين حاجتها لكبح تلك الآمال ، ومحاربة تلك الأفكار .

خامسا — ان فى انجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين - لسان حاله صحيفة المورنينج ستار - يكره الديمقراطية كراهة شديدة ، ويدعو الى سياسة الدم والحديد ، لأنها خير سياسة للأمم المستعبدة منها على وجه الخصوص ، وأشياع هذا الحزب هم الذين اكتتبوا بمبلغ من المال ، اشتروا به سيفا فى قراب ذهبى أهدوه الى القائد « داير » صاحب مذبحة « امرتسار » فى الهند » .

هذا هو ما كتبه العقاد عن الفاشية فى سنة ١٩٢٨ ، فى الوقت الذى كان فيه بعض كتابنا يمجدون الفاشية ، ويرون فيها حركة ثورية ، ويطالبون - وهم مخدوعون - بأن نجعل منها نموذجا لمجتمعنا الجديد . وقد أصدر فتحى رضوان

نفسه في الثلاثينات كتابا عن موسوليني، تمتلىء صفحاته بـالتمجيد له وان لم تخل من النقد والهجوم ، وهكذا فاننا نجد ان العقاد يهاجم الفاشية على طول الخط ، في الوقت الذى كان فيه فتحى رضوان وعدد آخر من كتابنا ، يرون في الفاشية بعض الخير او كل الخير ، بينما كانت الرؤية امام العقاد في هذا المجال واضحة حتى النهاية ، فلم يتردد في مهاجمة الفاشية : حركة وفكرا منذ البداية .

وقد كان من الطبيعى ان يقف العقاد ضد الفاشية ، فقد كان العقاد متشبعا بالفكرة الديموقراطية البرلمانية ، منذ ارتباطه بثورة ١٩١٩ واشتراكه في التعبير عن هذه الثورة . كما ارتبط ايمانه بالديمقراطية مع إيمانه بالحرية الفردية وحرية التعبير ، وكل هذه المبادىء كانت مرفوضة بالنسبة للفاشية ، وبالنسبة للنازية بعد ذلك ، ومن هنا كان رفض العقاد للفاشية ، بل كان فهمه الصحيح العميق لذلك الارتباط بين الفاشية وبين الرأسمالية الغربية التى أرادت بمساندتها للفاشية في البداية أن تمكن الفاشية من ضرب الاشتراكيين والشيوعيين والحركات الثورية المختلفة بين صفوف الطبقات الشعبية ، بل لقد اكتشف العقاد ذلك الرباط الوثيق بين الفاشية وبين المحافظين والرأسماليين الانجليز الذين يريدون من وراء مساندتهم للفاشية ان يستخدموها سلاحا في ضرب حركات التحرر التى بدأت تظهر لدى الشعوب الخاضعة للاستعمار في آسيا وافريقيا .

ومن هنا يبدو من الخطأ قول فتحى رضوان ان العقاد لم يهاجم النازية الا بعد ان دخلت في حرب ضد الانجليز وانه كان يحارب النازية لحساب جهاز الدعاية الانجليزى ، فالذى لا شك فيه ان الافكار السياسية الاساسية عند العقاد تتناقض مع المبادىء الفاشية والنازية على السواء ، وقد يكون من الطبيعى ان تحاول اجهزة الدعاية الانجليزية استخدام ما يكتبه العقاد ضد النازية خلال الحرب العالمية الثانية، خاصة وان النازية والفاشية معا كانتا تدقان باب الوطن العربى ، وتحاولان التسلل اليه ، والسيطرة عليه ، باعتباره منطقة نفوذ لفرنسا وانجلترا ، وباعتباره مصدرا من أغنى مصادر الثروة في العالم ، وكان الألمان منذ أوائل هذا القرن بل منذ اواخر القرن الماضى ، قد ادركوا بجهودهم العلمية الدقيقة ان الوطن العربى غنى بالبترول .

ولا يمكننا ان نتهم العقاد بأنه كان عميلا للانجليز ، لمجرد انه وقف موقفا

عدائيا ضد النازية والفاشية ، وان هذا الموقف كان فى مصلحة الانجليز ، فقد كان العداء للنازية والفاشية هو موقف جميع القوى الديموقراطية والتقدمية فى العالم كله ، وقد التقت هذه القوى الديموقراطية والتقدمية فى مختلف انحاء الارض مع الانجليز والأمريكان فى العداء للنازية ، ولم يكن وقوف القوى الديموقراطية والتقدمية فى العالم مع الانجليز والامريكان فى عدائهم للنازية مصدرا للنقد او الاعتراض من جانب أحد ، ولم يقل احد للروس مثلا : انكم قد حاربتم جنبا الى جنب مع الانجليز والامريكان ، ووقفتم صفا واحدا معهم فى العداء ضد النازية ، وأن هذا الموقف يدل على أنكم عملاء للانجليز والأمريكان . ومن هنا ليس من الانصاف على الاطلاق وصف العقاد بأنه كان عميلا انجليزيا فى حربه للنازية ، بل لقد كان فى هذا الموقف المعادى للنازية أحد المدافعين عن الحرية الانسانية ، وأحد المعارضين بقوة لذلك النوع الجديد من انواع الأستعمار ، والذى كانت النازية تمثله وتدعو اليه ، ولقد بدأ هجوم العقاد على الفاشية كما أشرنا منذ سنة ١٩٢٨ .

أما الهجوم على النازية فقد بدأه العقاد منذ بدايات الحرب الثانية ، وقد أصدر مجموعة من الأحاديث الاذاعية فى كتيب صغير بعنوان « النازية والاديان » سنة ١٩٤٠ ، يكشف فيه عن اتجاه الدعوة النازية الى معارضة الاديان الثلاثة الكبرى ، فالنازية تعتبر نفسها دينا جديدا بديلا للأديان التى سبقتها وظهرت قبلها ، او كما يقول احد المفكرين النازيين وهو « بو شنابل » الذى كان أستاذا فى احدى الجامعات فى عهد هتلر : « ان النازية ضرب من الدين ، لأنها لا تنتظر من أتباعها ان يقتنعوا بها ، بل تطلب منهم أن يعتقدوها » ، او كما قال نازى آخر وهو الدكتور فرانك أحد وزراء العدل النازيين : « ان هتلر متفرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان » ، وكما قال أحد زعماء النازية وهو ألواز سبانيل : « ان هتلر مسيح جديد أعظم وأقدر من عيسى بن مريم » . وفى ذلك ما يعتبر عند كل أصحاب العقائد الدينية كفرا صريحا واضحا .

والنازية عموما تنظر الى الاديان الثلاثة وهى اليهودية والمسيحية والاسلام على انها من مصدر واحد هو العنصر السامى ، والعنصر السامى فى نظر النازية

عنصر متخلف ، فان العنصر السامى هو عنصر هادم للحضارة ، بينما العنصر الآرى الذى ينتسب اليه الألمان هو العنصر الخالق للحضارة ، أو كما يقول هتلر فى كتابه « كفاحى » : « الآرى هو وحده صاحب المرتبة الأولى من بنى الانسان اذا قسمناهم الى ثلاث مراتب : مرتبة الذين يبنون الحضارة ، ومرتبة الذين ينقلونها ، ومرتبة الذين يهدمونها » ... وحسب هذا التقسيم الذى يقدمه هتلر ، يحتل الساميون المرتبة الأخيرة ... أى مرتبة تدمير الحضارة والقضاء عليها ، وكل ما يصدر من الساميين يخضع لهذا المقياس النازى ... والأديان السامية الثلاثة هى مظهر من مظاهر الشخصية السامية ، وما فيها من تخلف وضعف ، وبعد عن روح الحضارة الحقيقية .

ويصدر العقاد سنة ١٩٤٠ أيضا كتابه « هتلر فى الميزان » وفى هذا الكتاب يهاجم العقاد هتلر والنازية هجوما عنيفا ، ويتنبأ لهما بالفشل ، ولقد كان هتلر والنازية سنة ١٩٤٠ فى أوج الانتصار والنجاح الساحق ، ولو كان العقاد مجرد باحث عن الجانب المنتصر لانحاز الى هتلر والنازية ، حيث كان الانجليز والحلفاء عموما فى ذلك العام فى موقف ضعيف لا يبشر بالأمل ، ولكن العقاد اتخذ موقفه ولا شك بناء على اعتقاد حقيقى بالمعارضة والرفض للنازية والايمان بالديمقراطية والدفاع عن مبادئها المختلفة . ولم يتأثر العقاد بالموجة التى امتدت الى الوطن العربى كله ، وكانت هذه الموجة تقوم على تأييد النازية والتعاطف معها آنذاك ، فقد قام فى العراق سنة ١٩٤١ انقلاب يعتمد على تأييد النازية ، وكان هذا الانقلاب تحت زعامة رشيد عالى الكيلانى . وضمت وزارة الانقلاب العراقى وزيرا معروفا باعجابه بهتلر وحماسه له ، وهو « على محمود الشيخ على » كما ضمت وزيرا آخر هو « يونس السبعاوى » كان قد ترجم الى العربية كتاب « كفاحى » لهتلر ، قبل قيام الانقلاب وقبل اشتراكه فى وزارة الكيلانى . وقد انتشر التعاطف مع النازية فى أوساط بعض الشبان السياسيين العرب ، تحت تأثير عداء النازيين للانجليز والفرنسيين الذين كانوا يستعمرون معظم الدول العربية ، وتحت تأثير بعض الوعود النازية بتأييد القضايا العربية ، كما جاء ـ على سبيل المثال ـ فى رسالة بعث بها « ريبنتروب » وزير خارجية هتلر ، الى المؤتمر الذى عقده الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، فى برلين فى ٢ نوفمبر

سنة ١٩٤٣ ، في ذكرى وعد بلفور ، حيث كان المفتى يقيم فى المانيا آنذاك ، ويلتمس منها العون على مساعدة العرب ، فقد جاء فى رسالة ريبنتروب الي هذا المؤتمر :

« ان المانيا حليف للعرب الأن اكثر منها فى أى وقت » وأن « إزالة الوطن القومى لليهود من على وجه الأرض ، وتحرير الأمم العربية من الطغيان والاستغلال الاجنبيين ، من المبادىء الأساسية للسياسة الألمانية »(١) .

ووصلت موجة التعاطف مع النازية لدى البعض فى الوطن العربى ، الى الحد الذى دفع بشاب مصرى هو محمود العيسوى الى قتل احمد ماهر رئيس الوزراء المصرى ، لأنه أعلن الحرب على الألمان فى سنة ١٩٤٥ .

بل لقد وصل الأمر الى ان العقاد نفسه الذى اعلن معارضته العنيفة للنازية قد تعرض للاغتيال فى القدس سنة ١٩٤٢ ، من أحد الشبان العرب المناصرين للنازية .

وقد كانت هذه العوامل والظروف كلها كفيلة بأن تجعل العقاد يتحفظ أو يتردد فى معارضته الواضحة والحادة للنازية ، ولكنه لم يتردد فى موقفه ، بل واصل هجومه العنيف ضد النازية حتى سقطت ، ولا شك أن هذا الموقف كان من المواقف الفكرية الممتازة للعقاد ، كما كان أيضا من مواقفه السياسية التى تستحق التقدير ، وتجعل منه احد الذين ساهموا بقوة فى الوقوف دون تردد أو حذر فى وجه النازية دفاعا عن حرية الانسان وكرامة الشعوب وتأييدا للقوى الديمقراطية والتقدمية فى مصر والعالم كله .

واذا كان هناك من نقد يمكن توجيهه للعقاد فى موقفه من النازية ، فان هذا النقد يتركز فى نقطتين ... النقطة الأولى هى ان العقاد فى هجومه على النازية وهتلر لم يفرق بينهما وبين الشعب الألمانى ، فكأن النازية هى طبيعة مرتبطة بالشعب الألمانى كله ، وكأن هتلر هو الشعب الألمانى كله أيضا . وهذه الفكرة خاطئة تماما ، لأن النازية واجهت معارضة واسعة من الشعب الألمانى منذ البداية ، ولم تتمكن من القضاء على المعارضة بالاقناع ولكنها قضت عليها بالارهاب .

١ ـــ المانيا الهتلرية والمشرق العربى ـ تاليف لوكاهير زويز ـ ترجمة د . احمد عبد الرحيم مصطفى ، ص ٤٠٦ .

يقول العقاد فى كتابه « هتلر فى الميزان » فى فصل عنوانه « خطة المانية » .

« ذكرنا طرفا من الأسباب التى هيأت النجاح لهتلر وجماعة النازيين فى الأمة الألمانية ، فنضيف الان ان هذه الاسباب على كثرتها وقوتها لا تكفى لبلوغ النجاح الذى بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعنى بها خلة راسخة فى الأمة الالمانية ، تفتح آذانها وأذهانها لقبول الدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية . ففى اعتقادنا ان هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح فى تطويع أمته ، لو كانت هذه الأمة غير الألمانية لأن الأمة الألمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الادباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالأمة العظيمة فى كل شيء ، بل لعلها مصابة بقصور شديد ، سلمت منه أمم دونها فى عدد النوابغ الافذاذ ، وهو قصورها فى التربية السياسية وضعف ايمانها بالحرية » .

ثم يبرهن العقاد على وجهة نظره فى طبيعة الشعب الألمانى بالعودة الى الاصول التاريخية لتكوين الألمان : « ففى العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لا تعرف الاستقرار وآداب العمار ، واذا لجأت الى الاستقرار فانما تستقر بالتناوب سنة للقتال ، وسنة للرعى والزراعة . فيقاتل فى هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون فى السنة السابقة ، ثم يذهب الزارعون والرعاة الى القتال ولم يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور ، وقد وصفهم يوليوس قيصر فى حالتهم تلك فقال : « انهم قلما يبالون الزراعة لأنهم يعيشون اكثر ما يعيشون على اللبن والجبن واللحوم ، وليس لرجل منهم أرض يملكها ، ولا حدود تفصل ما بينه وبين غيره ... » وقال · « انهم يحسبون من شرف الدولة ان تقفر الديار من حولها ، دليلا عندهم على الشجاعة التى تقصى جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم » ... « وان اللصوصية لا عيب فيها اذا قورفت بعيدا عن ديارهم ، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ، ومنع الاخلاد الى الكسل والراحة » .

ثم يستشهد العقاد بعد ذلك فى اتهامه للأمة الألمانية بنصوص أخرى فيقول :

« ووصفهم ـ اى الألمان ـ المؤرخ تاسيتوس فقال : « انهم اذا هدأوا واستراحوا ، تطوع كثير من نبلائهم للقتال فى صفوف القبائل التى تشن غارة من الغارات ، وانهم لا يقدرون بغير العدوان والحرب ان يمونوا اتباعهم وحاشيتهم

الكثيرة ، ويعتمد هؤلاء الاتباع على الكرم من رؤسائهم فيما يركبون من خيل أو يشهرون من رماح ، ولا ينالون أجرا غير مأدب الطعام الغليظ وإن لم يكن بالقليل . فالحرب والغنيمة فخر أولئك الرؤساء ، وليس من السهل ان تقنعهم بالحرث وانتظار الغلة كما تقنعهم بالهجوم والمبارزة ، بل من دلائل الوهن عندهم ان تطلب بعرق الجبين ما أنت قادر على أخذه بالدم المراق .. » ووصفهم المؤرخ « فرواسار » فى أواخر القرن الرابع عشر فقال « أنهم شعب يجنح ابدا الى العنف والتهديد والاعتداء ، لا رحمة عندهم اذا غلبوا ، ومعاملاتهم لاسراهم سيئة قاسية » .

ومن الواضح ان العقاد فى كتابه عن هتلر يأخذ بهذه الآراء التى نقلها على لسان بعض المؤرخين أو السياسيين .... وبذلك فان العقاد لا يدين هتلر والنازية وحدهما ، انما يدين الشعب الالمانى نفسه ، ويعتبر ان النازية وهتلر هما بمعنى من المعانى تعبيرا عن الشخصية الالمانية .

ولا شك ان فى هذه النظرة الى الالمان قدرا كبيرا وأساسيا من الخطأ الفكرى ، فلا يمكن ان نحكم على شعب بأكمله بأنه «شعب شرير» وعلى شعب آخر بأنه « شعب محب للخير بطبيعته وقادر عليه » ، ذلك لأن التحليل الفكرى والسياسى السليم يكشف ان فى كل شعب من الشعوب قوى اجتماعية تميل الى الشر والاستغلال ، وقوى أخرى تميل الى الخير والعدالة ، ولا مصلحة لها فى الظلم والسيطرة على الآخرين ، وهذه الحقيقة لا تنفى ان كل شعب من الشعوب له طبائع خاصة تميزه عن غيره من الشعوب ، نتيجة لظروفه وتاريخه ، بل اننا نجد اكثر من ذلك ان رأى العقاد فى الألمان قريب من رأى نيتشه الذى يهاجم الألمان فى بعض كتاباته فيقول « ان الألمان لا يعرفون مدى ما فيهم من رذيلة » ويقول « حيثما سيطرت المانيا فانها ستهدم الثقافة » . وقريب من هذا الرأى رأى آخر للفنان العالمى الألمانى « جيته » حيث يقول « لقد شعرت دائما بالألم المرير عندما أفكر فى الشعب الألمانى الجدير بالاحترام فى أفراده ، والسيىء فى مجموعه ، وتعتبر المقارنة بين الشعب الالمانى والشعوب الأخرى شعورا مؤلما أحاول التغلب عليه بكل وسيلة » .

ومثل هذه الكلمات التى يقولها مفكرون ألمان مثل نيتشه وجيته هى ولا شك نوع من نقد هؤلاء المفكرين لشعوبهم ، ومحاولة هؤلاء المفكرين ان يحثوا شعوبهم على التخلص مما فيهم من عيوب ونقائص .

ولذلك فان مثل هذه الكلمات التى قصد بها أصحابها ايقاظ شعوبهم ، لا تبرر من جانب العقاد اتهام الشعب الألمانى كله بأنه مسئول عن الحركة النازية، وبأن النازية كانت تعبيرا عن هذا الشعب ، فالشعوب ولا شك من الممكن توجيهها والتأثير عليها للاتجاه فى النهاية الى الطريق السليم للحضارة ، ومن الممكن من ناحية اخرى ارهابها والضغط عليها ، ومحاصرتها فكريا حتى تنحرف عن هذا الطريق السليم. واذا حكمنا على الشعوب بمقياس الحكومات الظالمة، والأنظمة الأرهابية التى تعرضت لها ، فاننا سوف ندين كل شعوب الأرض ، لأنه لا يوجد شعب استطاع ان ينجو فى تاريخه كله من حكم ظالم أو نظام ارهابى ، فمثل هذه الحكومات والأنظمة تمر على كل شعوب العالم ، فى بعض الفترات وبعض المراحل ، دون أن يكون ذلك مبررا لاتهام هذه الشعوب بأنها أصلا شعوب محبة للطغيان وراغبة فيه .

ومما يؤكد بطلان اتهام الشعب الألمانى بأنه نازى بطبيعته أو أن تكوينه عموما يحمل استعدادا لخلق حركة مثل النازية ، ومساندتها والاندفاع وراءها ... مما يؤكد ان هذه التهمة ليست صحيحة بالنسبة للشعب الالمانى ولا لغيره من الشعوب ، ان الشعب الالمانى قد قاوم النازية مقاومة عنيفة ، ووقفت الطبقات الألمانية الشعبية بالذات فى وجه النازية ، فقد قام هتلر بالتصفية الدموية للشيوعيين وللديمقراطيين الاشتراكيين وكانوا يمثلون قوى كبيرة فى المجتمع الالمانى ، وقد عارضوا هتلر بعنف ، ولكن هتلر استباح كل القوانين والمبادىء ، واستخدم جميع اساليب الارهاب من قتل وحرق ، ولم يتورع عن أى شىء فى سبيل تصفية أعدائه ، ولا شك انه وصل الى قمة السلطة فى المجتمع الألمانى ضد ارادة نسبة كبيرة جدا من الشعب الألمانى ، ولم يكن يساعده الا الراسماليون وأصحاب المصالح المعادية لمصالح الشعب الألمانى ، ولقد كان هناك ولا شك نسبة كبيرة من أبناء الشعب الألمانى مخدوعة فى هتلر والنازية ، ولكن هذه الخديعة قد تكشفت يوما بعد يوم ، فأصبحت النازية حركة ارهابية لا تعبر عن

كل الشعب الألمانى ، وانما تعبر عن قسم من ابناء هذا الشعب ، لهم مصلحة فى الحرب والسيطرة الألمانية على شعوب أخرى .

هذا الخطأ عند العقاد فى هجومه على الشعب الالمانى كله ، واعتباره شعبا يميل بطبيعته الى العدوان هو خطأ بالنسبة للالمان وبالنسبة لاى شعب آخر ... فليس هناك شعوب بأكملها رديئة أو شريرة وشعوب أخرى - بأكملها - طيبة ، وانما هناك قوى اجتماعية تميل الى الاستغلال ، وقوى أخرى تميل الى العدل ، ولا مصلحة لها فى الحروب والصراعات الدموية العنيفة ، مثل الطبقات الشعبية المختلفة من عمال وفلاحين وجنود .

الخطأ الثانى الذى يمكن أن نأخذه على العقاد فى موقفه من النازية ، ليس متصلا بالنازية نفسها وانما هو خطأ متصل بموقف العقاد من حكومات الاقلية فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ... فالعقاد الذى يرفض الاساليب النازية فى الحكم والتفكير والعمل السياسى كان يقف منذ سنة ١٩٣٧ مع حكومات الاقلية فى مصر مثل حكومات محمد محمود « ١٩٣٨ » واسماعيل صدقى « ١٩٤٦ » وأحمد ماهر « ١٩٤٥ » والنقراشى « ١٩٤٥و ١٩٤٨ » وابراهيم عبد الهادى « ١٩٤٩ » . ولقد كانت هذه الحكومات تفرض على الشعب ألوانا من الضغط والارهاب ، تشبه فى ملامحها العامة موقف النازية من الحريات السياسية فى بلادها ، وفى البلاد الخاضعة لسلطانها ... ولقد كان جديرا بالعقاد الذى يهاجم النازية ويؤيد الديمقراطية والحرية أن يقف ايضا ضد الحكام الارهابيين الذين يعارضون الديمقراطية ، ويقضون على الحريات ، والذين يعتبرون مجموعة من التلاميذ الصغار فى المدرسة النازية .

على ان موقف العقاد من النازية بصورة عامة كان موقفا سليما وكان موقفا شجاعا ، ولم يكن موقفه من النازية مرتبطا بهزيمتها بل لقد سارع الى الهجوم على الفاشية الايطالية كما أشرنا فى اول هذا الفصل - منذ سنة ١٩٢٨ ، وسارع الى معارضة النازية والهجوم عليها منذ سنوات الحرب الاولى ، حيث كانت المانيا النازية تسجل الانتصارات المختلفة على جميع القوى المعارضة لها ... وكانت محاولة اغتيال العقاد فى فندق الملك داود بالقدس ، عندما كان العقاد يزور القدس مع صديقه المازنى سنة ١٩٤٢ ... كانت هذه المحاولة لاغتيال العقاد

ولا شك موجهة اليه من بعض أنصار الحاج أمـين الحسينى الذى كان وثيق الصلة بهتلر والنظام الالمانى .

ومهما كانت أخطاء العقاد الفكرية أو السياسية فى نقده للنازية فان موقف العقاد من النازية ـ فى جملته ـ كان موقفا سليما وشجاعا ... وهو احد مواقفه التى تستحق التقدير ، وينبغى ان نسجلها فى صفحة مواقفه الايجابية الممتازة ، فى دفاعه عن الديمقراطية والحرية والكرامة الانسانية .

محامى العباقرة

أود أن أتوقف هنا للحديث عن سلسلة العبقريات التى أصدرها العقاد ، وذلك قبل مواصلة الحديث عن موقف العقاد من المذاهب السياسية الاخرى ، فقد كانت العبقريات هى « الوطن الروحى » الذى استقر فيه العقاد بعد صدامه مع الحركة الشعبية واليسارية فى مصر ، كما ان هذه العبقريات كانت تقترب بالعقاد من فكرة « الانسان المختار المتفوق » التى كانت منبعا من منابع النازية .

بعد سنة ١٩٣٦ تعرض العقاد لأزمة واضحة فى علاقته بالجماهير التى كانت تقبل على قراءته ، وتعتبره كاتبها الاول . وقد وقفنا بالتفصيل أمام هذه الازمة وأسبابها ، وما أدت اليه من نتائج فى الفصول السابقة من هذا الكتاب . واذا اردنا ان نعرف حدود الازمة التى تعرض لها العقاد فى صورتها الواقعية ، فيكفى أن نقرأ هذه الكلمات التى كتبها الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه « عصر ورجال » عن جريدة روز اليوسف وكاتبها الاول عباس العقاد ، بعد ان خرجت الجريدة ومعها العقاد على الوفد سنة ١٩٣٥ ، يقول الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه ص ٢١٩ :

« ... غير أن الوفد نجح آخر الامر فى اسقاط جريدة روز اليوسف ثم فى اغلاقها ، ومرت على العقاد أسوأ فترات حياته ، فقد كانت الجرائد اما وفدية ، واما غير حزبية لا تستطيع ان تستكتب كاتبا حزبيا له كل الخصومات والعداوات التى كانت للعقاد ، فرأى العقاد نفسه بلا عمل وبلا أمل فى عمل ، ومرت عليه الايام بطيئة ثقيلة ، والازمة لا تريد أن تنفرج ، والخوف من هذه الفضيحة ومن التشرد يزداد يوما بعد يوم على أعصاب العقاد . فى هذه الايام زدت معرفة

بالعقاد ، فقد كان يكثر من تردده على مكتبى ، وفى مكتبى حررت له عقد بيع جميع النسخ التى كانت باقية عنده من كتابه « سعد زغلول » وكانت تعد بالآلاف اشتراها دفعة واحدة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكائنة فى أول شارع محمد على ، ودفع له مائة جنيه أبعدت عنه شبح اليأس قليلا ، ومنحته فترة يتنفس فيها فوق سطح الماء » .

هذه هى الصورة التى يرسمها فتحى رضوان للعقاد فى اثناء ازمته ، وهى صورة لقيت نقدا واعتراضا من بعض تلاميذ العقاد وأصدقائه ، مثل الاستاذ العوضى الوكيل الذى قال فى كتابه « العقاد وخصومه » ان العقاد لم يتعرض لمثل هذه الازمة حيث كان له حساب جار فى بنك مصر يسحب منه على المكشوف ـ أى بدون رصيد ـ فى حدود مبلغ كبير حدده منذ انشاء بنك مصر المرحوم طلعت حرب باشا « وأن ثريا من مواطنى العقاد بأسوان كان يسارع فى كل مأزق فيعرض على العقاد ما ينقذه من التردى فى الهاوية » .

ليس هنا مجال المناقشة لحقيقة الازمة التى تعرض لها العقاد ، ومدى هذه الازمة ، وهل وجدت هذه الازمة حلولا أو لم تجد وإن كنت أميل إلى تصديق رواية فتحى رضوان فهى رواية منطقية واضحة ، أما رواية العوضى الوكيل ، فهى أقرب إلى أن تكون نوعا من الرفض غير المنطقى لامكانية أن يتعرض العقاد لأزمة مالية ، وكأن الأزمة المالية تهمة « أخلاقية » ينبغى نفيها عن الكاتب الكبير ، وهذا النوع من التفكير خاطىء وغير سليم ... المهم ان العقاد تعرض لأزمة حقيقية واسعة بعد انفصاله عن الوفد ، الى الحد الذى أصبح فيه مهددا فى حياته المادية ... والذى يهمنا هنا من هذه الآزمة العنيفة ، ان العقاد فقد فيها جماهيره الوفدية الواسعة العريضة ، الى جانب ما فقده فى الازمة من خسائر أخرى .

وبالنسبة لكاتب جماهيرى ناجح واسع التأثير والنفوذ مثل العقاد ، تبدو هذه الازمة خطيرة وأساسية ، وكان على العقاد ان يجد حلا لهذه الازمة .

ولم تكن طبيعة العقاد « العنيدة » الصلبة تسمح له بأن ينشىء جسورا جديدة للعودة الى معسكر الوفد ، لقد وصل مع الوفد الى نقطة « اللاعودة » كما

يقولون . ولم يكن ارتباط العقاد بأحزاب الاقلية بعد ذلك يتيح له فرصة استعادة جماهيره ، فهذه الاحزاب المسنودة بالانجليز والقصر ، لا شعبية لها ولا جماهير ... وليس فى امكان هذه الاحزاب ان تعيد للعقاد جماهيره ، وليس فى امكان العقاد أن يكسب لهذه الاحزاب الموصومة جماهير من أى نوع .

وقد ظل العقاد يعانى من هذه المشكلة عدة سنوات ، وكانت كتاباته حتى ذلك الحين تدور حول الادب والسياسة المصرية ، وكانت شعبيته السياسية عاملا رئيسيا من عوامل نجاحه كأديب ومفكر . وقد انتهى هذا العامل السياسى ... فماذا يفعل العقاد وكيف يواجه هذه الازمة ؟ ان الكتابة الادبية لم تكن تكفى وحدها لخلق شعبية لاى كاتب من الكتاب فى تلك الفترة ، وفى مجتمع ترتفع فيه نسبة الامية الى درجة عالية ، وتقل فيه نسبة الثقافة العامة بين الجماهير الى حد بعيد .

فى تلك الفترة بالتحديد أصدر الدكتور محمد حسين هيكل كتابه الشهير « حياة محمد » ، ونجح الكتاب نجاحا كبيرا ، وأصبح واحدا من الكتب التى دخلت معظم البيوت المصرية والعربية التى تعرف القراءة والكتابة ، واستطاع هذا الكتاب بنجاحه الساحق ان يخلق مكانة معنوية مرموقة لمؤلفه بين جماهير القراء ، رغم ان الدكتور هيكل هو واحد من زعماء الاحرار الدستوريين ... احد أحزاب الاقلية التى ترفضها الجماهير .

وقد كان نجاح كتاب « حياة محمد » سببا قويا لالتفات كل الكتاب الكبار فى جيل « هيكل » الى الكتابة فى قضايا الدين ، ولم يكن العقاد قد كتب حتى ذلك الحين ـ ١٩٣٦ ـ وبعد حوالى ثلاثين سنة تقريبا من ممارسته للكتابة أى دراسة فى الدين على الاطلاق ... وكان عمره آنذاك سبعا وأربعين سنة .

لقد كان كتاب هيكل عن « محمد » من أكبر دوافع طه حسين الى تأليف كتابه « على هامش السيرة » حيث قدم فيه فصولا متعددة من حياة الرسول ، وكتب توفيق الحكيم كتابا عن « محمد » على شكل مشاهد تقوم على الحوار ، وبدأ العقاد فى تأليف كتابه « عبقرية محمد » .

وهكذا وجد العقاد بديلا للسياسة فى قلب الجماهير ، وكان هذا البديل هو

الدين .. بل لقد كان الدين أقوى تأثيرا من السياسة على الجماهير فى مصر والوطن العربى كله .

ومن يومها بدأ العقاد يقدم « عبقرياته » الاسلامية المختلفة ، ومن خلال هذه العبقريات وجد الحل المثالى لأزمته مع الجماهير التى تخلت عنه بعد خروجه من الوفد ، وارتدت اليه بصورة مضاعفة عندما دخل حظيرة « الاسلام » والكتابات الدينية بشكل عام . لقد حققت له العبقريات الأسلامية ، والكتابات الدينية مكانة لدى الجماهير فاقت مكانته الاولى أيام كان كاتب الشعب الاول فى مرحلة ثورة ١٩١٩ الوطنية .

ويسجل الناقد الكبير محمد مندور فى أوائل الاربعينات ، أى بعد عودته من بعثته الطويلة الى فرنسا ، ظاهرة اهتمام جيل هيكل والعقاد بالكتابة الدينية ، فى ملاحظة دقيقة ذكية فى كتابه المعروف « فى الميزان الجديد » ... يقول مندور :

« ... الناظر فى أدبنا الحديث يلحظ ان الجيل السابق قد نجح فى شىء وأخفق فى أشياء . وأكبر ظواهر الاخفاق فيما يبدو هو خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية . نعم انى لا أجهل ان امتداد الزمن بالحياة كثيرا ما ينتهى بنا الى الصلح معها ، فالشيوخ عادة أكثر رضا وتفاؤلا من الشبان الساخطين المتشائمين . كما اعلم ان طول التجارب كثيرا ما يبصرنا بحدود للممكنات لم نكن نفطن لضيقها ايام حداثتنا ، بل ان كل تجربة عبء يثقل خطانا ، وأضيف الى ذلك انه قد يكون من الخير لحياتنا الاجتماعية ان ترتد هجماتنا عن بعض المقومات التى فى نهوضها ضرورة لاستقامة الامور واطرادها على نحو يشفع فيه الثبات لما عداه . وبالنفس من اليقظة ما يبصرنا بأن للحياة المادية قسوة كثيرا ما تلين أصلب العزم . ولكنى رغم كل هذا أتساءل : ما بال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن « محمد » ؟ أهو ايمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ؟ ذلك ما نرجوه . ولكن ثمة امرا لا شك فيه ، هو اننا قد وصلنا الى درجة التزمت » .

« ولكم هالنى يوما ان ارى احد كتابنا المعروفين باتساع الافق ، يدعونى الى ان أسقط من حديث لى بالراديو كلمة « حوريات » ترجمة لعرائس الغابات المعروفة

فى الاساطير اليونانية ، خوفا من ان يتهمنى احد بالمروق من الدين ، لاستعمال لفظة وردت فى القرآن ، وأنا بصدد الحديث عن خرافات الوثنية اليونانية ! ! »

هذه هى ملاحظة مندور ـ بذكائه وحساسيته وسلامة وجدانه ـ بعد عودته من فرنسا ، وقد كتب ملاحظته هذه فى أوائل الاربعينات . وهو يفسر اهتمام كبار الكتاب فى تلك الفترة بالكتابة عن « محمد » بأنها نوع من الاستجابة لضغط « المجتمع » .. ذلك أنهم لم يكونوا فى البداية من رجال الفكر الدينى ، بل لقد اتجهوا الى هذا الفكر فى الجزء الاخير من حياتهم .

ولا شك ان العقاد ، وغيره من أبناء جيله ، قد اتجهوا الى ميدان الفكر الدينى تحت تأثير عوامل كثيرة من بينها محاولة اكتساب الجماهير القارئة وإثارة اهتمامها .

وقد كانت العبقريات الاسلامية بالذات هى « الحل » الذى خرج به العقاد من أزمته مع الجماهير . على ان العقاد استطاع ان يحافظ على مستواه الفكرى فى « عبقرياته الاسلامية » ، فلم يجعل من هذه العبقريات محاولة سريعة للكسب المادى والنجاح الادبى ، بل جعل منها عملا فكريا له قيمته وتأثيره .

وكان تركيزه فى هذه العبقريات على ان يستفيد من المناهج العلمية الاوروبية الحديثة فى فهم العبقريات الاسلامية وتفسيرها . وقد أثار العقاد منذ البداية اعتراضا عند المفكرين الاسلاميين المحافظين ، عندما استخدم لفظ العبقرية لوصف « محمد » ، فالعبقرية صفة للنبوغ الانسانى العادى ، ولا يجوز ـ عند هؤلاء المحافظين ـ ان تكون صفة للنبى الذى يتلقى الوحى من السماء ، ومن هنا فان فكر محمد وتصرفاته كلها ليست مظهرا من مظاهر العبقرية الانسانية العادية ، وانما هى وحى الهى تجسد فى فكر محمد وسلوكه . وكان هناك اعتراض آخر من المفكرين الدينيين على « عبقرية محمد » ... فعندما يكتب العقاد عن عبقرية محمد ، ثم يكتب عن عبقرية الصديق ، وعبقرية على ، فكأنه بذلك يخلق نوعان من « المساواة » بين محمد وخلفائه ... وهذا خطأ من وجهة نظر الفكر الدينى الخالص .

والحقيقة ان العقاد فى عبقرياته كان يهدف الى الاهتمام بالجانب الانسانى فى الشخصية الدينية التى يدرسها ويناقشها ، ولم يكن يهدف الى الاهتمام بالجانب

الإلهى ... فالجانب الانسانى يخضع للعقل والمنطق ، ويمكن تحليله وتفسيره ، أما الجانب الإلهى فيعتمد على المعجزات والقوى الخارقة التى تفوق العقل والمنطق ، وتحتاج فى الاقتناع بها الى الايمان الوجدانى البعيد عن اى مناقشة او تحليل . والعقاد فى هذا الموقف الذى يعتمد على العقل فى تفسير العبقريات الاسلامية ، وعلى رأسها عبقرية محمد ، متأثر بثقافته الغربية الحديثة ، ومتأثر بالتيار الكبير الذى خلقه الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، حيث دعا محمد عبده بقوة الى أن « الاسلام دين يعتمد على العقل قبل كل شيء » وأن الاسلام يدعو الى نهضة العقل البشرى « وتوجيهه الى النظر فى الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقب الاسباب والمسببات ، ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا على كل شيء » وقد لخص العقاد هذا الاتجاه العقلى فى فهم الاسلام فى عنوان كتابه المعروف باسم « التفكير فريضة اسلامية » .

والطابع الانسانى الذى يخضع للتحليل والتفسير العقلى ، هو أبرز ما أضافه العقاد الى الفكر الاسلامى الحديث ، فقد استبعد فى دراسته كل ما لا يقبله العقل ، وكل ما يتناقض معه او يتعارض مع مناهجه المختلفة ، واستطاع العقاد بذلك ان يصوغ تاريخ الشخصيات الاسلامية صياغة عصرية جديدة ، مع رفض ما يمكن ان يدخل فى باب الخرافات او الاحداث التى لا تتفق مع المنطق والتفكير والفهم الصحيح للشخصية الاسلامية أو لعصرها وظروفها المختلفة .

ومن النماذج التى تكشف لنا اهتمام العقاد بالتفسير العقلى لبعض الظواهر ، واخضاعها للعلم والمنطق ، ما كتبه فى عبقرية عمر عن القصة التى تشبه « الخرافة » والتى نسبت الى عمر ويلخصها لنا العقاد فيقول .

« كان عمر رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى : يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ... ! ومن استرعى الذئب ظلم .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته ، فسأله على رضى الله عنه : ما هذا الذى ناديت به ؟ قال : أوسمعته ؟ قال : نعم . انا وكل من فى المسجد .

فقال : وقد فى خلدى ان المشركين هزموا اخواننا وركبوا اكتافهم ، وانهم

يمرون بجبل ، فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا وان جاوزه هلكوا ، فخرج مني هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر ، فذكر انهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة ، حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن الجبل ... الجبل . فعدلنا اليه ففتح الله علينا » .

هذه هى القصة كما رواها العقاد ، وهى تشبه الخرافات والمعجزات ، وموقف العقل منها هو موقف النقد والرفض والاعتراض ، ولكن العقاد لم يسارع بنفيها وانما بذل محاولة للتوفيق بينها وبين ما توصل اليه العلم الحديث من نظريات واكتشافات .. يقول العقاد تعليقا على هذه القصة :

« ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا الى العقل او الى العلم او الى التجربة الشائعة . فان العقل لا يمنعها ، والعلماء النفسيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها . بل منهم من مارسوا « التلباثى » ، وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين .

الا ان المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد ان عمر كان مشهورا بين معاصريه بالمكاشفة الغيبية ، إما بالفراسة أو الظن الصادق ، او الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة ، وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها » .

وهكذا يفسر العقاد هذه القصة التى تشبه الخرافة تفسيرا علميا ، ويرفض قبولها قبل ان يجد لها تفسيرا من تفسيرات العلم الحديث ، والتفسير الذى اهتدى اليه هنا هو التلباثى ، ومعناه ان تتشابه خواطر اثنين من البشر - على البعد - حول موضوع واحد وفكرة واحدة فى لحظة واحدة ... وهذا ما حدث بين عمر وسارية ، اذا أردنا ان نقبله ونفسره تفسيرا يجعله خاضعا للعقل والمنطق ، وهو ما فعله العقاد ، حيث انه فى عبقرياته كلها يرفض الخرافات والخوارق ، ما لم يجد لهذه الظواهر ما يفسرها ويبررها من العلم والعقل .

وبهذا المنهج يعتبر العقاد واحدا من رواد التيار العقلى فى الفكر الاسلامى المعاصر ، ولكن العقاد اضاف الى المنهج العقلى اضافة اخرى ، هى

انه استفاد من مواهبه الادبية فى تقديم العبقريات الاسلامية ، فجاءت العبقريات لونا من الوان الادب الى جانب قيمتها الفكرية والتاريخية . فالعقاد كان يرسم صورة انسانية للعبقرية التى يتناولها بالتحليل والدراسة ، وهذه الصورة الانسانية الحية هى التى تملك القدرة فى آخر الامر على اثارة وجدان القارىء ومشاعره المختلفة ، وبذلك لا يقف العقاد ابدا عند حد تقديم المعلومات والحقائق ، ثم دراستها وتحليلها ، بل يضيف اليها من رؤيته الشعورية ما يضمن لها التأثير العميق على نفس القارىء .

ويكفى ان نقف عند نموذج واحد من هذه النماذج الكثيرة ، التى تملأ صفحات العبقريات ، حيث يقول عن الإمام على بعد مقتله : « ... وذلك هو النسيج الانسانى النابض الذى يتخلل حياة على فى لحمتها وسداها ، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم ، ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس فى سيرة الإمام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها . تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء ، فاذا أتبعت السيرة بالخاتمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة ؟ اى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب وغرام المتهوس المجنون[1]. وأريحية القتيل الموصى بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة ، وخداع

---

١ ــ اشارة الى « ابن ملجم » الذى قتل الامام عليا ، وكان من بين دوافع القاتل انه كان يحب فتاة طلبت منه ان يقتل الامام ، لان اباها واخاها وبعض اقربائها قتلوا فى معركة الخوارج ضد الامام على .

الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور المواروالمهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة .

تلك حياة حى ، وذلك مصرع شهيد » .

ذلك نموذج واحد من النماذج العديدة للتصوير الانسانى والوجدانى للعبقريات فى كتابات العقاد ، وهو نموذج يتكرر كثيرا فى صفحات العبقريات .

ولعل سر هذا التصوير الوجدانى للعبقريات عند العقاد ، ان نقطة البدء عنده دائما هى اعجابه بالشخصية التى يتناولها بالبحث والدراسة ، وهذا الاعجاب يعطى للعبقريات ذلك الطابع الوجدانى الرقيق ، الذى يضفى عليها لمسة من لمسات الفن ، الى جانب ما فيها من بحث ودراسة .

ومن الصعب أن نجد فى عبقريات العقاد شخصية لم يكن معجبا بها او متحمسا لها بشكل من الاشكال . كل ما هنالك ان اعجابه بشخصية قد يفوق اعجابه بشخصية اخرى ، فهو معجب بالإمام على أشد الاعجاب ، ولكنه فى نفس الوقت معجب بمعاوية ... وكل ما هنالك ان اعجابه بمعاوية اقل من اعجابه بالإمام « على » درجة او درجات .

والفرق بينهما عند العقاد هو الفرق بين كلمتى « العظيم » و « القدير » فالإمام على شخصية عظيمة ـ أما معاوية فهو شخصية قديرة . وهذا هو الفرق بينهما أى انه فرق فى الدرجة لا فرق فى النوع . ولم يستطع العقاد ان يقدم دراسة لشخصية يكرهها فى التاريخ الاسلامى او فى غيره ، باستثناء دراسته لهتلر ، لان البحث والدراسة عند العقاد يمتزجان دائما بمشاعره الخاصة ، ولا بد للشخصية التى يدرسها ان تكون موضع اعجابه وتقديره بدرجة من الدرجات . اننا نذكر مثلا ان الكاتب النمسوى المعروف ستيفان زفايج قد كتب دراسة عميقة وممتازة عن شخصية فوشيه وزير داخلية نابليون ، وهو شخصية متقلبة كريهة ، كان المؤلف نفسه يشعر نحوها بالرفض والاستنكار ، ولكن هذه المشاعر المبنية على الكراهية والنفور لم تمنع المؤلف من البحث فى شخصية فوشيه وتقديمها وتفسيرها وكشف ما فيها من عيوب وأخطاء وامكانيات .

ولعل هذا الموقف فى عبقريات العقاد ... موقف الاعجاب من جانب العقاد بمن

يكتب عنهم ، يضع يدنا على الخطأ الرئيسى فى هذه العبقريات ، فالعقاد صاحب نظرة « مثالية » ، والعبقريات الاسلامية التى كتب عنها كانت فى نظره دائما تمثل نوعا من « البطولة » المطلقة ... ليس فى حياتها خطأ او عيب من العيوب ، وكل ما فيها صواب يستحق الاعجاب والحب ، ويستطيع العقاد ان يجد دائما من المبررات والتفسيرات ما يبعد أى شبهة من شبهات الخطأ عن عبقرياته ، ولو كان العقاد قد التزم بهذا المنهج « المثالى » فى شخصية « محمد » فقط ، لما استطاع احد ان يعترض عليه ، فشخصية محمد كنبى لها من القداسة ما يفرض هذه النظرة المثالية فى النظر الى حياته وتاريخه ، ولكن الشخصيات الاسلامية الأخرى بعد النبى تحتمل - حتى من وجهة النظر الأسلامية نفسها - ان يناقشها المؤلف من حيث الصواب والخطأ ، لانه لا يوجد أحد فى التاريخ الاسلامى بعد النبى يملك عصمة الانبياء ، ولا يوجد فى القرآن الكريم او فى الحديث الشريف ما يمكن ان يشير الى ان هذه الشخصيات الاسلامية مقدسة او معصومة من الخطأ بصورة مطلقة .

هذه النظرة المثالية التى لا تعترف بالعيوب ، ولا بالضعف البشرى فى الشخصيات التى يدرسها العقاد ، تعتبر عيبا واضحا فى دراسة العقاد لشخصياته المختلفة ، وتقدم الينا فى النهاية صورة تنقصها المرونة والواقعية التى تتسم بها الحياة الانسانية نفسها .

وقد لاحظ بعض المفكرين المعاصرين للعقاد على عبقرياته هذا الموقف المثالى فى تناول الشخصيات ، فكتب أحمد أمين فى تعليق له على « عبقرية عمر » للعقاد و « حياة محمد » لهيكل يقول :

« ... بقيت مسألة هامة كثيرا ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهى ان العظيم مهما عظم له خطآت ، وإلا ما كان انسانا ، والعصمة لله وحده ، فهل واجب المترجم له ان يعرض لكل ذلك فى تفصيل ، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره ، ويذكر خطآته وينقدها ، ويعلم فى ذلك درسا فى نواحى مجده ، ودرسا آخر فى مواضع خطئه ، او واجبه فقط تجلية نواحى العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ ؟ ... انا ارى ان الرأى الاول أوجب ، متأسيا بأبى بكر وعمر نفسهما ، والمؤلفان الفاضلان - العقاد وهيكل - الى الرأى الثانى أميل » .

ويعقب العقاد على رأى أحمد أمين فيقول :

« والواقع اننا الى الرأى الثانى أميل » . ويدافع العقاد عن هذا الرأى فيقول فى مقدمة « عبقرية الصديق » :

« مذهبنا الذى نتوخاه فى الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم فى خدمة الانسان ان نوفيهم حقهم من التوقير ، وأن نرفع صورهم الى مكان التجلة ، وان لم يمنعنا هذا ان نصدقهم الوصف والتصوير . ونحسب هذا المذهب فى زماننا هذا أوجب مما كان فى الازمان الغابرة ، لان الاسباب التى تغض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر الى الآن وهى مما يحدث عفوا فى بعض الأحيان ، ومما يأتى قصدا فى احيان أخرى » .

ثم يعدد العقاد بعد ذلك أسباب « الغض » من العظمة ويركزها فى ثلاثة أسباب :

السبب الاول ـ هو « الفهم السىء للمنازعات التى شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة ، فوقر فى بعض الاذهان ان العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والدنيوية ، وخلط أناس بين دعاة الاديان الذين أخلصوا العقيدة فى الاصلاح وبين رجال الاديان الذين استغلوا العقائد ، وتعمدوا انكار الحقائق ، ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة فى طريق التقدم والتهذيب . فالمصلحون من عظماء الاديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم أنهم سبقوا العلم الحديث ، بل يزكيهم ذلك ويضاعف حقهم فى الثناء وعرفان الجميل » ثم يجىء السبب الثانى للغض من العبقرية فى نظر العقاد حيث يقول :

« ثم جاءت الديمقراطية ، واساء بعض الناس فهمها ، كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا ان حرية الصغير تجعله فى صف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وان الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ، ولكنه قد سرى مسراه الى الاذهان ، فكثر التطاول على كل عظمة انسانية ، وفشت بدعة الاستخفاف والزراية ، حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير ان يعاب » .

ويأتى السبب الثالث بعد ذلك للغض من العبقرية فى نظر العقاد :

« ... ثم جاءت الشيوعية وهى قائمة على ان الابطال هم صنائع المجتمع ، وليسوا أصحاب الفضل عليه ، وان تعظيم الابطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التى أنشأت أولئك الابطال ، فخدموها قاصدين مدبرين ، او على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون فى تلويث كل عظمة يؤدى توقيرها الى نقد مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم فى هذا انهم غيروا أبطال الروايات فى مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا « هاملت » على المسرح لئيما ماكرا سيء النية على خلاف ما صوّره الشاعر ، لان تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى فى صورة حسنة يخل بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية فى تلك القرون » .

وينتهى العقاد من ذلك إلى تحديد موقفه من العبقرية بقوله

« ... وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغض من العظماء ، حتى صح عندنا ان العظمة فى حاجة الى ما يسمى « برد الاعتبار » فى لغة القانون ، فان الانسانية لا تعرف حقا من الحقوق ان لم تعرف حق عظمائها ، وأن الانسانية ليست بشيء ان كانت العظمة الانسانية فى قديمها أو حديثها ليست بشيء » .

هذه هى وجهة نظر العقاد فى دفاعه عن العبقرية ، وفى دفاعه عن موقفه المثالى من الشخصيات التى يدرسها ، بحيث لا يعترف بما لهذه الشخصيات من أخطاء وجوانب ضعف ، وهو اذا اعترف بها فمن باب تفسيرها والدفاع عنها

والواقع ان العلم الحديث والديمقراطية والشيوعية لم يقض اى منها على دور الفرد فى التاريخ ، وأن اختلفت النظريات المعاصرة فى تحديد هذا الدور وحجمه ، ولعل ما أشار اليه العقاد من أفكار خاطئة عن البطولة والابطال تكون ثمرة التحريف وضيق الافق والفهم الخاطيء للنظريات المختلفة ، مما خلق اضطرابا فى التقدير للابطال والعباقرة ، وأفسد النظرة اليهم لدى البعض

ولكن مع ذلك يبقى السؤال الاساسى :

هل الكشف عن أخطاء الابطال وعيوبهم يعتبر نوعا من الاساءة اليهم أو الى نظرة الناس لهم ؟ ...

ان موقف العقاد هنا ولا شك موقف خاطيء ، ذلك لانه يخالف الموقف العقلى

والعلمى الذى يرفض انكار حقيقة معروفة ، وتسجيل واقعة صريحة فى أى أمر من الامور ، وهو موقف خاطىء من ناحية أخرى ... لان الانسان لا تتحدد قيمته فى ميدان البطولة او العبقرية بأنه كامل لا يعرف الخطأ ، او بأنه خال من اى عيب من العيوب الانسانية المعروفة ... ذلك اخراج للبطل أو العبقرى من نطاق الانسانية الصحيحة السليمة ، وهو أمر يجعل من البطل نموذجا مستحيلا لا يستطيع البشر ان يجدوا فيه قدوة من اى نوع . والحقيقة ان البطل ليس هو الكائن الذى يعتمد على قوى غير انسانية ، بل هو انسان ارتقت قدراته وارتفعت ، واستطاع ان يستغل هذه القدرات أعظم استغلال فى تحقيق اهداف كبيرة عالية .

ان النظرة المثالية للبطولة والعبقرية انما هى تحنيط للانسان ، وتجميد لحركة حياته ، وللعناصر التى تتكون منها هذه الحياة . ولنأخذ نموذجا واحدا يكشف لنا خطأ النظرة المثالية عند العقاد ، وذلك النموذج هو « سعد زغلول »... فسعد زغلول زعيم وطنى ، وهو بطل من الابطال الذين تحمس لهم العقاد ، فكتب عنه كتابا هاما وشاملا ، وقد التزم العقاد فى هذا الكتاب بالمنهج المثالى الذى لا يكاد يجد فى الزعيم الوطنى نقطة ضعف من اى نوع . ولكننا نعود اليوم الى مذكرات سعد زغلول التى كتبها بنفسه عن نفسه لنجد فيها ان الزعيم الوطنى الكبير يكشف فيها بأمانة وصدق عن بعض عيوبه الشخصية التى لم يتعرض لها العقاد على الاطلاق ، ولم يمسها من قريب أو بعيد ، فى دراسة تزيد على ستمائة صفحة .

يقول سعد زغلول فى مذكراته الخاصة عن تمكن داء « القمار » منه فى وقت من الاوقات وقد كتب هذا الجزء من مذكراته فى أبريل سنة ١٩١٣ ... يقول سعد زغلول عن نفسه[١] :

« كنت قبل ١٢ سنة أكره القمار ، وأحتقر المقامرين ، وأرى ان اللهو من سفه الاحلام واللاعبين من المجانين ، ثم رأيت نفسى لعبت وتهورت فى اللعب ، وأتى

١ ــ صفحة ٢٢٩ من كتاب سعد زغلول ــ دوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ تأليف عبد الخالق محمد لاشين .

علّي زمان لم أشتغل الا به ، ولم أفكر الا فيه ، ولم أعمل الا له ، ولم أعاشر الا أهله حتى خسرت فيه صحة وقوة ومالا » . ثم يقول سعد زغلول بعد ذلك :

« أريد ان أعرف ما أريد حتى أتمكن من معالجة نفسى من هذا الداء . هل أريد بسطه فى الرزق ؟ انه يقبضه فى الكثير الغالب . هل أريد سعة فى الجاه ؟ انه يضيقه بما يحط من القدر فى نفوس الناس . هل أريد تناسى آلام تترد على النفس عند خلوها من الشغل وهو كثير ؟ لا أشعر بهذه الآلام . الا يكون هذا الخلو مؤلما وطلب الخروج منه هو الذى يحبب اللعب للنفس ؟ ربما كان ذلك هو السبب . ان كان الامر كذلك فلا يتعذر معالجته بمباشرة عمل من الاعمال » .

تلك هى اعترافات سعد زغلول بهذا العيب فى شخصيته وبهذا النقص الذى يعانى منه . وسعد زغلول ليس شخصية دينية . ومع ذلك فقد تغاضى العقاد عن هذا الجانب فى شخصية سعد وأهمله ولم يلتفت اليه ، وكان دافعه الى ذلك هو خوفه من أن يخدش هذا العيب الصورة الجميلة المثالية التى رسمها للبطل السياسى ممثلا فى سعد زغلول .

والعقاد يخطىء هنا عدة أخطاء ، فهو يخطىء فى تصوير الحقيقة والواقع التاريخى ، لان البحث التاريخى لا يمكن ان يخضع لنوايا الباحثين ورغباتهم ، ولا يجوز ان تكون هذه النوايا والرغبات سببا لحجب الحقائق الثابتة ... لان حجب الحقائق ـ مهما كانت النية حسنة ـ هو نوع من التزوير لا تقبله الروح العلمية السليمة .

ومن ناحية ثانية فان تصور العقاد للبطل على انه لا يعرف « الضعف » ولا يجوز أن يعرفه هو أمر خاطىء ، لان هذا الموقف يخرج بالبطل عن دائرة « الانسان » الى دائرة اخرى وهمية ... ان نفى « الضعف » بصورة نهائية عن شخصية البطل معناه نفى « الانسانية » عن هذه الشخصية . فالانسان الذى لا يتألم ولا يبكى ولا يخطىء ولا يحزن ليس انسانا حقيقيا وانما هو انسان آلى .. وهو فى النهاية غير موجود الا فى خيال بعض الباحثين الذين لا يعترفون بالواقع الانسانى ، بل يتجاوزونه ويرفضونه .

ان الصراع هو أساس الشخصية الانسانية السليمة ... الصراع بين الخير

والشر ... بين الضعف والقوة . . وعلى ضوء نتيجة هذا الصراع تتحدد قيمة الشخصية الانسانية ، وعندما ينشأ الصراع بين الضعف والقوة فى نفس الانسان فان علينا ان ندرس النتيجة ، اذا انتصر الخطأ والضعف انهارت الشخصية وان كان النصر للصواب والقوة استطاع الانسان ان يرتفع ، ويحقق لحياته معنى عميقا وعظيما ، وهذا ما حدث فى حياة سعد زغلول فقد انتصر على أخطائه وأمراضه النفسية ، واستطاع ان يرتفع فوق هذه الاخطاء والامراض الى مستوى الزعامة السياسية والبطولة الوطنية .

ونحن نجد خطأ العقاد من ناحية ثالثة انه يحرم شخصية سعد من تلك الميزة التى ظهرت فى مذكراته ، وهى ميزة مراجعته لنفسه ، ومحاولته ان يتخلص من مرضه النفسى وينتصر عليه ويعرف أسبابه .

ذلك نموذج من أخطاء المنهج المثالى فى كتابة العقاد عن الابطال والعباقرة ، حيث لم يكن للابطال والعباقرة فى نظر العقاد عيوب ولا أخطاء ، فالعبقرى عنده هو الانسان القوى الكامل الذى [illegible] الخطأ ولا الضعف .

والعقاد هنا يبدو متأثرا ـ عن قصد ووعى او عن غير قصد ولا وعى ـ ببعض مدارس الفكر الالمانى ، وخاصة فكرة نيتشه عن « الانسان الاعلى » او « السوبرمان » ، ان العقاد لا ينقل فكرة نيتشه ولا يطبقها بحذافيرها على الابطال والعباقرة ، ولكنه يقترب من هذه الفكرة ويستفيد منها ويؤمن بها ، حيث يحمل البطل والعبقرى عند العقاد كثيرا من الصفات والخصائص فى « سوبرمان » نيتشه ، وسوبرمان نيتشه فكرة لم تتحقق فى الواقع الحى ، فهى أمل يدعو نيتشه الانسان الى تحقيقه ، فالتطور فى نظر نيتشه يتحرك من القرد الى الانسان ، ثم من الانسان الى السوبرمان ، « ما القرد بالنسبة الى الانسان ؟ أضحوكة وعار مؤلم . وهكذا يجب ان يكون الانسان بالنسبة الى الانسان الاعلى أضحوكة وعارا مؤلما ... الحق ان الانسان نهر نجس ، ولا بد للمرء ان يكون محيطا ، كى يستطيع ان يضم فى جوفه نهرا نجسا بدون ان يتدنس ... فأنا أدعوكم بدعوة الانسان الاعلى : فانه هذا المحيط[1] » .

١ ـ من كلمات نيتشه عن الانسان الاعلى ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه نيتشه صفحة ٢٦٣ .

ولكى تتضح لنا علاقة « أبطال » العقاد و « عباقرته » بفكرة « السوبرمان » عند نيتشه ، أود أن أقف قليلا عند هذه الفكرة كما يشرحها لنا الدكتور عبد الرحمن بدوى ، احد المفكرين المتحمسين لنيتشه فى الثقافة العربية الحديثة ... يقول الدكتور بدوى فى كتابه عن « نيتشه » صفحة ٢٥٤ :

« بين الكيف والكم خصومة عنيفة شيقة ، تكون جزءا هاما من تاريخ الانسانية الروحى . وبينهما على مر العصور نضال شاق يحاول به الواحد ان يسود على الآخر ، وأن يذهب به من الوجود أن استطاع .

فالكيف ينادى بالتفرقة ، وينكر المساواة ، ويؤمن بالفرد ، ولا يعنيه شىء من المجموع ، باعتباره مجموع وحدات متساوية متشابهة متقاربة .. والخلاصة انه يقول بالارستقراطية ويؤمن بالامتياز . اما الكم فكل شىء عنده سواء ، حتى لو حاولت احدى الوحدات ان تشذ قليلا ، تغافل عن هذا الشذوذ ، ولم يقم له اى وزن ، ولم يعمل له اى حساب ... فانتاجه اذا انتج بالجملة ، وعلى مثال واحد . وشارته التي يضم أنصاره تحت لوائها هى « المساواة ! المساواة ! » وصيحة انصاره فى كل مكان هى « نحن جميعا متساوون ، وليس هناك أناس أعلى من أناس » ... والخلاصة أنه « أى الكم » يقول بالديمقراطية ويؤمن بالمساواة » .
ثم يقدم الدكتور عبد الرحمن بدوى بعد ذلك نموذجا للصراع بين الكم والكيف فيختار الثورة الفرنسية ويقول عنها :

« ان الثورة الفرنسية ليست فى الواقع الا معركة خاض غمارها فريقان : احدهما فريق الكم ، والآخر فريق الكيف ، وكانت الهزيمة فيها لهذا الفريق الاخير ، فقام فريق الكم بفرض ارادته وقيمه على الناس ، ويصيح ملء شدقيه « المساواة . المساواة » ويعلن الغاء الفوارق بين الناس ، ويجعل من الافراد جميعا حبات رمل فى كومة ضخمة ، سماها « الشعب » لا يعنيه ارتفع مستوى الانسانية كإنسانية ام لا ، ولا يحفل بالافراد الممتازين الارستقراطيين ، الذين هم خلاصة الانسانية وهداتها ، بل وخالقوها وواضعو قيمها العليا ، قيم السادة ، لا قيم العبيد ، وكل ما يعنيه هو « المتوسط » فخطته تتلخص كلها فى ان يأخذ « المتوسط » من كل شىء ، ولينم بعد ذلك ملء جفنيه ، وقد سادت هذه القيم الجديدة الحياة السياسية والاجتماعية ، بل والفكرية ايضا » .

وبعد هذا التحليل الذى يقدمه الدكتور عبد الرحمن بدوى للثورة الفرنسية كنموذج للصراع بين الكم والكيف فى الحضارة ـ وهو تحليل ملىء بالاخطاء والمغالطات الفكرية التى يمكن للقارىء ان يكتشفها بسهولة ـ ينتقل بنا الدكتور بدوى الى نيتشه فيقول :

« ... رأى نيتشه هذه الاحوال وما تؤدى اليه من هبوط بمستوى الانسانية ، وانتصار لقيم المتوسطين ، وقضاء على الفردية والذاتية . فهب من جديد يحمل لواء قيم الكيف كى يعيد للارستقراطية ما لها من مكانة ، ثم يطالب بخلق ارستقراطية جديدة أعلى بكثير من الارستقراطية القديمة ، ويدعو الانسانية الى العلاء بنفسها شيئا فشيئا حتى تخلق طابعا جديدا من الانسانية ، استغفر الله ، بل فوق الانسانية وأعلى منها وان كان قد قام على أكتافها وارتفع فوق هامتها . وهذا الطابع الجديد هو الانسان الاعلى . ثم مهد لهذا بالاشادة بالفردية

لانها شرط لخلق هذه الارستقراطية ، وأراد من هذا كله ان يعيد نظام التصاعد ، اى جعل الناس فى طبقات ، يرتفع بعضها فوق بعض طبقات : « أرانى مدفوعا فى عصر التصويت العام ، اى العصر الذى يخول لكل انسان ان يقف موقف القاضى من كل واحد ومن كل شىء ، أقول أرانى مدفوعا الى اعادة نظام التصاعد الى عرشه من جديد » .. بعد ان قضى على هذا النظام بفعل أنصار الكم ، وكانت النتيجة لهذه المساواة المخيفة التى نادوا بها ان اصبح كل امرىء يعتقد ان له الحق فى الحكم على كل مسألة ، والفصل فى كل مشكلة فإزاء هذا كله « كان لا بد للناس الممتازين ان يعلنوا الحرب على العامة والمجموع . ففى كل مكان يضم المتوسطون بعضهم على بعض ، ويجمعون شملهم كى يجعلوا من أنفسهم سادة ! وكل ما يخنث ويلين ويرفع من شأن ما هو « شعبى » أو « نسوى » يعمل لصالح « التصويت العام » أى سيطرة المنحطين من الناس وسيادتهم ، ولكننا نريد ان ننتقم وأن نفضح هذه التجارة ونقاضيها » .

هذا هو الاطار العام لفكرة « نيتشه » كما يشرحها الدكتور عبد الرحمن بدوى مستندا الى نصوص من نيتشه نفسه ... والحقيقة ان العقاد لم يصل الى النتائج السيئة المنحرفة التى وصل اليها نيتشه فى دعوته الى « السوبرمان » ولكنه

يقترب « من نيتشه » فى نقاط عديدة ، وخاصة فى تصوره للعبقرية على انها كمال مطلق او شبه مطلق وأنها تقوم على الخلاص من كل جوانب الضعف والعيب والخطأ . ومن ناحية أخرى فالعقاد يرى تقدم الحياة متمثلا فى « الفرد الممتاز » اكثر مما يراه فى حركة الجماعات والافراد والشعوب ، تماما كما يتصور نيتشه ، وقد كانت هذه الفكرة الاخيرة احد الاسباب القوية لعداء العقاد للفلسفات التى تنطلق من الافكار الجماعية ، مثل تيار الفكر التقدمى بشتى مدارسه واتجاهاته ، كما شرحنا ذلك فى الفصلين السابقين .

والى جانب هذا العيب فى عبقريات العقاد ، وهو عيب النظرة المثالية التى لا ترى اى جانب من جوانب الخطأ فى هذه الشخصيات ، وهو ما يتناقض مع الواقع والطبيعة الانسانية للبشر ، ويقترب بالعبقرية من فكرة « السوبرمان » .. الى جانب هذا العيب نجد عيبا آخر فى هذه العبقريات ، فالعقاد يعتمد على تفسير الشخصيات التى يدرسها بتحديد صفة رئيسية فيها يسميها مفتاح الشخصية ، وغالبا ما يكتشف العقاد بذكائه وعمق نظرته صفة رئيسية فى الشخصية التى يتناولها بالدرس والتحليل ، فمفتاح الشخصية فى عبقرية عمر مثلا هو « طبيعة الجندى » ، حيث يتجسد فى عمر ... « أهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى : الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة والشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات » . ويلتزم العقاد بهذا التفسير فى حياة عمر كلها ، ولكن هل تستطيع « طبيعة الجندى » ان تفسر لنا بعض ما يناقضها من ظواهر ومواقف فى حياة عمر ؟ كلا ، فليس من « طبيعة الجندى » مثلا اعفاء « عمر » لخالد بن الوليد من قيادة الجيش الاسلامى وهو فى قمة مجده وبطولته ... ان المسألة هنا لا يمكن ان تعود الى طبيعة الجندى التى كانت تفرض ـ على الاغلب ـ استمرار قائد عسكرى بارز مثل « خالد » فى ادائه لدوره ورسالته ، وتدعيمه فى هذا المجال دون اعفائه ، ولكن هذا الموقف بالتأكيد تحكمه مقاييس أخرى غير « طبيعة الجندى » عند عمر ، مثل احساس عمر بالعدالة او احساسه بضرورة إشعار جماهير المسلمين المحاربين بأن دورها يفوق

دور الافراد مهما كانت قيمتهم وقدرتهم ... او ما الى ذلك من الاسباب الاخرى التى تخضع للدراسة والمناقشة فى موقف عمر من خالد .

ان المقياس الواحد ، او الصفة الرئيسية الواحدة لا تكفى لتفسير كل مواقف الانسان فى كل الاحوال ، و « طبيعة الجندى » لا تكفى ابدا لتفسير شخصية عمر فى كل جوانبها العديدة المتنوعة ، وان كانت طبيعة الجندى يمكن ان تكون بلا شك صفة من الصفات الرئيسية العديدة فى تكوين عبقرية عمر . ومن ناحية اخرى فان الصفة الرئيسية فى اى شخصية من الشخصيات لا يمكن ان تكون ثابتة ، لان الانسان يتعرض للتطور والتحول من مرحلة فى حياته الى مرحلة اخرى ، و « عمر » على سبيل المثال ايضا لا شك انه قد تحول عدة تحولات اساسية فى شخصيته وحياته ، فهو قبل الاسلام وأثناء معارضته للحركة الاسلامية غيره بعد ان أسلم ، وهو فى حياة النبى يختلف عنه بعد ان تولى السلطة بنفسه وأصبح خليفة لأبى بكر .

ان الظروف والتجارب المختلفة تساهم فى تطوير الشخصية وتحويلها من مرحلة الى مرحلة ، ولا يمكن ان تظل الشخصية ثابتة على ما هى عليه منذ البداية حتى النهاية ، ولا يمكن للشخصية ان تظل حبيسة لصفة رئيسية واحدة ، خاصة اذا كانت هذه الشخصية واحدة من الشخصيات اللامعة المؤثرة التى نطلق عليها اسم الشخصية العبقرية ، فالعبقرى يؤثر فى الحياة ويتأثر بها ، وليس كائنا جامدا ثابتا يعتمد على صفات واحدة لا تتغير منذ بداية حياته حتى نهايتها ... مثل هذا الجمود والثبات فى الشخصية الانسانية العادية غير مقبول ، وهو فى أشخاص العباقرة والنابغين أقل منطقا منه فى الشخصية الانسانية العادية ، لان نسبة تأثر العبقرى بالظروف التى يلتقى بها أقوى بكثير من نسبة تأثر الانسان العادى الذى يميل دائما الى مسايرة الظروف والاستسلام لها ، لا الى الاصطدام بها والتأثير عليها .

وفى عبقريات العقاد نلتقى بظاهرة رئيسية اخرى هى ان العقاد لم يخرج عن نطاق « الدين » و « القومية » فى اختيار عبقرياته التى يقوم بدراستها وتحليلها ... فعبقرياته اما « دينية » وإما « قومية » ... والعبقريات الدينية هى

الاساس فى كتاباته ، وهى التى تكون النسبة الكبرى من كتاباته عن الابطال ، وهذا ما نجده فى عبقريات العقاد الاسلامية وما تبعها من دراسات عن المسيح وابراهيم عليهما السلام ... اما العبقريات القومية فتشمل عددا كبيرا آخر من الدراسات ، مثل كتابه عن سعد زغلول الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بالحركة القومية فى مصر ، و« صن يات صن » الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بالحركة القومية فى الصين ، و« غاندى » الذى يرتبط بالحركة القومية فى الهند ، و« محمد على جناح » الذى يرتبط بزعامة المسلمين الهنود ، وحركة انشاء دولة باكستان .

وهذا الارتباط الوثيق بين العبقريات من جانب والدين والقومية من جانب آخر ، يكشف عن الدور الكبير الذى قام به فكر العقاد فى تدعيم النظام الاجتماعى الذى اقامته الطبقة الوسطى فى مصر والوطن العربى كله ، فقد اقامت الطبقة الوسطى نظامها الاجتماعى على عمودين رئيسيين هما الدين والقومية . ولذلك كان العقاد فى القسم الاخير من حياته « ١٩٣٥ ـ ١٩٦٤ » كاتبا شرعيا مقبولا ومعترفا به على نطاق واسع فى المجتمع ، ولم يكن احد ينظر اليه على انه كاتب متمرد ثائر يهز قواعد النظام الاجتماعى او يشكك فيه ، بل كان على العكس عاملا مساعدا على تدعيم هذا النظام وتأكيده ، والابتعاد به عن مناطق الخطر والاضطراب .

وساعد على ذلك ان العقاد لم يقدم « تفسيرا ثوريا للدين » ، بحيث يبدو الدين من خلال هذا التفسير دعوة الى التغيير الاجتماعى الواسع ، مثلما فعل طه حسين فى بعض كتبه مثل « الفتنة الكبرى » عندما ربط بين الدين والدعوة الى العدل والتغيير الاجتماعى ، والثورة على الظلم الاقتصادى ، بل وقف العقاد عند الحدود العامة للدين وما فيها من تثبيت عميق للقيم الاخلاقية الفردية عند الانسان ، فكان تفسيره للدين عموما من خلال العبقريات الاسلامية تفسيرا « اخلاقيا » وليس تفسيرا اجتماعيا أو سياسيا . وقد حرص العقاد كذلك على ألا يدخل فى الخلافات العقائدية للفرق الاسلامية المختلفة ، بل بقى فى كل كتاباته مسلما سنيا يحرص على ابراز ما يتفق عليه عامة المسلمين ، اى أنه كان مفكرا اسلاميا لكل المسلمين من كل الاجناس وكل الطبقات فى كل العصور . وهنا

يختلف العقاد عن مفكر اسلامى مثل محمد عبده ، التقى معه العقاد فى اتجاهه العقلى ، ولكنه اختلف عنه بعد ذلك ، فمحمد عبده كان يدعو الى دخول الاسلام ميدان التغيير الاجتماعى والسياسى ، ولذلك دخل محمد عبده بفكره الاسلامى معارك عنيفة حادة ، بينما بقى العقاد بفكره الاسلامى مرضيا عنه من الجميع ، ومعترفا به من الجميع ، لان اسلامه هو اسلام الجميع ، ولكن فى صورة أذكى وأعمق . ولكنه لم يحاول من خلال الاسلام أن يزلزل أى نظام اجتماعى او يدعو الى نظام جديد . بل لقد حاول البعض ان يستغل فكر العقاد الاسلامى فى الوقوف العنيد الحاد ضد شتى الافكار التقدمية المعاصرة التى تهدف الى تغيير المجتمع ، سواء ما كان الاسلام يرفضه من هذه الافكار فعلا ، او ما كان يلتقى معه دون اى افتعال او تعسف .

وكان موقف العقاد من القومية شبيها بموقفه من الدين ، فهو لم يقدم فى عبقرياته عن الزعماء القوميين : سعد ، وصن يات صن ، وغاندى ، ومحمد على جناح وغيرهم ما يمكن ان تستخلص منه فكرة تدعو الى الثورة والتغيير . وبناء عالم جديد ، بل كان يؤيد القوميات بمعناها القائم المتفق عليه ، والذى لا يثير خلافات او اعتراضات او انقسامات . والخلاصة ان العقاد من خلال عبقرياته قد قدم خدمة فكرية عميقة فى تدعيم مجتمع الطبقة الوسطى فى مصر والوطن العربى ، وفى تنوير هذا المجتمع وجعله مجتمعا عصريا ... ذلك ان العقاد لم يجعل من عبقرياته دعوة لتغيير النظام الاجتماعى أو تعديله ، بل جعل من هذه العبقريات بكل ما فيها من عمق وثقافة ونظرات نافذة عالما من القيم الاخلاقية العليا التى ينتفع بها الانسان الفرد فى تكوينه الشخصى ، دون ان يأخذ منها سلاحا لتغيير المجتمع او الثورة عليه فى سبيل فكرة اجتماعية جديدة .

ولكن العبقريات رغم هذا كله ، تعتبر من الاعمال الكبيرة البارزة التى قدمها العقاد للعقل العربى والوجدان العربى ... ولقد أجملت ما فى عبقريات العقاد من ايجابيات فى مقال كتبته بعد وفاته سنة ١٩٦٤ انقل منه هذه الفقرات واعتذر عما قد يبدو فى هذه الفقرات من تكرر لبعض الافكار المعروضة فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب :

ان ايمان العقاد بموهبته الخاصة وامتيازه ، جعله محبا للعباقرة عاشقا لهم ، يدافع عنهم بحرارة وحماس وعقل نفاذ ، حيث يبدو العقاد فى هذه العبقريات أقرب الى الفنان منه الى المؤرخ ، واذا استطعنا مثلا ان نضع كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل فى باب التاريخ ، فاننا يجب ان نضع « عبقرية محمد » فى باب الادب ، فالموقف الاساسى الذى يأخذه العقاد من « محمد » هو موقف « الاعجاب » ، ولكنه ليس اعجابا أبله ، انه اعجاب ذكى حساس ، وهو اعجاب رجل واسع الثقافة ، متنوع المعرفة ، لذلك جاء أشبه بقصيدة جميلة عن عبقرية محمد ... اننى أتصور هذا الكتاب قصيدة « ملحمية » طويلة عن النبى ، وهى قصيدة تتكون من مقاطع متعددة هى فصول الكتاب .

انه يتغنى بعبقرية النبى ، لكنه ليس غناء المتصوفين مثلما فعل البوصيرى مثلا فى قصيدته « البردة » ، ولكنه غناء فنان عصرى ، ممتاز العقل ، ملم بأطراف واسعة من الثقافة الانسانية ، وهذه الثقافة تخدم موقفه الوجدانى ، ولكن هذا الموقف الوجدانى هو الاساس فى نظرة العقاد الى العبقرية . وهذا هو موقفه فى النظر الى مختلف العباقرة الذين صرف معظم جهوده فى الكتابة عنهم .

ومما يدل على هذا الموقف الوجدانى ويؤكده ان العباقرة الذين يتحدث عنهم العقاد لا يعرفون الضعف من وجهة نظره ، ولا يقعون فى الخطأ ، وليس هذا موقفا يمكن ان يقفه المؤرخ بحال من الاحوال ، فالمؤرخ يدرس الوقائع ويمحصها ، ويرفض ما لا يقبله العقل منها ، والمؤرخ يمكن ان يدين الاشخاص الذين يستحقون الادانة حتى ولو كانوا عباقرة . ولكن العقاد لا يدين عباقرته ابدا ... انه معجب بهم وشديد الفتنة ... حتى فى المواقف التى تلوح للآخرين خطأ ... او على الاقل تبدو مواقف فيها شبهات .

وهذا الموقف هو موقف الفنان العاشق وليس موقف المؤرخ الفاحص .

والعقاد يذكرنا فى عبقرياته بالشاعر الشعبى الذى يروى ملاحم الابطال ، فيطرب له الناس ويسعدون . ان العقاد ايضا يقول : تعالوا اسمعكم قصة رجل عبقرى ... قصة انسان عظيم .

وللعقاد فى عبقرياته نظرات شديدة النفاذ والعمق والتـأثير عـلى النفس ... وأذكر على سبيل المثال كتابه « ابو الشهداء » ، فقد كتب فى هذا الكتـاب عن الحسين بن على ، فخرج الكتاب اغنية رائعة عن الاستشهاد والتضحية ... انه كتاب مؤثر الى حد بعيد ، وهو لا يقف ابدا عند حدود شخصية الحسين ، بل يتعداها الى تصوير نفسية الشهيد فى كل زمان ومكان ، والى تصوير أزمته ومحنته فى هذا الوجود .

وهكذا نجد العقاد يهتز بكل وجدانه أمام العبقرية الفـردية ... انـه يؤمن بالانسان العبقرى ، ويؤمن بأن الحضارة من صنع العباقـرة اولا وأخيرا ... فالعباقرة فى نظره هم الذين يصنعون التاريخ .

وهو عندما يفكر فى العبقرى او يكتب عنه ، انما يبحث عن مفتاح شخصيته ، عن النقطة الاساسية التى يدور حولها وجوده كله ، وشخصية ابى بكر مثلا تدور كلها حول مفتاح واحد هو « الاعجاب بالبطولة » . وكل فضائل أبى بكر تنبع من هذه الفكرة الرئيسية ، وكل جوانب سلوكه تظهر فى ضوء هذا المصباح الكبير ، ولذلك فان عبقريات العقاد تحمل ما يمكن ان نسميه فى الاصطلاح الحديث باسم « المادة الدرامية » ، فلو اراد كاتب ان يكتب مسرحية حول حياة أبى بكر لوجد فى كتاب العقاد عنه هذه المادة الدرامية الأصيلة ، لانه يقيم بناء الكتـاب على تفسير خاص محدد لشخصية البطل ، ويتتبع هذا التفسير حتى أبعد أعماقه وزواياه ... وعلى ضوء هذا التفسير الاساسى يمكن لاى كاتب مسرحى ان يبنى عملا فنيا من الطراز الاول ، فالعبقريات لا تقدم مجموعة من المعلومات المنسقة المتتالية ، بل تقدم بناء متكاملا للشخصية الانسانية .. يقوم على تصور خاص من جانب العقاد ، وهو يتعهد هذا التصور حتى يبـرزه آخر الامـر فى صورة جميلة .

والعبقرية عند العقاد هى فى اساسها موهبة وإلهام ، ولذلك فهى اذن صادرة عن قوة علوية ، ولعل هذا كان سببا من الاسباب القوية التى دفعت العقاد الى الاتجاه « للميتا فيزيقا » او الى ما وراء الطبيعة ، بدلا من الاتجاه الى الطبيعة والمجتمع . ولقد كانت تجربة العقاد الخاصة عاملا من العوامل التى ساعدته على

الابتعاد عن التفسير الاجتماعي والطبيعى للحياة . فقد ظهرت عبقريته الخاصة رغم الظروف الاجتماعية السيئة التى كانت تحيط به ، اذ كان فقيرا ولم ينل من الشهادات الا ما يناله أى موظف صغير متواضع، ومع ذلك فقد قفز الى الصفوف الاولى فى الحياة المجتمع ، ولم يكن معه سوى شهادة واحدة هى موهبته الإلهية ... هى عبقريته ونبوغه ، وفى المرة الوحيدة التى التقيت فيها بالعقاد اخذ يتحدث فى بساطة أقرب الى السذاجة عن موضوع رئيسى ، هو انه وصل الى اعلى المراكز الادبية والاجتماعية بدون ثروة او شهادات ... لقد وصل عن طريق عبقريته ونبوغه. عن طريق الموهبة الإلهية التى استطاع ان ينميها ويستغلها أحسن استغلال ، بمجهوده وإرادته الصلبة العنيدة .

وتجربة العقاد الخاصة كانت خيطا سحريا يربط بينه وبين سائر العباقرة بعاطفة قوية ، شديدة الحرارة والاخلاص . ولو استخدمنا أسلوب العقاد فى عبقريته فاننا نستطيع ان نقول : ان « حبه للعبقرية » صفة تصلح مفتاحا لشخصيته ، فهو يطرب للعبقرية كما يطرب النحل بين الزهور ، وكما يطرب العصافير فى الربيع ، وحتى فى مواقفه السياسية كان حبه للعبقرية دافعا اساسيا من دوافع العمل والتصرف فى حياته ، فقد كان مرتبطا بسعد زغلول اكثر من أرتباطه بالوفد ، ثم ترك الوفد بعد وفاة سعد بسبع سنوات لاسباب عديدة من بينها انه لم يجد فى الوفد شخصا آخر يقوم مقام سعد فى نظره ... لم يجد شخصا يهزه ، ويثير فيه اعجابه الكامن بالبطولة والعبقرية ... فسعد زغلول كان بطلا وكان عبقريا ، فهو بليغ وذكى وهو ايضا ممتاز فى تركيبه وبنيته ، فمنظره يوحى اليك بكل ما فى الفلاح المصرى من قوة وصبر واحتمال ومقدرة على مجابهة المصاعب والمشاكل ... وقوة البنية من الظواهر التى كثيرا ما كانت تعتبر من دلائل النبوغ عند العقاد .

والعقاد معجب ، كما قلت ـ بالانسان الفرد والعبقرية الفردية ولذلك لم يكتب عن عصر من العصور او عن شعب من الشعوب او عن ثورة من الثورات .

وهو اذا كتب عن عصر او شعب او ثورة فهو انما يكتب عن ذلك ـ فى الاغلب ـ من خلال شخص من الاشخاص ، فقد كتب عن شعب مصر فصلين رائعين ،

ولكن هذا الحديث عن المصريين كان من خلال حديثه عن سعد زغلول . وكذلك فقد تحدث عن ثورة ١٩١٩ من خلال سعد زغلول ايضا ، وكتب عن الثورة الوطنية للصين من خلال زعيمها « صن يات صن » وعن الهند من خلال زعيمها غاندى ولا نكاد نستثنى من هذه القاعدة الا كتابة العقاد عن العقيدة الاسلامية ، فقد كتب عنها اكثر من كتاب واحد ولكن انتاجه الرئيسى ظل فى نطاق العبقريات الفردية لا عبقريات العصور او الشعوب او الثورات .

العقاد والصهيونية

كتب العقاد كثيرا عن الصهيونية وقضية فلسطين ، ولكنه لم يلتفت الى هذه القضية فى وقت مبكر ، كما فعل بعض أبناء جيل العقاد من كبار الكتاب مثل المازنى والزيات ، وبداية اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية كان فى سنة ١٩٤٧ ، وذلك عندما اصبحت قضية فلسطين عربية وعالمية فى نفس الوقت ، وعندما أثير اقتراح التقسيم ثم اخذت به هيئة الامم ، وانتهى الامر باقامة دولة اسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، بينما رفض العرب قرار التقسيم ، فلم تقم دولة فلسطين العربية ، ثم اشتعلت الحرب الاولى بين العرب واليهود سنة ١٩٤٨ ، وهى الحرب التى انتهت بانتصار اليهود وهزيمة العرب .

ولكن قضية فلسطين كانت مثارة بالنسبة للأمة العربية منذ وقت مبكر ، فقد أثارها وعد بلفور سنة ١٩١٧ على نطاق واسع ، ثم أثيرت بعد ذلك على المستوى العربى العام ، نتيجة للانتفاضات الثورية المختلفة لابناء شعب فلسطين ، وخاصة فى الثلاثينات ، ومع ذلك فاننا لا نجد العقاد يلتفت الى الحركة الصهيونية الا فى سنة ١٩٤٧ عندما اصبحت قضية يومية ساخنة ، بالنسبة للوطن العربى وبالنسبة للعالم كله .

ولكى يتضح الفارق بين موقف العقاد وبين بعض ابناء جيله من كبار الكتاب والادباء ، يكفى ان نقرأ ما كتبه زميل العقاد وصديق عمره ابراهيم عبد القادر المازنى عن فلسطين سنة ١٩٣٨ ، اى قبل اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية بتسع سنوات تقريبا . يقول المازنى فى مقال عنوانه «فلسطين لا تقهر» نشره فى

مجلة « الرسالة » فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، تعليقا على الانتفاضة الثورية لشعب فلسطين العربية فى تلك الايام ، وهى الاحداث التى لم تلفت نظر العقاد ولم يعلق عليها بشىء ... فى هذا المقال يكتب المازنى بحرارة عن شعب فلسطين فيقول :

« كنا فى حديث فلسطين يوما ، فأخذ بعضنا يصف ما يبدى الثوار من الجرأة والذكاء وسعة الحيلة وحسن التدبير والحكمة ، وروى فى هذا المعرض قصصا عجيبة ، فهم بالقليل الموجود من السلاح القديم ، يقاومون أمضى الاسلحة الحديثة ، من طيارات ودبابات ، ومدافع جبلية ، ومدافع رشاشة ، وليس لهم سيارة واحدة ينتقلون بها ، ولكنهم فى كل مكان ، ويصنعون القنابل بأيديهم ، ويتخذون من انابيب الماء فوهات مدافع ، ويتخذون خطة الهجوم فى كل حال ، ويتولون الحكم بين الناس ، ويقضون بالعدل ، ويفضون المنازعات ، ويطوون صفحات الخلافات والعداوات القديمة ، ويدخلون المحاكم ، وينحون قضاة الحكومة ويقضون هم فيما هناك فينفذ امرهم ، ولا ينفذ أمر الحكومة ، ويشيرون باتخاذ العقال بدلا من الطربوش أو غيره من ألبسة الرأس ، فاذا هو على رأس كل عربى من أبناء البلاد ، ولو كان يصطاف فى مصر أو سوريا ، وقد زالت هيبة الحكومة ، وكفت محاكم الصلح عن العمل الا فى مدن أربع ليس ألا ، وصارت الحكومة الحقيقية هى حكومة الثوار » .

« وقال احد الذين كانوا فى المجلس : ان هذا لعجيب ! ولا شك أن بين الثوار كثيرين من المثقفين والمتعلمين ، ولكن السواد الاعظم اقرب الى السذاجة والفطرة فكيف تيسر كل هذا لهم ؟ » .

« فلم يسعنى الا أن اقول : انهم يعملون بوحى الفطرة المستقيمة ، وليس عجبا ان يحسنوا التدبير ويحكموا الخطط ويضبطوا الامر ، ويظهروا ذكاء واقتدارا ، وهل كان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية واضرابهم من خريجى كمبردج وسان بيير أو من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه ؟ أريد ان نقول اننا لا نتعجب لما ظهر من مواهب العرب بعد ظهور الاسلام ، وما كان من تغلبهم على دولتين كبريين فى ذلك العهد ، وفى آن معا ، فلا محل اذن للتعجب لما قدرت عليه ثورة العرب فى فلسطين ، حيال دولة كبرى شاكية مستعدة » .

ثم يقول المازنى بعد ذلك :

« والواقع ان فلسطين لم يعد فى الامكان قهرها وإرغامها على قبول ما لا تقبل ، ولقد استفزها الى هذه الثورة المجيدة ظلم أريد بها ، ولا مثيل له فى التاريخ ، على الاقل فيما أعرف انا . ويجب ان نذكر ان العرب كانوا حلفاء لبريطانيا وزميلاتها فى الحرب العظمى ، وقد خرجوا على دولة الخلافة يومئذ ، وهى دولتهم ، واكثرهم مسلمون ، بل كان الثائرون على السلطة العثمانية الملتحقون بجيش الثورة العربية من المسلمين » .

« فعلوا ذلك لانهم طلبوا الحرية ، ونزعوا الى الاستقلال ، وقد عرفت بريطانيا هذا ، ورضيت به ، وشجعتهم عليه ، ووعدتهم بتحقيقه ، ولو كانوا يعلمون انهم سيصيبهم ما أصابهم لما ثاروا ، اذ لا خير ولا معنى لاستبدال نير بنير » .

« وهذا الجيش العربى هو الذى أعان على فتح فلسطين وسوريا ، وسلخ البلاد العربية كلها من السلطة العثمانية ، وكان جيش بريطانيا يدخل بلدا بعد بلد ، فيجد الامور ممهدة ، ويقابل بالترحيب والحفاوة لانه حليف العرب » .

« فماذا كان جزاء العرب ؟ مزقت بلادهم كل ممزق ، وأخلفت الوعود كلها ، فلم ينجز الحلفاء للعرب منها واحدا » .

هذه فقرات مما كتبه المازنى سنة ١٩٣٨ . وقد تعمدت ان أقدم مقاطع طويلة من هذا المقال ، لانه يكشف عن مدى اهتمام المازنى بمتابعة قضية فلسطين وسائر القضايا العربية ، والكتابة عن هذه القضايا بالكثير من الوعى الذى كانت تسمح به ظروف تلك المرحلة بل لقد كان وعى المازنى بعروبته أسبق وأعمق من ظروف تلك المرحلة .

هذا الاهتمام بقضية فلسطين من جانب المازنى ، رفيق العقاد وصديقه ، لا نجد له شبيها فى كتابات العقاد . وهناك عدة اسباب وراء عدم اهتمام العقاد بقضية فلسطين قبل سنة ١٩٤٧ .

فالعقاد ككاتب سياسى كان غارقا على الدوام فى تيارات السياسة المصرية المحلية ، فهو كاتب حزبى ، يعبر عن الحزب الذى ينتمى اليه ، ويشتبك فى الصراعات اليومية المختلفة التى يخوضها هذا الحزب مع غيره من الاحزاب ، ولم تكن قضية فلسطين جزءا من الصراعات السياسية المحلية فى مصر الا منذ

سنة ١٩٤٧ ، حيث اصبحت هذه القضية جزءا اساسيا يدور حوله الصراع السياسي بين الاحزاب المصرية ، وخاصة بعد دخول الجيش المصرى الى ميدان القتال فى فلسطين .

ومن ناحية ثانية فان العقاد فى معظم كتاباته السياسية كان أشبه بالمعلق السياسى منه بالمفكر السياسى ، رغم ان جانبا رئيسيا من كتاباته السياسية كان يتميز بالثقافة الواسعة والعمق ، ولم يكن مجموعة من الكتابات السريعة التى تعبر عن عواطف مؤقتة وعابرة . والفرق بين المعلق السياسى والمفكر السياسى هو ان المعلق السياسى يناقش الاحداث بعد ان تقع ، ويحاول تفسيرها وتقديم رأى فيها ، بينما ينطلق المفكر السياسى من مبادىء معينة يؤمن بها ، ويدعو اليها ، ولذلك فهو يسبق الاحداث ويتنبأ بها ، ويحاول ان يشارك فى صنعها وتوجيهها ... فلقد كان هارولد لاسكى مثلا مفكرا من مفكرى حزب العمال البريطانى ، ولكن هذا المفكر السياسى لم يكن مجرد معبر عن رأى حزبه ، بل كان أحد الذين خلقوا فيه تيارا فكريا واسعا ، وأحد الذين أسهموا فى تغيير اتجاهات الحزب .

ولكن العقاد لم يكن معروفا عنه - ككاتب سياسى - انه استطاع ان يغير بعض اتجاهات الاحزاب التى كان ينتمى اليها ، بل لم يكن يحاول الاضافة الى مبادىء هذه الاحزاب بشكل من الاشكال .

ولكى تكون هذه القضية اكثر وضوحا ، فاننا نستطيع ان نقارن بين العقاد وبين الدكتور محمد مندور ، الذى ورث مكان العقاد القديم فى حزب الوفد ، فلقد كان العقاد فى العشرينات وأوائل الثلاثينات هو كاتب الوفد الاول ، وكان مندور فى الأربعينات هو كاتب الوفد الاول ، وقد استطاع مندور - مع بعض الشباب الآخرين - ان يخلق داخل حزب الوفد تيارا كاملا هو تيار الفكر الاشتراكى ، والذى كان يتمثل فيما سمى باسم « الطليعة الوفدية » ، بينما لا نستطيع ان نجد للعقاد - رغم اهمية دوره فى حزب الوفد ، وفى حزب السعديين بعد ذلك - ما يمكن ان يكشف عن تيار خاص به استطاع ان يخلقه بحيث ينتسب هذا التيار اليه .

لقد كان العقاد يتخذ فى كتاباته السياسية موقف التعليق ، لا الكشف

والمبادرة والابتكار والاضافة ، وكان من ناحية أخرى يتجلى بذكائه وثقافته وقوة تعبيره ومواهبه كلها فى المعارك السياسية اليومية التى كان يشتبك فيها مع كتاب الاحزاب المعارضة وزعمائهم .

ولقد استطاع المازنى أن يخرج من دائرة السياسة المصرية المحلية قليلا ، وان يكوّن لنفسه بعض الاتجاهات والمبادىء التى لا ترتبط بظرف محلى او أحداث سياسية يومية ، ومن هذه الاتجاهات والمبادىء كان اهتمام المازنى المبكر بالقضايا العربية من بينها قضية فلسطين ، ولذلك فقد كان معروفا عن المازنى انه يميل الى فكرة الوحدة العربية ويؤمن بها ، ويرى ان قضايا العرب هى قضايا شديدة المساس بمصر ومصيرها .

ولكن العقاد لم يكشف عن شىء من هذا الميل العربى بشكل واضح مباشر الا عندما فرضت القضايا العربية نفسها على مصر ، وكانت قضية فلسطين منذ سنة ١٩٤٧ قضية مصرية بقدر ما هى قضية عربية .

هذه العوامل التى أدت الى تأخر اهتمام العقاد بالقضية الفلسطينية كان لها تأثيرها على طريقة تناوله لهذه القضية وأسلوب تفكيره فيها وتعبيره عنها .

فالعقاد لم يستطع ان يجرد قضية فلسطين عن القضايا المصرية اليومية ، ولم يستطع ان ينظر الى هذه القضية نظرة عامة ، تبتعد بها عن السياسة المصرية اليومية .

فقد كان فى كثير من كتاباته عن فلسطين منطلقا من الدفاع عن السياسة التى اتخذها النقراشى والحزب السعدى ازاء فلسطين ، كما ان العقاد من ناحية اخرى قد ادخل قضية فلسطين فى مجال الصراع العنيف الذى نشأ بينه وبين الشيوعيين خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، اى قبل سنوات قليلة من اهتمامه بقضية فلسطين .

ولنقف بعد ذلك بشىء من التفصيل مع رأى العقاد فى الصهيونية وقضية فلسطين .

عبر العقاد عن آرائه فى الصهيونية وقضية فلسطين فى مجموعة كبيرة من المقالات ، نشر معظمها فى جريدة « الاساس » منذ ١٩٤٧ ، وقد ظهرت هذه المقالات فى كتاب بعنوان « الصهيونية وقضية فلسطين » وهو الكتاب الذى نشر

بعد وفاة العقاد . وأصدر العقاد كتابا عن « الصهيونية العالمية » سنة ١٩٥٥ وفى هذين الكتابين أهم ما كتبه العقاد عن هذه القضية .

ويتناول العقاد فى كتابته عن الصهيونية عدة جوانب ، ويتعرض لها من زوايا متعددة .

الجانب الاول الذى اهتم به العقاد ونجح فيه الى حد بعيد هو حديثه عن الاصول الدينية والتاريخية للصهيونية . ففلسطين هى أرض عربية تاريخية حتى قبل ان يهاجر اليها العبرانيون بوقت طويل ... ويقول العقاد : « يغلب على ظن الكثيرين ان الصهيونية حركة دينية قديمة وأنها مرتبطة بما ورد من الوعود للخليل ابراهيم عليه السلام . والواقع انها ليست بالحركة الدينية ، وليست بالحركة القديمة فى بنى اسرائيل أنفسهم ، ولكنها حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها فى بيت داوود. فغاية ما بلغه ابراهيم عليه السلام تحت قمة صهيون انه اشترى قبرا هناك بالمال ، كما جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين فى العهد القديم » .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن هيكل سليمان الذى بناه فى بيت المقدس فيقول :

« لم يتفق اليهود انفسهم على قداسة المدينة بعد قيام الهيكل بها ، فان الملك « يهواش » ملك اسرائيل أغار عليها واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية ، ثم قفل الى السامرة ، وجاء فى العهد القديم خبر وفاته على الصبغة المرضية فقيل عنه انه اضطجع مع آبائه اى قضى على الاقل غير مغضوب عليه » .

ثم يقول العقاد عن الاصل العربى لفلسطين :

« واذا رجعنا الى كلمة « صهيونية » نفسها لم نجد لها اصلا متفقا عليه فى اللغة العبرية ، وأكثر الشراح يرجحون انها عربية الاصل ، لها نظير فى اللغة الحبشية ، وانها من مادة الصون والتحصين ، وكانت فعلا من حصون الروابى العالية ، والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من ابناء الجزيرة ، الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين ، وهم الذين اطلقوا على الارض اسم ارض كنعان بمعنى الارض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وقنع وخنع بهذا المعنى فى لغتنا العربية الحاضرة » .

ويقول العقاد مؤكدا على عروبة فلسطين منـذ قديم الزمـان وذلك فى كتاب « الصهيونية وقضية فلسطين » ص ٨ :

« ان العرب لا يحتاجون الى بحث طويل لاثبات حقهم القديم فى فلسطين ، واقامة هذا الحق على انهم ابناء البلاد الاصلاء من قبل عهـد ابراهيم عليـه السلام ، فان كتب الصهيونيين نفسها تروى عهد « يهوا » لابراهيم وتروى معه ان البلاد كانت يومئذ فى ايدى الكنعانيين . وقد جاء فى الاصحاح الثانى عشر من سفر التكوين ان ابراهيم اجتاز الارض الى مكان شكيم ... وكان الكنعـانيون حينئذ فى الارض . وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك اعطى هذه الارض ... » .

« وكنعان اسم عربى لا شك فيه ، وهو يدل عـلى سكان البـلاد الواطئة فى ساحل فلسطين . وعلماء الاجناس الثقات متفقون على ان الكنعـانيين والآراميـين مهاجرون من جزيرة العرب ، نزلوا فى وادى الاردن ودخلوا منه الى فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم ارض كنعان ، ثم جاء اليونان فـأطلقوا عـلى الارض اسم فلسطين » .

ويـؤكد العقـاد على المعنى الرئيسى فى فكـرته عن الصهيـونيـة ، وهـو ان الصهيونية ليست فى حقيقتها دعوة دينية ، بل هى دعوة سياسية تهدف اساسا لمصلحة اليهود ، وتهدف بعد ذلك لخدمة مصالح أخرى ، مثل قوة الاستعمار الحديث ، وذلك عندما تلتقى مصلحة الصهيونية بمصلحة الاستعمار . ويضيف العقاد عنصرا آخـر الى مصادر قـوة الصهيونيـة هو التعصب الغـربى ضد الاسلام.

والحقيقة ان العقاد يبرهن بقوة على زيف الاصل الدينى للصهيونية ، ويعتمد فى ذلك على ثقافة واسعة ، وإحاطة بالقضيـة ، وقدرة دقيقـة على الاستنتـاج والبرهان .

يقول فى كتاب « الصهيونية وقضية فلسطين » ص ٨:

« اما قضية الوعد الذى من اجله سميت فلسطين بأرض الميعاد ، فخلاصتها ان ابراهيم عليه السلام كان فى العراق ، فضاقت به وبقومه ، واضطر الى الرحلة فى البادية كما ترحل القبائل البدوية الى اليوم . فلما اشرف عـلى ارض كنعان اعجبته ، ووَدّ لو اتسعت له فيها سبل السقى والمرعى . ولكنـه لم يستطع ان

يتحول من تخومها الى داخلها فانحدر منها الى مصر ، ثم عاد اليها فجعل يطوف حولها زمنا ولا يتمكن من دخولها . وكان عزاؤه فيما حفظته كتب العهد القديم بعد ذلك ان « يهوا » ظهرله فناداه : أن ارفع عينيك وانظرمن الموضع الذى انت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، لان جميع الارض التى تراهـا اعطيكهـا لك ولنسلك الى الابد . واجعل نسلك كتراب الارض حتى اذا استطاع احد ان يعد تراب الارض فقد يستطيع ان يعد نسلك » .

« وكتب اليهود ليست بحجة على غيرهم ولا بحجة على أعـدائهم فى انتزاع ارضهم . ولكن خصومهم يناقشونهم فيقولون : لو كان هذا العهد ميثاقا نافذا لملك ابراهيم الارض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فى حياته ، ولكنه لم يملكها كما هو معلوم » . ثم يقول العقاد بعد ذلك :

« على كل تقدير يصح ان يقال ان ابناء ابراهيم قد ملكوا فلسطين لان قبائل قريش هم ابناء اسماعيل بن ابراهيم ، ويصح ان يقـال ان بنى اسرائيـل قد اخلفوا وعده كما قال موسى عليه السلام فعوقبوا بالحرمان والتشريد » .

ويقول العقاد فى كتابه « الصهيونية العالمية » ص ٢٢ :

« ومما يؤيد تلفيق الدعوة الدينية فى مسألة الصهيونية الحديثة ان إمام هذه الصهيونية الاكبر تيودور هرتزل لم يفكر فيها الا بعد سنوات من صيحته الاولى فى سبيل « خلاص اليهود » وانما كانت فكرته الاولى تحويل اليهود الى المسيحية وانشاء مدرسة فى فيينا لابتداء هذه المحاولة ، واقناع الجاليات اليهودية بـين الامم الأخـرى بمحاكـاتها ، ثم نـظر اليهود فـوجدوا لهم « لزومـا » فى دسائس الاستعمـار ، ومساعيـه الخفية والظاهـرة ، ووجـدوا لهم « لزومـا » فى عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة العثمانية ، ووجدوا لهم « لزوما » فى عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركة الرجل المريض ومنها فلسطين ، فجاءت الصهيوينة بعد ذلك كله « وليدة السياسة » كما كانت وليدة لها فى أقدم عهودها » .

ولاشك ان مناقشـة العقاد للاصـل الدينى هى مناقشـة سليمة وعميقـة ، وبراهينه فيها قوية ودقيقة ، وهى قريبة جدا من البراهين التى اعتمد عليهـا وتوسع فيها وتبناها بعد ذلك المؤرخ البريطانى الكبير ارنولد توينبى . فالدراسة

الدقيقة للصهيونية تكشف بكل وضوح ان الدين فى هذه الحركة هـو أداة من أدوات الاستغلال والاثارة والتبـرير ، وليس أصـلا من أصول هـذه الحركـة ولا مصدرا من مصادرها الصحيحة .

وبعد ان يجرد العقاد الصهيونية بذكاء وثقافـة وعمق ـ من استنادهـا الى الدين ، يقف امام العنصر الثانى الذى استغلته الحركة الصهيونية على نطاق واسع فى الدعوة الى اقامة اسرائيل ، وهذا العنصر هو الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى المجتمعات المختلفة .

ويرى العقاد ان هذا الاضطهاد حقيقة تاريخية مؤكدة ، ولكنه يضع هـذه الحقيقـة فى اطار ثلاثـة اعتبارات ... يقـول العقاد فى كتـابـه « الصهيـونيـة العالمية » ص ٤٣ :

« نريد ان نقول ـ اولا ـ ان الصهيونية هى المسئولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى ابناء دينها .

وان نقول ـ ثانيا ـ ان الصهيونيين أشد الناس اضطهادا لغيرهم اذا ملكو القدرة الظاهرة أو الخفية .

وان نقول ـ ثالثا ـ ان الصهيونيين يستغلون دعوى الاضطهاد ويتخذونها وسيلة لتخدير الامم باسم الانسانية والغيرة على الحرية » « الصهيونية مسئولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين أمم العالم ، لانها من قديم الزمن تقسم العالم الى قسمين متقابلين : قسم اسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله لغـير سبب الا انهم ابنـاء اسـرائيـل ، وقسم آخـر يسمـونـه قسم الامم او « الجوييم » ويشملون به جميع الناس من جميع الاقوام والاجناس » .

ويستعين العقاد بنصوص من التواراة ليثبت بها وجهة نظره من ان اليهود مسئولون عما يلقون من اضطهاد فيقول : « ... فى التوراة من سفرالخـروج « قال الرب لموسى رأيت هذا الشعب واذا هو شعب صلب الرقبة » ، وفى السفر نفسه بلسان الإله : « انى لا أصعد فى وسطك ، لانك شعب صلب الرقبة لئلا افنيك فى الطريق » ، وفى سفر التثنية يقول لهم موسى عليه السلام : « انى عارف تمردكم ورقباكم الصلبة » ، وفى سفر التثنية ايضا يقول لهم : « ليس لاجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الارض الجيدة لتمتلكها ، لانك شعب غليظ الرقبـة » ،

وليس فى العهد القديم سفر واحد خلا من وصف كهذا الوصف بمعناه او بما هو أشد من معناه ، ولم تتغير طبائعهم بمضى الزمن الى ايام السيد المسيح ، فان السيد المسيح هو الذى يخاطب أورشليم قائلا : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة أردت ان أجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدى » . ولاشك ان وجهة نظر العقاد فى قضية اضطهاد اليهود صحيحة فى اساسها ، فاليهود فى معظم المراحل التاريخية هم المسئولون عما أصابهم بسبب عزلتهم ، ورفضهم الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وبسبب سلوكهم الاقتصادى الذى يقوم على الاستغلال والاستفادة من المصاعب التى يمر بها الأخرون ، وقد صورهم شكسبير فى مسرحيته المشهورة « تاجر البندقية » تصويرا صادقا عميقا ، فالتاجر اليهودى « شيلوك » يتاجر بمصائب الناس ، ويرفض ان تتزوج ابنته من مسيحى ، ويحاصرها حتى لا تختلط بأحد ، ويحاول ان ينتقم من الآخرين ويتشفى فيهم ، وينتهى به الامر بأن يصبح مكروها من الجميع ومرفوضا لدى الجميع .

والعقاد لم يشر فى حديثه عن « اضطهاد اليهود » الى ان المجتمعات العربية والاسلامية بوجه عام ـ فى العصور القديمة والحديثة على السواء ـ لم تعرف ظاهرة اضطهاد اليهود ، بل لقد برز عدد كبير منهم فى الحضارة الاسلامية مثل موسى بن ميمون وغيره من العلماء والمفكرين . وفى المجتمعات العربية الحديثة عاش اليهود بأعداد كبيرة فى صفوف العرب دون ان يمسهم احد بسوء ، بل كانوا يعيشون فى العراق والمغرب ومصر دون ان تظهر ضدهم اى مظاهر للرفض الاجتماعى او السياسى او الاقتصادى ، بل لقد كانوا فى مصر على سبيل المثال يسيطرون على جانب بارز من اقتصاديات البلاد ، دون ان يعترض احد عليهم او يستنكر تغلغلهم فى الحياة الاقتصادية المصرية ، ولقد كان الاستنكار دائما ينصب على الاستغلال الاقتصادى وعلى الاستغلال الراسمالى ... ولم تظهر اى اتجاهات تنادى بالاعتراض على اليهود لانهم يهود، بل لقد وصل بعض اليهود المصريين الى اعلى مناصب الدولة فى مصر ، فقد كان يوسف قطاوى « باشا »

اليهودى وزيرا للمالية ، ثم وزيرا للمواصلات فى وزارة « أحمد زيور باشا » « من نوفمبر ١٩٢٤ إلى يونيه ١٩٢٦ »

لقد كانت الحضارة الاسلامية والمجتمعات العربية عموما هى ارحم الحضارات والمجتمعات فى معاملتها لليهود ، وكان الاضطهاد الذى تعرض له اليهود هو اضطهاد المجتمعات الغربية ، ومع ذلك فان العرب الان هم الذين يتعرضون لاقصى انواع الانتقام من الحركة الصهيونية .

على ان العقاد فى تفسيره الصحيح لاسباب الاضطهاد الذى تعرض له اليهود ، ورد هذه الاسباب الى اليهود انفسهم يتعرض احيانا لبعض المبالغات التى تقوده الى الخطأ ، والخطأ الذى وقع فيه هنا هو محاولته نفى اضطهاد النازية لليهود الى الحد الذى دفعه الى ان يقول فى كتابه « الصهيونية العالمية » ص ٤٧ :

« والاعجوبة الكبرى فى دعوى الاضطهاد ان الصهيونيين يستخدمونها لاقناع الناس بمطالبهم ، ولا يتورعون عن أكذوبة قط فى سبيل مطلب مقصود » .

« هل يخطر على بال احد ان هجرة اليهود من المانيا كانت باتفاق مع هتلر ؟ وأن حركة الاضطهاد كانت تنظم على علم من الرعاة الصهيونيين فى القارة الاوربية ؟ » .

« هل يخطر على بال احد ان الصهيونية كان لها مكتب معترف به فى برلين ، وانها كانت على اتصال دائم « بالجستابو » عن طريق هذا المكتب وفروعه فى البلاد الالمانية » .

« نعم . كان لها مكتب معلوم فى العمارة رقم (١٠) من شارع « ميين كستراس » يديره اثنان احدهما يدعى « بينو » والثانى يدعى « بار جلعاد » ، وكلاهما من زعماء الحركة الظاهرين فى انحاء القارة الاوربية ... وكان هذا المكتب ينظم الهجرة الصهيونية سرا الى فلسطين ، فى الوقت الذى تثار فيه الثائرة على الجستابو وفظائعه المسلطة على اليهود . ولما أعلن الجنرال مورجان ، بعد هزيمة المانيا ، انه لم ير احدا من المهاجرين فى حالة سيئة ، وأنهم جميعا يهاجرون ووجوههم مشرقة ، وجيوبهم منتفخة بالاموال هبت عليه الاقلام المأجورة من انحاء العالم تتهمه بالنازية والتواطؤ مع الاعداء ، وتلح على حكومته

بوجوب تجريده من القابه ومن كسوته العسكرية ، جزاء له على كشف القناع عما وراء الستار » .

بهذا المنطق يندفع العقاد الى « الخطأ » من وجهة النظر العلمية والتاريخية ، لأنه فى محاولته اثبات فكرته عن ان اليهود هم السبب الأصلى فى اضطهاد الناس لهم ، فانه يبرىء النازية الالمانية من خطيئة ثابتة ضدها ، وهى اضطهاد اليهود وقتلهم بالآلاف ، وليس معنى اضطهاد النازية لليهود ، ان النازية لم تسمح لعدد من اليهود بالهجرة وجيوبهم مملوءة بالمال ، وليس معناه ان النازية لم تتفق احيانا مع اليهود ، ولكن الخطأ العام للنازية ولا شك هو اضطهاد اليهود .

على ان قضية اضطهاد اليهود على يد النازية قد ضخمتهاالدعاية الصهيونية حقا واستفادت منها فائدة كبيرة ، فالنازية اذا كانت قد اضطهدت اليهود ، فانها اضطهدت الاشتراكيين والشيوعيين والديمقراطيين المسيحيين فى داخل المانيا نفسها ، وإذا كانت النازية قد اضطهدت اليهود ، فقد فعلت ذلك كجزء من اضطهادها لسائر ابناء الشعب الالمانى باستثناء من ينتمى منهم للنازية ، بل لقد اضطهدت النازية قسما من النازيين أنفسهم أشد الاضطهاد وقام هتلر باغتيال صديقه الزعيم النازى « روهم » قائد جيش العاصفة النازى عندما اختلف معه حول حل جيش العاصفة وضمه الى الجيش الالمانى الرسمى .

فالنازية كانت حركة ارهابية دموية ، لم يسلم أحد منها فى المانيا ولا فى العالم ، واليهود قد تعرضوا مثل غيرهم لاضطهاد النازية ، ولكنهم بالغوا أشد المبالغة فى الحديث عن مظاهر هذا الاضطهاد ، وأستغلوه أسوأ استغلال فى الدعوة لاقامة وطن قومى لهم فى فلسطين . وكأن اضطهاد النازية لليهود كان هو الاضطهاد الوحيد الذى وقع من النازيين على غيرهم .. وكأن اضطهاد النازيين لليهود من ناحية أخرى يبرر سرقة الوطن العربى فى فلسطين من أبنائه العرب .

وبدلا من أن يثير العقاد فى كتابه عن الصهيونية هذه الحجج الرئيسية حول اضطهاد النازية لليهود ، آثر أن ينفى هذا الاضطهاد اصلا ، معتمدا على بعض الوقائع التى تثبت أن هناك نوعا من التعاون بين النازية والصهيونية ، رغم أن هذا التعاون بين النازية والصهيونية فى لحظات معينة وفى ظروف محدودة لا ينفى ابدا أن اليهود قد تعرضوا لا ضطهاد عنيف على يد النازية ، ونفى هذا

الاضطهاد النازى لليهود لا يفيد القضية العربية بحال من الاحوال فنحن العرب لا ننكر على اليهود حقهم فى الحياة ، ولا ننكر ظروفهم الصعبة التى تعرضوا لها فى البلدان الاوربية ومن بينها المانيا النازية ، لكن العرب هم آخر من يصح ان يطالبهم احد بدفع ثمن ما أصاب اليهود ، فقد عاش اليهود فى البلدان العربية فى أمان ورخاء دون ان يتعرض لهم أحد بسوء ، كما عاشوا فى ظل الحضارة الاسلامية على مر العصور دون أن يتعرضوا لاى نوع من أنواع الاضطهاد أو الخطر .

أن موقف العقاد من « اضطهاد اليهود » يبدو سليما عندما يفسر هذا الاضطهاد فى اسبابه الرئيسية بسلوك اليهود أنفسهم ، ولكن العقاد يخطىء أشد الخطأ عندما ينفى بعض الوقائع التاريخية الثابتة عن أضطهاد اليهود ، وليس هناك أى مبرر علمى أو وطنى لهذا الانكار والنفى .

يتعرض العقاد بعد ذلك لقضية أخرى كانت موضوعا للدعاية الصهيونية فى شتى انحاء العالم ، وهى قضية النبوغ اليهودى ، وهذا النبوغ كان فى نظر اليهود سببا من أسباب اضطهادهم فهم يرون فى أنفسهم كما يقول العقاد « أنهم قوم محسودون لانهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الامم .. فهم ناجحون فى ميادين الاعمال ، ناجحون فى ميادين العلوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة خليق بهذا النجاح الملحوظ أن يجلب عليهم الحسد والكراهية لغير ذنب جنوه » .

ويبرهن العقاد بالدليل القاطع المستمد من تاريخ الحضارة على أن هذه الدعاية كاذبة ولا تعتمد على أى برهان من براهين العلم .. فهو يرد على هذا الادعاء ببرهان واقعى فيقول « الصهيونية العالمية » ص ٥٠ :

« فى مصر كثير من الجاليات التى تعمل فى ميادين الحياة العامة غير الصهيونيين . فيها جاليات من اليونان ، ومن الارمن ومن اخواننا أبناء الامم العربية الشرقية . ونظرة سريعة الى الناجحين من كل جالية ، ترينا بالحساب والارقام أنهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين . ويبقى بعد ذلك فارقان عظيمان : الفارق الاول ان الناجحين من هذه الامم ينجحون فى التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وأن الصهيونيين على خلاف ذلك قلما ينجحون فى

عمل غير السمسرة والتجارة ، والفارق الآخر أن الجاليات الاخرى تعمل وحدها ولا تستند الى عصبة عالمية من أبناء قومها منتشرة فى أرجاء العالم ، وليس منها طوابير خامسة مبثوثة فى كل بقعة تعاونها سرا وجهرا ، وتحارب من ينافسونها ويزاحمونها كما يفعل الصهيونيون » .

ثم يعود العقاد بعد هذا البرهان الواقعى الى تقديم براهين اخرى مستمدة من تاريخ الحضارة فيقول « ص ٥١ » :

« ونعود الى دعوى النبوغ فى العلوم والفنون فلا نرى ان الصهيونية أنشأت لها ثقافة مستقلة قط فى زمن من الازمان ، وانما يستفيد الصهيونى الالمانى من ثقافة المانيا ، ويستفيد الصهيونى الامريكى من ثقافة امريكا ، ويقال مثل ذلك عن الصهيونيين فى أيطاليا وسويسرا وهولندا والبلجيك . فهم يستفيدون من ثقافات هذه الامم ، وينبغى لذلك أن يكون الناجحون منهم أضعاف الناجحين من جميع الأمم » بينما تؤكد الحقائق التاريخية أن اليهود أقل من غيرهم فى عدد النابغين بكثير .

. ثم يقدم بعد ذلك برهانا حضاريا آخر يكشف خطأ دعوى تميز اليهود بالنبوغ على غيرهم من شعوب العالم فيقول :

« أن المقياس الصحيح لنبوغ الصهيونيين فى العلوم والفنون هـو تاريخهم القديم » .

« وقد كانت فى الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الالوف من المجلدات فى الطب والفلك والجغرافيا والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التى احترقت فى بعض الحروب عنوانا لثقافة الامم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تواليف هذه الامم ومقتبساتها ، فكم كتابا كانت فيها من تواليف الصهيونيين الاقدمين ؟ كم اثرا من آثارهم فى علوم الفلك أو الجغرافيا أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟ لا كتاب ، ولا أثر ، ولا ثمرة .. وهذا هو المقياس الصحيح لتلك العقول وتلك الكفايات » .

« ولقد كان أذكياء اليهود يخجلون من هـذه السبة ، وكـان أذكياء الامم يعايرونهم بها ويسألونهم عنها . كما فعل « إبيان » حيث وجه السؤال بصدده الى المؤرخ اليهودى يوسفيوس ، فبماذا أجاب يوسفيوس ؟ » .

« إنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار وانما اعترف بها واعتذر منها كما قال بحروفه : أننا نسكن بلدا بعيدا من البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الامم مواصلات ، فهل من العجب أن أمة كهذه الامة على بعدها من البحر ـ قبل اشتغالها بالكتابة ـ تظل مجهولة بين غيرها ؟ »

ثم يورد العقاد بعد ذلك تعليقا لفولتير على عبارة « يوسفيوس » يقول فولتير :

« على فرض ان كتب العهد القديم تعتبر من كتب الصهيونية لابد أن نلاحظ أن أثنين وعشرين كتابا صغيرا ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا الى آكام الكتب التى كانت محفوظة فى مكتبة الاسكندرية ... ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا ، وأنهم كانوا على جهل مطبق فى علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعيات وأنهم لم يفقهوا شيئا من تواريخ الامم الاخرى ولم يبدأوا بالتعلم الا فى الاسكندرية ، حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف وما كانت لغتهم الا خليطا بربريا من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة فى تصرفات الافعال ، فقيرة فى أدوات التعبير وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها .. »

بهذه الحجج الدقيقة العميقة المستمدة من الواقع ومن تاريخ الحضارة يناقش العقاد دعوى النبوغ اليهودى ، وهى الدعوى التى تتردد الان بصورة اخرى عندما تقول الصهيونية « أن اليهود شعب متحضر ، والعرب شعب متخلف ، والحضارة تهزم التخلف دائما » .. وقد يكون الواقع الراهن دليلا على أن اسرائيل قد تفوقت على العرب فى الاخذ بأساليب الحضارة العصرية ، نتيجة للمساعدات الاستثنائية التى نالتها اسرائيل ، ونتيجة للضغوط العنيفة التى تعرض لها العرب ... ولكن هل معنى هذا ان اليهود أكثر نبوغا واستعدادا للحضارة من الشعوب الاخرى ؟.. ذلك ما نفاه العقاد ورد عليه أفضل الرد وأعمقه .

وينتبه العقاد الى الارتباط الواضح بين الصهيونية من جانب والاستعمار العالمى من جانب آخر ، ويؤكد دائما ان هناك ارتباطا بين اسرائيل وبريطانيا ثم بين اسرائيل وأمريكا . وبذلك يكون العقاد قد أدرك جوهر الحركة الصهيونية ، وتناول بالتحليل والنقد تلك الافكار الرئيسية التى تقوم عليها هذه الحركة ، سواء

كانت هذه الافكار دينية أو كانت أفكارا سياسية وحضارية . ولا شك أن كتاب العقاد عن « الصهيونية العالمية » يعتبر من أكثر الكتب العربية تركيزا ودقة ووضوحا وفهما للحركة الصهيونية ، ويستحق هذا الكتاب فى معظم فصوله اهتماما واسعا من جانب القارىء العربى لا نه يرسم صورة متكاملة للصهونية فى بساطة وايجاز واقناع ، على أن هذه الدقة لا تشمل كل فصول هذا الكتاب ، فهناك فصول تقوم على افكار خاطئة مضطربة ، كما ان الكتاب الثانى الذى صدر للعقاد عن « الصهيونية وقضية فلسطين » ويضم مقالاته المتفرقة التى كتبها عن هذه القضية فى أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات .. هذا الكتاب يكشف عن بعض الاخطاء الاساسية فى نظرة العقاد الى الصهيونية ..

والاخطاء الرئيسية التى وقع فيها العقاد فى كتابيه تتركز فى ثلاثة أخطاء :

الخطأ الأول للعقاد يتمثل فى حديثه عن الصهيونية وربطه الدائم «بين الصهيونية والشيوعية » ، فهو يقول فى مقال بعنوان « الشقيقتان فى فلسطين » ص ٤٨ من كتاب « الصهيونية وقضية فلسطين ..» :

« والشقيقتان المقصودتان - بل التوآمان - هما الصهيونية والشيوعية ، فهما كما قلنا منذ سنوات شىء واحد على الاقل فى تسعة أعشار الطريق ، لان الشيوعية تلغى الاوطان والاديان وقواعد الاخلاق وفضائل الحمية الانسانية على الاطلاق . ومتى بطل كل هذا فليس بين الصهيونية والسيادة على العالم حائل واحد مما يحول بينها وبين السيادة عليه فى الوقت الحاضر ، ولهذا يؤيد الشيوعيون قضية الصهيونية فى كل مكان ، مع أن هذه القضية فى ظاهرها هى قضية الوطن الدينى لليهود ، وليس فى الشيوعية وطن ودين ، فلماذا يؤيد الشيوعيون وطنا دينيا لليهود أن لم تتفق الغاية بينهما فى نهاية المطاف ؟ »

بهذا المنطق تقترن الصهيونية عند العقاد بالشيوعية . والعقاد فى هذا الموقف يعتمد على رأيه فى الشيوعية ، وهو الرأى الذى عرضناه فى فصل سابق من هذا الكتاب وناقشناه بالتفصيل ، وهو يعتمد بعد ذلك على موقف روسيا والكتلة الشيوعية من قرار التقسيم ، فقد كان موقف الشيوعيين هو تأييد قرار التقسيم الذى أصدرته هيئة الامم فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، ورغم كل التبريرات التى حاولت الحركة الشيوعية ان تقدمها لتفسير موقفها من تأييد التقسيم ، الا ان

هذا الموقف كان صدمه حقيقية للنضال العربى كله ، وهو موقف يبـرر هجوم العقاد أو أى مفكر عربى آخر عليه ، ولكن الفرق كبير بين مهاجمة موقف سياسى للدول الشيوعية ، وبين الربط التام بين « الصهيونية والشيوعية » على اعتبارهما وجهين لعملة واحدة ، وبحيث يبدو كما يقول العقاد ـ ان الشيوعية تمهد لسيادة الحركة الصهيونية على العالم كله ـ .

لقد حاولت صحيفة الحزب الشيوعى البريـطانى « ديلى ووركـر » أن تبرر موقف الكتلة الشيوعية من تأييد قرار التقسيم فقالت فى مارس ١٩٤٨ :

« أن الاستعمار الامريكى البريطانى يجمع قواه ويـوحد صفـوفه لمحـاولة القضاء على التقسيم بينما ترجو الكتلة اليسارية السوفييتية المناصرة للتقسيم أن تمضى روح التقدم فى الدولتين الجديدتين فى فلسطين قدما ، فى طريقها الى الامام وأن تأييد الاتحاد السـوفييتى للتقسيم كان ضمـانا لقيـام « جارتـين متحابتين » وذلك سعيا لتحقيق الهدف الاخير ، وهو « قيام دولة عربية يهودية مشتركة » . وقالت الصحيفة « أن الروح التقدمية غمرت فلسطين وان اليهود أحسوا فى نهاية الانتداب بداية السلام »[1] .

ومثل هذا الموقف كان « خطأ سياسيا » فادحا من وجهة النظر العربية ، ولقد كان من الواضح ان هذا الموقف مبنى على سوء الفهم للقضية الفلسطينية من ناحية ، ومبنى من ناحية أخرى ـ كما يقول طارق البشرى فى كتابه عن الحركات السياسية فى مصر ص ٢٦٥ ـ « على أن السياسة الشيوعية كانت تستهـدف من تأييد الدولة اليهودية أن تحاول جذبها بعيدا عن الاستعمار الصانع الحقيقى لها والمصدر الحقيقى لضمان بقائها » .

ويبدو أيضا أن السياسة الشيوعية قد تأثرت بمعاملة الدول لهـا ، فقد كـانت معـظم الدول العـربيـة تحـارب الشيـوعيـة بعنف وتـرفض حتى الاعتـراف الدبلوماسى بالدول الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى .

وقد كان هذا الموقف خطأ من الدول الشيوعية ، لان الـرد علـى سوء معاملة « الحكومات » العربية الرجعية لم يكن يجوز ان يتم على حساب شعوب الـوطن العربى .

---

١ ـــ طارق البشرى ـ الحركات السياسية فى مصر ص ٢٦٤ و٢٦٥ .

وقد ساعد على إظهار موقف الشيوعية من القضية العربية بصورة سيئة ان جانبا كبيرا من الشيوعيين العرب قد أيدوا قيام دولة اسرائيل ، ورفضوا فكرة دخول الجيوش العربية فى حرب ضد اليهود ، فالحزب الشيوعى المصرى المعروف باسم « حدتو » أو « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى » « أيد قرار التقسيم ، وعارض بشدة دخول مصر حرب فلسطين »[1] وكان هذا الحزب يرى « أن إثارة حرب فلسطين إثارة لحرب دينية » لا يفيد منها سوى المستعمر وأن الكفاح المسلح مطلوب ضد الاستعمار وتعبئة الجيوش العربية مطلوبة ضد بريطانيا لا من أجل الحرب فى فلسطين[2] وقال هذا الحزب تأييدا لمشروع التقسيم « أننا لا نريد أن ننزع فلسطين من العرب ، ونعطيها لليهود ، بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود ، ولا نوافق على التقسيم الا مضطرين كأساس لا ستقلال فلسطين ، ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر فى الدولتين العربية واليهودية[3] وجاهدت الحركة مجاهدة كبيرة فى أن تتصدى لموجة النضال فى فلسطين ضد التقسيم ، وللاتجاه العام الذى يطالب بالسلاح وتكوين الكتائب ، ونادت الحركة الشيوعية المصرية بتوجيه هذين المطلبين ضد الاستعمار « لنوجه السلاح الى الاستعمار فى فايد وقنال السويس والسودان ولن يمكن تحرير فلسطين وظهورها مكشوفة للعدو ، لنحرر وأدى النيل لنتمكن من تحرير الشرق كله »[4] .

وكان هذا الموقف من جانب الحركة الشيوعية العالمية والحركة الشيوعية المحلية موقفا خاطئا ، وكان معارضا لاتجاه الجماهير العربية والرأى العام العربى ، ولقد كان المنتظر من الحركة العربية الشيوعية المحلية أن يكون لها رأى مخالف لرأى الكتلة الشيوعية فى قضية فلسطين ، بل كان المفروض ان تلعب الحركة الشيوعية المحلية دورا رئيسيا فى تغيير موقف الكتلة الشيوعية نفسها على اعتبار ان الشيوعيين العرب يعيشون فى قلب القضية ويرون ابعادها الحقيقية ، وكان عليهم ـ ويدهم فى النار ـ أن يكونوا عامل ضغط على الكتلة الشيوعية لكى تغير موقفها من القضية الفلسطينية ، ولكنهم على العكس ساروا وراء الكتلة الشيوعية فأيدوا التقسيم وتعارضوا تماما مع المشاعر العربية العامة .

---

١ و٢ و٣ و٤ ـ طارق البشرى ـ الحركات السياسية فى مصر ص ٢٦٢ و٢٦٣

كل هذه الاخطاء تبرر ولاشك الاعتراض على موقف الكتلة الشيوعية وعلى موقف الشيوعيين المحليين . . ولكن الخطأ السياسى شىء والارتباط الكامل بين الشيوعية والصهيونية عن قصد وتدبير كما قال العقاد شىء آخر .

فالصهيونيـة تتناقض فى أسسهـا الفكريـة تناقضـا تامـا مع الشيـوعية ، لان الصهيونية حـركة قـومية متعصبـة أو كما يقـول الشيوعيـون حـركـة « شوفينيـة » والشيوعية ترفض الاساس القومى لقيام الدول والانظمة السياسية ، كما ترفض القوميات المتعصبة على وجه الخصوص . والحركة الصهيونية تثير نوعا حادا من الصراع بين الشعوب ، والشيوعيـة لا تؤمن الا بالصـراع الطبقى ، وتـدعو الى ضرورة حله بالانتصار للطبقة العـاملة ، والصهيونيـة متحالفـة كل التحـالف مع الاستعمار والرأسمالية « أمريكا وانجلترا » وأصحاب الملايين بين اليهود فى العالم كله والشيوعية ترفض الاستعمار والرأسمالية وأصحاب الملايين .

فلا مجال من وجهة النظر العلميـة الصحيحة والنـزيهة للربط بـين الشيوعيـة والصهيونية ، وقد انفض التحالف المؤقت بين دولة اسرائيل وبين الكتلة الشيوعية بعد سنوات قليلة من قيام دولة اسرائيل ، وأدرك الشيوعيـون مدى مـا ارتكبوه من خطأ فادح بتأييد التقسيم وقيام اسرائيل ، وهناك دولة شيوعية كبرى ظهرت على المسرح الدولى سنة ١٩٤٩ وهى الصين وقد رفضت هذه الدولة اسـرائيل منـذ البداية وحتى الان رفضا كاملا ونهائيا ، ولم تعترف الصين باسرائيل أى نوع من الاعتراف .

وخطأ العقاد فى الربط بين الشيوعية والصهيونية ، وخطؤه فى عدم التفرقة بين المواقف السياسية والمواقف الفكرية يذكرنا بخطأ آخر شهير له هو ربطه بين « النازية والشيوعية » واعتبارهما مذهبا واحدا أو مذهبين متشابهين فى أحسن الفروض .

إن هذا الموقف الفكرى من جانب العقاد يدل على الخطأ المتعمد حيث لا يمكن أن نعتبره مجرد نوع من الخطأ العابر وغير المقصود ، لان العقاد كان قادرا لو تسلح بقدر كاف من الحياد والنزاهة العلمية فى هذه القضية أن يعرف الحقيقة ، ولكن العقاد يتجاوز كافة القيود العلمية عندما يدخل فى خصومة سياسية ضد حزب ، أو فكرة ولقد كانت خصومته للشيوعية معروفة وقد رضى ان يندفع فى هذه الخصومة الى حد يتجاوز الحقائق العلمية ... وهذا التجاوز لم يكن فى صالح العلم ولا فى

صالح القضية العربية ، لان الجهد الذى بذلته القوى الوطنية التقدمية العربية بعد ١٩٤٧ استطاع ان ينبه الكتلة الشيوعية الى خطئها الفادح ـ عقائديا وسياسيا ـ فى موقفها من قضية فلسطين ، واستطاع هذا الجهد ان يغير من موقف الكتلة الشيوعية يوما بعد يوم ، حتى اصبح موقف الكتلة الشيوعية وخاصة الاتحاد السوفييتى مختلفا تمام الاختلاف عما كان عليه فى البداية .

هذا هو الخطأ الاول فى موقف العقاد من الصهيونية ، أما الخطأ الثانى فهو تفسيره غير العلمى لبعض الحركات الفكرية فى العالم ، على أساس أن اصحاب هذه الحركات الفكرية هم من اليهود . فالعقاد يرد حركات الفكر المعروفة فى العصر الحديث الى مؤامرة صهيونية تهدف الى تدمير العالم ، فالماركسية مؤامرة على العالم لان منشئها هو كارل ماركس اليهودى الاصل ، والتحليل النفسى مؤامرة على العالم لان منشئه هو سيجموند فرويد اليهودى الاصل ، والوجودية مؤامرة لان منشئها سارتر وهو من أصل يهودى عن طريق أمه .

يقول العقاد فى كتابه « الصهيونية العالمية » ص ٩١ :

« لن تفهم المدارس الحديثة فى أوروبا ما لم تفهم هذه الحقيقة التى لا شك فيها وهى ان اصبعا من الاصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وترمى الى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الانسان فى جميع الازمان ، فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الاخلاق والاديان ، واليهودى دركيم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الاسرة بالاوضاع المصطنعة ويحاول ان يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب ، واليهودى أو نصف اليهودى ـ سارتر وراء الوجودية التى نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والانحلال » .

ويقول العقاد بعد ذلك فى نفس الكتاب عن فرويد ص ٩٢ :

« من ذلك فرويد صاحب المذهب المشهور فى الطب النفسانى وان كان ليقال فيه ما قلنا عن ماركس ودوركيم وسارتر ، أنه كان من وراء علم النفس الذى يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والاسرية الى الغريزة الجنسية ويحاول ان ينسخ قداستها ويخجل الانسان منها ، ويسلبه الايمان بسموها وسمو

مصدرها حين يردها الى أدنى ما يرى فى نفسه وبهذا تتمزق صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه » .

ويهاجم العقاد بعد ذلك اينشتين فيقول فى نفس الكتاب « الصهيونية العالمية » ص ٩٤ :

« ومثل آخر هو البرت اينشتين صاحب نظرية النسبية ، وأكبر ما فى يهوديته ان الكثيرين يحسبونه « مستقلا » منقطع الصلة بها لانه يعيش ايامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء ولكنه كان ينادى بالعصبية الصهيونية حين لا يضطره أحد الى هذا النداء . وقد نشرت بعد وفاته مجموعة من الرسائل والخطب فى طبعة جديدة ، وقيل أنه أقر اختيارها وتنسيقها فى هذا الكتاب . ويجهر اينشتين فى جملة من هذه الرسائل « بعصبيته الصهيونية » ويؤمن باسرائيل كأنها عالم البعث للحياة اليهودية وليست مجرد وطن ومأوى للمضطهدين من المهاجرين » .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك فى كتابه « الصهيونية العالمية » أيضا عن كاتب أوروبى معروف من أصل مجرى هو ماكس نوردو . ويهاجم العقاد ماكس نوردو ، ويعتبره نموذجا للكاتب الصهيونى الذى يعمل فى معظم كتبه مثل كتاب « الانحطاط » وكتاب « أكاذيب الحضارة الحديثة » على تحقيق أهداف الصهيونية العالمية .

والعقاد فى حديثه عن المفكرين اليهود يقع فى خطأ واضح له عدة مظاهر .

فاتهام العقاد لكل المفكرين اليهود بلا استثناء بأنهم يمثلون مؤامرة عالمية على الحضارة ، ينفى ان يكون بين اليهود فى أى وقت من الاوقات افراد ممتازون يرفضون ما فى الصهيونية من أخطاء ، أو يبتعدون بطريقة سلبية عن أخطاء الحركة الصهيونية . وهذا موقف غير سليم ، فلا شك أن الصهيونية شىء واليهودية شىء حتى ولو كانت كل الدلائل الراهنة تقطع بأن معظم اليهود متعاطفون مع الصهيونية .

والعقاد يرفض الاعتراف بأى تحول قد يطرأ على اليهود ، فعندما يتحول ماركس الى المسيحية فهو يعتبر ذلك نوعا من التآمر على الفكرة الدينية لمصلحة الصهيونية . . ولكن العقاد فى سبيل تأكيد فكرته يتجاهل بعض الحقائق العلمية التى تنفى فكرته وتتعارض معها ، فكارل ماركس مثلا له دراسة معروفة عن

« المسألة اليهودية » يهاجم فيها اليهود هجوما عنيفا وصريحا ومباشرا . فكيف نفسر ان ماركس يهاجم اليهود ويدينهم خدمة للصهيونية ؟! . إن ماركس فى هذه الدراسة يقدم دليلا على أن هناك بعض اليهود يمكن أن يتحولوا فكريا ويعارضوا الصهيونية ، كما يمكن لهم أن يعارضوا اليهودية نفسها معارضة شديدة .

يقول ماركس فى رسالته عن « المسألة اليهودية » :

« المال هو إله اسرائيل ـ ويعتقد اليهود أنه لا ينبغى معه لاى اله ان يعيش . ان المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعا »[1] .

ثم يقول ماركس فى نفس الدراسة : « نحن نتميز فى اليهودية عنصرا مناهضا للمجتمع ، وهذا العنصر توصل الى نقطة الاوج فى الزمن الحاضر ، وهى نقطة لا يستطيع معها الانحلال »[2] وينادى ماركس فى دراسته عن المسألة اليهودية « بأن التحرر الاجتماعى لليهود هو تحرير المجتمع من اليهودية[3] وذلك بناء على تفسيره الاساسى بأن « المال هو إله اليهود » فتحرير المجتمع الانسانى من « ألوهية المال » هو تحرير له من اليهودية التى تعنى أساسا خدمة « ألوهية المال » .

ان منهج العقاد هنا ، وهو المنهج الذى يعتبر مجرد انتماء بعض المفكرين الى اليهود مبررا نهائيا لادانتهم والشك فيهم هو منهج خاطىء ، لأنه يخالف الحقيقة العلمية احيانا ، ولانه يضيف لليهود قوة ليست لهم . . . فماركس على سبيل المثال معارض للصهيونية بل معارض لليهودية نفسها ويمكن أن تكون حججه المختلفة ـ وهو من أصل يهودى ـ دليلا صادقا على ادانة اليهود وإدانة الصهيونية ، فهو مفكر عرف اليهودية وتربى فى أحضانها ، ثم استنكرها وثار عليها . . ويجىء العقاد رغم ذلك ليصر على أن ماركس متآمر باسم اليهودية ومن أجلها .

ومن ناحية أخرى نجد أن هجوم العقاد على هذا العدد الكبير من المفكرين المعروفين فى تاريخ الفكر الانسانى يبدو وكأنه دعوة الى الجهل ، لانه يرد كثيرا من النظريات العلمية الكبرى الى سبب واحد هو « التآمر الصهيونى » . . فمدرسة التحليل النفسى مؤامرة صهيونية تحت قناع علم النفس لان فرويد اليهودي هو

---

١ و٢ ـــ كارل ماركس ـ المسألة اليهودية ـ ترجمة محمد عيتانى ص ٣ .

٣ ـــ المرجع السابق ص ٦٤ .

مؤسس هذه المدرسة ، واينشتين صاحب نظرية النسبية متآمر صهيونى تحت ستار علم الرياضة ، وماركس متآمر يهودى تحت ستار علوم السياسة والاقتصاد . . الخ .

أن مثل هذا الموقف لا يمكن أن يؤدى الا الى نتيجة واحدة هى « الدعوة الى الجهل » والانعزال التام عن حركة الفكر الانسانى ، ولا شك أن مثل هذه الدعوة يمكن أن تكون كارثة على المجتمع العربى والفكر العربى على السواء ، والصواب هو أن ندرس شتى نظريات الفكر العالمى ، وأن نناقشها على أساس علمى ، وأن نكتشف من خلال المناهج العلمية المختلفة ما فيها من خطأ وصواب ... هكذا يجب أن نعامل التحليل النفسى، ونظرية النسبية، والنظرية الماركسية ... واذا قبلنا شيئا من هذه النظريات أو رفضنا شيئا فليكن القبول والرفض على أساس واحد هو الاساس العلمى ، أما أن نعتمد على مجموعة من المشاعر الخاصة والاوهام فنحن بذلك نضر أنفسنا ونضر الفكر العربى ، ولا نضر اليهودية ولا الصهيونية عندما نرفض ـ منذ البداية وعلى أساس غير علمى ـ كل النظريات الكبرى فى الفكر الانسانى اذا كان اصحابها من اليهود ، أو نرفض كل مفكر كبير اذا كان من أصل يهودى حتى لو كان هذا المفكر معاديا للصهيونية ومعارضا لليهود .

على ان العقاد فى هذا الهجوم الذى شنه على عدد من المفكرين اليهود قد وقع فى خطأ آخر هو أقرب الى أن يكون « سقطة فكرية » فقد هاجم العقاد فى كتابه « الصهيونية العالمية » الذى صدر سنة ١٩٥٥ مفكرا يهوديا معروفا هو ماكس نوردو ، وكان معظم الجزء الذى نشره العقاد عن « نوردو » فى كتاب « الصهيونية العالمية » منقولا من كتاب قديم للعقاد هو « مطالعات فى الكتب والحياة » ، فقد كتب العقاد فى هذا الكتاب القديم ثلاث مقالات عن ماكس نوردو نقل بعض فقراتها فى كتابه عن الصهيونية العالمية . وكانت مقالات العقاد عن نوردو منشورة من قبل فى جريدة البلاغ سنة ١٩٢٣ . وعندما نقل العقاد فقرات من هذه المقالات القديمة بعد ثلاثين سنة لنشرها فى كتاب الصهيونية العالمية ، اكتفى بنقل النقد الذى وجهه لماكس نوردو ولم ينقل أى عبارة من عبارات المدح التى وجهها لهذا الكاتب الصهيونى .

فالعقاد سنة ١٩٥٥ يهاجم ماكس نوردو ويدينه إدانة كاملة ويعتبره نموذجا من نماذج المؤامرة العالمية الصهيونية من خلال الفكر . ولكنه سنة ١٩٢٣ يدافع عن نوردو ويبرر كثيرا من تصرفاته وأفكاره ومواقفه ، رغم أنه كان يعرف نزعاته الصهيونية بوضوح ، ومعنى ذلك أن العقاد لم يكن معارضا للصهيونية سنة ١٩٢٣ ؟ فهل نرد ذلك الى عدم الفهم ؟ أم نرده الى عدم التقدير ؟

فى رأيى أن موقف العقاد من نوردو يمثل سقطة فكرية محسوبة على العقاد ولا مجال للدفاع عنها .

يقول العقاد فيما كتبه عن نوردو سنة ١٩٢٣ .. وكان ذلك بمناسبة وفاة نوردو « مطالعات فى الكتب والحياة » الطبعة الثانية ص ٣٩ ، ٤٠ :

« لما ظهرت الحركة الصهيونية كان نوردو من أعوانها الكبار وقادتها المعدودين ، وشن الغارة على الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يتهيب أن يتهمها بالتحريض على ذبح اليهود فى فرنسا وصرح مرة لاحدى الصحف الامريكية بأن قضية دريفوس انما كانت مقدمة مدبرة لا ستئصال اليهود وتقتيلهم كما يقتلون جهارا نهارا فى روسيا . وظل الى آخر ايامه غيورا على نشر الدعوة الصهيونية لا ينى كاتبا أو خاطبا فى تأييدها وشد أزرها ، الى أن صرح لورد بلفور تصريحه المعروف فشخص الرجل الى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية فى تفاصيل انشاء الوطن اليهودى فى فلسطين وقال هناك مقولة تروى عنه وهى أن انجلترا لا تساعد اليهود حبا لسواد عيونهم ولكن طمعا فى الدفاع عن قناة السويس » .

فنوردو صهيونى متعصب كما يقول العقاد بوضوح سنة ١٩٢٣ .. ومع ذلك فالعقاد لم يعترض على صهيونية الكاتب فى تلك الفترة ، ولم يهاجمه بسببها بل التمس لهذه النزعة الصهيونية التفسيرات والمبرارات حيث يقول فى نفس الكتاب ـ « مطالعات فى الكتب والحياة » ص ٤٠ :

« وقد يستغرب من العلماء الماديين ان يلقوا بأنفسهم فى غمار الحركات الدينية ويتشيعوا لها أشد التشيع كما كان يفعل نوردو ، ولكن هذا الذى يستغرب من سائر العلماء لا يجوز ان يستغرب من عالم اسرائيلى لما هو معلوم من ان اليهودية وطن للاسرائيليين وجامعة نفعية لا دين ولا نحلة فحسب . ونذكر ان بعض الاسرائيليين الانجليز كتبوا بعد الحرب يطلبون أن تعتبر لهم فى

انجلترا جنسيتان احداهما دينية قومية والاخرى وطنية مدنية ، وهذا مع أنهم يرتقون فى تلك البلاد الى مراتب النبلاء ويتبوأون مناصب الوزارة ورئاسة القضاء ، وما جعلهم كذلك الا تشتتهم وضعفهم وأنهم حرموا الوطن السياسى فسار لهم من الدين وطن معنوى ينوب عن معالم الارض وتخومها . واستهدفوا من أجل هذه العصبية وقلة عددهم فى بلاد الناس لأخطار واحدة وظنون متقاربة فأصبح نضال الرجل منهم عن نحلته صورة أخرى من نضاله عن نفسه ومصلحته وكرامة شخصه ، ولهذا لا نرى غرابة ما فى تصدى طائفة من العلماء كلهم ملحدون لقيادة الدعوة الصهيونية » .

وقبل ذلك بصفحات قليلة من نفس الكتاب ـ « مطالعات فى الادب والحياة » ص ٣٧ يقول العقاد :

« وليس ماكس نوردو بمجهول فى مصر ، فقد ترجمنا له بعض آرائه فى إحدى المجلات قبل عشر سنوات وشاعت كتبه بين الادباء من ناشئتنا فتداولوها وتناقلوا آراءها واستفادوا منها . وانى لا شعر للرجل بمثل الصداقة الحميمة لطول عهدى بعشرته الادبية وسلوكى معه ما سلك من فجاج الفكر ومنافذه ووقوفى على اخباره وحوادثه حينا بعد حين ، حتى لقد فوجئت بنعيه كما يفاجأ صاحب بموت صاحبه الذى كان يحادثه ثم لم يلبث أن نعى اليه » .

هذا هو رأى العقاد القديم فى ماكس نوردو . وهو رأى يقوم على الاعجاب به والتبشير بآرائه ، رغم معرفة العقاد بالطابع الصهيونى فى شخصية نوردو ورغم معرفته بأنه أحد الذين يعملون جهارا نهارا على سرقة الوطن العربى الفلسطينى من أهله الاصلاء . بل أن العقاد لا يندهش ولا يجد سببا للغرابة فى اشتراك نوردو فى الحركة الصهيونية ، بل لا يرى غرابة فى الدعوى الصهيونية نفسها فقد أصبح نضال اليهودى عن صهيونيته أو يهوديته صورة « أخرى من نضاله عن نفسه ومصلحته وكرامة شخصه » .. والعقاد بعد ذلك يؤكد تقديره ومحبته وصداقته الوثيقة لنوردو ولفكره .

كانت تلك آراء العقاد سنة ١٩٢٣ .

ان خطأ العقاد هنا وهو الخطأ الذى يكاد ـ كما اشرت ـ يكون سقطة فكرية كاملة هو أنه يتحمس لكاتب صهيونى مثل نوردو ، ويعمل على نشر أفكاره ،

ولا يرى فيها غرابة ولا مساسا بضميره الوطنى . لقد كان واجب العقاد ان ينبه منذ البداية الى خطورة نوردو وأن يرفض منه دعوته الى أقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وان يعترض على هذه الدعوة أشد الاعتراض ، وأن تكون هذه الدعوة مبررا كافيا لكى يكشف للناس هذا المفكر الصهيونى بدلا من أن يعمل على نشر آرائه والحماس لها او لبعضها ، وبدلا من أن يلتمس لصهيونيته المعاذير . ولكن العقاد مر بالحقائق التى ذكرها هو نفسه عن تأييد نوردو للصهيونية ومساهمته فى العمل على اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين مر الكرام .

ثم يأتى العقاد بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة - أى فى سنة ١٩٥٥ فى كتاب الصهيونية العالمية - ليتهم نوردو بأنه متآمر صهيونى وقد كان هذا التآمر واضحا أمام العقاد سنة ١٩٢٣ ولكنه لم يلتفت اليه ، بل أن هذا التآمر الصهيونى الصريح فى شخصية نوردو لم يمنع العقاد من ان يؤكد اعجابه به وحماسه له . وينقل العقاد من مقالته القديمة عن نوردو فقرات ويغفل فقرات ، حتى يخفى على القارىء المعاصر حماسه القديم البالغ لنوردو .

ذلك خطأ واضح لا تبرير له فى موقف العقاد من هذا المفكر الصهيونى الصريح نوردو .. ولا يغفر للعقاد هذا الخطأ أنه غيّر رأيه فى نوردو سنة ١٩٥٥ بعد أن روّج له ولآرائه سنة ١٩٢٣ ، ولم يعارض فيه النزعة الصهيونية والعمل على اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

هل كان العقاد فى سنة ١٩٢٣ بعيدا الى هذا الحد عن الوعى بأى شىء يتصل بالمصلحة العربية ؟

... لقد كان العقاد فى سنة ١٩٢٣ كاتبا مرموقا أبرزته ثورة ١٩١٩ ، وكان عليه أن يلتفت الى المأساة الفلسطينية ويعتبرها مقياسا لتقييم كاتب صهيونى صريح مثل نوردو ، خاصة بعد وعد بلفور سنة ١٩١٧ وكان هذا الوعد مشهورا ومعروفا للجميع .

والخطأ الاخير فى موقف العقاد من الصهيونية هو اقحام العقاد لخصوماته الحزبية فى حديثه عن الصهيونية، واتهامه لمعارضيه السياسيين من العرب بأنهم أنصار للصهيونية وسوف يمر بنا فى الفصل التالى من هذا الكتاب حديثه عن

الشيخ حسن البنا ، ومحاولته لان يثبت بطريقة متعسفة انه يهودى يتخفى فى ثوب داعية للإسلام .

وهناك نموذج آخر نجده فى كتاب « الصهيونية وقضية فلسطين » .. ففى هذا الكتاب مقال بعنوان « الوفد الصهيونى » يصب فيه العقاد اتهامه على حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس .

يقول العقاد فى هذا المقال صفحة ٤٠ من كتاب « الصهيونية وقضية فلسطين » .

« اذا كانت العصابة النحاسية [1] لم تستحق لقب الوفد الصهيونى بما صنعته حتى الآن فى قضية فلسطين ، فوالله لقد استحقته كاملا شاملا بهذا البيان الملفق الذى طلعت به على المصريين والعرب أجمعين .

ثم يقول فى هذا المقال أيضا : « أن العصابة النحاسية لا تستطيع فى الواقع أن تنصر الصهيونيين وتخذل مصر والعرب بأكثر مما فعلت حين اذاعة بيانها الاخير ، وفيه تقول : لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان العمل الجدى الذى يتوقف عليه ازالة خطر الصهيونية عن شقيقتنا الشهيدة منوط بالحكومات العربية قبل الشعوب والافراد ... واذا نحن طالبنا الحكومات العربية باتخاذ الوسائل العلمية الناجزة لا نقاذ فلسطين من شر الصهيونية فأننا نطالب حكومة مصر فى طليعتها ان تخرج عن جمودها وتراخيها وبطئها وترددها وصمتها ، فتنتقل من حيز الجمود الى حيز الحركة والعمل دون أن تهاب من تهاب ، أو تحسب لاحد اى حساب » .

ثم ينقل العقاد بعد ذلك من بيان الوفد المصرى فقرة اخرى يقول فيها البيان مخاطبا ابناء فلسطين :

« لكم ودت الشعوب العربية وفى طليعتها مصر ، ان تقدم لكم ما يلائم حركتكم ، وما يتفق مع الخطر الذى يتهددكم ، ولكن الواقع ان لدى الحكومات من النظم والوسائل ما لا يتوفر لدى الافراد والهيئات ، فلم يكن بد من ان نتوجه

---

١ ـ نسبة الى النحاس باشا زعيم الوفد .

فى عزيمة وقوة مطالبين حكومة مصر والحكومات العربية ان تتخذ اجـراءات ووسائل عملية » .

ويستنتج العقاد من هذه الفقرات التى نقلها من بيان الوفد المصرى :

« أن الناس لو صدقوا هذا البيان لكان من نتائجه ما يلى :

أولا : أن يستخف النـاس بحركـة التطوع والتبـرع وتنـظيم المتـطوعـين والمتبرعين ، وأن يلقوا بالعبء على كواهل الحكومات لينحصر فى الحدود الرسمية التى تتقيد بها كل حكومة فى علاقاتها الدولية . وكان من نتائجه ثانيا ، أن ينقلب العرب من الثورة على الصهيونية الى الثورة على حكومات بلادهم ، لانها لا تتولى وحدها مهمة الجهاد الظاهر والباطن ، وهو فى الحقيقة جهاد تعمل فيـه الحكومـة عمل الحكومات ويعمل فيه الشعب عمل الشعوب » .

ثم يواصل العقاد تعليقه على بيان الوفد المصرى فيقول :

« فاذا تراخى المتطوعون والمتبرعون وانحصر عمـل الحكومـات فى نطاقـه المحدود بالأوضاع الدولية، وثار العرب عـلى حكومـاتهم ليحملوها عـلى الصطدام بالحكومات الكبرى علانية وجهارا ، فهذا ولا شك هو نتيجة الدعوة النحاسية التى تضمنها هذا البيان المشئوم . ولكن من المستفيد بهذه النتيجة ؟

أيستفيد منها العرب ام يستفيد منها الصهيونيون ؟

أن الجواب عند حاييم وأيزمن ، أو عند مصطفى النحاس ، فهما والله فى هذا الموقف المريب سواء ».

هذا هو تعليق العقاد على بيان الوفد ، وهو يبدو بوضوح منذ اللحظة الاولى معتمدا فى جانب كبير منه على التشهير السياسى الذى تعود العقاد ان يندفع اليه ـ بلا حساب ولا مراجعة لنفسه ـ فى معاركه الحزبية ، فما أسهل عنده ان يكون زعيم الصهيونية وزعيم الوفـد المصرى متشـابهين وان يكـونا متـآمرين معـا على مصر والامة العربية ، وما أسهل عنده أن يثبت الاصل اليهودى للشيخ حسن البنا ، لينتهى من ذلك الى ان دعوته هى دعوة صهيونية .. والجناية الاساسية عند مصطفى النحاس او حسن البنا هى أن كلا منهما يمثل معسكرا حـزبيا معاديا لحزب العقاد . ومن هنا استحق كل منهما اقسى درجات اللعنة وأخطر الوان الاتهام .

ذلك جانب من منهج العقاد الخاطىء فى خصوماته السياسية ، فما أسهل عنده الاتهام بالخيانة والعمالة وما الى ذلك من التهم التى لا يجوز أن يوجهها مفكر مسئول الى احد مواطنيه الا اذا كان بين يديه من الادلة القاطعة ما يثبت ذلك الاتهام ويجعل منه يقينا واضحا امام الجميع .

ولعل الشيء الوحيد الذى يمكن ان يخفف قليلا من خطأ العقاد فى هذا المنهج الذى كان يعتمد عليه فى جدله السياسى هو ان هذا النوع من التهم كان شائعا فى الخصومات الحزبية فى تلك الفترة فى مصر ، وقد تعرض العقاد لنوع من الاتهامات المشابهة من المعسكرات السياسية المعارضة لحزبه .

ولكن مسئولية العقاد تبدو أكبر من غيره لانه كاتب كبير ، ومفكر مسئول ، وكان عليه أن يرتفع فوق هذا المستوى من الجدل الخالى من الامانة والمسئولية ، وكان عليه ان يعمل على رفع مستوى المناقشات السياسية والادبية فى عصره بادئا بنفسه . ولكنه أختار فى كثير من الاحوال الطريق الشائع ، فسقط فى دوامة المناقشات الحزبية الرخيصة ، واستخدم أساليبها غير الكريمة وغير العلمية .

على أن خطأ العقاد فى مناقشته لبيان الوفد ليس مجرد خطأ اخلاقى يتمثل فى انه يلقى الاتهامات الحزبية ، بقصد التشهير ضد خصومه السياسيين ، بل يتمثل خطأ العقاد أكثر من ذلك فى أنه لم يقدر بيان الوفد حق قدره ولم يعرضه بأمانة علمية كافية .

واذا عدنا الى النص الاصلى لبيان الوفد ، وهو النص الذى نشرته جريدة « المصرى » فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٧ ، أى قبل نشر تعليق العقاد على البيان بيوم واحد .. اذا عدنا الى هذا البيان وجدنا انه بيان متماسك يعتمد على حجج قوية سليمة ، وان لم يسلم البيان بعد ذلك من الاساليب الانشائية التى كانت تسيطر على البيانات السياسية فى ذلك الحين ، وتدفع بها الى نوع من التعليمات التى لا تتناسب مع الدقة الكاملة المطلوبة فى مثل هذه القضايا الحاسمة .

لقد حذف العقاد من الفقرة التى نقلها من البيان كل ما يشير الى التأييد الشعبى الكامل لقضية فلسطين ، ونص الفقرة التى نقلها العقاد مع اثبات الحذف الذى أجراه فيها هو :

« أبناء فلسطين المجاهدين : لكم ودت الشعوب العربية وفى طليعتها مصر .

وانتم أعلم الناس بشعورها نحوكم ، واخلاصها لكم ان تقدم لكم ما يلائم حركتكم ، وما يتفق مع الخطر الذى يتهددكم فى أمنكم واهلكم وقوت أبنائكم ، ولكن الواقع ان لدى الحكومات من النظم والوسائل ما لا يتوافر لدى الافراد والهيئات ، فلم يكن بد من ان نتوجه فى عـزيمة وقـوة مطالبـين حكومـة مصر والحكومات العربية ان تتخذ اجراءات ووسائل علمية » .

ثم يقدم البيان بعد ذلك نموذجا من هذه الوسائل العمليـة تتمثل فى أربـع خطوات :

أ ـ أن تسارع الحكومات الى فتح خزائنها لمد فلسطين بالمال الكافى معاونة لاهلها ، وشدا لأزرها فى حركتها الخالدة ودأبها على حرب الصهيونيين حربـا لا هوادة فيها ، دون انتظار تبرعات من الافراد أو الهيئات ، فان هذه التبرعات بالغة ما بلغت لن تسد فراغا فى محنة فلسطين ، ولن تفى بما يتطلبه الجهاد من طائل الاموال .

ب ـ مد فلسطين بالمواد الغـذائية الفـائضة عن حـاجة الاستهـلاك المحلى ووجوب ايثارها بما تحتاج اليه من هذا الفائض الذى يبلغ مئـات الالوف من الاطنان .

جـ ـ مد فلسطين فى جهادها المقدس بحاجتها من الفنيين العسكريين والأطباء ومن اليهم » .

هذه هى بعض الوسائل التى يقترحها بيان الوفد ، وخلاصة البيان عموما أنه يشكك فى موقف حكومة النقراشى التى كانت قائمة فى مصر آنذاك ، والتى كان العقاد يدافع عنها وينتمى الى حزبها السياسى ، كما أن البيان كان يؤكد على أن القضية الفلسطينية ليست قضية تبرعات فردية أو مظاهرات فى الشوارع تهتف بسقوط الصهيونية والاستعمار ، ولكن القضية أكبر من ذلك وهى تحتاج الى دور واضح وحاسم من الحكومات والدول . ولعل العقاد لم يكن مخطئا عندما قال ان بيان الوفد يحض على الثورة ضد موقف الحكومات العربية التى كانت قائمـة آنذاك .

واليوم ونحن نلقى نظرة على أحداث تلك الفترة وقد مضى عليها ما يزيد على ربع قرن فأننا نجد أن بيان الوفد كان على صواب فى عناصره الرئيسية جميعا ، وأن ما نادى به هذا البيان هو ما أثبتت السنوات التالية صحته تماما .

فقد كان من حق الوفد ، ومن حق جميع القوى الوطنية ، أن تشك فى وزارة النقراشى ، وفى موقفها من قضية فلسطين ، لان الوزارة كانت ضعيفة فى سائر مواقفها من القضايا الوطنية الاخرى ، مثل قضية الاحتلال البريطانى لمصر ، وكانت الوزارة أداة فى يد الملك ، يحركها كما يشاء . ولا تستطيع وزارة على هذا القدر من الضعف أن تتصرف بالصورة السليمة فى مواجهة قضية غاية فى الاهمية والخطورة مثل قضية فلسطين . ونحن لا ندين وزارة النقراشى من خلال اتهام الوفد لها فقط ، فالوفد خصم سياسى ، وقد يكون فى اتهامه للنقراشى وسياسته هدف من أهداف الخصومة السياسية . ولكننا نستمد وثائق اتهام النقراشى من مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان شريكا للنقراشى فى الحكم ، لانه كان رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين الذى كان يقتسم الوزارة مع النقراشى ، وكان الدكتور هيكل فى نفس الوقت رئيسا لمجلس الشيوخ الذى كان يؤيد النقراشى ووزارته ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان هيكل أحد رجال الفكر المعروفين فى مصر ، وكل هذه العوامل تجعل لشهادته قيمة خاصة ، وتنفى عن هذه الشهادة شبهة التعصب ضد النقراشى .

يكشف الدكتور هيكل فى الجزء الثانى من مذكراته ص ٣٢٥ ما يقطع بأن النقراشى لم يكن يفكر فى دخول حرب فلسطين وإن كان هيكل نفسه يحاول تبرير هذا الموقف ... يقول الدكتور هيكل :

« أعلنت انجلترا أنها قررت أنهاء انتدابها على فلسطين ، وسحب قواتها منها فى موعد نهايته ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . وتركت لليهود والعرب مواجهة الموقف الذى ينشأ عن تنفيذ قرارها . وكان اليهود بعد قرار الامم المتحدة « بالتقسيم سنة ١٩٤٧ » يعدون العدة لانشاء دولتهم ، وكان وزراء خارجية الدول العربية يجتمعون يفكرون ما عساهم يصنعون للحيلولة دون انشاء هذه الدولة . وكان النقراشى باشا مصرا ازاء هذا الموقف على ألا يلجا الى القوة العسكرية حتى لا يدفع الجيش المصرى الى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة فى قناة السويس وراء ظهره » .

ويقول الدكتور هيكل بعد ذلك مشيرا الى أن النقراشى لم يكن صاحب الكلمة النهائية فى الحكم ، وانما كان الملك هو صاحب هذه الكلمة :

« ولو أن الامر فى مصر كان للنقراشى باشا وحده ، لبقى على اصراره ذاك . لكن الامر فى الواقع لم يكن كذلك » .

هذا هو موقف النقراشى كما يعرضه الدكتور هيكل شريكه فى الحكم والسلطة السياسية ، وهو موقف متخاذل يرفض ان يعطى اهتماما لقضية فلسطين أبعد من الكلام والتأييد اللفظى ، ويا ليت النقراشى حرص على موقفه آنذاك وهو الاصرار على عدم دخول الجيش المصرى حرب فلسطين .. اذن لقلنا انه صاحب اجتهاد سياسى خاطىء ، ولكنه مع ذلك مؤمن بهذا الاجتهاد حريص عليه .. خوفا من أن يكون الجيش المصرى فريسة للعدو الصهيونى والاحتلال الانجليزى فى وقت واحد ودون استعداد

ولكن النقراشى ـ كما تدل كافة البراهين ـ لم يكن حريصا على شىء بقدر ما كان حريصا على ان يستمر فى الحكم ، ذلك لان الملك فاروق ، رأى أن يدفع بالجيش المصرى الى حرب فلسطين ، فدخل الجيش هذه الحرب على غير علم النقراشى من ناحية وعلى غير رأيه من ناحية أخرى ، ولم يجد النقراشى أمامه الا ان يؤيد هذه الخطوة ، ويضفى عليها كل أنواع الشرعية السياسية ، رغم ما فى هذه الخطوة من جانب الملك من تجاوز لسلطات النقراشى الدستورية كرئيس للوزراء ، ورغم أنها خطوة معارضة تماما لما كان النقراشى يراه فى هذه القضية .

يقول الدكتور هيكل فى الجزء الثانى من مذكراته ص ٣٢٠ :

« كان موقف الملك من وزارته بعد قرار الامم المتحدة انشاء دولة اسرائيل وتمهيد اليهود لهذا الانشاء أشد ايضاحا لاستئثاره بتوجيه سياسة البلاد من كل ما يمكن أن يرد بالخاطر » .

« ذكرت أن النقراشى باشا كان يأبى أن يلجأ الى القوة المسلحة للحيلولة دون تنفيذ هذا القرار .

وكان يقول : انه لن يدفع بالجيش المصرى الى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة فى قناة السويس وراء ظهره . وظل ذلك موقفه الى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨ . وبين عشية وضحاها تغير هذا الرأى فجأة . ففى يوم ١٢ مايو طلب النقراشى منى عقد البرلمان فى جلسة سرية ليطلب دخول القرات المصرية المسلحة أرض فلسطين ، وعلم الناس بعد قليل أن وزير الدفاع الفريق محمد حيدر ، رجل

الملك وياوره الخاص ، تلقى أمرا من الملك مباشرة فأمر فرق الجيش المصرى باجتياز الحدود الى أرض فلسطين دون أن يعلم رئيس الوزراء ومن غير أن ينتظر قرار البرلمان أو قرار مجلس الوزراء . ذلك أن حيدر كان جنديا وكان يفهم أن نص الدستور بأن الملك هو القائد الاعلى للقوات المسلحة لا يتقيد بأن الملك يستعمل سلطته بواسطة وزرائه ومن ثم كان يفرض على نفسه ، وهو وزير للحربية ، أن ينفذ أوامر القائد الاعلى من غير انتظار لرأى رئيس الوزارة أو لرأى مجلس الوزراء » .

ثم يقول الدكتور هيكل أيضا فى « الجزء الثانى من مذكراته ص ١٣١ » :

« كان اجتياز القوات المصرية الحدود الى فلسطين على هذا النحو عملا مخالفا للدستور ، أقل ما يجزى به أن يستقيل وزير الحربية ، وأن ترد القوات المصرية الى أرض مصر حتى ينظر البرلمان الامر ويصدر قراره بشأنه . فأن لم يحدث ذلك فقد كان واجبا أن تستقيل الوزارة ، وأن تعلن الى الشعب من فوق منبر البرلمان أنها قدمت استقالتها حتى لا تحمل وزر هذا الاعتداء على الدستور . لكن النقراشى باشا نظر الى الامر غير هذه النظرة فتجاهل ما حدث ، وتقدم الى البرلمان وكأن الامور تجرى فى مجراها الدستورى ، وعرض عليه معلومات غير دقيقة أدت الى موافقة كل من المجلسين على اعلان الحرب على اسرائيل ، ولعله أراد بذلك تغطية الملك ، ولعل اعتبارات أخرى جاوزت فى نظره احترام الدستور هى التى جعلته يغضى عن هذا الاحترام » .

ثم يقول الدكتور هيكل بعد ذلك :

« اقول اعتبارات اخرى واقصد الوضع الداخلى فى البلاد . فقد كانت الامور فيها تتطور فى اتجاه يدعو الى كثير من القلق ومن الحذر ومن التفكير . وقد بلغ من هذا التطور ان اضرب رجال البوليس ـ حفظة الامن فى البلاد ـ عن القيام بواجبهم واضطر حيدر باشا الى انزال قوات الجيش لحفظ الامن فى القاهرة والاسكندرية ، ثم اضطر الى تسوية مشكلة البوليس بأمر الملك على نحو يختلف مع اتجاه رئيس الوزراء . والالتجاء الى الحرب لصرف الانظار عن المشاكل الداخلية سياسة لجأت اليها الدول الديكتاتورية مرارا فى التاريخ القديم والحديث » .

وهكذا يكشف الدكتور هيكل موقف وزارة النقراشى التى يدافع عنها العقاد ، ويدافع عن سياستها فى قضية فلسطين ، وهى السياسة التى كان الوفد يدينها ويشكك فيها ، والتى اثبتت الاحداث ان شكوك الوفد جميعا كانت فى موضعها . فالوزارة النقراشية لا تريد ان تتحمل أى مسؤولية جدية فى قضية فلسطين ، ثم هى تندفع بعد ذلك الى دخول حرب فلسطين دون ارادتها ودون اى نوع من الدراسة والاستعداد ، وهى بعد ذلك كله تجد ان الحرب كانت وسيلة لتغطية مشاكلها الداخلية الحادة بحيث أصبحت قضية فلسطين وسيلة لحل مشاكل النقراشى وحكومته وحزبه مع شعب مصر .

وقد اثبتت الحوادث بعد ذلك مدى ما كان فى سياسة وزارة النقراشى من الفساد ، عندما تم اكتشاف صفقات الاسلحة الفاسدة التى كانت تقدم للجيش المصرى ليحارب بها ، وهى غير صالحة للحرب على الاطلاق ، مما أدى الى خسائر كثيرة فى صفوف الجيش . وقضية الاسلحة الفاسدة هى دليل قاطع آخر على صحة رأى الوفد المصرى من التشكيك فى موقف النقراشى من قضية فلسطين وما تضمنه بيان الوفد من تحذير وتنبيه لما يمكن ان ينتج من اضرار واخطار على القضية الفلسطينية نتيجة لموقف النقراشى وحكومته .

ويحدثنا الدكتور هيكل مرة اخرى عن الاخطاء التى وقعت فى حرب فلسطين بما يكاد يؤيد وجهة نظر الوفد ويرد على وجهة نظر العقاد المؤيدة للنقراشى وسياسته ... يقول الدكتور هيكل فى الجزء الثانى من مذكراته ص ٣٣٨ : « منذ الاشهر الاولى لنشوب الحرب بدأ المصريون يستاءلون : كيف اقدمت حكومتهم عليها من غير ان تكون مستعدة لها ، وبدأوا يتهامسون بما يجرى فى عواصم أوروبا حيث ذهب ضباط مصريون ومدنيون مصريون يحاولون ان يعقدوا صفقات من مصانع الاسلحة والمعدات الحربية لحساب الجيش ، ثم كان كثيرون منهم مثال الطيش والخفة وكان بعضهم اكثر تفكيرا فى منفعته الخاصة منه فى سلامة دولته او وطنه . وبدا الساسة المصريون يتحدثون عن موقف الملك من هذه الحرب وما كان بينه وبين ملك شرق الاردن ، الملك عبد الله بن الحسين الهاشمى ، من تنافس ايهما يسبق الى صلاة الجمعة فى المسجد الاقصى ببيت المقدس وكان من اثر هذه الحرب كذلك ان بدأت طائفة من ضباط

الجيش الشبان الذين اشتركوا فى القتال يفكرون فى اوضاع الحكم فى مصر ، وفى مبلغ احترام الحكام لاحكام الدستور » ... ثم يتحدث الدكتور هيكل بعد ذلك صراحة عن الاسلحة الفاسدة فيقول ان المتطوعين المصريين كان بينهم « عدد من الشبان المتعلمين رأوا ما كان من عبث فى ميادين القتال ، وكيف كانت الاسلحة فاسدة والمدد غير منتظم ، وكيف ادى ذلك الى اخفاق المجهود المصرى والى عقد الهدنة المؤقتة ثم الى عقد الهدنة الدائمة ، فعادوا الى وطنهم ساخطين على طريقة حكمه ، مؤمنين بأن اطراد الامور على هذه الوتيرة يجر على الوطن أبلغ الضرر » .

هذه هى شهادة الدكتور هيكل ، وكان يقف فى قلب المعسكر الذى يقف فيه النقراشى ، ويقف فيه العقاد ايضا . وهى شهادة واضحة تثبت صحة شكوك بيان الوفد المصرى ، وتثبت خطأ رؤية العقاد التى قادته الى الدفاع عن النقراشى وحكومته ، وقادته الى اتهام الوفد بأنه صهيونى ، واتهام النحاس بأنه رفيق لحاييم وايزمن فى التآمر على فلسطين . والحقيقة ان العقاد كان مخطئا فى هذا الموقف وانه كان يناصر الجانب المخطىء فى السياسة المصرية سنة ١٩٤٧و ١٩٤٨ . هذا الجانب الذى نظر الى قضية فلسطين نظرة غير سليمة ، وقاد الجيش المصرى فيها الى ان يتعرض لمغامرات مجموعة من الذين تاجروا بأسلحته وتاجروا بطعامه .

*

وخلاصة موقف العقاد من الصهيونية وقضية فلسطين انه لم ينتبه الى هذه القضية منذ وقت مبكر ، رغم انها قضية ظاهرة فى ميدان السياسة العربية على الاقل منذ وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، ورغم ان العقاد يعمل فى السياسة منذ ذلك الوقت نفسه او قبله بسنوات ، كما ان العقاد بشر بكاتب صهيونى معروف هو ماكس نوردو سنة ١٩٢٣ ، رغم ان ماكس نوردو كان عريقا فى نزعته الصهيونية ، باعتراف العقاد نفسه ، ومع ذلك لم يرفضه العقاد ، ولم يعتبره من المفكرين الخطرين المعادين للامة العربية ، الا فى سنة ١٩٥٥ ، رغم معرفة العقاد المبكرة بهذا الكاتب وباتجاهاته وميوله ومواقفه .

على ان العقاد ولا شك قد اهتم بالصهيونية وقضية فلسطين منذ سنة ١٩٤٧ اهتماما واسعا ، وذلك على طريقته فى الاهتمام بالقضايا المثارة ، فهو لا يتنبأ فى فكره السياسى بشىء ، ولا يسبق الاحداث ، وانما يعلق عليها ، ويتحدث عما هو واقع امامه ، وقد كانت القضية الفلسطينية منذ ١٩٤٧ مثارة على اوسع نطاق امام الرأى العام العربى ، والرأى العام العالمى ، ومن يومها والعقاد يتابع هذه القضية ويكتب عنها ويعلق عليها .

وقد قدم العقاد فصولا عميقة ممتازة فى رده على دعوى الصهيونية فى احقيتها فى فلسطين ، او أرض الميعاد بالنسبة لها ، واستفاد العقاد من ثقافته الواسعة العميقة فى مناقشة هذه الدعوى ، واثبات ما فيها من خطأ وتزوير ، كما برهن العقاد بقوة على ان أسباب الاضطهاد الرئيسية لليهود إنما تنبع من اليهود أنفسهم ، ومن سلوكهم التاريخى ، واثبت هذه القضية من واقع الوثائق اليهودية ، كما رد على دعوى نبوغ اليهود وتفوقهم على سائر الأجناس البشرية أفضل الرد وأقواه ، واستطاع العقاد أن يربط بين الصهيونية والاستعمار العالمى ، وان يرى العلاقة الوثيقة بينهما .

ولكن العقاد اخطأ فى النظر الى كثير من مدارس الفكر العالمى على اساس انها مؤامرة صهيونية ، بمجرد ان اصحاب هذه المدارس كانوا من اليهود ، مثل فرويد ومدرسة التحليل النفسى ، وماركس والماركسية ، وسارتر والوجودية ، واينشتين والنسبية ، فان مثل هذه النظرة تتنافى مع كثير من الحقائق العلمية والتاريخية ، وهى تبدو فى آخر الامر نوعا من الدعوة الى الجهل والشك فى كل انجازات العقل البشرى .

وتؤدى الى اعتبار اليهود جنسا بشريا لا علاج له الا ابادته والقضاء عليه تماما .

بينما تدعونا النظرة العلمية الى اعتبار الصهيونية لا اليهودية هى عدونا الاول ، حتى لو كانت الصهيونية الآن تستوعب كل اليهود او معظم اليهود ، والصواب هو اننا نريد ان نقضى على الصهيونية لدى اليهود وانصارهم ، وليست مهمتنا ولا رسالتنا هى القضاء على اليهودية والعمل على ابادتها .

كما انه ليس من السليم ان ندين اى مفكر فى اى مجال من مجالات العلم

لمجرد انه يهودى ، ما لم تقم على صهيونيته ادلة قاطعة ، كما قامت الادلة على صهيونية « ماكس نوردو » وهى الادلة التى تجاهلها العقاد ـ رغم معرفته بها ـ سنة ١٩٢٣ ثم عاد فأخذ بها سنة ١٩٥٥ ، والسبب على الاغلب هو ضعف وعى العقاد سنة ١٩٢٣ بالقضية الفلسطينية ، رغم انه كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وانه كان كاتبا بارزا من كتاب مصر فى ذلك الحين ، وان القضية الفلسطينية كانت تمر بفترة حاسمة من فترات تاريخها آنذاك ، وخاصة بعد صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ .

وكان من اخطاء العقاد ايضا فى نظرته للصهيونية انه ربط بين الصهيونية والشيوعية ، رغم ما بين النظريتين من تناقض كامل ، ورغم ان عددا من الدول الشيوعية قد ايدت اسرائيل فى بدايتها الا أن ذلك لا يعنى أبدا من وجهة النظر العلمية توافقا فكريا كاملا بين الصهيونية والشيوعية كما يقول العقاد ، ورغم أن نسبة كبيرة من الشيوعيين العرب قد أخطأوا خطأ فادحا فى سنوات ١٩٤٧ و١٩٤٨ فى النظر الى قضية فلسطين بتأييد قرار التقسيم واقامة دولة اسرائيل ورفض الكفاح المسلح العربى ضد الصهيونية .. رغم هذا فان التوافق النظرى والعلمى بين الصهيونية والشيوعية لا سند له من الحقيقة ولا من المبادىء الفكرية السليمة ، وانما هى عادة العقاد فى خصوماته الفكرية والسياسية ... فقد وجد دائما ان من السهل عليه ان يطعن خصومه بأعنف الطعنات ، ومن هذه الطعنات القاسية ان يربط بينهم على الدوام وبين الحركات الفكرية والحركات السياسية التى ثبت للرأى العام ما فيها من ضعف وخطأ وانحراف مثل الصهيونية والنازية .

وأخيرا فقد اخطأ العقاد عندما اتهم خصومه فى السياسة المحلية المصرية بأنهم صهيونيون وعملاء للصهيونية ، مثلما فعل مع الشيخ حسن البنا ، ومع الوفد المصرى وزعيمه مصطفى النحاس ، وفى نفس الوقت اندفع العقاد الى تأييد موقف النقراشى وحزبه وسياسته ، رغم ما كان فى هذا الموقف من خطأ واضح ينبىء بنتائج شديدة الخطر ، وقد وقعت هذه النتائج بالفعل كما تحدثنا عن ذلك بالتفصيل خلال هذا الفصل من الكتاب .

العقاد
والإخوان المسلمون

كتب العقاد فى اواخر سنة ١٩٤٨ مجموعة من المقالات العنيفة ضد « الاخوان المسلمين » نشرها فى جريدة « الاساس » التى كانت تصدر عن الحزب السعدى ، وهو الحزب الذى كان حاكما فى ذلك الحين تحت زعامة محمود فهمى النقراشى صديق العقاد القديم ، والشخصية السياسية التى ظلت على صلة وثيقة بالعقاد حتى آخر لحظة فى حياتها .

وعندما نراجع تاريخ « الاخوان المسلمين » نجد ان الجماعة قد انشئت فى مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٢٧ ، حيث كان مؤسسها الشيخ حسن البنا يعمل مدرسا فى احدى مدارس المدينة ، وقد بدأت الجماعة عملها على انها جمعية دينية ، لا علاقة لها بالسياسة ، واساس عملها هو الوعظ والارشاد والدعوة الى انشاء الجوامع ، وايقاظ الروح الاسلامية لدى الافراد ، وفى سنة ١٩٣٢ انتقل نشاط الجماعة الى القاهرة بانتقال الشيخ حسن البنا نفسه للعمل فى العاصمة ، وبدأ نشاط الجماعة يتسع حتى اصدرت مجلة اسبوعية هى « مجلة النذير » ، وتحول نشاط الجماعة ايضا فبدأت تتجه الى السياسة بدلا من الاقتصار على النشاط الدينى فقط . على ان الجماعة اختارت ـ كما يقول طارق البشرى فى كتابه عن « الحركات السياسية فى مصر » ان تمارس نشاطها السياسى بصورة سافرة سنة ١٩٣٨ « اذ كانت معاهدة ١٩٣٦ قد ابرمت وهزت شعبية الوفد الذى شارك فى ابرامها ، وكان الصراع محتدما بين الوفد وبين الملك واحزاب الرجعية للقضاء على هذا الحزب ، وارادت الرجعية المحلية ان

يخلو لها وجه الحياة السياسية من دونه ، وظهر للسراى من تجربتى حزبى الاتحاد ١٩٢٥ والشعب ١٩٣١ فشل محاولاتها انشاء حزب لها . فأصبح عليها ان تعتمد فى صراعها مع الوفد على العواطف الجماهيرية الفجة تجاه فاروق الذى تولى الملك صبيا ، وعلى حزب السعديين الذى انشق على الوفد ببعض قيادته الشعبية القديمة .

كما رأت السراى الاقتراب من اى تنظيم جماهيرى « جاهز » تمكن له من القوة لقاء استخدامها اياه »[1] ... وكان هذا التنظيم آنذاك هو تنظيم الاخوان المسلمين .

ومما يؤكد ان الاخوان فى هذه الفترة « سنة ١٩٣٨ » قد ارتبطت بالسراى وارتبطت باحزاب الاقلية المناصرة للملك ما رواه أحمد حسين « زعيم مصر الفتاة فى مرافعته القضائية عن احد المتهمين فى قضية مقتل النقراشى سنة ١٩٤٩ ، انه لما قامت الحرب أودع أحمد حسين وزملاؤه معتقل الزيتون ، واوقف كل نشاط لهم ، وأن حسن البنا وقادة الاخوان اعتقلوا فى مستهل الحرب كغيرهم فما راع المعتقلين الا ان حضر الى المعتقل حامد جودة « الوزير السعدى فى وزارة حسين سرى ١٩٤١ » واجتمع بحسن البنا عدة ساعات ثم افرج عنه بعد أيام . ويفسر أحمد حسين هذا الافراج الغريب بأنه كان رغبة فى ان يستغل حزب السعديين حركة الاخوان فى دعم نفوذ الحزب ، وان الشيخ البنا خرج من المعتقل وازداد جاها ونفوذا ، ومضى فى دعوته حرا طليقا يجوب البلاد يؤلف الشعب ، وينظم الجماعات ، واشتهر فى البلاد ان الاخوان المسلمين فى حماية الحكومة القائمة ، وفى حماية السعديين بصفة خاصة[2] .

يؤكد احمد حسين « مساعدة الحكومات الرجعية للاخوان » بأمثلة اخرى اهمها « ان جماعة الاخوان انشأت منذ وقت مبكر نظام الجوالة رغم ان القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٧ الخاص بالاقمصة الملونة يحظر على الاحزاب والهيئات السياسية ان تتخذ تشكيلات عسكرية او شبه عسكرية ، وكان هذا

---

١ ــ طارق البشرى ـ الحركات السياسية فى مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ الفصل الثالث ص ٤٧ .

٢ ــ المرجع السابق ص ٤٩ .

الحظر ينطبق تماما على جوالة الاخوان ، التى كانت فى حقيقتها تؤلف جيشا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وقد بلغ عددهم فى فترة من الفترات عشرين الفا فى استطاعة جماعة الاخوان تعبئتهم فى أى مكان شاءت كما ان قانون الكشافة كان يحظر على الكشافة أن تنتمى إلى أى جماعة سياسية أو دينية وكان هذا الحظر مما لم يطبق على الاخوان »(١) .

وفى سنة ١٩٤٦ نجد أن العناصر الثلاثة فى موقف الاخوان المسلمين تتضح بشكل اعنف وأقوى ، وأقصد بالعناصر الثلاثة :

أولا - خروج الجماعة من حدود الدعوة الدينية الى العمل السياسى السافر .

ثانيا - ارتباط الجماعة بالسراى والاحزاب الرجعية وخاصة حزب السعديين .

ثالثا - العداء العنيف للوفد باعتباره حزب الاغلبية والعدو الخطر للسراى والاحزاب الرجعية ... هذه العناصر الثلاثة اتضحت فى موقف الاخوان سنة ١٩٤٦ بل اتجهت الجماعة الى التعبير عن مواقفها بالعنف ، « وبلغ عداؤها للوفد ذروته ، ووصل الى حد الاشتباك فى الطرقات مع مظاهرات الوفديين والشيوعيين . يحكى احمد حسين ان الاخوان فى هذه الفترة خاصموا الوفد وخاصمهم - فبدأت الاحتكاكات بين الطرفين ، وبدأ الصدام على طول الخط ، وكان طبيعيا أن تقف الحكومة الى جوار الاخوان المسلمين فى كل صدام يقع بينهم وبين الوفد ، بل كانت تحميهم وتشد أزرهم - وخلال ذات العام - ١٩٤٦ - اتجه الاخوان فى نشاطهم السياسى الى اساليب العنف والضرب والتدمير فيما يقع فى المظاهرات والتجمعات من اشتباكات ، وفى ٦ يوليو وقع صدام بين الاخوان والوفديين فى بورسعيد استعمل فيه الاخوان الرصاص والقوا ثلاث قنابل فأسفر الحادث عن قتل واحد من خصومهم واصابة ٣٥ فتجمع الكثيرون على دار الاخوان واشعلوا الحريق فيها وفى النادى الرياضى ، وحوصر المرشد العام بأحد المساجد هناك ، ولكنه استطاع النجاة من الخطر ، وفى اليوم التالى

---

١ - طارق البشرى المرجع السابق ص ٥٠ .

شيعت جنازة المتوفى وقذف المشيعون مركز الاخوان بالحجارة فعمل البوليس على تفريقهم فاعتدوا عليه ، فأطلق عليهم الرصاص وأصيب ١٦ شخصا ، كما كان لطلبة الاخوان حوادث كثيرة استخدموا فيها العصى والسياط داخل جامعة القاهرة مع الطلبة الوفديين والشيوعيين ، ورد عليهم بالمثل . والملاحظ عموما أن الجماعة بعد الحرب الثانية أخذت على عاتقها التصدى للحركة التقدمية للمجتمع والتنظيمات الشيوعية رافعة شعار العداء ومحاربة الالحاد والشيوعية ، وشنت هجوما مركزا على مبدأ التأميم ذاكرة : موقف الاسلام من الاغنياء وأصحاب رؤوس الاموال ، فليس بيننا وبينهم الا الزكاة »[1] .

وهكذا نجد ان جماعة الاخوان المسلمين فى الفترة الاولى من نشأتها والتى تمتد تقريبا من ١٩٢٨ الى حوالى ١٩٣٦ كانت تعيش فى حدود الدعوة الدينية ، ثم خرجت منذ سنة ١٩٣٦ الى النشاط السياسى العام ، ثم اتجهت منذ سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٤٨ الى الانغماس الكامل فى الحياة السياسية . وفى هذه الفترة الطويلة من نشاط الجماعة والتى تزيد عن عشرين عاما « ١٩٢٧ ـ ١٩٤٨ » لا نجد للعقاد اى تعليق او أعتراض على نشاط الجماعة ولا على تفكيرها وآرائها المختلفة .

فما هو سر هذا الموقف من جانب العقاد ؟

ان السبب فى موقف العقاد واضح تمام الوضوح ، فموقف العقاد من الاخوان لم يكن موقفا فكريا بقدر ما هو موقف « حزبى » فاذا اتفقت الاخوان مع الحزب الذى ينتمى اليه العقاد سكت عنها ولم يعترض على نشاطها العملى أو الفكرى ، ولكن اذا تعارض نشاط الاخوان مع الحزب السياسى الذى ينتمى اليه العقاد وقف العقاد ضدها وهاجمها واعترض عليها أشد الاعتراض .

وكانت الاخوان فى المرحلة الاولى من حياتها جماعة دينية . ولم يكن وجودها متناقضا مع حزب الوفد الذى كان العقاد ينتمى اليه آنذاك ، وكانت الجماعة فى تلك الفترة محدودة النشاط محدودة الانتشار ، ولم تظهر كحقيقة مؤثرة من حقائق السياسة المصرية فى تلك المرحلة المبكرة من نشوئها ، وحتى عندما بدأت

---

١ ــ المرجع السابق ص ٧٣ .

نشاطها فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ، على أثر انتقال الشيخ حسن البنا من الاسماعيلية الى العاصمة ... حتى فى هذه الفترة لم تكن الجماعة ذات أهمية بحيث يمكن لكاتب سياسى بارز فى ذلك الحين مثل العقاد ان يعلق عليها أو يناقش نشاطها الفكرى او نشاطها العملى .

ولكن الجماعة تحولت الى حقيقة ملموسة فى السياسة المصرية فى المرحلة الثانية من حياتها والتى تمتد سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٤٨ . وفى هذه الفترة كان العقاد قد خرج على الوفد وانطوى تحت لواء الحزب الجديد ، حزب السعديين، الذى كان فى ذلك الحين يحمى جماعة الاخوان ويستفيد منها ويساندها ، كما تبين لنا منذ قليل ، وكان الهدف من وراء استغلال السعديين للاخوان هو القضاء على الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية الكبرى ، والخطر الاول على القصر وعلى احزاب القصر الرجعية وعلى رأسها حزب السعديين .

وفى هذه الفترة كان من الطبيعى أن يكون العقاد راضيا عن الاخوان ، موافقا على نشاطهم ، طالما أن الاخوان يعملون فى ظل التخطيط السياسى للحزب السعدى .

كل ذلك رغم ان اخطاء الاخوان الرئيسية التى اخذها عليهم العقاد بعد ذلك كانت واضحة فى الجماعة تمام الوضوح ، وعلى رأس هذه الاخطاء استخدام العنف فى فرض الاراء على المخالفين والمعارضين ثم افتراضهم أن مفهوم الاسلام عند الاخوان هو المفهوم الوحيد السليم ، والذى يخرج على هذا المفهوم من المسلمين يكون فى نظر الاخوان قد خرج على الاسلام . لم يعارض العقاد الاخوان ، ولم ينتقد أخطاءهم الواضحة كما فعل بعد ذلك ، لا لشىء إلا لأن الاخوان بعد سنة ١٩٣٦ وحتى ١٩٤٨ كانوا مرتبطين تمام الارتباط بالحزب السعدى ، حزب العقاد .

ثم جاء عام ١٩٤٨ فاكتشف السعديون الذين كانوا فى الحكم آنذاك ان الاخوان قد خرجوا عن سيطرتهم ، وأصبحت لهم قوتهم الذاتية الكبيرة ، وبدأ القصر يخشى من قوة الاخوان التى ساهم فى تدعيمها ، وفتح المجال واسعا أمامها . فقرر القصر وحزبه الحاكم ، وهو الحزب السعدى ، ضرب الاخوان

ضربة عنيفة ، بعد أن اصبحت الجماعة قوة مخيفة ، ذات تنظيم عسكرى مسلح يهدد أمن النظام بأكمله .

وبذلك أصدر محمود فهمى النقراشى ، رئيس الحزب السعدى ورئيس الوزراء قرارا بحل الاخوان المسلمين فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ . وكان هذا القرار معناه الاصطدام العنيف بين الاخوان والسعديين ، وهنا بدأ العقاد يهاجم الاخوان اعنف الهجوم ، مؤيدا قرار الحل ومبررا لهذا القرار .

كتب العقاد مقالا فى جريدة الاساس ، وهى جريدة الحزب السعدى ، وقد نشر هذا المقال بعد ثلاثة أيام من صدور قرار النقراشى بحل الاخوان المسلمين ، وعنوان المقال « الحكومات وسماسرة الفوضى » وقد نشرته « الأساس » فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ... يقول العقاد فى هذا المقال مشيراً إلى محاربته السابقة للفاشية وللنازية :

« لقد كنا من عشرين سنة نحارب الجماعات التى تقوم على العنف والارهاب ، كنا نحارب هذه الجماعات التى تقوم على العمل المباشر كما يسميه فقهاء الدستور ، وكنا ننادى بسقوط كل نظام يقوم على امثال هذه الجماعات ، ومنها جماعات الفاشية فى ايطاليا ، والنازية فى المانيا ، وجماعات الاستعمار السرية فى اليابان . فاذا كانت تجارب هذا العصر قد أثبتت حقيقة من الحقائق فتلك الحقيقة هى ان جماعات العمل المباشر وبال على العالم بأسره ، بل وبال على من يخلقونها ، كما رأينا من مصير موسولينى وهتلر وتوجو وسائر هؤلاء الدعاة من ذوى الاطماع والمجازفات ، وكما رأينا من مصير ايطاليا والمانيا واليابان بعد استعدادها بأضخم عدة عسكرية تملكها الدول الطامعة ، وكما رأينا من مصير العالم فى هذه الفوضى التى يعانيها ، ولن يزال يعانيها الى زمن طويل .

هذا هو درس العصر الحديث كله ، فان لم يستفده الناس طائعين فقد ذهبت تجارب الحرب العظمى على غير جدوى ، ونسأل الله الا يجعلنا من الذين تمر بهم العبر الجسام وهم عنها معرضون » .

هذا هو أول تعليق للعقاد على قرار حل الاخوان ... فهو ينكر على الجماعة استخدامها للعنف ، وينكر عليها انها من جماعات العمل المباشر مثل النازيين

والفاشيين ... ولكن السؤال هو : لماذا لم ينتبه العقاد لظاهرة العنف والعمل المباشر فى جماعة الاخوان المسلمين الا بعد أن اصطدمت الجماعة بالحزب السعدى سنة ١٩٤٨ ؟ ... لماذا لم يعترض العقاد على فرق « الجوالة » التى كونتها الاخوان والتى كانت تقوم على التدريب العسكرى مثلها تماما مثل فرق العاصفة النازية ... لماذا لم يعترض على استخدام العنف عندما كان هذا العنف موجها الى حزب الوفد كما وقع فى احداث بورسعيد سنة ١٩٤٦ ؟ .

الاجابة عن كل هذه الاسئلة هى ان موقف العقاد من جماعة الاخوان المسلمين لم يكن موقفا فكريا سليما ، بل كان موقفا حزبيا ، ينظر الى مصلحة الحزب الذى ينتمى اليه وهو الحزب السعدى فان كانت المصلحة هى مساندة الاخوان والتغاضى عن اخطائهم ، وقف صامتا عن هذه الاخطاء ، لا يشير اليها ولا يعترض عليها ، أما اذا تناقضت مصلحة السعديين مع الاخوان فان واجبه فى هذه الحالة هو كشف اخطاء الاخوان والتعريض بهم ... ومهما كان فى نقد العقاد للاخوان من الصواب ، فان هذا الموقف الحزبى من جانب العقاد ، يضعف نقده ويثير حوله الكثير من الشكوك والاعتراضات . انه موقف ضيق محدود ، لا يشعر بالخطر الا اذا كان هذا الخطر يمس المصلحة الخاصة ، أما اذا كان الخطر ماسا بمصالح الآخرين ... فلا بأس من الرضا به والسكوت عليه ... وليس هذا الموقف بالطبع هو الموقف الوطنى السليم ، أو الموقف الفكرى الشامل الذى يناقش المبادىء والاصول ويعترض على الخطأ حتى قبل أن يمس المصلحة الخاصة أو يمثل خطرا عليها .

وهذا الموقف يذكرنا بمواقف العقاد السابقة عندما كان مرتبطا بحزب الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية ، فقد كانت حرية العقاد مع حزب الوفد أوسع من حريته مع احزاب الرجعية ، فعندما اختلف مع سعد زغلول زعيم الوفد الاول حول قضية على عبد الرزاق وكتابه « الاسلام واصول الحكم » وعندما اختلف مع سعد ايضا حول طه حسين وكتابه « فى الشعر الجاهلى » ... عندما اختلف العقاد مع سعد حول هاتين القضيتين كما شرحنا ذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ... استطاع العقاد فى هذا الخلاف ان يعبر عن آرائه ، بل نشر هذه الآراء فى صحيفة « البلاغ » التى كانت لسان حال الوفد فى

ذلك الحين . وعندما اختلف العقاد بعد ذلك مع الوفد والزعيم الثانى مصطفى النحاس حول وزارة توفيق نسيم سنة ١٩٣٥ وجد من الشجاعة والجرأة ما جعله يدفع بهذا الخلاف الى اقصاه ، حتى خرج على الوفد وانشق عليه . أما ارتباطه بالسعديين فلم يكن يسمح له بالخروج على خط الحزب السعدى بأى شكل من الاشكال .

ونستطيع أن نخرج من هذه المقارنة بأن ارتباط العقاد بالوفد كان ارتباط مبادىء ، أما ارتباطه بالسعديين فكان ارتباط مصالح ، وارتباط المبادىء أقوى واصدق واشجع من ارتباط المصالح ، كما ان ارتباط المبادىء يمنح الكاتب قدرا عاليا من الشجاعة وحرية الفكر والتعبير ، بينما يتحول الكاتب مع ارتباط المصالح الى مجرد اداة يحركها الآخرون ولا تستطيع ان تتحرك وحدها بحرية وأمانة .

وهكذا عجز العقاد عن معارضة الاخوان طيلة الفترة التى ارتبطوا فيها بالسعديين ، وبدأ هجومه عليهم بعد اصطدامهم بالحزب السعدى .

ونواصل بعد ذلك استعراض آراء العقاد بعد صدور قرار حل جماعة الاخوان المسلمين على يد النقراشى زعيم السعديين ورئيس الحكومة .

يقول العقاد فى مقال نشره فى جريدة الاساس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ أى بعد قرار حل الجماعة بحوالى اسبوعين ... يقول العقاد فى هذا المقال وعنوانه « مثل من افساد العقول » :

« تلقيت فى البريد رسالة يخاطبنى فيها المتنكر قائلا : « حضرة الكاتب الاجير » ثم يقول :

« نصيحتى اليك أيها الشخص الا تتمادى فى اباطيلك ، واحزر « كذا » الاخوان المسلمين واعلم بأن لكل شخص مثلك دوسيه « خاص » يكتب فيه الحسنات والسيئات ...

ثم يقول : أصبر أيها المسكين وسوف لا يطيل « كذا » صبرك ولا تلعب بالنار ، ودع النقراشى يظلم وقريبا جدا وفى خلال هذا الشهر سترى أنت وامثالك كيف قابل الاخوان حل الجمعية بهذا الصمت وماذا وراء الصمت ..

فحاول أن تصمت أو تكتب فى موضوع آخر ، ولا تتعرض لهم وقد قذف « كذا » الوقت ... والله أكبر ولله الحمد » .

وبعد أن نقل العقاد هذه الرسالة التى بعث بها اليه احد اعضاء جماعة الاخوان علق عليها وعلى ما فيها من أخطاء لغوية ونحوية واملائية ، مما يثبت جو « الجهل العام » الذى كانت تتحرك فيه الجماعة وتسيطر من خلاله على الافراد ، وتحيلهم الى عناصر متعصبة مستغلة ما فيهم من جهل وقصور فى المعرفة ، وقبل أن نقرأ تعليق العقاد ، ينبغى أن نلتفت الى حقيقة هامة وهى أن هذا الاخوانى الجاهل قد قال فى رسالته ما معناه أن جماعة الاخوان سوف تعبر عن رأيها فى حل الجماعة خلال هذا الشهر ... وقد نشر العقاد هذه الرسالة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ - كما اشرنا - ولم يكد يمر اسبوع واحد حتى قام احد شباب الاخوان المسلمين باغتيال محمود فهمى النقراشى فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وبذلك تكشف لنا هذه الرسالة عن قوة التنظيم التى كانت تملكها جماعة الاخوان المسلمين ، وعن قدرة الجماعة على السيطرة على نفوس أعضائها من الشباب بوجه خاص ، وعن سيادة فكرة الايمان بالجماعة ومرشدها العام لدى الاعضاء ، حيث كانت هذه الفكرة - كأى نوع من أنواع التعصب - لا تقبل المناقشة ولا تحتاج الى تبرير أو تفسير لدى الاعضاء .

يعلق العقاد على هذه الرسالة مستفيدا منها فى توجيه نقده العنيف لجماعة الاخوان وفضحه لما فيها من عيوب واخطاء ، كاشفا عن مظاهر التعصب ومصادره فى تكوين هذه الجماعة ... يقول العقاد فى نفس المقال :

« هذه الرسالة قد استحقت أن يلتفت اليها لمقدار ما فيها من دلائل الجهل ، وضيق العقل ، وسوء الادب ، ونزعة النفس الى الشر والافتراء ، أو لانها تدل على صنف هذه النفوس التى يسهل أن تساق الى الشرور والآثام باسم الدين ، وهى تجهله ولا تفقه حرفه ولا معناه » .

« فأول ما يتبين من هذه الرسالة أن كاتبها جاهل لم يتلق نصيبا من التعليم الذى يتلقاه طالب صغير ، فهو يكتب « احزر » بالزاى ولا يعرف قاعدة من قواعد اللغة التى لا تتعدى المرفوعات والمنصوبات ، وهو أكثر من ذلك لا يقرأ القرآن ولا

يفقه حرفه ولا معناه ، بل لا يفقه آياته التى يكثر تداولها على السنة الناس من غير حفاظ الكتاب الكريم . فمن الآيات التى يذكرها الخاصة والعامة « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » ومنها « أنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » .

« ولكن هذا الجاهل الذى كتب رسالته بكل تلك الثقة وكل ذلك اليقين يكتب « أزف الوقت » فيقول « قذف الوقت » ولا يدرى ما هو الفرق بين الآزف والقاذف فى اللفظ ولا فى الهجاء ولا فى المدلول » .

ثم يقول العقاد فى نفس المقال باسلوبه الهجائى العنيف الذى تعود عليه فى صراعه الحزبى والسياسى « وهذه الخنفساء البشرية تكتب باسم الاسلام الى من ؟ ... الى رجل ألف عشرات الكتب عن « الاله » وعن محمد عليه السلام وعن خلفاء محمد واصحابه وعن الفلسفة القرآنية والعقائد الروحية ، وانتشرت هذه الكتب فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه باللغة العربية وغيرها من لغات المسلمين ، وكان لها أثرها الواضح فى مكافحة المادية ونزعة الالحاد ، وابتلى منها الماديون المعطلون بما تدل عليه حملاتهم التى أفعمت بالغيظ والانتقام ، وبعد ذلك يحق لتلك الخنفساء البشرية أن تنصب الميزان باسم الاسلام لتعطينى ما تسمح به من نصيب فى الحرية أو نصيب فى الحياة تبعا لما تحصيه لى فى الدوسيه الخاص من الحسنات والسيئات » ..

« هذه الرسالة دليل صادق على طبيعة النفوس التى يستهويها الى الشر طائفة من الدجالين باسم الدين واسم الاسلام . نفوس يقترن فيها الجهل بضيق العقل بسوء الادب ، ثم يأتى الدجال فينفخ فيها من الغرور ما يزيد الجهل جهلا ، والضيق ضيقا ، وسوء الادب سوءا ، ويقول لها مع جهلها هذا وسوء أدبها هذا : انها هى التى تحكم على الناس وتعطيهم حقهم فى الحرية وحقهم فى الحياة » .

ثم يقول العقاد مشيرا الى استخدام الاخوان للعنف :

« وقد خدع أطفال فى الرابعة عشرة بمثل هذا الدجل فحملوا القنابل يقذفونها على اناس فى سن آبائهم ، وخدع بمثل هذا الدجل رجال كبار كصاحب هذه الرسالة ، وليس أحوج الى حماية القانون ورقابة القانون من امثال هذا وذاك » .

والقضية التى يثيرها العقاد هنا هى قضية « الجهل » الذى تعيش فيه القاعدة الاساسية لاعضاء جماعة الاخوان ، وهذه النقطة ـ من الناحية الموضوعية ـ صحيحة ولا شك ، فبصرف النظر عن بعض شباب الجماعة فى المدارس أو الجامعات ، فان القاعدة الجماهيرية الكبيرة كانت تعانى من هذا الجهل ، ولذلك كان من السهل قيادتها فى أى اتجاه يريده « مرشد » الجماعة ، وكان من السهل اثارة « جوانب غير عقلية » فى هؤلاء الافراد أو جوانب « غريزية » تعتمد عليها الجماعات المتعصبة على الدوام ... ومن هذه الجوانب التى أثارتها الجماعة « الشعور الدينى » الغامض وليس « الثقافة الدينية » العميقة ... لان الثقافة الدينية تفتح أمام صاحبها آفاقا من التفكير المنطقى الواسع ، بينما يكفى الاعتماد على شعور دينى غامض لكى يتحول الفرد الى عنصر متعصب مطيع منقاد عنيف .

ولعل مما يؤكد هذا المعنى الذى أشار اليه العقاد ، وهو انتشار « الجهل » وضعف الثقافة فى صفوف القاعدة الاخوانية ، ما كان يملأ فكر الجماعة نفسها حتى لدى كتابها الكبار وقادتها المعروفين من غموض وعدم تحديد ، وقد لاحظ كل الباحثين فى تاريخ الاخوان هذا الغموض المسيطر على فكرها وسجلوا هذه الملاحظة . يقول طارق البشرى فى كتابه « الحركات السياسية فى مصر » ص ٥٣ :

« ان تنظيم الاخوان لم يحدد أهدافا سياسية عملية واضحة له ، وفى مقالات المرشد والاخوان وأحاديثهم لا نلمس أى وضوح فى هذه النقطة . بل أن هذا الغموض كان مستهدفا أحيانا سيما بالنسبة لنقطة مبدئية تتعلق بماهية الجماعة ، ماهية هذا التنظيم المترابط . « هل نحن طريقة صوفية ، جمعية خيرية ، مؤسسة اجتماعية ، حزب سياسى ، نحن دعوة القرآن الشاملة الجامعة ... نحن نجمع بين كل خير » ـ وذكر المؤتمر السادس للجماعة المنعقد فى ١٠ يناير ١٩٤١ أن الاخوان دعوة سلفية ... طريقة صوفية ... هيئة سياسية ... جماعة رياضية ... رابطة علمية ثقافية ... شركة اقتصادية ... فكرة اجتماعية » ـ ثم يذكر المرشد « أيها الاخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا

حزبا سياسيا ولا هيئة موضعية الاغراض محدودة المقاصد ولكنكم روح جديد ... ونور جديد ... وصوت داو » ـ ولم يحدث ان حظى تنظيم من قادته بهذا القدر من الأحاديث والايضاحات والتفسيرات التى تدور حول طبيعته وماهيته فتزيد الامر غموضا كما حدث بالنسبة للجماعة » .

ثم يقول طارق البشرى بعد ذلك فى نفس الكتاب « الحركات السياسية فى مصر ـ ص ٦١ » معلقا على غموض الفكر عند الاخوان وما أدى اليه من سيادة السلطة الشخصية والزعامة الفردية :

« ... غموض الفكر لازم لانطلاق السلطة الشخصية ، اذ تعتمد على حرية العمل والتصرف واذ يقتضى ذلك انتفاء المحاسبة وامكانياتها ، وغموض الاهداف والمناهج يفقد الآخرين القدرة على المحاسبة ، ويحيل صاحب الدعوة من عامل ملتزم بتحقيق فكرة ما الى صاحب هذه الفكرة يدور بها حيث شاء ويستتر فى خفائها حركته وبواعثها ، ولا يكون للاخرين ازاءه الا الطاعة او الخروج عليه .

هذا هو ما سجله الباحثون حول فكر الاخوان ... غموض فى الأهداف والمبادىء ، وهو غموض يخدم الزعامة الفردية داخل الجماعة ويؤكدها ، ويجعل الطاعة المطلقة لهذه الزعامة مسألة رئيسية لا يجوز الخروج عليها بأى حال من الاحوال . وهذا القدر من الغموض الفكرى والطاعة العمياء لا يمكن أن يتوفر فى تنظيم الا اذا كانت قاعدته على قدر كبير من ضعف الثقافة والمعرفة ، وهو ما يشير اليه العقاد فى مقاله ، ويكشف عن نموذج من نماذجه .

ويركز العقاد بعد ذلك فى نقده للاخوان على مناقشة مفهومهم للاسلام ورفض هذا المفهوم ، حيث يقول فى مقاله بعنوان « فتنه اسرائيلية » نشرته جريدة الاساس فى ٢ يناير سنة ١٩٤٩ :

« يؤمن أصحاب الاديان على اختلافها بأن الله هو خالق الخلق وانه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، ويؤمنون جميعا بأن حق الله ليس فوقه حق وأن سلطانه ليس فوقه سلطان . ومع هذا يؤمنون جميعا بأن الاله الذى هذه صنعته وهذا سلطانه لا يعاقب أحدا بغير حساب ، والاسلام فى طليعة الاديان التى برزت فيها

هذه العقيدة على وجه واضح ناصع لا لبس فيه . ولهذا يسمى يوم القيامة فى الاسلام يوم الدين الذى يدان فيه الناس بما يعملون ، ويوم الحساب الذى يسأل فيه كل انسان عما أتاه من خير وجناه من شر » .

« وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الله عز وجل فى مقام العطاء والاحسان بأنه يرزق بغير حساب ويوفى الاجر بغير حساب . ولكن ليس فيه آية واحدة تقول للناس ان الله يدين أحدا بغير حساب أو يعاقبه بغير سؤال . هذا وهو الخالق العليم بما يعمل خلقه ، الغنى عن سؤالهم بعلمه ، الذى له القدرة على جزائهم كما يشاء ، وله العدل الذى تنزه عن الشبهات »

« واذا نزلنا عن مرتبة الربوبية الى مرتبة النبوة لم نجد نبيا واحدا أباح لنفسه أو اباح له الدين أن يتصرف فى نفس بشرية بغير بينة وشهادة وقضاء ، وأن أدب النبوة مع هذا كله ليوحى اليه ان يدرأ الحدود بالشبهات » .

« وتأتى دون مرتبة الانبياء ، مرتبة ولاة الامور ، وليس لاحد منهم بالبداهة أن يجيز لنفسه فى محاسبة الناس حقا فوق حق النبى أو حق الاله » .

« وعلى هذه السنة القديمة دام أمر المجتمع الاسلامى فى جميع العهود ، من ايام الخلفاء الراشدين الى ايام الخلافتين الأموية والعباسية الى هذه الايام . وكل ما جاء من الشذوذ عن هذه السنة التى لا يستقيم أمر مجتمع من المجتمعات بغيرها انما كان من طائفتين خارجتين على جماعة المسلمين ، وهما طائفة « الخوارج » وطائفة « اليهود والمجوس » الذين دخلوا الاسلام ليفسدوه ويهدموا دولته من داخلها ، كما فعل عبد الله بن سبأ فى صدر الاسلام ، وكما فعل عبد الله القداح فى القرن الثالث للهجرة . فالخوارج وأصحاب الدعوات الاسرائيلية هم الذين أباحوا لانفسهم قتل النفس وايقاع العقاب بغير سؤال أو قضاء أو حساب ، وهو حق لو شاء الله أن يتخذه لاحد لاتخذه لنفسه ، وهو الفعال لما يريد والعليم بذات الصدور » .

ويحاول العقاد بعد هذا العرض الذكى العميق لمفهوم المسؤولية فى الإسلام أن يخرج بنتيجتين · الأولى هى أن تنظيم الاخوان بهذا المعنى خارج على الدين ، لانه تنظيم ارهابى يبيح لنفسه الحكم على الناس ، وتنفيذ العقاب فيهم

بدون محاسبة أو سؤال . وهو أمر لا يتفق مع مبادىء الاسلام ، بل ان الله تعالى لم يبحه لنفسه .. أما النتيجة الثانية التى يخرج بها العقاد من هذا التحليل فهى ان « الاخوان » هى تنظيم يخدم الصهيونية .. ويقول العقاد حول هذه النقطة :

« ان الخوارج لم يعرف عنهم تنظيم يمزج بين الدعوة وبين خطط السياسة وتدبير الاقتصاد ، أما اليهود خاصة فقد كانت جماعاتهم السرية فى جميع البلدان تدعم دعوتها بالوسائل الاقتصادية والحركات التى تبطن غير ما تظهر الى أن تتمكن من الأمر فتجهر بقلب النظام » .

ثم يقول العقاد بعد ذلك فى نفس المقال وقد كتبه بعد قيام الاخوان باغتيال النقراشى زعيم السعديين ورئيس الحكومة آنذاك :

« والفتنة التى ابتليت بها مصر على أيدى العصابة التى كانت تسمى نفسها بالاخوان المسلمين هى أقرب الفتن فى نظامها الى دعوات الاسرائيليين والمجوس . وهذه المشابهة فى التدبير والتنظيم هى التى توحى الى الذهن أن يسأل لمصلحة من تثار الفتن فى مصر وهى تحارب الصهيونيين ؟ والسؤال والجواب كلاهما موضع نظر صحيح » .

ثم يبرهن العقاد على ان الاخوان فتنة اسرائيلية ببرهان عجيب هو ـ رغم ذكائه وطرافته ـ نوع من التشهير السياسى المعروف عن العقاد فى معاركه الحزبية ... يقول العقاد فى نفس المقال :

« ويزداد التأمل فى موضع النظر هذا عندما نرجع الى الرجل الذى انشأ تلك الجماعة فنسأل : من هو جده ؟ »

« ان احدا فى مصر لا يعرف من هو جده على التحقيق ، وكل ما يقال عنه انه من المغرب ، وأن اباه كان « ساعاتيا » فى السكة الجديدة . والمعروف أن اليهود فى المغرب كثيرون ، وأن صناعة الساعات من صناعاتهم المألوفة ، واننا فى مصر هنا لا نكاد نعرف « ساعاتيا » كان مشتغلا فى السكة الجديدة بهذه الصناعة قبل جيل واحدا من غير اليهود ، ولا يزال كبار الساعاتية منهم الى الآن » .

ثم يقول العقاد وهو يعنى الشيخ « حسن البنا » فى هذا الحديث كله :

« ... ونظرة الى ملامح الرجل تعيد النظر طويلا فى هذا الموضوع. ونظرة الى أعماله واعمال جماعته تغنى عن النظر الى ملامحه ، وتدعو الى العجب من هذا الاتفاق فى الخطة بين الحركات الاسرائيلية الهدامة وبين حركات هذه الجماعة . ويكفى من ذلك كله ان نسجل حقائق لا شك فيها ، وهى أننا امام رجل مجهول الاصل ، مريب النشأة ، يثير الفتنة فى بلد اسلامى وهو مشغول بحرب الصهيونيين ، ويجرى فى حركته على النهج الذى اتبعه دخلاء اليهود والمجوس لهدم الدولة الاسلامية من داخلها ، بظاهرة من ظواهر الدين » .

« وليس مما يبعد الشبهة قليلا او كثيرا ان اناسا من اعضاء الجماعة يحاربون فى ميدان فلسطين ، فليس المفروض ان الاتباع جميعا يطلعون على حقائق النيات ، ويكفى لمقابلة تلك الشبهة ان نذكر ان اشتراك اولئك الاعضاء فى الوقائع الفلسطينية يفيد فى كسب الثقة ، وفى الحصول على السلاح ، والتدرب على استخدامه ، وفى أمور أخرى تؤجل الى الوقت المعلوم هنا او هناك .

فأغلب الظن اننا امام فتنة اسرائيلية فى نهجها واسلوبها ، ان لم تكن فتنة اسرائيلية أصيلة فى صميم بنيتها ، وأيا كان الامر فهى فتنة غربية عن روح الاسلام ونص الاسلام ، وأنها قائمة على الارهاب والاغتيال ، فلا محل فيها للحرية والاقناع ، وجدير بالمسلمين ومن يؤمنون بالحرية والحجة من غير المسلمين ان يقفوا لها بالمرصاد » .

وهكذا يستخدم العقاد منطقه الذكى فى التشهير بالاخوان ، وهذه الحجة التى يثبت بها انتماء الاخوان الى الحركة الاسرائيلية ، رغم ما فيها من الطرافة والذكاء - كما اشرت - الا انها تخلو من الروح العلمية المنصفة ، فحتى لو صح ان الشيخ حسن البنا من أصل يهودى وهو امر لم يقم عليه اى دليل معقول - فان هذا لا يكفى للتدليل على انه متآمر بحكم أصله ، واذا اردنا ان نثبت التآمر على شخص ما فيجب ان تكون لدينا ادلة اخرى غير أصله وجنسه . ولو اخذنا بمثل هذا المنطق لقلنا ان العقاد لابد ان يكون معاديا للقومية العربية - مثلا - لمجرد

إنـه من أصل غير عربى إذ أنه من أصل كردى عن طريق والدته ، ومثل هذه الاستنتاجات ان دلت على ذكاء فانها لا تكفى للوصول إلى الحقيقة .

من ناحية اخرى فان الطابع الارهابى العنيف للاخوان المسلمين قد بقى كما هو عليه حتى بعد اغتيال الشيخ حسن البنا سنة ١٩٤٩[1] ، وظهور قيادات اخرى ظلت تعمل سنوات طويلة بعد اغتيال الشيخ البنا ، ولا يوجد ادنى شك فى أن هذه القيادات الجديدة بعيدة كل البعد عن الاصل اليهودى ، ومع ذلك فقد لعب التنظيم العسكرى السرى للاخوان دورا عنيفا حتى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنـة ١٩٥٢ . فمسألة التنـظيم الارهابى لا تتصـل بشخص فى الجماعـة او اشخاص ، ولكنها تتصل اساسا بتركيب الجماعة نفسها ومبادئهـا ونظامهـا الخاص ، ويكفى ان نعود الى مبدأ من المبادىء التى أقرتها الجماعة فى مؤتمرها الثالث المنعقد سنة ١٩٣٥ والذى يقول « على كل مسلم ان يعتقد ان هذا المنهج كله ـ منهج الاخوان المسلمين ـ من الاسلام وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الاسلامية » .

وكما يقول طارق البشرى ـ بحق ـ فى كتابه « الحركات السياسية فى مصر » ص ٥٣ : « ان هذا المبدأ تصادر به الجماعة الدين لمصلحتها ، وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها ان يفعل ، وانما تؤكد ان منهجها وحده هو الاسلام الصحيح ، فلا يعتبر غيره كذلك ، وبهذا يكون تنظيم الجماعة هو التجسيد للجماعة وللاسلام ومؤسسة مهيمنة عليه ، فيكون من لم يـوالها خارجا عن الاسلام » .

هذا المبدأ الذى يعتبر الاسلام قاصرا على الاخوان وحدهم ـ كما قال طارق البشرى بحق فى الفقرة السابقة ـ هو المصدر الرئيسى الصحيح لما أشار اليه العقاد من طبيعة الارهاب والعنف فى تنظيم الجماعة ، ولـما اعطتـه الجماعـة لنفسها من حق الحكم على الآخرين ، وتنفيذ هذا الحكم دون محاسبـة ، وهو

---

١ ـــ كان اغتيال الشيخ البنا جريمة من الجرائم التى ارتكبها حكومة السعديين ـ حزب العقاد ـ تحت رئاسة ابراهيم عبد الهادى وبتشجيع من الملك فاروق .

أيضا مصدر التعصب لدى اعضاء الجماعة ، وافتراض الصواب فى كل آرائهم ووجهات نظرهم المختلفة . وقد لمس العقاد فى مقاله السابق هذه الامور كلها بوضوح ، ولكنه جنح الى التشهير فى تبرير هذه الظواهر الصحيحة فى تكوين الاخوان ، بدلا من المناقشة الموضوعية ، ويعود ذلك كما أشرت الى أن موقف العقاد كان نابعا من ظروف حزبية ساخنة ، لا من ظروف موضوعية تملى الحوار الهادىء ، والمناقشة العلمية ، وتفرض روح البحث عن الحقيقة .

ويعود العقاد مرة أخرى الى نقد جماعة الاخوان عن طريق التشهير ، مستغلا فى ذلك قدرته البارعة على التحليل النفسى ، فيربط بين شخصية الشيخ حسن البنا وشخصية المجرم الصعيدى « الخط » ، ومن الواضح ان العقاد يهاجم الاخوان بالتهم التى يعلم انها يمكن ان تمس نفس الرأى العام بشدة ، ولذلك فهو يستخدم الاحداث التى كانت سائدة فى سنة ١٩٤٨ فهو يتهمهم فى المقال السابق بأنهم « يساعدون الصهيونية فى حربها على مصر والعرب عموما » وهى تهمة كان لها - وما زال - وقعها العنيف على نفوس الناس سنة ١٩٤٨ خلال حرب فلسطين الاولى وفى اعقاب هذه الحرب وحتى الان ، ومن ناحية اخرى فهو يربط بين « الشيخ البنا » وبين « الخط » لان جرائم الخط كانت مشهورة ومعروفة فى العام الذى وقعت فيه هذه الجرائم وهو عام ١٩٤٨ .

وتشبيه الشيخ البنا بالخط هو تحريض للناس على كراهية مرشد الاخوان ، والربط بينه وبين مجرم خطير أثار الخوف والكراهية فى النفوس .

يقول العقاد فى مقال له بعنوان « ايمان مضلل ؟ ... كلا » وقد نشر المقال فى جريدة الاساس فى ١٧ يناير سنة ١٩٤٩ :

« أجمع المصريون على استنكار تلك الجرائم الوحشية التى يقدم على ارتكابها افراد العصابة التى كانت تسمى بجمعية الاخوان المسلمين ، ومن حقها ان تسمى على الاصح بجمعية « خوان المسلمين » ولكن فريقا من الذين بحثوا فى اسرار تلك الجرائم يتوهمون ان جناتها الاشرار يساقون اليها بدافع من الايمان المضلل ، ويحسبون ان ادخال هذا الايمان الى عقولهم الملتوية يحتاج الى قدرة نفسية او قوة من قبيل القوة المغناطيسية عند القائمين بالدعوة الى تلك العصابة ،

ولولا تلك القوة المغناطيسية لما استطاعوا ان يشحنوا عقول الاغرار بذلك الضلال ولا ان يدفعوا بهم الى ذلك الاجرام » .

« وهذا هو الوهم الذى يفرض للمجرمين شرفا لا يرتفعون اليه : وهو شرف الايمان ، ولو كان ايمانا مضللا منحرفا كل الانحراف عن مقاصد الاديان وبخاصة مقاصد الدين الاسلامى ، فكل ما يحتاج اليه اولئك المجرمون ليندفعوا الى الاجرام هو تحريك ما فى نفوسهم من طبيعة الشر والغرور والطمع – ولا حاجة بهم بعد ذلك الى ايمان يتعب فى تعليله المضللون ، او يدل على قدرة اولئك المضللين » .

ثم يقول العقاد بعد هذه المقدمة :

« ان فقيد الوطن – النقراشى – رحمة الله قد أراح هذه البلاد من عصابات كثيرة قبل هذه العصابة الاجرامية ، ومنها عصابة « الخط » المشهورة التى كانت تعبث بالفتك والسلب والنهب فى اواسط الصعيد . والخط لم يدع لنفسه انه إمام من ائمة الدين . ولم يدع له احد شيئا من العلم او القدرة على التدجيل باسم العلم او الدين ، ومع هذا قد استطاع ذلك المخلوق ان يجمع حوله اربعين او خمسين رجلا يجازفون بالحياة فى سبيل طاعته ، ويجازفون بالخروج على القانون والشريعة تنفيذا لأمره . فهل كانوا محتاجين الى ايمان مضلل يسوقهم الى المجازفة بالحياة وعصيان الدولة وإعلان الحرب على المجتمع كله بغير نظر الى عواقب الاجرام ؟ » .

كلا . لم تكن بهم حاجة الى ايمان قويم ولا ايمان منحرف ، ولم تكن بهم حاجة الى ايمان قوى ولا ايمان ضعيف . وكل ما احتاجوا اليه هو تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور : الشر الذى يستخف بالحياة البشرية . والطمع الذى يتطلع الى ما فى أيدى الناس ، والغرور الذى يخيل اليهم انهم أبطال لانهم يقتلون ويسلبون . ولقد استطاع الخط ان يستغل هذه الغرائز المنكوسة ، ويدفع بها الى المخاطر ، ويحارب بها الأمة والدولة دون ان يستعين على ذلك بعقيدة دينية ، بل استطاع ان يستغلهم مع علم اصحابها علم اليقين انهم يعصون امر الله كما يعصون امر ولاة الامور » .

ثم يقول العقاد بعد ذلك مستمرا فى تحليله النفسى للمرشد وللاخوان على انهم « مجرمون » من فصيلة « الخط » بل من فصيلة أقل منه ومن عصابته :

« ولقد يفهم الناس جميعا موضع الشر والغرور فى جرائم تلك العصابة التى تسمى بحق عصابة « خوان المسلمين » . ولكنهم قد يحسبون ان موضع الطمع منها أخفى من موضع الشر والغرور . والواقع انه هو الباعث الاول فى نفوسهم على سفك الدماء ، واشاعة الفوضى فى جوانب هذه البلاد ، فان الكلمة الأولى التى تقال لهم هى ان الاسلام دين ودولة وانهم يعملون ليقبضوا بأيديهم على زمام الدولة ، فى يوم من الأيام . يقال لهم هذا ويقال لهم معه ان ارهاب القضاة كفيل بنجاتهم من حكم الموت ، وانهم لا يلبثون ان يخرجوا من السجن أبطالا متوجين بأكاليل الفخار ، متربعين على مناصب الحكم متصرفين فى الانفس والاموال فان خانهم الجد العاثر ونفذ فيهم حكم الموت فهنا يأتى الطمع الاكبر فى جنات عرضها السموات والارض اذا بطلت الحيلة فى مطامع الحكم والسلطان » .

« وهذا الطمع الاحتياطى محسوب حسابه عند فوات كل رجاء فى المطمع الاصيل : وهو طمع الدولة والدنيا والتسلط على الارواح والاموال . وهو احتياطى يدخرونه لمقاومة الضعف الذى يخامرهم ولا يخامر أبطال الخط وأمثاله ... فهم بهذا الاحتياط أحط وأجبن من أدعياء البطولة بقطع الطريق . هم بهذا الاحتياط لا يقلون عن المجرمين فى الشر والغرور والطمع ولكنهم يقلون عنهم فى الجرأة والاقدام » .

تلك حقيقتهم فى الدين . وتلك حقيقتهم فى علم النفس ، فلا يرفعهم جاهل بهم فوق أقدارهم ، فما هم بمؤمنين مضللين فى ايمانهم ، ولكنهم مجرمون فى الصميم » .

وهكذا يلجأ العقاد الى التحليل النفسى لتفسير الاخوان وللهجوم عليهم بعد ذلك ، حيث يحاول ان يثبت من خلال تحليله ان الاخوان مجرمون تحركهم دوافع الاجرام من طمع وشر وغرور . ويحاول العقاد من ناحية اخرى ان يخضع « الخط » للتحليل نفسه كمجرم وقائد عصابة .

ولا شك ان التحليل النفسى مفيد فى فهم الجريمة ، وسائر الظواهر الاجتماعية ، ولكن هذا التحليل لا يكفى ابدا اذا كانت الظواهر أكثر شمولا وتعقيدا من الظواهر الفردية ، ان التحليل النفسى يصلح فى حالة القاتل الفرد او اللص الواحد ، ولكنه لا يقدم حلا حاسما عندما تكون المسألة اكبر واشمل ... فظاهرة العنف والارهاب فى الاخوان المسلمين لا يمكن ارجاعها الى حالة نفسية مرضية واحدة تسيطر على الجميع ، كما ان « الخط » لم يكن مجرد ظاهرة فردية ، فقد أنبتت بيئة الصعيد فى مصر كثيرا من المجرمين على شاكلة الخط ، مما يقطع بأن المسألة لا تعود الى المرض النفسى ، وانما تعود الى ظروف عامة اوسع واشمل ، لم يلتفت اليها العقاد ، لأن منهجه فى دراسة الظواهر الاجتماعية يعتمد على تحليل الافراد من داخلهم دون النظر الى ظروفهم ، وإن كان هذا كله لا ينفى قيمة تحليل العقاد وعمقه وجرأته الشديدة ، حيث كان بالامكان أن يدفع العقاد حياته كلها ثمنا لكلماته عن الإخوان فى تلك الأيام الصعبة .

ولا شك ان الاخوان المسلمين قد ظهروا فى المجتمع المصرى فى فترة من فترات الاضطراب الفكرى والسياسى والاقتصادى ، فقد انتشرت حركة الاخوان بعد الحرب الثانية ، وفى تلك الفترة كان المجتمع المصرى يضج بالحركات العنيفة ، فهناك مطلب عاجل هو الاستقلال وجلاء الانجليز ، وهناك مطلب آخر هو القضاء على الفساد الاقتصادى الذى أدى الى سحق الطبقات الفقيرة التى تكوّن غالبية الشعب فى مصر ، وهناك المذاهب السياسية العالمية التى تتردد أصداؤها فى داخل البلاد ، ثم الصراع بين القصر والحركات السياسية الشعبية وعلى راسها حزب الوفد ... حزب الاغلبية ، وهناك الصّراع بين الاحزاب السياسية نفسها . كل هذه العوامل خلقت جوا من الاضطراب والقلق داخل المجتمع المصرى ، وفى هذا الجو نشطت حركة الاخوان وحاولت ان تستفيد من كافة التناقضات الموجودة فى المجتمع لتحقيق وجودها وانتشارها . واستغلت الدعوة الشعور الدينى واثارته بعنف ، واجابت على الاضطراب القائم فى داخل المجتمع بالانضباط والتنظيم الحديدى فى داخل الجماعة ، وحررت نفوس اعضائها من القلق بوضع لجابات ثابتة وان كانت غامضة لكافة الاسئلة ،

وفرضت على الاعضاء ان يقبلوا هذه الاجابات والا يكثروا من التساؤل استنادا الى انهم يسيرون وراء قيادة ملهمة ، تستطيع ان تعرف الحق والصواب وتقودهم اليه .

ومن هنا يكون نجاح الاخوان ثمرة لظروف يعيش فيها المجتمع ويعانى منها ... ظروف فكرية وعقائدية وسياسية واقتصادية ، ظروف يسيطر عليها القلق والتمزق والضياع واليأس والبحث عن حل وطريق للخلاص .

فليست المسألة هى ان الاخوان مجموعة من المجرمين المفطورين على الجريمة ، بقدر ما كانت حركتهم ثمرة مرة للظروف التى كان المجتمع يعيش فيها ويعانى منها .

وهذا المنهج نفسه يفسر شخصية « الخط » وعصابته .. فقد ظهر « الخط » فى مجتمع الصعيد ، وهو مجتمع يعانى من الفقر الشديد ، والتخلف الحضارى والاقتصادى . وخاصة فى تلك الفترة التى ظهر فيها الخط سنة ١٩٤٨ ولقد كان معروفا فى تلك الفترة ان الطبيعة القاسية فى الصعيد حيث تحيط الجبال بالنيل ، ولا تترك الا شريطا ضيقا من الارض للزراعة ... هذه الظروف الصعبة جعلت قبضة الدولة غير محكمة بالنسبة لمجتمع الصعيد .

كذلك كان المجتمع الصعيدى يعيش فى ظل نوع من أسوأ انواع الاقطاع الزراعى ، فكانت الأسر الاقطاعية تفرض قانونها الخاص وتجعل ارادتها فوق ارادة الدولة والمواطنين ، وفى مثل هذه البيئة تظهر الانفجارات المختلفة ومن بينها حركات قطاع الطرق ، الذين يحاولون الرد على الحرمان والقهر وسيادة الاسر الاقطاعية وحماية الدولة لهؤلاء الاقطاعيين ، ويحاول قطاع الطرق هؤلاء ان ينتزعوا مطالبهم بأيديهم ... فالخط هو ظاهرة تولد فى مجتمع مثل مجتمع الصعيد فى ظروفه القديمة القاسية . وليس « الخط » مجرد مجرم يعانى من الطمع والشر والغرور . فالتفسير النفسى وحده لا يستطيع تبرير ظهور « الخط » وظهور امثاله فى بيئة مثل بيئة الصعيد ، بينما لم يظهر مثل هذا المجرم ، ولا يمكن ان يظهر مجرم على طريقته ، فى مجتمع الوجه البحرى « الدلتا » لأن هذا

المجتمع اكثر تحضرا واقل فقرا وتخلفا ، وأغنى فى اراضيه ومساحته الزراعية ، واقل قسوة وتعقيدا فى بيئته الجغرافية من مجتمع الصعيد .

فالتفسير النفسى اذن لا يكفى لتبرير ظهور الاخوان ولا يكفى للمقارنة بينهم وبين الخط وعصابته ، حيث اننا نجد ظروفا عامة وعميقة تتحكم فى ظهور الاخوان كحركة سياسية تعتمد على العنف والارهاب والرفض والتمرد ، بل نجد ظروفا عامة تتحكم فى ظهور الخط وعصابته .

ولكن العقاد يكتفى فى تحليله بالوقوف عند الدوافع النفسية الخاصة التى لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون كافية فى الوصول الى الحقيقة .

على ان العقاد يقدم لنا فى مقال آخر نقدا للاخوان يعتمد فيه على فكرتين موضوعيتين سليمتين . أما الفكرة الاولى فهى ان الاخوان لا يمثلون الاسلام وحدهم ، وانما هناك فكر اسلامى آخر لا ينطوى تحت لوائهم ، ولا يتفق مع افكارهم ولا مناهجهم فى العمل ، والعقاد يحرص على ابراز هذه الفكرة حتى يسقط حجة الاخوان فى انهم وحدهم الذين يمثلون الاسلام ، وأن أى خروج عليهم هو خروج على الاسلام ، وهى دعوة كانت السبب الاكبر فى اتجاه الاخوان الى الارهاب والعنف ... فما داموا هم وحدهم الذين يمثلون الاسلام فكل خارج عليهم محكوم عليه بالاعدام . اما الفكرة الثانية التى تحمس لها العقاد وحرص على ابرازها ـ وهى فكرة صحيحة ودقيقة ـ فهى ان الاخوان المسلمين لم يحددوا موقفا واضحا من المسألة الوطنية ، فلم يدخلوا فى اى حرب عنيفة او هادئة ضد الانجليز والاحتلال الانجليزى منذ نشأتهم سنة ١٩٢٧ وحتى قرار حلهم سنة ١٩٤٨ ، وهى نقطة كانت دائما تثير التساؤل حول الاخوان لدى أى باحث او مؤرخ ، وان كان شباب الاخوان قد شاركوا بعد ذلك وفى سنة ١٩٥١ فى معارك الفدائيين المصريين ضد الانجليز فى القناة .

يقول العقاد فى مقال له بعنوان « صوت حكيم من شباب كريم » نشره فى جريدة « الأساس » فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٩ :

« وصل الىّ بيان بتوقيع شباب الازهر يعرب فيه كاتبوه عن رأيهم فى اولئك « الخوان » الذين كانوا يسمون انفسهم بإخوان المسلمين ، ويعملون ما يتمنى

الصهيونيون . وقد اعلن شيوخ الازهر الأجلاء حكم الدين الاسلامى فى جرائم الفتك والارهاب التى تتابعت من تلك الطغمة الباغية ، فلا جرم تأتى الخطوة الاولى فى تقرير ذلك الحكم من شباب الازهر الذين يوكل اليهم امر قيادة الدعوة فى المستقبل القريب ، والذين يتجه اليهم اول ما يتجهون اولئك الدعاة الذين يستترون باسم الاسلام لقضاء مآرب وأطماع يبرأ منها هذا الدين السمح الحنيف . ومما نغتبط به ان نلمس فى بيان الشباب الازهرى دلائل الفهم الصحيح لموقف العاملين فى القضية العربية ، ودلائل الاطلاع على خفايا السياسة التى تحيط بتلك القضية » .

وبعد ان يشير العقاد الى ان شباب الازهر وهم فى نظر الرأى العام ممثلو الاسلام الحقيقيون انما يرفضون الاخوان المسلمين وادعاءهم بأنهم وحدهم هم الذين يمثلون الفهم الصحيح للاسلام ... بعد هذه المقدمة ينشر بيان شباب الازهر ويؤيد ما تضمنه هذا البيان بأن هناك مؤامرة شاملة على الامة يشترك فيها الاخوان ... يقول بيان شباب الازهر كما نشره العقاد فى مقاله :

« فى شهر واحد قامت حركات متآزرة فى جميع الدول العربية تهدف الى غرض واحد وهو التخلص من القادة المخلصين الذين يقفون من قضية فلسطين والعروبة موقف الإباء والكرامة فاضطرت الوزارة السورية برئاسة مردم بك الى الاستقالة ، ولحقت بها وزارة الباجهجى بالعراق ، وفى الوقت نفسه اندلع لهيب المظاهرات المسلحة بقيادة الاخوان المسلمين لاسقاط وزارة النقراشى باشا فلما عجزت اليد الاثيمة دفعت بمجرم من مجرميها الى اغتيال حياته الطاهرة وهو يصرف معركة لولا لطف الله لأودت بسلامة الوطن » .

ويعلق العقاد على بيان شباب الازهر فيقول :

« وانه لموقف يدعو الى العجب والالم حقا كما جاء فى البيان ان تختار هذه الجماعة تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الكفاح العربى وجيشنا الباسل يخوض أعنف المعارك فريدا فى الميدان لتقوم بهذا العمل الاجرامى »

ثم ينتقل العقاد فى تعليقه على البيان الى الملاحظة الهامة التى يشير اليها فى هذا المقال وهى عدم اتخاذ الاخوان لاى موقف ضد الاحتلال الانجليـزى ... يقول العقاد عن الاخوان :

« وأدعى الى العجب ان الجمـاعة ظلت عشـرين سنة لا تعمـل فى السيـاسـة الوطنية شيئا على عهد الاحتلال وسطوته ، فلما ضعفت تلك السطوة وآل الامر للحكومات المصرية ظهر نشاطها وتعاقبت أحداثها وراحت تحارب هذه الوزارة وتهـادن تلك الوزارة ، ولا للمبـادىء ولا للدين كـانت خصـومتهـا للاحـزاب والوزارات كما جاء فى البيان » .

ثم يقول العقاد بعد ذلك :

« واننا لننتقل نقلة بعيدة عن هذا البيان الحكيم الى تلك الرسائل التى يكتبها الى أناس من تلك العصابة الاجرامية ليقنعونى ببرهانهم الوحيد : برهان الشتم والتهديد بأن العصابة جديرة بالبقاء والسيادة على المسلمين . فمن تلك الرسائل رسالة يقول فيها صاحبها الذى أملاها : ان موقف الديوش ـ هكذا ـ العربية من الجيش المصرى انما هو مكيدة تواطأ عليها النقراشى باشا مع اليهود والحكومات العربية للقضاء على الجيش العربى فى ميدان فلسطين » .

ويعلق العقاد على هذه الرسالة الاخوانية فيقول :

« ونقول ان الرسالة مملاة على كاتبها لما أشرنا اليه من ذلك الخطأ الفاحش فى الهجاء »(١)

« أما العقل الذى يتصور تلك الفرية فهو فى الواقع أغبى من عقل الكاتب الذى لا يفرق بين الجيم والدال فى كتابة الجيوش » .

وينهى العقاد مقاله بقوله :

« ان كان وجود واحد من هؤلاء نكبة كافية على أمة كاملة ، فالعزاء فى تلك النكبة ان الامة لم تخل من شباب راشد يعقل ويفهم ويأبى لدينه ان يوصم هذه

---

١ ـــ الخطأ هو كتابة الديوش ـ بالدال بدلا من الجيوش .

الوصمة التى تبرأ منهـا الاديان ، وانـه لعزاء يحق لنـا ان نستلهمه من ذلك البيان » .

تلك هى خلاصة وافية لموقف العقاد من الاخوان المسلمين . وقد مس العقاد ولا شك عدة نقاط رئيسية وصائبة فى نقـده للاخوان ، فقـد أكد عـلى الطابع العـدوانى الارهـابى لتنـظيم الاخـوان ، ورفضـه واستنكـره أشـد الرفض والاستنكار ، كما اشار الى فهمهم المتعصب الضيق للاسلام واعترض على ان يعتبروا انفسهم وحدهم ممثلين للاسلام بحيث يصبح كل خارج عـلى نطاقهم خارجا على الاسلام . وأشار الى موقفهم السلبى من الاحتلال الانجليزى ، حيث انهم فى المرحلة ما بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٤٨ لم يظهروا أى عداء للانجليز الذين كانوا يحتلون مصر فى هذه الفترة .

كل هذه المآخذ الاساسية التى سجلها العقاد على الاخوان المسلمين كانت صحيحة فى جملتها ، ولكن العيب الرئيسى فى موقف العقاد من الاخوان هو انه حارب الاخوان من موقف حزبى ضيق كما أشرنـا فى بدايـة هذا الفصـل ... فالعقاد لم يلتفت الى اخطاء الاخوان التى كانت ظاهرة بوضوح امام اى مفكر مستنير خلال السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩٤٨ ، وهـو العام الذى أصطدموا فيه بالحزب السعدى ... حزب العقاد . وأخطاء الاخوان لم تـظهر فجأة سنة ١٩٤٨ ، كما ان الحزب السعدى ، حزب العقاد ، قد ساهم فى تدعيم اخطاء الاخوان ، وساعدهم على ان يخالفوا القوانين السائدة فى البلاد ، وذلك عندما كان الحزب السعدى يجد فى تقوية الاخوان وسيلة لاضعاف الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية ، ولقد كان السعديون يريدون اضعاف الوفد لا من اجل صالح الوطن ، ولكن من أجل صالح الملك والانجليز ، ومن اجل مصلحة السعديـين الخـاصة . لم يلتفت العقـاد لاخطاء الاخـوان الظاهرة قبـل سنة ١٩٤٨ لان الاخوان لم يكونوا يصطدمون بحزبه ، ولم يلتفت العقاد الى ان من اسباب ظهور حركة الاخوان تحكم احزاب الاقلية الرجعية وعلى رأسها الحزب السعدى الذى ينتسب اليه فى اقدار البلاد ، مما خلق مناخا سياسيا مضطربا مليئا بالقلق ، فأحزاب الاقلية وعلى رأسها الحزب السعدى لم تستطع ان تحـل اى مشكلة

رئيسيــة من مشــاكـل البــلاد ... لم تحـل المشكـلة الوطنيــة ولا المشكلة الاجتماعية ، ولم تسمح بحرية التعبير فى البلاد ، مما خلق موجة واسعـة من اليأس والسخط ، وفى ظل اليـأس والسخط ظهـرت حركـة الاخوان بـطابعها المعروف فى تلك الفترة ... طابع العنف والارهاب والطاعة العمياء والتعصب . ولذلك كله فلا يمكن الحكم على العقاد بأنه كان يحارب الاخوان محاربة المفكر الوطنى الديموقراطى لحركة متعصبة ضارة بالوطن ، لان موقف العقاد السياسى فى فترة محاربته للاخوان كان أسوأ واشد خطأ من الاخوان انفسهم ... فقد كان يقف فى صف حكومة رجعية ارهابية من حكومات القصر هى حكومة السعديين ، وهى التى ساهمت مساهمة كبرى فى ضـرب الحركـة الوطنية فى مصر بشتى اتجاهاتها بعد الحرب العالميـة الثانيـة وفرضت الارهـاب على سـائر الفئـات والطوائف والهيئات .

ولكن هذا كله لا ينفى ان العقاد قد استطاع ان يضع يده بعمق وذكاء على نقاط ضعف رئيسية فى حركة الاخوان المسلمين ، وخاصة فى مرحلة ازدهارها وانتشارها بعد الحرب العالمية الثانية ، رغم انه ـ بحكم طبيعة معركته الحزبية المباشرة مع الاخوان ـ قد لجأ كثيرا الى التشهير غير العلمى ، ورغم ان حزبه السعدى قد شارك بطرق مباشرة وغير مباشرة فى تكوين جماعة الاخوان على تلك الصورة الخاطئة المنحرفة البعيدة عن التيار الوطنى الاساسى ، وهى الصورة التى ظهر بها الاخوان بعد الحرب الثانية .

العقاد
والحزب الوطنى

انشىء الحزب الوطنى فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وكان انشاؤه على يد الزعيم الكبير مصطفى كامل ، وقد جعل الحزب مبدأه منذ البداية « الجلاء عن مصر » ، حتى لقد كان البعض يسمونه « حزب الجلاء » ، وقد توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فتولى زعامة الحزب من بعده محمد فريد الى أن مات غريبا فى برلين سنة ١٩١٩ ، وخلال هذه الفترة لم يكن هناك تناقض حاسم بين معسكر الحزب الوطنى ، والمعسكر السياسى الذى ينتمى اليه العقاد ، فالوفد المصرى الذى انتمى اليه العقاد بعد انشائه ، لم يظهر كحزب منظم فى الحياة السياسية الا فى سنة ١٩١٩ وقبل وفاة محمد فريد بقليل ، وان كان هناك شىء من النفور المبكر بين العقاد والحزب الوطنى فانما يعود الى دعوة مصطفى كامل الى الارتباط بين مصر وتركيا ، حيث كان الزعيم الوطنى يرى فى ذلك وسيلة لضرب انجلترا ، وكان العقاد يرفض هذا الاتجاه ، ويميل الى الدعوة التى تنادى باستقلال مصر دون الارتباط بالخلافة التركية العثمانية .

وعندما بدأ العقاد يبرز فى ميدان السياسة المصرية ككاتب شعبى له قيمته وتأثيره ، وذلك منذ سنة ١٩١٩ كان حزب الوفد المصرى قد ظهر فى الحياة السياسية المصرية وبدأ يلعب دوره بوضوح ، والحقيقة ان الحزب الوطنى الذى قاد كفاح مصر حتى سنة ١٩١٩ قد تقلص دوره وتناقص بظهور الوفد المصرى وقيادته الجديدة التى يمثلها سعد زغلول . ولم يكن ظهور الوفد وزعامة سعد هما فقط سبب ضعف الحزب الوطنى ، بل كان هناك سبب آخر رئيسى هو وفاة محمد

فريد الذى استطاع ان يملأ بقوة وجدارة مكانة مصطفى كامل الزعيم الاول للحزب . ولكن الحزب الوطنى لم يستطع ان يقدم للحركة السياسية فى مصر زعامة من نفس القيمة التى كانت تتمثل فى مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى العكس كان الوفد قد اجتذب ابرز العناصر فى الحركة الوطنية فى مصر وضمها الى صفوفه .

ولقد كانت هناك قبل ظهور الوفد معركة خافتة بين الحزب الوطنى وبين سعد زغلول بدأت بهجوم من جانب مصطفى كامل على سعد عندما كان سعد وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٦ .

فقد كتب مصطفى كامل عن سعد زغلول بعد فشل سعد فى الحصول على تأييد مشروع قدمه للجمعية العمومية يقول « ... ان كل شىء من احوال سعد باشا وشؤونه يدل على شدة ميله الى السلطة ، فسعد باشا قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ولو كان وزيرا أوروبيا لكان قد استقال فى الحال ، ولكنه وزير فى مصر ، يعتقد ان ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته ، الا ان الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الاسف ، وليخافون على ماضيه كل الخوف ، ويفضلون ماضيه كل التفضيل ، ذلك لان الوزير قائم الان على منحدر مخيف »[1] ...

أما محمد فريد فقد اظهرت مذكراته سوء رأيه فى سعد زغلول ، فقد قال عن سعد « انه يريد الوصول الى الوزارة على اكتاف الحزب الوطنى »[2] كذلك وصف محمد فريد سعد زغلول بأنه « انتهازى » ولابد من « اخذ المواثيق منه قبل التعاون معه »[3] .

وفى سنة ١٩٢٤ وقعت محاولة لاغتيال سعد زغلول وكانت هذه المحاولة على يد شاب اسمه « عبد الخالق عبد اللطيف » كان متأثرا بمبادىء الحزب الوطنى وخاصة فى دعوته الرئيسية « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » وكان سعد يستعد

---

١ ــ عبد الرحمن الرافعى ـ مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ـ ص ٤٠٧ .

٢ ــ عبد الخالق لاشين ـ سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ص ٢٠١ .

٣ ــ المرجع السابق ص ٥٦ .

آنذاك لمفاوضة الانجليز حول مطالب البلاد ، وقد اتهم الشاب الذى قام بمحاولة الاغتيال بالجنون وتبرا منه الجميع واودع مستشفى الامراض العقلية ، ولكن محاولة الاغتيال تكشف مدى ما كان فى صفوف الحزب الوطنى من كراهية لسعد وعداء عنيف له .

وبعد وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ اخذت صحف الحزب الوطنى تهاجم سعدا وتحاول النيل منه وتتهمه باتهامات متعددة منها « اختلاس اموال الامة » وغير ذلك من الاتهامات الغريبة »[١] .

واذا كان الحزب الوطنى قد ضعف كحزب سياسى بعد سنة ١٩١٩ ، فانه لم يضعف كتيار بارز فى الفكر العربى المصرى ، ومما جعل لهذا التيار اهمية واضحة ان أكبر مؤرخ ظهر فى تاريخ مصر الحديثة فى القرن العشرين قبل ثورة ١٩٥٢ وهو عبد الرحمن الرافعى كان من بين انصار الحزب الوطنى والمؤمنين بمبادئه وافكاره ، وقد انعكست افكار الحزب الوطنى على كتابات عبد الرحمن الرافعى وخاصة بالنسبة لاحمد عرابى وسعد زغلول ، فقد هاجم الرافعى الزعيمين الكبيرين ... وكان هجومه على عرابى مستمدا من هجوم مصطفى كامل عليه ، لان مصطفى كامل كان فى اوائل هذا القرن متحالفا مع الخديوى عباس حلمى الثانى بن الخديوى توفيق الذى ثار عليه عرابى ووقف ضده ، وكان مصطفى كامل يعتبر عرابى مسئولا عن الاحتلال وهى وجهة نظر خاطئة وغير سليمة ، وقد اخذ عنه الرافعى موقفه ضد عرابى ، أما بالنسبة لسعد فقد اعتبر « الحزب الوطنى » انه سرق من الحزب زعامته للحركة الوطنية ، ومن هنا كان الهجوم عليه فى صحف الحزب الوطنى ، وفى كتابات مفكرى الحزب وعلى رأسهم عبد الرحمن الرافعى ، وأن كان هجوم الوافعى على سعد يكتسى بثوب الاحترام والموضوعية أكثر مما نجده فى صحف الحزب الوطنى ، مصدر ذلك كله هو « عقدة الحزب الوطنى » .. وقد أثرت هذا الموضوع فى كتاب سابق لى هو « اصوات غاضبة فى الادب والنقد » وذلك فى التعليق على كتاب « عصر ورجال » لفتحى رضوان ، وهو أحد المفكرين المتأثرين بعقدة الحزب الوطنى ، ورغم ما فى

---

١ ــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٥٥ .

كتاب فتحى رضوان من قيمة وعمق ونضج ، فان عقدة الحزب الوطنى قد أثرت على ما أصدره الكاتب من أحكام تاريخية ... وقد كتبت عن هذه النقطة « ص ٨٥ من كتاب أصوات غاضبة » أقول :

« ... ان فتحى رضوان لا يسلم مما يمكن ان نسميه عقدة الحزب الوطنى فى الفكر المصرى المعاصر . هذه العقدة التى تعتبر ان المقياس الوحيد للنجاح او الفشل فى خدمة الوطن هو : الاقتراب من مصطفى كامل او الابتعاد عنه ، وهذه العقدة تعتبر كل المحاولات الثورية التى سبقت ١٩٥٢ حركات فاشلة جملة وتفصيلا بما فيها ثورة ١٩١٩ وان هذه المحاولات كان يمكن ان تنجح لو عاش مصطفى كامل او محمد فريد . وعقدة الحزب الوطنى فى الفكر المصرى من ناحية اخرى لا ترى خيرا على الاطلاق فى شخصيات مثل سعد زغلول او لطفى السيد وتتهم الاثنين بالتعاون مع الانجليز والتساهل معهم . وعقدة الحزب الوطنى هى نفسها التى سيطرت على فكر عبد الرحمن الرافعى وهو يؤرخ للحركة القومية فى مصر فافسدت نظرته الى كثير من الامور رغم العمل الفكرى الجليل الذى قام به هذا المؤرخ الكبير ... وفى ظنى ان هذه العقدة هى التى حجبت عن فتحى رضوان رؤية جوانب كثيرة من ذلك العصر الذى ثار عليه فى كتابه ثورة لاشك فى صدقها وامانتها .

وأهم ما حجبته هذه العقدة عن عينيه أن سعد زغلول مثل مصطفى كامل كان يمثل اجتهادا معينا فى النضال المصرى ، فكما كان مصطفى كامل يتعاون مع الخديوى عباس ويهاجم العرابيين هجوما مريرا لا يمكن ان يقبله الحس الوطنى براحة ضمير أو اطمئنان بال ، كذلك كان مصطفى كامل يعتمد على الفرنسيين الذين كانوا يستعمرون بلادا عربية اخرى مثل الجزائر وتونس ، ويدعو لتركيا التى كانت تستعمر بلادا عربية اخرى استعمارا قاسيا مثل : سوريا ولبنان والعراق ... مثلما أوصل الاجتهاد السياسى عند مصطفى كامل الى تلك المواقف كلها ، فان اجتهاد سعد زغلول السياسى وصل به الى قبول التعاون مع مصطفى فهمى كوزير فى الوزارة التى يرعاها كرومر ، ووصل به الى الانصراف تماما عن أى دعوة للارتباط بتركيا ، كما جعله يعتمد على المواجهة المباشرة مع انجلترا

دون الاعتماد على أى قوة دولية اخرى .. سواء كانت هذه المواجهة لينة أم عنيفة .

والموقف التاريخى العادل هو أن ندرس تاريخ هذين الزعمين ونحاول فهم ظروفهما المختلفة وسنجد انفسنا متفقين معهما أحيانا ومختلفين احيانا اخرى ... أما الادانة الكاملة لسعد زغلول ، والولاء المطلق لكل مواقف مصطفى كامل ففيه ظلم ومبالغة وتجن على اجتهادات كل من الزعيمين الكبيرين ، وهى وجهة نظر لا يمكن التخلص منها ابدا فيما أتصور الا بالخلاص من عقدة الحزب الوطنى ثم النظر للتاريخ المصرى والنضال المصرى كوحدة كاملة » .

هذه بعض ملامح عقدة الحزب الوطنى فى الفكر العربى المصرى كما حاولت أن أصورها فى كتابى « أصوات غاضبة » ، وهذه العقدة هى التى تصدى العقاد لها بقوة وعنف ، ومن هنا اصطدم العقاد بالحزب الوطنى وصحافة الحزب الوطنى بعد سنة ١٩١٩ ، والحقيقة أن العقاد استطاع أن يواجه عقدة الحزب الوطنى بحجج قوية وأسلوب عنيف ، حتى لنستطيع ان نقول أنه كان اقوى الذين ردوا على آراء الحزب الوطنى قبل ١٩٥٢ ، حيث تصدى بعد ذلك عدد من العلماء والمؤرخين الشبان لتفنيد آراء مدرسة الحزب الوطنى والرد عليها .

ومنذ البداية حاول العقاد ان يبرىء مصطفى كامل ومحمد فريد من أخطاء الحزب الوطنى ومن الآراء المختلفة التى يرددها أنصار هذا الحزب ، وكان موقف العقاد استجابة للمكانة القومية الكبيرة التى يحتلها هذان الزعيمان فى نفوس الامة ، حيث كان لكفاحهما العظيم مكان لا يمكن أهماله أو تجاوزه ، بل لقد وصل العقاد الى حد القول بأن مصطفى كامل ومحمد فريد لا علاقة لهما بأنصار الحزب الوطنى ، وأن هؤلاء الانصار هم آخر من يحق لهم ان يتحدثوا عن مصطفى وفريد .

يقول العقاد بأسلوبه الحاد العنيف المعروف عنه فى معاركه السياسية :

« وقد علمت هذه الشرذمة ما لها من حقارة الشأن وما لأحيائهامن المهانة التى تلحق بالاموات . فهى لا تفتأ تستغل كرم النفوس والحزن على الذاهبين لتزعم مزاعمها وتستطيل بأكاذيبها والناس صامتون معرضون ، وبلغ فهمها للتضحية أنها كانت كأنما تريد الا يموت أحد ممن ينتسبون اليها أو ممن

تنسبهم هى اليها ، وإلا فكل من مات هو من شهدائها هى لا من شهداء الامة ولا ممن جرى عليهم قضاء الموت كما جرى على مئات من الاتحاديين والاحرار والدستوريين والوفديين ـ لا بل كما جرى على الانجليـز ـ فى مختلف الظروف والاعمار » .

« وإنك لتعجب : ما لهؤلاء ولمصطفى كامل مثـلا وليس هو منهم وليس هم منـه ؟ ومالهم ولمحمد فريد وقد حاولوا تعريضه للقتل فى الاستانة لانه يطالب باستقلال وطنه ، ثم تركوه يموت فى مستشفيات المانيا وأخذوا المال الذى أرسل اليه فبددوه فى حانات ايطاليا ومواخيرها ؟ وما لهم ولأمين الرافعى وقد تبـرأ الرجل منهم مرتين عند تأليف الوفـد وعند فصـل صحيفة اللواء من الاخبـار ؟ ولكن هذه الشرذمة كما قلنا تريد أن تستغل الموت وتصنع فى استجداء الثقة ما يصنعه السائلون الذين يقطعون أيديهم ليستجدوا بها العطاء »[1] .

وبعد هذه الكلمات المليئة بالتجريح والتى داب العقاد على استخدامهـا فى مناقشاته السياسيـة يتحدث العقـاد عن بعض المبادىء الاسـاسية التى ينـادى بها الحزب الوطنى ويهاجم الوفد على اساسها مثل المبدأ الذى يقول « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » يقول العقاد : « لم يكن مصطفى كامل زعيما لهؤلاء ولم يكن رجلا يجهل السياسة وظروفها لانه سافر الى بلد الانجليز اكثر من مرة ليفاوض النواب وغير النواب فى القضية الوطنية ويشكو الى الانجليز سياسة كرومر موفدا من قبل الخديوى السابق عباس حلمى الثانى ولانه ذهب فى « مراعاة الظروف » الى حد لم يذهب اليه زعيم مصرى قط ولا زعيم من غير المصريين ، فاشترط أن تظل مصر «تحت السيادة العثمانية» وما علمنا من تسهيل يجوز أن يذهب الى هذا الحـد فى بـرامـج الامم المطالبـة بـالاستقـلال..»[1] . ويندد العقـاد بمبـدأ « الحزب الوطنى » الذى يرفض المفاوضة الا بعد الجلاء ، والذى على أساسها يهاجم أنصار الحزب الوطنى سعد زغلول وحزب الوفد ... وهو المبدأ الرئيسى الذى عاش عليه الحزب الوطنى حتى تم الغاؤه مع بقية الاحـزاب بعد ثـورة ١٩٥٢

---

١ ــ عامر العقاد ـ صفحات من معارك العقاد السياسية ص ١٦٠

١ ــ المرجع السابق ص ١٥٦ .

يقول العقاد عن رفض الحزب الوطنى للمفاوضات :

« بقيت المفاوضات والمحادثات أو المعاهدات كما يسمونها » .

« فما هى الخطة التى يفرضونها على الامة فرضا لا تصرف فيه ولا تفكير ؟ أدين هى نزل من السماء فلا تبديل ولا محيد عنه ؟ اسياسة هى خفيت على العقول ولم يخلص الى سرها أحد سواهم ممن قرأوا تواريخ الدول ومارسوا حوادث الايام ؟ أما أن كانت دينا نزل عليهم وحيا فنحن نعلم أن محمدا عليه السلام فاوض الكفار وعاهدهم وأخذ منهم وأعطاهم بل نعلم أنه كتب المعاهدة بينه وبينهم على الشروط التى أملوها وكلها غنم لهم وغبن على المسلمين ، ففى صلح الحديبية وضعت الحرب بين النبى وقريش أربع سنوات على أن : ١ - من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده . ٢ - وأن يرجع النبى من غير عمرة فى عام الصلح ثم يأتى العام المقبل فيدخل مكة وليس معه من السلاح الا السيف فى القراب والقوس . ولما أخذوا فى كتابة هذه المعاهدة أملى عليه السلام « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لعلى بن أبى طالب بل أكتب اللهم ! فأمره النبى بذلك . ثم قال النبى : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : لو نعلم انك رسول الله ما خالفناك ، أكتب محمد بن عبد الله . فأمر عليه السلام عليا بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع ، فمحاها النبى بيده ...»

ثم يقول العقاد :

« هذه مفاوضة بل معاهدة تمت بين النبى وكفار قريش ليس فيها شرط واحد يرضى المسلمين ، وليس فيها شرط واحد يخالف ما أملاه الكفار ، وما كان النبى اضعف منا ، ولا أقل اعتمادا على الحق أو على الله ، وما كان كفار قريش أقوى من الدولة البريطانية بما عندها من الجيوش والاساطيل ، فان كان لهذه الحثالة من فلول الحزب الوطنى وحى غير هذا الوحى فليجهروا به ، فأنهم يزعمون أنهم هم المؤمنون ، وأنهم بقية من سرايا الدين الحنيف خرجت فى هذا الزمان لقتل الملحدين !» .

« والحقيقة ان « اللامفاوضة » هذه بدعة جديدة لم يقل بها أحد من الشهداء السابقين ولا دخلت فى برنامج الحزب الوطنى الا حين رأوها صالحة لمعاكسة

« العدو المبين » سعد زغلول وذريعة للمشاغبة عليه وعلى العاملين من انصاره »[1] .

هذا هو رد العقاد على مبدأ « اللامفاوضة » الذى نادى به الحزب الوطنى وحارب الوفديين على أساسه ، وكلام العقاد سليم ، وهو موقف سياسى مقنع ، فمبدأ رفض المفاوضة مع الانجليز الذين كانوا يسيطرون على كل شىء فى البلاد مبدأ عاطفى ، لا يحمل أى أثر من مقومات التعقل أو الواقعية أو النضال السياسى السليم . وقد يتراءى للبعض أن يقارن بين مبدأ « اللامفاوضة » الذى نادى به الحزب الوطنى فى الكفاح ضد الانجليز ، ومبدأ « اللا مفاوضة » الذى أجمع عليه العرب فى كفاحهم الراهن ضد اسرائيل .. والحقيقة ان الفارق بين الامرين كبير ، ومن هنا كانت الدعوة الى « اللا مفاوضة » مع الانجليز دعوة غير مقبولة ، بينما تبدو الدعوة الى « اللا مفاوضة » مع اسرائيل معقولة ومقبولة ، بل هى الدعوة الوحيدة المعقولة فى مواجهة دولة لها تركيب دولة اسرائيل ، ويكفى أن نسجل فارقا أساسيا بين بريطانيا واسرائيل ، وهو أن بريطانيا كانت تحتل مصر ولا تدعى أن مصر هى جزء من المملكة البريطانية ، أو أن الشعب الذى يسكن وادى النيل هو شعب انجليزى ، بينما اسرائيل تقوم اساسا باقتلاع جذور شعب كامل هو الشعب العربى الفلسطينى لتضع مكانه شعبا آخر مهاجرا من بلدان أخرى .. فالاحتلال الانجليزى عمل غير مشروع من دولة لها وجودها هى بريطانيا ، بينما الاحتلال الصهيونى هو عمل غير مشروع من دولة غير مشروعة هى اسرائيل ، والمفاوضة مع اسرائيل تعنى الاعتراف بها ، والعرب ـ ومن حقهم ذلك بل من واجبهم ايضا ـ لا يعترفون بدولة اسرائيل ، ولا بشرعية قيامها فى هذه المنطقة[2] .

من هنا كان منطق العقاد سليما فى رفض مبدأ اللامفاوضة مع الانجليز .. ولا مجال للمقارنة بين اللامفاوضة مع الانجليز واللامفاوضة مع اسرائيل .

---

١ ــ المرجع السابق ص ١٥٨ .

٢ ــ بعد صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٧٣ بسنوات قليلة قام الرئيس الراحل انور السادات بزيارة اسرائيل سنة ١٩٧٧ ثم وقع مع اسرائيل معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ .

هناك نقطة أخرى رفضها العقاد مع الحزب الوطنى وهى دعوته الاولى الى ربط مصر بالخلافة العثمانية .. ولم يكن العقاد يرفض هذه الدعوة فقط ، بل كان يرى أنها كانت نوعا من التكتيك المؤقت عند مصطفى كامل ، وليست مبدأ من المبادىء ، كما كان يرى أن محمد فريد كان معارضا لهذه الدعوة .

كتب العقاد عن الشيخ عبد العزيز جاويش احد كتاب الحزب الوطنى البارزين الذين كانوا يهاجمون سعد زغلول من موقع الايمان بمبادىء الحزب الوطنى .. يقول فى كتابه « سعد زغلول - سيرة وتحية » ص ١٣٤ :

« لا يفوتنا أن نلاحظ ان طريقى سعد وجاويش فى الوطنية طريقان لا يلتقيان ولا يتجاوران . فسعد يعمل لاستقلال مصر بأيدى المصريين لتكون مصر للمصريين ، اما جاويش فتونسى مشمول بالحماية الفرنسية ، وهو من دعاة الخلافة العثمانية لا يريد لمصر الا منزلة الولاية التابعة من السيد المتبوع ، وقد كان من آماله فى الحرب العظمى ان يتقلد فيها مشيخة الاسلام بعد فتحها على أيدى الجنود التركية ، فشقى بدعوته هذه ذلك الرجل النبيل الكريم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى . فانه كان معه فى الاستانة ، وكان يدعو الى استقلال مصر ويتخذ له شعارا « مصر للمصريين » فكان لا يلقى من جاويش الا المكيدة والسعاية والتآمر عليه مع ضباط « تركيا الفتاة » الذين يستكثرون على مصر ان يعترفوا لها بالاستقلال ، وينوون ادخالها فى حوزة الدولة العثمانية بولاية الصدر الاعظم سعيد حليم » .

فالعقاد يرفض تلك الفكرة التى نادى بها الحزب الوطنى ، وهى فكرة الارتباط بين مصر وتركيا، بل يرى أن محمد فريد كان معارضا لهذه الفكرة، بينما كان مصطفى كامل يعتبرها وسيلة مؤقتة للخلاص من قيد الاحتلال الانجليزى ، أما من جاء بعد مصطفى كامل وفريد فهم ينادون بهذه الفكرة ويعملون لها سرا وعلانية . ولا شك أن فكرة الحزب الوطنى فى الربط بين مصر وتركيا كانت مخطئة ، وكان ذلك سببا من اسباب انفضاض الجماهير عن الحزب ، ولا شك ايضا أن محمد فريد كان لا يميل الى الرأى القائل بتحرير مصر من انجلترا لتحويلها الى ولاية عثمانية .

وقد ساهم العقاد فى تعرية هذين المبدأين عند الحزب الوطنى .. مبدأ

« اللا مفاوضة » ومبدأ « الارتباط بين مصر وتركيا » .. واستطاع العقاد ان يكشف عما فى هذين المبدأين من التهافت والضعف وعدم الواقعية .

على أن العقاد من جانب آخر لم يسلم فى هجومه على الحزب الوطنى من التشهير الذى يصل الى حد التجنى والبعد عن الموضوعية ، فالعقاد مثلا لم يقدم اى دليل علمى لاثبات ما أدعاه من أن رجال الحزب الوطنى قد تآمروا لقتل زعيمهم محمد فريد ، أو أنهم فضلوا الاستفادة بأموال الحزب فى العبث واللهو على تقديمها لمحمد فريد اثناء مرضه ليستخدمها فى العلاج .. ثم هذا الطعن - الذى يرتدى صورة اقليمية متعصبة وغير سليمة فى شخصية الشيخ عبد العزيز جاويش ومواقفه المختلفة لاسباب من بينها أنه تونسى .. ولست أدرى ما هى التهمة التى تكمن فى أن يكون الشيخ جاويش من تونس ..

مثل هذه الاتهامات والطعون المختلفة يسوقها العقاد دون ان يقدم عليها دليلا ثابتا أو برهانا علميا يؤكد صحتها ، أو يبررها تبريرا سليما ، مما يضعف مثل هذه الاتهامات ، ويجعلها نوعا من الشكوك والظنون التى لا سند لها .

ولقد كانت مواقف العقاد ضد الحزب الوطنى عادلة فى أساسها ، وكانت الافكار الرئيسية التى يدافع عنها صحيحة ، وكانت الحجج التى يعتمد عليها قوية ومقنعة، ولكن أسلوبه فى التشهير والتجريح كان لونا من الخروج عن دائرة المناقشات السليمة ، ولم يكن العقاد بحاجة الى هذا الاسلوب ليصل الى عقل الرأى العام ووجدانه ، بل لقد كان تخليه عن مثل هذا الاسلوب مما يزيده اقناعا وقوة .

بين الملك فؤاد والملك فاروق

تولى الملك فؤاد السلطة سنة ١٩١٧ بعد وفاة اخيه السلطان حسين كامل ، وتوفى فؤاد سنة ١٩٣٦ . وفى هذه الفترة كلها كان العقاد قد ظهر فى الحياة الادبية والسياسية واصبح كاتبا لا معا صاحب شعبية واسعة ، لا تدانيها شعبية كاتب آخر. ولعل مما يصور لنا مكانة العقاد فى هذه الفترة ما كتبه الاستاذ محمد سعيد العريان فى كتابه « حياة الرافعى » وكان العريان من تلاميذ الرافعى واصدقائه ، ومن هنا فان كلمات العريان بعيدة تماما عن شبهة المبالغة أو المجاملة .. لان الرافعى كان أكثر الادباء عداء للعقاد وهجوما عليه .

يقول العريان :

« أصدر العقاد ديوانه « وحى الاربعين » فى سنة ١٩٣٣ والسياسة المصرية يومئذ تسير فى طريق معوج ، وحكومة صدقى باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الامة كلها يجاهد حكم الفرد ، ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الاول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنينا ، ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق فى كل مدينة وفى كل قرية ، فلا عجب ان يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد الى ان ينحله الدكتور طه حسين بك الوفدى المتحمس لقب امير الشعراء ، تملقا للشعب ونزولا على هواه .. »

ثم يقول العريان بعد ذلك :

« ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء أو لا يكون . ولكن هذه كانت منزلته عند الشعب يومئذ ، فلا يعاديه أحد الا كان

عدو الامة ، ولا يعرض له احد بالنقد فى أى منشآته الادبية أو السياسية الا كان فى رأى الشعب « دسيسة وطنية » أو صنيعة رجعية ..»

هذه هى كلمات « العريان » التى تكشف لنا بوضوح الى أى مدى وصلت اليه مكانة العقاد وقيمته لدى الرأى العام السياسى والادبى خلال تلك الفترة التى أمتدت حتى سنة ١٩٣٥ وانتهت تماما سنة ١٩٣٧ بانضمام العقاد الى أحزاب الاقلية الرجعية وبالذات الى حزب السعديين .

وفى هذه الفترة التى كان فيها العقاد هو كاتب الشعب الاول ، كان الملك فؤاد هو عدو الشعب الاول ، فقد كان الملك فؤاد يحاول ان يستند على الانجليز الذين جاءوا به الى العرش ، ووقع اختيارهم عليه دون غيره من ابناء أسرة محمد على ، وكان فؤاد يعمل بصورة دائمة على الانفراد بالسلطة ويتآمر على دستور ١٩٢٣ ، ليجعل من نفسه مصدر السلطات ، بدلا مما ينادى بـه الدستور من أن الشعب هو مصدر السلطات ، وقد اصطدم الملك فؤاد بسعد زغلول ، واصطدم بعد ذلك بمصطفى النحاس ، وكان الملك هو الذى جاء بحكومة محمد محمود أو حكومة اليد الحديدية سنة ١٩٢٨ ، ثم جاء بأسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ ، وبالتآمر مع اسماعيل صـدقى تم تغيير دستـور ١٩٢٣ ، وإصدار دستـور جديـد كـان الاعتراض عليه من الامة اعتراضا شديدا ، وفى هذا الدستور الجديـد زادت سلطات الملك الى أبعد الحدود ، ويكفى أن نلقى نظره سريعة على هذا الدستور من خلال عرض المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى له ، حتى ندرك ان زيادة سلطات الملك الى حد الاستبداد المطلق كانت هى الهدف من وراء هذا الدستور الجديد ، يقول الرافعى فى كتابه « فى أعقاب الثورة المصريـة » ص ١٣٣ عن « قواعد دستور صدقى باشا » :

« يتجلى فى دستور صدقى باشا طابعه الرجعى ، فقد أهـدر سلطات الامة فى مواضع كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ ـ انه أعتبر الدستور منحة من الملك ، وهذا معناه أن للملك أن يلغى الدستور كلما شاء ، مع ان دستور ١٩٢٣ هو تعاقد بين الملك والأمة لا يملك الملك فسخه .

٢ ـ أنه جعل الدستور الجديد غير قابل لاى تعديل مدى عشر سنوات .

٣ ـ أنه قيد المسئولية الوزارية أى حق مجلس النواب فى الثقة أو عدم الثقة بالوزارة ـ وهو جوهر النظام الدستورى ـ قيده بقيود تجعل استعمال هذا الحق متعذرا بل ممتنعا فعلا .

٤ ـ جعل الاعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ ثلاثة أخماس المجلس وبذلك خول للحكومة تعيين اغلبية أعضائه خلافا لما يقضى به دستور سنة ١٩٢٣ اذ يجعل الاعضاء المعينين الخمسين والمنتخبين ثلاثة أخماس .

٥ ـ جعل للملك حق أهمال اى قانون يقره البرلمان .

٦ ـ جعل للملك وحده تعيين شيخ الازهر وغيره من الرؤساء الدينيين ، فى حين أن دستور ١٩٢٣ جعل تعيينهم وفقا للقانون ، وهذا القانون جعل للوزارة حمل المسئولية فى ذلك .

٧ ـ ينص دستور سنة ١٩٢٣ « المادة ٤٠ » على ان الملك يدعو البرلمان لاجتماع غير عادى متى طلبت الاغلبية المطلقة لاعضاء أى المجلسين ، ولكن دستور صدقى جعل هذه الدعوة عند الضرورة ، ومعنى ذلك ان للملك تقدير هذه الضرورة فله أن يهمل طلب الاغلبية الدعوة الى اجتماع الرلمان » .

هذه بعض مبادىء الدستور الذى اعلنه صدقى بدلا من دستور ١٩٢٣ ، وكل هذه المبادىء لها هدف واحد هو تأكيد سلطة الملك فؤاد وتدعيم استبداده .

وكان من الطبيعى ان يقف العقاد كاتب الوفد وكاتب الشعب الاول آنذاك فى وجه الدستور ، وفى وجه الملك فؤاد ، عدو الدستور وعدو الشعب .

وقد وقف العقاد بلا تردد فى وجه الملك فؤاد ، وهاجمه فى البرلمان سنة ١٩٣٠ بعبارته المشهورة « ان الامة على استعداد لسحق اكبر راس فى البلد يحاول ان يعبث بدستور البلاد » .

وكان أكبر رأس فى البلد هو رأس الملك فؤاد .

وقد حاول الملك ان يلغى الدستور ونجح فى ذلك على يد اسماعيل صدقى .

ووقف العقاد وكان يعمل ايامها فى جريدة « المؤيد الجديد » ليهاجم حكومة صدقى ويهاجم من ورائها الملك فؤاد . ونشر العقاد فى هذه الجريدة عددا من المقالات الهامة ، وهى المقالات التى أدت به الى السجن كما شرحنا ذلك فى الفصول السابقة من هذا الكتاب .

وقد كان هذا الموقف من جانب العقاد واحدا من أشجع مواقفه السياسية ، وأكثرها جرأة ووضوحا وارتباطا بالشعب ، وقد كان الثمن الذى دفعه العقاد هو دخوله السجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ، كما جاء تفصيل ذلك فى الفصول السابقة .

وهكذا نجد ان العقاد قد وقف على طول الخط موقف المعارضة من الملك فؤاد ، وارتبط على الدوام بالمعسكر السياسى الشعبى الذى كان يعارض الملك ويحاول ان يحد من سلطانه ، وأن يـدعم سلطان الدستور والشعب . ولا شـك أن موقف العقاد من الملك فؤاد ومواقفه المعادية للشعب هو صفحة مشرقة ومشـرفة فى حياته السياسية ، بل هو صفحة من ألمع صفحات النضال السياسى فى تاريخ كتاب مصر المعاصرين .

مات الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ ، وتولى العرش بعده الملك فاروق ، وكان العقاد قد خرج من الوفد وبدأ مرحلة جديدة فى حياته ، ارتبط فيها بأحزاب الاقلية التى قضى عمره حتى ذلك الحين وهو يحاربها أعنف الوان الحرب . وكانت أحزاب الاقلية تعتمد على الملك، لانها لا تحظى بالتأييد الشعبى، وكـان الملك فاروق تحت تأثير مستشاريه وعلى رأسهم على ماهر وأحمد حسنين ، يدعم احزاب الاقلية ، لكى يسيطر من خلالها على السلطة ، وينفرد بها ، ولكى يقضى على نفوذ الوفد وعلى شعبيته الواسعة التى تهدد سلطانه على الدوام .

ومع الملك فاروق يختلف موقف العقاد .

أن العقاد يؤيد فاروقا لانه اصبح ينتمى الى احد أحزاب الاقلية المستندة الى الملك ، وهو حزب السعديين ، وتتحول مواقف العقاد ، فبعد ان كـان يعارض الحكومات الرجعية التى تعتمد على الارهاب فى الحكم يقف مـدافعا عن هـذه الحكومات مناصرا لها ، ويتحول الى شن حربه على الوفد ، وعلى القوى الوطنية التى تقف فى وجه الملك فاروق ، وتقف فى وجه أحزاب الاقلية .

ومن خلال ما كتبه العقاد عن الملك فاروق نحس بمدى التحول الذى طرأ على موقف العقاد السياسى وعلى ثوريته واندفاعه الشريف فى معارضة الاستبـداد السياسى ، كما كان موقف العقاد من الملك فؤاد .

كتب مرة يصف لقاء تم بينه وبين الملك فاروق يقول :

« اننى لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لا ستجلاء طلعة الملك عن كثب ، والاصغاء الى جلالته على انفراد ، فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث ، لانه جو الملك والديمقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجل تمثيل ، مجتمعين فى سماعه وكلماته وارشاداتـه احسن اجتماع ، لقـد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف ، وكـلام وطنى غيور ، وكـلام محدث ظريف ، وطاف بخاطرى ذكر الايمان وذكر الوطن »[1] .

وكتب العقاد ايضا فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٧ عن الملك يقول :

« من نصر الملك فقد نصر الحق ونصر الامة ومن تولى فعليه لعنة الحق ولعنة الامة » .

وهذا كلام يتناقض تماما مع روح الثائر المتمرد عباس العقاد ، ومع هـجومه العنيف فى سنة ١٩٣٠ على الملك فؤاد . وقد كان الملك فؤاد أقوى فى شخصيته وفى مواقفه السياسية بكثير من ابنه الملك فاروق الذى كان مازال سنة ١٩٣٧ صبيا صغيرا فى السابعة عشرة من عمره .. لقـد هاجم العقـاد الملك فؤاد فى البرلمان وهدد بسحق رأسه ، وهو الان ـ فى سنة ١٩٣٧ ـ يرى أن مناصرة الملك فاروق مناصرة للحق وللأمة وأن من لا يناصر الملك تحق عليه لعنة الحق ولعنة الامة .

وبعد عودة النقراشى من عرض قضية مصر على مجلس الامة سنة ١٩٤٧ يكتب العقاد قصيدة يمدح فيها الملك فـاروق لانه كـرّم رئيس وزرائه ورئيس الحزب السعدى الذى ينتمى اليه العقاد ... يقول العقاد فى مدح فاروق متحدثا عن مصر وحبها للملك ، والقصيدة من ديوان العقاد « بعد الاعاصير » :

ومـا اتخـذت غـير فـاروقهـا	عمـادا يحـاط وركنـا يـؤم
ولا عـرفـت مـثـله فى العـلا	صـديقا يشـاركهـا فى القسم
فـدتـه البـلاد وفـدى البـلا	د بعـالى التراث وغـالى القيم
مـليـك يـلوذ بـه عـرشـه	وكم ملك بـالعـروش اعتصم
وذو عـلم تـسـتـظل المـلو	ك بـاعـلامهـا ويـظل العلم

---

١ ـ عصر ورجال ـ فتحى رضوان ص ٢٣٨ .

وراع رعيته عزه ... اذا عز بالصخر باني الهرم
أبى الملك الا كما شاءه منيع الجوار رفيع الدعم

ويروى الاستاذ فتحى رضوان فى كتبه « عصر ورجال » ص ٢٢٦ هذه القصة عن العقاد فيقول :

« ... رأيت العقاد فى إحدى انفجارات غضبه ، فى دار جريدة البلاغ فى سنة ١٩٣٨ ، فى أعقاب اقالة الوزارة الوفدية النحاسية ، التى وليت الحكم بعد ابرام معاهدة ١٩٣٦ ، وكان الظن عند الوفديين انه لم يعد بعد هذه المعاهدة للملك من السلطان ما كان له من قبل، وأن الانجليز عظيمو الشعور بجميل الوفد، لانه هو الذى احتمل اكبر المسئولية فى إبرام هذه المعاهدة ، بحكم كونه صاحب الاغلبية فى البلاد ، وأنهم لذلك سيطلقون يد الوفد فى البلاد ويؤيدونه ضد الملك . ولكن الملك فاروقا ، بتأثير من حوله من مستشاريه ، وفى مقدمتهم على ماهر ، تخلص من النحاس ، بعد حملة صحفية حامية قامت بها جريدة البلاغ وجريدة مصر الفتاة ، ورأى الملك أن يعبر عن تقديره للذين ساهموا فى هذه الحملة فمنح عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ رتبة الباشوية ، ولم يظفر العقاد بشىء .

ولو لم يكن العقاد شديد الحساسية ، لادرك بالضبط دافع الملك ومن وراء الملك على هذا التصرف » .

ثم يقول فتحى رضوان ان عدم مكافأة العقاد يرجع ـ فى نظر الملك فاروق ومستشاريه الى موقفه القديم من الملك فؤاد والى هجوم العقاد ضد على ماهر مستشار الملك خلال السنوات التى أرتبط فيها العقاد بالوفد .. ويعلق فتحى رضوان على ذلك كله بقوله :

« كان العقاد جديرا بأن يعرف ان الملك فاروق وقد سب هو أباه وان مستشار الملك وقد سبه كذلك ، لا يحبان ان ينسيا له اساءته لهما ، وأن يمنحاه رتبة الباشوية أو البكوية ، وكان اليق به ان يتجمل بضبط النفس ، ولا يثور ثورة مضرية لحرمانه من اللقب ، وهو الاديب الذى يزهو بمكانته الادبية بين مواطنيه ، وبعزة القلم ، وسلطان أهل الفكر ، ولكن العقاد لم يبذل جهدا فى أخفاء غضبه بل انه أسرف فى أظهاره الى حد بلغ معه صوته آخر الدار . ولست أنسى منظر العقاد وهو يقول : قد تقولون ان الاديب فى غنى عن الالقاب ، ولكن

أما وقد منحت الدولة للادباء ألقابا ، ففيم حرمان العقاد وحده ؟ اذا كان اللقب قد منح للمكانة فمن هو الذى يفضلنى مكانة ، واذا كان للمساهمة فى محاربة الطغيان الوفدى فأى قلم حارب الطغيان محاربتى له ؟» .

هذه هى القصة التى يرويها فتحى رضوان ، وهى تدلنا على مدى التحول الذى حدث فى موقف العقاد وشخصيته .. لقد أصبح العقاد يكتب فى السياسة من أجل الجزاء والمكافأة ، ولم يعد يكتب من أجل المبدأ فقط ، وهو الان ينتظر ثوابا من الملك فاروق ، وقد كان من قبل يهاجم أباه الملك فؤاد ويتحداه ويلعنه ولا يعبأ بدخول السجن فى سبيل اعلان موقفه ضده . لقد أصبح العقاد مرتبطا بحزب يرتبط هو الآخر بالملك ويستند اليه ... ومن هنا كان هذا التحول الغريب المؤسف فى موقفه .

على ان العقاد يصل أحيانا فى حديثه عن الملك فاروق وفى دفاعه عنه الى حد بعيد من التملق والنفاق ، فقد كتب عن الملك فاروق سنة ١٩٥١ أى قبل قيام الثورة بحوالى عام وفى قمة المد الثورى الشعبى ، وذلك بمناسبة الزواج الثانى لفاروق من ناريمان.. كتب العقاد مقالا بعنوان «سنة الديمقراطية فى زواج الملك فاروق » نشرته مجلة الهلال فى عددها الصادر فى مايو ١٩٥١ ، ولم يكن العقاد مضطرا لكتابة مثل هذا المقال فقد كان حزبه السعدى خارج الحكم ، وكان الراى العام الشعبى معارضا أشد المعارضة للملك فاروق فى تلك الفترة ، وكانت سمعة فاروق ومكانته الشعبية فى الحضيض ، والمناسبة نفسها لم تكن مناسبة تستحق ان يكتب فيها العقاد ، ومع ذلك فقد كتب هذا المقال الذى يعتمد على ومضات مختلفة من ثقافة العقاد ومعرفته بتقاليد الشعوب وعاداتها فى مختلف العصور ، ولكن المقال من الناحية السياسية والفكرية والخلقية يكاد يكون « سقطة » من سقطات العقاد ، والعقاد ، حتى فى هذه المناسبة لم ينس عداءه الشديد للمذاهب الاشتراكية ، فاتخذ من زواج فاروق من فتاة ليست من الاسرة الملكية فرصة للطعن على الافكار الاشتراكية ، بحجة أنها كانت افكارا هدامة وأن الملك فاروق يعطى نموذجا يثبت ان هذه المذاهب لا قيمة لها ولا أهمية .. يقول العقاد فى مقاله « مجلة الهلال مايو ١٩٥١ » :

« وتشاء العناية لصاحب عرش مصر أن يرعى سنة الديمقراطية ، ويجدد

سنة الاسلام باختيار مليكة شعبية من كريمات شعبه ، فلا حاجز من حواجز النسب بين الراعى والراعية ، ولا محل لهذه الحواجز فى المجتمع كله بعد ارتفاعها بين بيت الملك وسائر البيوت المصرية ، وانها لسنة تحمدها الامم فى كل آونة ، ولكنها أحمد ما تكون حين تثار حرب الطبقات ، كما تثار اليوم بين أرجاء العالم على السنة طلاب الفتنة ودعاة الوقيعة ، فلا تنهض لهؤلاء الدعاة حجة حيث يتصل النسب من العرش الى بيوت رعاياه ، ومن هذا العنوان الساطع تسرى القدوة الحكيمة الى صفحات الكتاب كله فلا تدع فيه بمشيئة الله حاجزا حائلا بين طبقة ولا بين عامل وعامل فيما يستحقون » .

« وعما قريب يحتفل العرش المصرى بربه وربته ، فيعلو الدعاء الى مالك الملك ورب الارباب أن يسعد الجالسين عليه وأن يجعله سعودا شاملا لهذه الامة فى الحال والمآل » .

ويبدو هذا المقال الذى كتبه العقاد نوعا من « النفاق التقاف » ـ اذا صح التعبير ـ للملك فاروق ، فى وقت لم يكن فيه الملك موضعا لاحترام أحد ولا لثقة أحد. فالمقال ملىء بالمقارنات الثقافية عن الحضارات القديمة والحضارات الجديدة والعصور الوسطى ، والعصور الحديثة ، وما كان فيها من تقاليد مختلفة فى نظام الزواج وبناء العائلة ، والعقاد يخلص من ذلك كله بأن فاروق فى زواجه من ناريمان انما يمثل « الديمقراطية الحقيقية السليمة » .

والعجيب أن العقاد قد كتب سنة ١٩٣٨ مقالا عن الزواج الاول لفاروق من فريده ، وردد بعض المعانى المشابهة لمقاله عن زواج فاروق من ناريمان ، حيث يقول العقاد فى مقاله القديم « زواج ملكى ـ مجلة الرسالة فى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ » :

« .. والامة المصرية تبتهج بزفاف الملك فاروق حفظه الله وأدام ايامه ليتم الاطلاع على الفارق بين تقاليدنا وتقاليد الغربيين فى هذه الشؤون ، فقد فرض العرف القديم وفرضت المواقف السياسية قيودا على ملوك الغرب لا محل لها من العادات الاسلامية والشرقية ، ومن ثم كان زواج الملوك المصريين اقرب الى الديمقراطية والى الحرية والى المعانى الانسانية مما يكون بين الامم الغربية، وهى فيما توحيه الظواهر مهد الحرية فى مسائل الزواج » .

فالملك فاروق - فى نظر العقاد - ديموقراطى بزواجه من فريدة سنة ١٩٣٨ .
والملك فاروق - فى نظر العقاد أيضا - ديموقراطى بزواجه من ناريمان سنة ١٩٥١ .

وما أرخص الديموقراطية اذا كانت هذه هى علامات الديمواقراطية .

على أن العقاد سنة ١٩٣٨ كان له بعض العذر ، فقد كان الملك فاروق آنذاك مازال موضع الرعاية الشعبية والعطف الجماهيرى كما ان مقال العقاد القديم عن الزواج الملكى كان مقالا طريفا وذكيا حيث بناه اساسا على ترجمة فصل من مسرحية للكاتب الانجليزى لورنس هوسمان تقوم فيه المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا حول مسألة الزواج الملكى ، وفى هذا الحوار الطريف تنكشف تلك الروح الاجتماعية المحافظة فى انجلترا ، والقيود الصعبة التى توضع حول زواج الارستقراطية الانجليزية ، وهذا نموذج من الصفات التى يحددها اللورد ملبورن لزوج الملكة ، كما جاء فى الفصل الذى ترجمه العقاد من مسرحية « هوسمان » :

« ... من الواجب اولا أن يكون « الزوج المنشود » من سلالة ملكية ، ومع هذا يجب الا يكون وارثا مباشرا أو مرجحا لعرش الملك والامارة . لان وراثته ربما جرت المشكلات السياسية . والقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغى فوق عراقته الملكية وبعده عن وراثة العرش ان يكون اميرا من بيت لا هو بالصغير المفرط فى الصغر ، ولا هو بالخطير المفرط فى العظم ، اذ لا مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة ، وينبغى ، بعد هذا ان يدين بالعقيدة البروتستانتية . ثم ينبغى يضا أن يكون شابا كى يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة . ولا بد من العثور على أحد قادر بعد الاصطباغ بالصبغة الانجليزية أن يقتبس عاداتها ومشاربها ، ويجمل به فوق ما تقدم يامولاتى ان يملك بعض الثروة وان لم تكن عظيمة ، فان البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم ، وأن يكون صاحب سمت لائق بمقامه ، وأن يكون على جانب من العقل ولكن على غير جانب عظيم منه ! اذ لا يحق له ان يتعرض لشئون السياسة » .

ويعلق العقاد على هذا الحوار الطريف بعد ترجمته ليستنتج منه ما سبق ان أشرنا اليه من نتائج تقول بأن الزواج الملكى فى مصر أقرب الى الديموقراطية من

الزواج فى بلاط الانجليز . ويبدو هذا المقال القديم أكثر عمقا وذكـاء من مقال العقاد عن الزواج الثانى لفاروق .. حيث يدور هذا المقال الاخير على التمجيد المباشر لفاروق فى غير موضعه وفى غير مناسبته ، وعلى تكرار ما كان يدعيه فاروق من تمسك بالدين وايمان بالاسلام ، للارتفاع بشأنه لدى الجماهير . ومن هنا نبيح لانفسنا ان نقول ان العقاد فى مقـاله عن زواج فاروق من نـاريمان هـو « سقطة » لا شك فيها من سقطات العقاد .

واذا كان موقف العقاد من الملك موقفا ضعيفا ، ولا أحد يملك ان يدافع عنه أو يبرره ، واذا كان هذا الموقف هو جزءاً من الانحراف السياسى العام للعقاد ، منذ سنة ١٩٣٧ حيث ابتعد عن الجماهير الشعبية والرأى العام الوطنى ، ليرتبط بنخبة قليلة من السياسيين الذين قد يتمتعون بالامتياز كأفراد ، ولكنهم كانوا فى حقيقتهم مرتبطين بالملك والانجليز وسائر القوى المعاديـة للحركـة الوطنية فى البلاد ... اذا كان هذا كله صحيحا بالنسبة لموقف العقاد من فاروق ، واذا كان هذا كله امرا لا يمكن الدفاع عنه ولا يمكن تبرئة العقاد منه ، الا ان الانصاف للعقاد يقتضى منا ان نضع أمامنا بعض العوامل المخففة فى الحكم على موقف العقاد ، وان كانت هذه العوامل لا تبرىء العقاد ولا تنفى عنه الادانة .

من هذه العوامل المخففة ان الملك فاروق كان يحظى فى بداية عهده بنوع من العطف الشعبى مصدره أنـه صغير فى السن ، وأنـه فقد أبـاه فى هذا السن الصغيرة ، حيث أن والده مات وهو فى السادسة عشرة من عمـره ، وهذا العـامل العاطفى له فى العادة تأثير كبير على شعب مصر ، فهو شعب يتأثر بهذه العواطف الانسانية أشد التأثر ، ومن ناحية أخرى فان الملك فاروق قد حاول فى البداية ان يحيط نفسه بهالة دينية ، فكان يحرص على صلاة الجمعـة كل اسبـوع وسط جماهير الشعب فى جامع من الجوامع ، وكان يحيط نفسه وقصره فى رمضـان بمشاهير قراء القرآن وبرجال الدين الذين يقرأون عليه بعض الدروس الدينية ، وكان لهذا العامل الدينى أيضا تأثيره على نفسية الجماهير الشعبية التى تتأثر دائما بشعورها الدينى وتستجيب له .

على ان الملك فاروق قد حظى من ناحية اخرى ببعض العطف الشعبى بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، حيث حاصر الانجليز بدباباتهم قصر عابـدين ،

وفرضوا على الملك تأليف وزارة وفدية ، وكانت صورة « الملك » فى ذلك الحين هى انه معارض للانجليز ، مما أكسبه بعض الشعبية لدى الرأى العام .

على ان هذا كله قد تبدد فى السنوات التالية لسنة ١٩٤٢ ، بعد أن بدأ الناس يكشفون أكاذيب الملك ، ويحسون بما فى حياته من انحلال ونزوات وابتعاد عن المسئولية ، كما ان الجماهير الشعبية ادركت أن الملك بطبيعة موقفه السياسى والاجتماعى لا يمكن ان يقف فى صف الحقوق الصحيحة للمواطنين ، فالملك يريد ان يحكم وحده ، وهو يريد أن ينمى ثروته الكبيرة ، ومثل هذه المطالب تتناقض تماما مع مصالح الشعب .

ومن العوامل المخففة ايضا بالنسبة لموقف العقاد من الملك فاروق ، ان كثيرين من كبار أدباء مصر المعاصرين للعقاد قد كتبوا عن فاروق ووقفوا الى جانبه - صادقين او متظاهرين بالصدق - وابرز هؤلاء جميعا طه حسين الذى خطب مرارا فى مدح فاروق ، وفى التعبير عن الولاء له ، ولعل ابرز خطبه له فى هذا المجال هى خطبته فى الاحتفال بمرور ربع قرن على انشاء جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ففى هذا الخطاب تمجيد بالغ لفاروق ولوالده الملك فؤاد . بل ان سلامة موسى وهو الكاتب التقدمى الاشتراكى قد ساهم فى مدح الملك فاروق وكتب عنه وعن أسرته عددا من المقالات .

ولعل هذا العامل ، وهو مشاركة كثيرين من الكتاب فى مدح الملك فاروق لا يجوز أبدا ان يكون سببا كافيا لتبرئة العقاد من اندفاعه فى مدح فاروق .. فالخطأ لا يبرر الخطأ وكل الكتاب الذين مدحوا فاروقا كانوا مخطئين فى موقفهم، ومن ناحية أخرى فان المقارنة بين موقف العقاد المتخاذل من فاروق وموقفه الشجاع من فؤاد تدين العقاد وتدفعنا الى مؤاخذته بالقياس الى ماضيه المشرف .

والعامل الاخير الذى يمكن ان يخفف من خطأ العقاد فى دفاعه عن فاروق هو ان العقاد لم يكن من محترفى مدح فاروق ، مثل بعض الادباء والشعراء المعروفين فى مصر ، ولكنه كان يكتب عن فاروق فى مناسبات متفرقة تقتضيها بعض الظروف والضرورات من وجهة نظر العقاد .

ومجمل ما كتبه العقاد في مدح الملك فاروق لا يزيد عن بضع صفحات من انتاجه الغزير .

على ان العقاد قد غير موقفه من فاروق تغييرا كاملا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فسارع الى الهجوم عليه وتحليله كمريض نفساني ، بل لقد كان هذا التحليل نوعا من التمزيق لشخصية فاروق .

وهذا نفسه يدين العقاد مرة أخرى .

فما دامت خطايا فاروق واضحة أمامه بهذا الشكل الذى كتب به بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فلماذا استسلم لمدحه من قبل على هذه الصورة الخاطئة التى رأيناها ؟.. تلك مسئولية للعقاد ، وخطأ من أخطائه التاريخية لابد من تسجيله عليه .

كتب العقاد مقالا يدل على فهم دقيق لشخصية فاروق وهو بالتالى يؤكد مسئولية العقاد في دفاعه السابق عن فاروق ... يقول العقاد في مقال بعنوان « الجيش وقائده » من كتابه « دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية » ص ٢٢٤ : « لا نعتقد أن فاروقا كان يعقل ان يضع لنفسه سياسة يحمى بها عرشه ويوطد دعائم ملكه ، ولكننى أرجح أنه تلقى من ابيه وصية مكتوبة أو محفوظة تلخص له قواعد السياسة التى اعتمد عليها لحماية العرشد وتوطيد دعائم الملك ، ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ، وقد كان ابوه يحاول الاحتفاظ بولائهما غاية ما وسعه ، ولم يكن وسعه بالقليل » .

ثم يسجل العقاد ان فاروقا لم ينتفع بهذه الوصية فيقول :

« كل ما فهمه فاروق من الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ان يفرض على كل منهما أعوانا أو أذنابا يخدمونه ويخدمون مصالحهم في وقت واحد » .

ثم يشير العقاد الى حرب فلسطين فيقول عن فاروق :

« مازال به الجهل حتى أصبح أذنابه وأعوانه حمى له من الجيش ، وهم أعجز من أن يحموا أنفسهم لو لم يعتمدوا عليه .. وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين ، فلما تكشفت تلك الحرب عن فضائح السلاح لم يبق في الجيش المصرى ضابط ولا جندى يضمر الولاء للملك المجرم الذى بلغت به الضعة والعياذ بالله ، ان يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة القتال » .

وهذه الكلمات التى يكتبها العقاد عن فضائح الاسلحة الفاسدة كانت معروفة للجميع سنة ١٩٥٠ فى وزارة الوفد الاخيرة ، وكان العقاد يعرفها قبل ذلك ولا شك ، لانه كان عضوا فى مجلس الشيوخ ، وكان عارفا بكثير من خفايا السياسة المصرية .. ومع ذلك كتب العقاد مقاله عن ديمقراطية الملك فاروق وتمسكه بمبادىء الاسلام فى مايو ١٩٥١ .. والدليل على الديموقراطية والتمسك بمبادىء الاسلام هو الزواج من ناريمان التى ليست من أسرة ملكية بل من أسرة عادية من ابناء الشعب !!

ويعود العقاد فى مقال آخر للحديث عن الملك فاروق بعد ثورة ١٩٥٢ فيكتب بعنوان « ملكان ومرضان » ، وفى هذا المقال يستخدم منهجه المفضل لديه فى التحليل النفسى الفردى للشخصيات من الداخل بدلا من النظر الى الظروف والاوضاع الاجتماعية بالاضافة الى العوامل الخارجية .

يقول العقاد فى هذا المقال « دراسات فى المذاهب الاجتماعية والادبية صفحة ٢٣٩ » :

« نزل طلال ملك الاردن عن عرشه لمرض اصابه ، وقيل عن هذا المرض أنه داء الفصام الذى يعرفه الاطباء النفسانيون فى أوربا وأمريكا بأسماء متعددة منها الشيزوفرانيا والخرف المبكر » .

« وقبل ان يصل الملك طلال الى القاهرة للعلاج فى مستشفياتها لحق به ملك مصر نفسها ونزل عن العرش لاسباب غير اسباب المرض ، وهى استجابة لرغبات الامة اعرب عنها الجيش فى بيانه » .

« على أن فاروق لم يسلم من مرض نفسى كمرض طلال او من قبيله .. وأكثر الذين يقرأون الدراسات النفسية من غير الاطباء - ونحن منهم - يطبقون ما قراوه على اخباره وأطواره فيجدون انها تنطبق تارة على جنون القسوة « سادزم » وتنطبق تارة على جنون السرقة « كليبتومانيا » وتنطبق تارات على جنون الشهوة « ساتيريسز » ولا تعوزهم الادلة على نوع من هذه الانواع » .

ولكن العقاد يخلص من هذه الافتراضات بتحديد المرض الاصيل فى شخصية فاروق فيقول فى نفس المقال :

« أن المرض الاصيل الذى غلب على طبيعة فاروق فيما نعلم هو « توقف النمو » ، وتتفرع عليه حالة تسمى بحالة التشبث ، وقد كانت ظاهرة الاعراض على فاروق » .

« وتوقف النمو هذا مرض كثير الشعب متعدد المقاييس ... ومن اشد آفات هذا المرض ان يكبر الرجل ولايزال شعوره نحو ابيه خاصة شعور الطفل نحو الاب الذى يعوله ولا يقوى على فراقه .. ومما لا شك فيه ان فاروقا كان مصابا بهذه الآفة على أشدها ، وكانت غرائبه كلها تدور عليها ، فقلما حدث حادث سياسى الا ذكر فيه أباه ، وقلما تكلم عن مشروع الا أشار فيه الى رغبات ابيه ، وقلما عرضت مناسبة الا ذهب فيها لزيارة ضريحه وبكى عنده او تباكى بعد الوفاة بسنوات » .

« هذه الآفة من شأنها دائما ان تشعر صاحبها بقصوره وتلعج نفسه « بمركب النقص » الذى يدفعه الى اظهار القوة واظهار القسوة والشك فى كل أحد غير محور « التشبث » كأنه يتهمهم جميعا ولا يلقى باعتماده الباطن كله على غير هذا المحور » .

ويستمر العقاد فى شرح اعراض هذا المرض وتطبيقه على فاروق .. وقد يكون تحليل العقاد لفاروق كشخص صحيحا تماما من حيث المرض النفسى والصحة النفسية ، ولكن العقاد لا يشير فى هذا المقال الى الموقف الاجتماعى والسياسى للملك فاروق ، وهو مرض أخطر بكثير من كل أمراضه وعلله النفسية ، ذلك لان فاروقا كان راس الاقطاع والراسمالية فى مصر ، وانه كان يستغل سلطته كلها فى الدفاع عن الاقطاع والرأسمالية ضد طبقات الشعب المختلفة ، ومن هنا كان التناقض بينه وبين القوى الوطنية والحركة الشعبية ، وكان التناقض بينه وبين جميع الاهداف الوطنية فى التطوير الاجتماعى والتحرير السياسى والعدالة والاصلاح .

لم ينتبه العقاد لهذا المرض الرئيسى ، لانه كان أسيرا لمنهجه فى تحليل الاشخاص والمواقف ، وهو المنهج الذى يدور حول العوامل الداخلية الذاتية فى الفرد ، ويهمل العوامل الموضوعية التى تتصل بالمجتمع وتؤثر فى مواقف الافراد بل تساهم مساهمة رئيسية فى تكوين هؤلاء الافراد .

العقاد وثورة ٢٣ يوليو

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ سارع العقاد الى تأييدها ، ولكن تأييده لهذه الثورة كان له طابع خاص ، فهو من ناحية لم يكتب عن الثورة كثيرا بل كانت كتاباته مجموعة محدودة من المقالات كتبها فى السنوات الاولى من الثورة ، ثم ابتعد العقاد بعدها عن الخوض فى السياسة ، واقتصر نشاطه طيلة فترات الثورة من ١٩٥٢ حتى وفاته سنة ١٩٦٤ على ثلاثة مجالات : الاول هو العمل الصحفى حيث كان يرد على اسئلة القراء فى الادب والثقافة ، وخاصة فى يوميات الاخبار التى ظهرت بعد ذلك فى عدة أجزاء كبيرة وتعتبر هذه اليوميات اشبه بدائرة معارف شعبية تتناول كافة العلوم والفنون والمدارس الفكرية ، كل ذلك فى خطوط عريضة ومعلومات أساسية مركزة تماما مثل دوائر المعارف الشعبية الميسرة ، والمجال الثانى الذى شغل به العقاد خلال الفترة التى عاشها فى ظل الثورة هو مجال الدراسات الاسلامية التى أصدر منها العقاد عددا كبيرا فى هذه الفترة ، وكان المجال الثالث الذى شغل به العقاد هو تلك الحرب العنيفة على الفكر اليسارى والفكر الشيوعى على وجه الخصوص . أما الكتابة السياسية المباشرة فقد كف العقاد عنها تماما بعد فترة قليلة من قيام الثورة . وتفسير موقف العقاد ميسور ، فقد تعود العقاد أن يشارك فى الحياة السياسية فى فترة الصراع الحزبى ، حيث كان يستند فى معظم حياته السياسية الى حزب من الاحزاب يؤيده ويعارض خصومه وقد انتهت الاحزاب بعد الثورة ، وكانت الثورة نفسها تخوض تجربة بعد الأخرى فى سبيل بناء تنظيمها السياسى ، ومن هنا آثر

العقاد الابتعاد تماما عن ميدان الحياة السياسية المباشرة ، واقتصر على نشاطه فى المجالات السابقة التى أشرت اليها .

ولكن ماذا كان موقف العقاد فى المقالات التى كتبها عن ثورة ١٩٥٢ ؟

لاشك ان العقاد قد تلقى عدة صدمات بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، وكانت الصدمة الأولى بالنسبة له هى قيام الثورة بالغاء النظام الحزبى ، ثم توالت الصدمات بالنسبة للعقاد ، فقامت الثورة بتحديد الملكية الزراعية ، وقامت بتأميم كثير من وسائل الانتاج وخاصة سنة ١٩٦١ وللعقاد رأى فى تحديد الملكية الزراعية أعلنه فى بعض كتاباته ، وله فى التأميم رأى مشابه ، وكلا الرأيين لا يتفق مع ما اتخذته ثورة ٢٣ يوليو من قرارات واجراءات .

فالمسألة الاقتصادية عند العقاد لها حلان : الضرائب التصاعدية والتعاون وليس تحديد الملكية أو التأميم .

يقول العقاد فى مقال له بعنوان « لو اصبحت مصر اشتراكية » من كتابه « دراسات فى المذاهب الادبية والاجتماعية ص ٢٠٨ » :

« ان الضرائب التصاعدية ترضى شعور الفرد بحقه فى الملكية ، وتغنى عن تقييد الملكية الزراعية أو العقارية بمقدار محدود فاذا رأى الزارع أن الضيعة التى تزيد مساحتها على خمسمائة فدان مثلا تتساوى أرباحها وأرباح الاربعمائة ، أو رأى ان الفرق فى الربح تقابله زيادة الضرائب وزيادة التكاليف ، فهو من غير أمر ولا قانون سيتحول بالمال الزائد الى مرفق آخر غير الزراعة ، وسينتهى هذا التحول فى القطر كله الى التوازن بين مرافق التجارة وإلى التقارب بين اصحاب الضياع الكبيرة وأصحاب المزارع الصغيرة دون ان يخل بنشاط الفرد فى رعاية ملكه والسهر على مصالحه » .

ثم يتحدث العقاد عن التعاون فيقول فى نفس المقال :

« اما التعاون فهو الوسيلة المثلى للقضاء على الاستغلال والقضاء من ثم على حرب الطبقات » .

ويكشف العقاد بمثل هذه الأفكار عن ضعف معرفته بالفكر الاقتصادى بصورة تثير الدهشة ... فكيف نسى العقاد مثلا أن هناك ألوانا من التحايل على

القوانين بطريقة قانونية ، بحيث يمكن لمن يملك خمسمائة فدان ان يوزعها على افراد آخرين من عائلته ، أو على زوجاته ، حيث يكثر تعدد الزوجات بين الاقطاعيين ، وكيف يتجاهل أن هناك وسائل عديدة لاصحاب الثروات يستطيعون بها تهريب أموالهم ، وإخفاءها واستغلالها فى غير الصالح العام ، وكيف يتجاهل ان اصحاب الثروات من الاقطاعيين وغيرهم هم الذين يضعون القوانين داخل البلدان التى يتحكمون فى ثرواتها ، وأن قوانينهم لا يمكن الا أن تكون على قدر مصالحهم بحيث لا يصبح هناك أى حل الا أصدار قوانين تحدد الملكية بصورة قاطعة دون ان تترك الأمر لمجرد فكرة الضرائب التصاعدية .

وكما يرفض العقاد فكرة تحديد الملكية يرفض فكرة التأميم تحت الدعوة الخالدة وهى الحافز الفردى ... يقول العقاد فى نفس المقال السابق :

« ان تجارب مصر وتجارب غيرها قد أثبتت لنا على التحقيق ان المرفق الذى تديره الحكومات تتضاعف تكاليفه وتزيد فيه المغارم على الغنائم ويؤول شأنه الى الاهمال وقلة الاكتراث ... وبداهة العقل تأبى ان يقال ان عمل الانسان لغيره كعمله لنفسه ، فان الطبيعة برمتها ـ كما امتحنا لذلك مرارا ـ لا تحمل الحى على ابقاء نوعه ما لم يكن فى تكوينه دافع من المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوى ، ومن الأمل الذى تدور عليه عواطف الأحياء ، فمن الخطر تسليم المرافق جميعا الى الدولة ، والغاء البواعث الفردية التى تشحذ الهمم وتقنع المرء بأنه يعمل لنفسه وذريته مع خدمته للمجموع » .

ويقدم العقاد الحل المثالى فيقول :

« وإنما قوام الامر بالنسبة الينا نحن المصريين على الخصوص أن نبقى للفرد الملك وحق التصرف فيما يقدر عليه ، وندع للحكومات ان تستأثر بالاعمال العامة التى لا قبل بها للافراد ولا للشركات » .

والواقع أن العقاد هنا يدافع بوضوح عن النظام الحر فى الاقتصاد أو النظام الرأسمالى ، ولا يرى فى الاشتراكية وفى مبدأ التأميم نفعا لأحد .. ورغم انه يترك للدولة ادارة الأعمال الكبرى التى لا يقدر عليها الافراد ولا تقدر عليها الشركات ... فهو فى الحقيقة لا يترك للدولة أى شيء ... فالافراد يقدرون على

اشياء كثيرة جدا ، وأصحاب الملايين فى البلاد الرأسمالية يملكون أضخم المصانع وأخطرها شأنا ، وعلى سبيل المثال هناك أضخم الطائرات الحربية التى يملك مصانعها فى أمريكا وفرنسا وغيرهما أفراد من أمثال « داسو » الفرنسى ، كما ان هناك عددا من اصحاب الملايين يملكون كل ما يخطر على البال من الصناعات الحديثة ، المعقدة من امثال روتشيلد وروكفلر وكروب وغيرهم . اما ما لا يستطيعه الافراد فان الشركات تستطيع ان تديره ... ولا يوجد عمل اقتصادى ضخم لا تستطيع الشركات ان تقوم به . فماذا يبقى اذن للدولة بعد أن ترك لها العقاد ما لا يستطيعه الافراد والشركات ؟

ان الشركات والافراد يستطيعون القيام بادارة أضخم المصانع وأضخم المشروعات الاقتصادية ... ولكن ذلك يتم عادة باستغلال الآخرين وعلى حساب المصلحة العامة دائما . والحوافز الطبيعية التى يتحدث عنها العقاد والتى يقول فيها : « ان الطبيعة برمتها لا تحمل الحى على بقاء نوعه مالم يكن فى تكوينه دافع من المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوى ، ومن الأمل الذى تدور عليه عواطف الاحياء » ... هذه الحوافز الطبيعية التى يتحدث عنها العقاد هى ولا شك حوافز حقيقية لا يستطيع أحد أن ينكرها الا اذا كان من المتعصبين الذين ينكرون حقائق الحياة الكبرى .

ولكن الخطأ يتركز فى النتائج التى يخرج بها العقاد من اقرار صحة هذه الحوافز الطبيعية ... ذلك ان الذى تنادى به الاشتراكية فى مفهومها السليم هو منع الاستغلال ... فمن المتعة الشخصية مثلا ان يمتلك الفرد الواحد قصورا ، وملايين من الجنيهات ... ولكن هذا « الامتلاك » سوف يكون حتما على حساب الآخرين الذين يجوعون أو يتعرضون للتشرد ، ومن هنا فان الاشتراكية ترفض الامتلاك الذى يؤدى الى استغلال الآخرين وحرمانهم من حقوقهم فى الحياة . أما الامتلاك الذى يترتب على عمل الانسان وجهده واحتياجه فان الاشتراكية لا ترفضه ولا تعترض عليه بحال من الاحوال.. إنها تضع شرطا للملكية: ان تكون ثمرة العمل المنتج وأن تكون بعيدة عن استغلال أى فرد آخر .

ومن هنا فان الملكية تظل قائمة فى ظل الاشتراكية ولكن الملكية العامة تكون هى

الاساس ، أما الملكية الخاصة فيحدها ثلاثة حدود حاسمة هى : عمل الانسان وعدم استغلاله للآخرين واحتياجاته المشروعة .

وفى هذا المقال نفسه يكشف لنا العقاد عن فهم خاطىء تمام الخطأ للاشتراكية عندما يقول :

« اصبحت مصر اشتراكية أو شبيهة بالاشتراكية قبل اكثر من مائة سنة ، ولم تكن اشتراكيتها تطبيقا لنظرية من النظريات التى ينادى بها اصحاب المذاهب الاقتصادية ، ولكنها عملية تستلزمها احوال الزمن ، وكانت أسبق الاشتراكيات العملية من نوعها فى الزمن الحديث ... كانت الأرض كلها ملكا لمحمد على الكبير ، وكانت التجارة الخارجية تدار بيد الحكومة » .

هذا الفهم للاشتراكية عند العقاد رغم التحفظات التى يبديها حيث يقول : ان هذه الاشتراكية ليست تطبيقا لنظرية من النظريات الحديثة ... هذا الفهم رغم التحفظات فهم خاطىء ، لأن هذا النوع من سيطرة الدولة على الاقتصاد فى عهد محمد على - رغم قيمة هذا الاقتصاد وأهميته وسبقه لكثير من التجارب والنظريات - كان يعتبر نوعا مما يسمى الآن باسم « راسمالية الدولة » وهو أمر يختلف تماما عن الاشتراكية .

التأميم والملكية العامة فى الاشتراكية ضرورتان أساسيتان ، ولكن بشرط أن يتم ذلك لمصلحة الطبقات الشعبية ، وأن تعود الفائدة الأولى على هذه الطبقات ، ولكن ملكية محمد على للأرض أو للتجارة الخارجية أو للمصانع كان الهدف منها أساسا هو تدعيم الدولة ، ولا شك أن محمد على كان حاكما قويا ، وكانت لديه فكرة عبقرية لاقامة دولة عصرية حديثة فى مصر ... ولكن ذلك كله شىء والاشتراكية التى تهدف الى تحرير الطبقات الشعبية من الاستغلال شىء آخر .

ولا علاقة لاجراءات محمد على بالاشتراكية ، وقد قام محمد على نفسه فى حياته بتوزيع ملكيات زراعية واسعة على الأعوان والانصار وكبار الموظفين . « فمنذ سنة ١٨٢٩ بدأ محمد على يمنح أعوانه واسرته أراضى واسعة تسمى بالابعاديات ، ومع أنها لم تكن تورث لاعقابهم من بعدهم نظريا الا ان ذلك لم يطبق عمليا ، فقد منحوا ذلك الحق فعلا فى سنة ١٨٣٦ على ان تورث للابن الاكبر

سنا ، وكان ذلك بتأثير من ارتين باشا بغرض خلق ارستقراطية زراعية »[1] .

وهكذا ... فطالما أن الملكية العامة لا تقوم أساسا لمنع الاستغلال فهذا النوع من الملكية هو « رأسمالية الدولة » أوما يشبه « رأسمالية الدولة » ، وهذا النوع من الملكية مهدد دائما بالعودة الى نظام الاستغلال الفردى ، كما انه لا يعود بالخير على الطبقات الشعبية وانما تكون نتائجه دائما لصالح الطبقة الحاكمة .

وهكذا نجد ان العقاد لا يوافق على مبدأين أساسيين من مبادىء ثورة ٢٣ يوليو فى المجال الاقتصادى وهما : التأميم وتحديد الملكية ، كما ان العقاد يكشف بكلماته ان فكرته عن الاشتراكية تشوبها أخطاء أساسية ، وبالذات عندما يخلط بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة .

ولكن العقاد لم يدخل معركة ضد التأميم ولا ضد تحديد الملكية ، ولعل هذه الاجراءات التقدمية من جانب ثورة ٢٣ يوليو ان تكون سببا آخر قويا من أسباب ابتعاد العقاد عن الميدان السياسى .

ولكن ماذا نجد بعد ذلك فيما كتبه العقاد عن ثورة ٢٣ يوليو ؟

كان أهم ما حرص العقاد على الترحيب به وتأييده هو ان ثورة ١٩٥٢ كانت ثورة بيضاء ، وذلك لأن العقاد رغم عنفه وقسوته فى مناقشاته الحزبية، الا انه يفكر بعقلية ديموقراطية تقبل المنافسات والخصومات ولا تقبل العنف الدموى ... فهو يقول فى مقال له بعنوان « الجيش وقائده » ـ « دراسات فى المذاهب الادبية والاجتماعية » ص ٢٢٥ :

« ... حتى اذا كانت الاسابيع الاخيرة من عهد فاروق المشئوم جرى ذكر الكوارث التى تتعاقب على الأمة فى مجلس يضم أكثر من عشرين مصريا بين اديب وصحفى وأستاذ وطالب ، فقال قائل : وما العمل ؟ .. قلت انها الثورة لا محيص منها ، وليكن ما يكون ! ... والحمد لله جاءت الثورة ولم يمض شهران وجاءت سلمية ولم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الأمور . وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها ان تقدم الأمة فى سبيلها على خسارة فى الأرواح والأموال ، واضطراب الأمور شهورا أو أكثر من شهور .

---

١ ــ عبد الخالق لاشين ـ سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ص ٢١٧ .

فلما تكفل الجيش للأمة بالثورة التى كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرهـا وأهوالها ، وانتظمت الامور فى سياقها ، وانجلى ملك مكروه من عرشه بأيسر من جلاء عمدة فى قرية صغيرة ينصره اناس ويخذله آخرون » .

فالثورة بيضاء ، وهذا أسلوب فى التغيير السياسى يتفق مع نفسية العقـاد وعقليته تمام الاتفاق .

ولا ينسى العقاد سخطه على الشيوعية ونفوره منها ورفضه لها وهو يرحب بثورة ٢٣ يوليو ، فهو يحمد الله أن هذه الثورة جاءت فى وقتها لتقطع الطريق على ثورة شيوعية حمراء ... يقول العقاد فى نفس المقال :

« ان فاروق قد نزل عن العرش وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، فلو انه بقى على العرش الى نهاية أجله فلا يعلم الا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهى تنحدر من هاوية الى هاوية ... اما اذا قدر له ان يخلع قبل نهاية أجله ، فمن المستبعد جدا أن يتفق ملوك الاقطاع الصغار على خلع ملك الاقطاع الكبير ، وانما يجىء خلعه بقوة اجنبية تعصف باستقلال البلد او بثورة شيوعية تعصف بكل خير فيه وتسلمه الى الفوضى التى لا يدرى أحد متى تثوب الى قرار » .

وهكذا فان ثورة ٢٣ يوليو عند العقاد تكون قد حمت البلاد من ذلك الكابوس الذى يخشاه وهو قيام ثورة شيوعية .

ويتساءل العقاد بعد ذلك سؤالا يمكن ان يرد بصورة طبيعية على ذهن أمثاله من المؤمنين بالديموقـراطية الغـربية « الليبـرالية » ... انـه يتساءل عن دور العسكريين فى ثورة ٢٣ يوليو وعن مدى استمرار هذا الدور .

فهو يبرر قيام الجيش بالثورة بقوله :

« وقبل ان يسأل سائل : وما للجيوش ولهذه الشـئون ؟ عليه أن يسـأل : كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟ »

فالعقاد يرى ان الجيش كان « مضطرا » للقيام بالثورة لأن الأصل فى القوات العسكـرية هى أن تبنى مهمتهـا عـلى الدفـاع عن الوطن وليس عـلى العمـل بالسياسة ، ويعود العقاد الى التأكيد على ان دور « العسكريين » فى الثورة هو دور محدد بظرف معين ، وليس دورا دائما بحيث يتحول العسكريون الى العمل السيـاسى ويتركـون عملهم الرئيسى ... يقول العقـاد فى نفس المقـال : « ليس

المقصود بهذا ان عمل السياسة فى مصر قد بطل ، وأن القوة العسكرية مسئولة وحدها بعد اليوم عن تدبير معضلات السياسة والاجتماع والاقتصاد وسائـر ما ينتظم فى جملة مهام الاصلاح » .

« ان كاتب هذه السطور آخر من يرى هذا الرأى أو يقول بهذا القول ، وانه لقول لا يقول به فيما نعتقد الا متملق جاهل ، والمتملق الجاهـل يسىء الى من يتملقه من حيث يحسب انه يثنى عليه » .

« فالعلم بالفنون العسكرية فى هذا العصر أوسع من ان يحيط به رجل واحد ، لأنه معرفة تتناول أسلحة الجو والبحر والبر وأبواب العلم الطبيعى والرياضى التى تدخل من قريب أو من بعيد فى هذه الفنون ، وتحتاج مع هذا الى الخبرة بـالاطوار النفسية وأسـاليب الدعوة والاستـطلاع ، ولا يحيط بهـا قائـد فرد ولا يستغنى فيها على اية حال عن مشورة الخبراء ممن يعلمون مثل علمـه او ينفردون بعلم لم يطلع عليه ... فليست القيادة العسكرية من السهـولة بحيث ينهض بها قائد واحد ، وينهض بغيرها من المهام الكبرى فى وقت واحد » .

وهكذا يؤكـد العقاد عـلى أن قيام العسكـريين بـالثورة هـو مرحلة استثنـائية تقتضى بعدها ان يكون هناك عسكريون متخصصـون فى علومهم وفى رسالتهم الكبرى .

ثم ينبه العقاد الاقطاعيين الى ضرورة « حمد الله » على الثورة ، لأنها كانت أخف عليهم مما كان ينتظرهم من البلاء ... وكلمات العقاد هنا أشبه بنوع من العزاء للأقطاعيين وكأنه لشدة تعاطفه مع هؤلاء الاقطاعيين يطلب منهم الصبر والاحتمال بعد ان وقفت المسألة عند هذه الحدود ، وقد كانوا مهددين بقـطع رقابهم ، والقضاء عليهم قبل القضاء على ما يملكون ... يقول العقاد فى نفس المقال السابق :

« ... ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة فانها حماية لهم الى آخر المطاف » .

فالثورة فى نظر العقاد حماية للاقطاعيين من الموت والدمار ، وان لم تكن حماية لاملاكهم ... ولست أدرى لماذا يهتم العقـاد بتهدئـة الاقطاعيـين وإزالة مخاوفهم

من الثورة ؟ ولست أدرى كيف أعتبر العقاد أن الثورة بعد تحديد الملكية هى حماية للاقطاعيين ، والاقطاعيون بالطبع وان كانوا قد امنوا على أرواحهم بفضل انعدام الروح الدموية فى الثورة الا انهم يعتبرون من ناحية اخرى ان الثورة قد قضت عليهم وعلى مصالحهم ، وانهم لم يكونوا قط فى « حماية الثورة » .

منطق العقاد هنا منطق المتعاطف مع الاقطاعيين الذى يحاول ان يهدئهم ويكشف لهم عن جانب فى الثورة يمنحهم الامان والاطمئنان .

والحقيقة ان الثورة ليست مطالبة بحماية الاقطاعيين ، كما ان الاقطاعيين لا ينتظرون الحماية من الثورة ... وان كان ذلك لا ينفى معنى رئيسيا توفر فى ثورة ٢٣ يوليو هو ان تصفية طبقة أجتماعية عن طريق تصفية مصالحها لا يعنى تصفية أفراد هذه الطبقة تصفية دموية عنيفة ... ومثل هذا الموقف يضمن للثورة ان تكون ذات طابع انسانى كريم .

هذا هو مجمل ما رآه العقاد فى ثورة ١٩٥٢ .

فميزاتها الرئيسية هى انها ثورة بيضاء ابتعدت عن الدم وعن تفجير صراع اجتماعى عنيف يذهب بالارواح ويفقد الناس الأمن والطمأنينة .

وهى ثورة ذات طابع عسكرى فى البداية بحكم الظروف التى مرت بها مصر ، ولكنها لن تستمر فى هذا الطابع العسكرى ، ولا يجوز ان تستمر فيه ، لأنها سوف تفصل بين رسالة العسكريين ورسالة السياسيين ، حيث ان رسالة العسكريين هى التعمق فى العلوم العسكرية وحماية لوطن أما رسالة السياسيين فهى تحقيق الثورة فى داخل المجتمع .

وثورة ٢٣ يوليو فى نظر العقاد قد رحمت المجتمع المصرى من ثورة شيوعية حمراء تعصف بكل شىء .

وثورة يوليو عند العقاد رحيمة بالاقطاعيين ولو عقل الاقطاعيون لحمدوا الله على هذه الرحمة لأنهم كانوا معرضين لما هو أعنف وأقسى .

ولكن العقاد لم يلتفت الى نقاط أخرى هامة فى ثورة ٢٣ يوليو .

لم يناقش اتجاه الثورة نحو التحول الاشتراكى فى المجتمع المصرى ... لأن العقاد كما هو واضح لا يوافق على الاجراءات الرئيسية فى التحول الاشتراكى عن طريق ثورة ١٩٥٢ مثل : تحديد الملكية وتأميم وسائل الانتاج الرئيسية .

ولم يناقش العقاد الانتماء العربى لمصر الذى اكتشفته ثورة ١٩٥٢ وحرصت عليه أشد الحرص وعملت على تأكيده وتدعيمه .

ولم يناقش ما أحدثته ثورة ١٩٥٢ من تغير أساسى فى علاقات مصر الدولية وخاصة ما يتصل منها بعلاقة مصر بالكتلة الاشتراكية .

كل هذه جوانب سكت عنها العقاد ولم يلتفت اليها ... اما لانه لم يستوعبها بحكم تكوينه الفكرى وتقدمه فى السن ، واما لانه كان يرفضها ويعترض عليها ، ولا يجد الفرصة المناسبة للرفض والاعتراض ... وخلاصة ما يمكن ان نقوله هو ان العقاد كان سلبيا بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو ، فيما عدا ما قدمه للثورة فى السنوات الأولى من تأييد وضعه فى اطار مفاهيمه الخاصة للتطور الاجتماعى والاقتصادى ، وبعض هذه المفاهيم خاطىء وقاصر كما رأينا فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة وبعض المفاهيم سليم وعادل مثل تأكيده على أن الثورة كانت بيضاء وبعيدة عن العنف .

العقاد والوحدة العربية

ماذا كان موقف العقاد من الدعوة الى الوحدة العربية ؟

اننا لا نجد فى كتابات العقاد ما يمثل دعوة صريحة الى الوحدة العربية ، بل نجد فى كتاباته الأولى اهتماما واضحا بمصر والشخصية المصرية ، وقد كتب العقاد فصلين فى كتابه عن « سعد زغلول » كان موضوعهما هو الشخصية المصرية والطبيعة المصرية ، لم يلتفت فى هذين الفصلين الى العنصر العربى فى الشخصية المصرية ، بل لقد كتب العقاد سنة ١٩٢٧ مجموعة من المقالات بعنوان « الشعر فى مصر » نشرها فى كتابه « ساعات بين الكتب » وفى هذه المقالات يفرق العقاد بين المصريين والعرب تفرقة واضحة ، يقول العقاد فى المقال الأول من هذه المقالات :

« تنوعت عبقريات العرب والانجليز والالمان والبولونيين وأمم أخرى فى الشرق والغرب وفى القديم والحديث .

فما شأن مصر يا ترى بين هذه العبقريات وما نصيبها من الشعر خاصة ومن وسائل الاعراب الأخرى عن ذوات النفوس ؟ أهى شاعرة بالفطرة أم شاعرة بالمحاكاة ؟ وهل شعرها من شعر العبقرية والطبع العميق أم هو شعر الحس والالفاظ والاصداء ؟ »

ثم يقول العقاد بعد ذلك فى نفس المقال :

« ... ونظرت الى العصور الحديثة بعد الاسلام فلم أعثر بشاعر واحد انبتته مصر يذكر بين أعاظم الشعراء وتسمع له رسالة من رسالات الحياة ، فكل

شعرائها عرب أو مقلدون للعرب ، وكل هؤلاء وهؤلاء عالة على الادب ونفاية ضئيلة أولى بها ان تنبذ وتهمل » .

وفى هاتين الفقرتين نجد ان العقاد يفرق بوضوح بين المصريين والعرب .

والواقع ان العقاد كان يعيش فى الفترة الاولى من حياته السياسية فى بيئة فكرية تدفعه دفعا الى الدعوة المصرية التى تؤمن بالقومية المصرية الخالصة ، فالعقاد هو ابن ثورة ١٩١٩ التى كانت فى أساسها ثورة مصرية قامت تحت شعار مصر للمصريين ، ولم تكن هذه الثورة تحمل اى ملامح عربية ، وكان زعيمها سعد زغلول يرفض الربط بين مصر وبين سائر أبناء الأمة العربية ، ويردد فى ذلك حججا متعددة ، ويقول الدكتور انيس صايغ فى كتابه عن « الفكرة العربية فى مصر » ص ١٤١ :

« لن نجد شخصية أفضل من سعد زغلول للبرهنة بواسطتها على مصرية التفكير السياسى فى وادى النيل خلال المرحلة الموضوعة للبحث ـ ١٩١٩ ـ وسعد سياسى مخضرم بين المرحلتين الأولى والثانية . وقد خلفت فيه المرحلة الأولى أسس الاتجاه المصرى من خلال تتلمذه على الشيخين الافغانى وعبده ، وملازمته لعرابى ، ثم اقامته فى باريس وتأثره بالفكر القومى الأوربى ، وظهرت آثار ذلك الاتجاه فى تصرفاته وأقواله لما دانت له مصر بالزعامة الرسمية والشعبية من بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، ولما أصبح رمز القضية الوطنية . ويشعر من يراجع خطب سعد داخل مجلس النواب وخارجه ، ومجموعة بياناته السياسية ومذكراته وتصاريحه ، ان سعدا كان يعيش فى عالم غريب عن العرب ، وانه لم يحس بوجود قضية اسمها القضية العربية ، وان استقلال مصر التام ووحدتها مع السودان هما الأمران الوحيدان اللذان شغلا باله . ولسعد عدة اقوال مأثورة فى القومية والأمة المصريتين ـ ولكنها أقوال عاطفية اكثر مما هى تحديدات علمية ، كما انه كان ممن شجعوا إحياء هتاف مصر للمصريين ، وخاصة بعد عودته من أوروبا سنة ١٩٢١ » .

« وحدث ان اتصل بعض السياسيين العرب بسعد وهو فى باريس يدافع عن قضية مصر ، وعرضوا عليه توحيد جهودهم ، والقيام بعمل عربى مشترك ضد الاستعمار ، فرد سعد عليهم « أن قضيتنا مصرية وليست عربية » . وروى

عبد الرحمن عزام انه كان يتكلم ذات يوم عن الوحدة العربية أمام سعد فقاطعه سعد متهكما « اذا جمعت صفرا مع صفر فالنتيجة صفر » وقد افصح سعد بهذا الرد عن معارضته لأى فكرة عربية » .

ثم يقول الدكتور انيس صايغ بعد ذلك :

« ان سعدا هذا الذى استهزأ بمقدرة العرب ومصلحة مصر فى اعلان عروبتها وتبرأ منهم وابتعد عن قضاياهم ، والذى رسم للسياسة المصرية خطى منعزلة عن القضية العربية ، لقى من العرب من التكريم ، ما لم يلقه منهم أى سياسى عربى آخر فى ذلك العهد . وما ان اذيع خبر وفاته حتى أعلن العرب الحداد عليه ، من العراق الى مراكش . واقام العرب له عشرات المهرجانات التأبينية فى ديار الاقامة وفى ديار الهجرة . وأصدرت الصحف أعدادا خاصة به وكتبت عده كتب عنه . بل ان بين العرب من سماه سعد العرب ، مع انه لم يكن سوى سعد مصر » .

هذا هو ما كتبه الدكتور انيس صايغ عن سعد زغلول وموقفه من الفكرة العربية ، وسعد زغلول كان هو الزعيم الذى حدد الاطار السياسى لفكر العقاد منذ سنة ١٩١٩ ، حيث بقى العقاد يتحرك فى هذا الاطار حتى سنة ١٩٣٥ .

والواقع ان هذه الفترة كانت مليئة بالاتجاهات المختلفة لان السؤال عن حقيقة الشخصية المصرية كان سؤالا مطروحا بقوة على المفكرين والسياسيين المصريين . وكان هناك دعاة الوحدة الاسلامية ، وكانت هناك القومية المصرية . اما الدعوة العربية فلم تكن قد برزت بعد فى ميدان السياسة المصرية ، ولا شك ان العقاد كان من دعاة القومية المصرية المستقلة عن الدعوة الاسلامية والمستقلة عن الدعوة الى الوحدة العربية ، وهذه الدعوة الى القومية المصرية هى الدعوة التى كان حزب الوفد يؤمن بها ويتحرك فى اطارها خلال تلك الفترة التى ارتبط فيها العقاد بالوفد من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ .

ولكن التأمل الدقيق فى الدعوة الى القومية المصرية يكشف لنا عن تيارين مختلفين أشد الاختلاف فى هذه الدعوة ، وهذا هو الأمر الذى لم ينتبه اليه الدكتوز انيس صايغ فى حديثه عن سعد زغلول ، وهو الأمر الذى لم ينتبه اليه

عدد آخر من الباحثين الجادين حول موضوع « عروبة مصر » . وذلك لأن سعد زغلول والعقاد انما ينتميان الى تيار خاص من تيارات الدعوة المصرية .

أما التيار الأول فى الدعوة الى القومية المصرية فهو تيار اقليمى فرعونى ، يؤمن ان الشخصية المصرية تستمد جذورها الأساسية الصحيحة من الحضارة الفرعونية القديمة ، وان كل الشعوب التى وفدت على مصر انما هى شعوب جاءت من أجل الغزو والاستعمار بما فى ذلك العرب . فالعرب فى مصر مثلهم مثل اليونانيين والرومان والفرس والاتراك ... كلهم غزاة ، ويجب على مصر ان تتخلص من آثارهم نهائيا وأن تعود الى شخصيتها الأصيلة وهى الشخصية الفرعونية ، وكان اصحاب هذه الدعوة ينادون بالتخلص من اللغة العربية والثقافة العربية وكانوا ينادون بربط مصر بالغرب والتراث الحضارى للغرب ، والخروج من ذلك بمزيج جديد من الفرعونية والحضارة الغربية الحديثة ، على ان يحدد هذا المزيج ملامح الشخصية المصرية الصحيحة ، مع استبعاد كل العناصر العربية فى هذه الشخصية . وكان من دعاة هذا الاتجاه لطفى السيد الذى كان يرى ان دعاة الوحدة العربية « يضيعون الوقت فى خيال عقيم وأحلام بعيدة التحقيق » . ويقول عن التحالف العربى « ان السعى الى اقامة تحالف من هذا النوع وهم من الاوهام » ، وينادى احد دعاة هذا الاتجاه بتسمية المصريين جميعا باسم « الاقباط » ... حيث يقول مرقص سميكه باشا فى محاضرة له بالجامعة الامريكية سنة ١٩٢٦ : « ... احب ان اذكر ان لفظ قبطى معناها مصرى وهى محرفة من اللفظة اجبتوس ، ولذلك فجميعكم أقباط ، بعضكم أقباط مسلمون والبعض الآخر مسيحيون . وكلكم متناسلون من المصريين القدماء »(١)

وقد امتدت هذه الدعوة الى اللغة العربية ، وطالب أنصارها فى عدة محاولات بتغيير الكتابة باللغة العربية والكتابة بدلا منها بالحروف اللاتينية ، او الكتابة بالحروف العربية على ان تكون لغة مصرية خالصة هى اللهجة الشعبية ، بحيث تتحول هذه اللهجة لتصبح لغة للكتابة وليس مجرد لغة للحديث فقط ، مع التخلص من اللغة العربية تماما .

١ ــ الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ــ الدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص ١٣٥

وامتدت هذه الدعوة الى مجالات واسعة متعددة وخاصة فى الميادين الثقافية والعملية ، وكان الانعكاس السياسى لهـذه الدعوة هـو التأكيـد على استقـلال الشخصية المصرية وانفصال مصر تماما عن بقية اجزاء الوطن العربى .

وقد كتب محمد عبد الله عنان ، وهو كاتب ومثقف من كبار مثقفى مصر فى الجيل الماضى عن « القومية المصرية » فى مقال له سنة ١٩٣٢ ، وفى هذا المقال يكشف لنا الكاتب بوضوح ما كان يقصده انصار هذا التيار المصرى بدعوتهم ، حيث كانوا يعارضون الوحدة العربية معارضة صريحة مباشرة .. يقول محمد عبد الله عنان فى مقاله(١) :

« لقد صرحنا برأينا اكثر من مرة فى شأن فكرة الجامعة العربية ، فهى على ما يصورها الغلاة من دعاتها فى نظرنا أمنية خيالية لا تقوم على اية أسس أو تقديرات عملية . وقد تكون مثلا أعلى يرجع بالاذهـان الى عصور المجـد التى جمعت بين الأمم العربية تحت خلافة أو سلطة اسلاميـة واحدة . فلهـا بذلك روعتها وجمالها . ولكنها مع ذلك سراب تبدده الحقائق والظروف الواقعة . بل ان التعلق بها ضار فى نظرنا بجهود الامم العربية بما قد يبثه اليها من الوهن المترتب على اغفال الحقائق والانصراف عن تقدير الظروف الخاصة » . ثم يقول عبد الله عنان فى نفس المقال بعد ذلك :

« من الخطأ البين ان تنظم مصر فى سلك البلاد العربية ، اذا تعلق الأمـر بالناحية القومية . فالقومية المصرية كما قدمنا قومية أصيلة . وقد وجدت الأمة المصرية منذ اقدم عصور التاريخ . واقترن اسمها بحضارة من أقـدم وأمجد الحضارات . ولم تفقد الأمة خواص الوحدة والتجانس منذ أيام الفراعنة ، أعنى منذ آلاف السنين ، بل استطاعت ان تحافظ على هذه القومية طوال العصور ، ولم تذهب فتوح الفرس واليونان والرومان بشخصيتها كاملة وكوحدة قومية ، بل كانت هذه القومية دائما قوة كامنة اذا اختفت ايام الطغيان والمطاردة والمحن القومية عادت لأول شعاع من الأمل ، فلما جاء الفتح الاسلامى كانت مصر ولاية رومانية ، ولكنها كانت كتلة قومية كبيرة . فورثت من غزاتها الجدد : الاسلام

ــ المرجع السابق ص ١٣٩ .

واللغة العربية ، ولكنها حافظت على خواصها القومية ، ونشأت فى ظل الاسلام أمة مصرية مسلمة ، عربية لا بخواصها الجنسية أو القومية ، ولكن فقط باللغة التى تنطق بها » .

« ومع هذا الاندماج السياسى التام ، فان مصر لم تكن عربية فقط ، وانما كانت الى جانب شقيقاتها العربيات تحتفظ دائما بمصريتها القومية العميقة ، بل كانت فوق ذلك تطبع الحياة العامة لهذه الشقيقات فى كثير من الاحيان بألوان عميقة ، تبدو بارزة فى بعض مراحل تاريخها . فهذه المصرية القومية الاصيلة هى التى تستظل مصر بلوائها اليوم . وهذه المصرية هى فى الواقع دعامة شخصيتنا القومية . فلسنا نفهم كيف ينكرها علينا بعض اخواننا العرب » .

هذا هو ما كتبه محمد عبد الله عنان عن القومية المصرية والقومية العربية . وهكذا نجد ان هذا التيار فى تحديد الشخصية المصرية فى اطارها القومى يهدف أساسا الى محاربة الفكرة العربية فى مصر والابتعاد عنها بصورة نهائية كاملة .

ولكن هذا التيار لم يكن هو وحده التيار القائم فى ميدان الدعوة الى القومية المصرية . فقد كان هناك تيار آخر كان يفهم القومية المصرية على وجه مختلف ، وبالنسبة لهذا التيار كانت القومية المصرية تعنى الرد على سيطرة الاحتلال الانجليزى على البلاد ، ثم سيطرة العناصر الاجنبية المتمصرة من اتراك وشراكسة وغيرهم على اقتصاديات البلاد ، وعلى الحياة الاجتماعية والسياسية فيها ، ثم كانت ردا على دعاة الارتباط بتركيا العثمانية وعلى رأسهم أنصار الحزب الوطنى .

كانت دعوة القومية المصرية عند هؤلاء ردا على كل محاولة اجنبية لمحو العنصر المصرى والقضاء عليه ، ولم يكن هناك اى نوع من الصراع بين القومية المصرية وبين القومية العربية فى نظر هؤلاء .

ومن ناحية اخرى نجد ان معظم ممثلى هذا التيار كانوا من أصحاب الثقافة الاسلامية والثقافة العربية ، وعلى رأس أصحاب هذا التيار يقف سعد زغلول ، فقد كان سعد من الذين تلقوا دراستهم فى الازهر ، وكانت ثقافته العربية واسعة ، وكان تلميذا للشيخ محمد عبده وصديقا له ، ومن هنا كانت دعوته للقومية المصرية بعيدة تمام البعد عن ان تكون دعوة ضد الاسلام أو ضد

العروبة ، ويمكننا ان نتصور دعوة القومية المصرية عند سعد زغلول على انها دعوة لقيام « الثورة التحررية فى بلد واحد » كمرحلة اولية ، بدلا من تعميم الدعوة وشمولها للوطن العربى كله فى ظروف أوائل القرن العشرين ، حيث كان الأمر يبدو صعبا بل يبدو مستحيلا . وما أشبه هذه الدعوة بالدعوة التى ترددت فى أوائل هذا القرن عن « بناء الاشتراكية فى بلد واحد » ، بدلا من الدعوة الى الثورة الاشتراكية العالمية . فغاية ما كان يتطلع إليه سعد هو تحرير مصر وإبراز شخصيتها أمام التحديات التى كانت تواجهها وعلى رأسها تحدى الاستعمار الانجليزى ، ولم تكن القومية المصرية من وجهة نظر سعد زغلول موجهة الى « نفى » الطابع العربى فى الشخصية المصرية ، وحتى التصريحات التى نسبت الى سعد زغلول لا تكشف عن رفض مبدئى لعروبة مصر ، بل تكشف عن معرفة بالصعوبات القائمة فى وجه تحويل القضية المصرية الى قضية عربية فى ذلك الوقت المبكر من ظهور الحركة الوطنية فى مصر فى أوائل القرن العشرين ، والصعوبات التى كان يحس بها سعد زغلول فى التوحيد بين كفاح مصر وكفاح العرب فى ذلك الوقت كانت صعوبات حقيقية ، ويكفى ان نلاحظ ان مصر كانت تخوض معركتها أساسا ضد الانجليز ، بينما كانت بعض الدول العربية الأخرى مثل سورية والعراق والجزيرة العربية تخوض معركتها أساسا ضد الاتراك ، وكان الانجليز يساعدون العرب خارج مصر فى الإعداد للثورة العربية ضد الاتراك سنة ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين . وكان حل مثل هذا التناقض فى منتهى الصعوبة ، حيث كان ذلك يقتضى اتصالا وتنسيقا بين الحركات السياسية المختلفة فى الوطن العربى ، وهو أمر كان يبدو مستحيلا أوشبه مستحيل فى أوائل هذا القرن .

والخلاصة ان التيار الذى كان يمثله سعد زغلول فى الدعوة الى القومية المصرية لم يكن يرفض الفكرة العربية رفضا نظريا مبدئيا بل كان يرفضها من الناحية العملية فقط .

والحقيقة ان هذا التيار الذى كان يمثله سعد زغلول هو نفسه التيار الذى كان مستعدا للتحول والتطور حتى يصبح تيارا مصريا عربيا فى أول فرصة تتاح

لابراز هذا الاتجاه فى مصر . انه تيار عربى « بالامكان » وان لم يكن تيارا عربيا فى الواقع القائم .

وبالفعل فقد تطور التيار الذى خلقه سعد زغلول فى السياسة الى تيار يقترب يوما بعد يوم من الفكرة العربية ، ففى سنة ١٩٣٩ اى بعد وفاة سعد باثنتى عشرة سنة ، كتب مكرم عبيد احد تلاميذ سعد ، واحد زعماء الوفـد آنذاك ، وواحد من أعلام الاقباط فى مصر ... كتب مكرم مقالا فى مجلة « الهلال » يعلن فيه بوضوح عن ايمانه بعروبة مصر ، بل لقد كان عنـوان مقاله « المصـريون عرب » ، وفى هذا المقال يقول مكرم عبيد[١] :

« نحن عرب ويجب ان نذكر فى هذا العصر دائما اننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال ووثقت روابطنا الكوارث والاشجان ، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان ، نحن عرب فى هذا الجهاد القائم فى كل قطر من اقطار العروبة لاستكمال الحرية ، وإحياء مجد الحضارة العربية ، ونحن عرب من ناحية تاريخ الحضارة العربية فى مصر ، وامتداد أصلنا القديم الى الأصل السامى الذى هاجـر الى بلادنا من الجزيرة العربية ، ولهذا يجب أن نعمل متضامنين ونسعى الى المجد متعاونين ونوثق الوحدة العربية ، التى تنهض على الاشتراك فى الامانى والآلام وفى التاريخ واللغة والخصائص القومية ، فالوحدة العربية حقيقة قائمة ، هى موجودة لكنها فى حاجة الى تنظيم » .

هذه هى الكلمات التى كتبها مكرم عبيد ، والتى تكشف عن فهم علمى سليم لمعنى الوحدة العربية وللصلة العميقة بين مصر والعرب والتى تعود الى ابعد من فتح العرب لمصر ... هذه الكلمات لم يكن من السهل ان تصدر الا عن مفكر عاش فى البيئة السياسية التى خلقها سعد زغلول ، والتى لم تكن تفهم القومية المصرية على انها معارضة أو معادية من حيث المبدأ للعروبة ، بل كانت القومية المصرية عند سعد زغلول وأبناء مدرسته السياسية تعبيرا عن رفض الاحتلال ، والعناصر الاجنبية الأخرى التى حاولت ان تفرض سيادتها الفكـرية أو الاجتمـاعية أو الاقتصادية أو السياسية على مصر ، كما كانت تعنى رفض الارتباط الذى دعا اليه الحزب الوطنى بين مصر والاتراك .

١ ـــ الفكرة العربية فى مصر للدكتور انيس صايغ ص ١٧٣

فى هذه المدرسة السياسية ، مدرسة سعد زغلول ، ولدت أفكار العقاد عن القومية المصرية والشخصية المصرية ، بل كانت أفكار العقاد فى هذا المجال تعميقا وتطويرا لمبادىء هذه المدرسة ، ومن هنا لم يكن حديث العقاد عن القومية المصرية أو الشخصية المصرية يعنى ابدا أى عداء أو رفض للفكرة العربية ، بل ان تكوين العقاد كان يحمل بعض العناصر الاساسية التى تجعل منه قريبا الى الفكرة العربية أشد القرب ، سواء فى المرحلة الأولى من حياته السياسية ، حيث ارتبط بالوفد والحركة الوطنية الشعبية ، أو فى الفترة الثانية من حياته السياسية حيث ارتبط بالاحزاب السياسية الرجعية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ويمكننا ان نحدد هذه العناصر فى تفكير العقاد بثلاثة عناصر .

أما العنصر الأول فهو عنصر الثقافة .

لقد كان العقاد واسع المعرفة بالثقافة العربية القديمة وكان شديد الاحترام لهذه الثقافة ، شديد الايمان بها ، وكان الادب العربى القديم جزءا من الثقافة العربية التى عرفها العقاد وآمن بها أشد الايمان ، وقد كتب العقاد كتابات كثيرة عن الادب العربى القديم ، ومن أمثال هذه الكتابات ما كتبه عن المتنبى وعن ابن الرومى وعن أبى نواس وعن عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينه وغيرهم من شعراء العرب وأدبائهم . وقد بدأ العقاد حياته الادبية فى أوائل القرن العشرين بالدعوة الواسعة الحارة الى التجديد الادبى ، وكانت العادة ان يبدأ دعاة التجديد بهدم الادب القديم ، ولكن العقاد كان يدعو الى التجديد الادبى بحرارة وحماس ، وهو فى نفس الوقت يدافع عن الادب العربى القديم ، ويكشف عن جوانب جديدة مشرقة فى هذا الادب وان كان فى نفس الوقت يرفض تقليد هذا الادب ، ويدعو الى الاصالة التى كانت تميز أعلامه الأوائل .

وعندما نقارن مثلا بين دعوة العقاد الى التجديد الادبى وبين دعوة سلامة موسى الى نفس القضية ، فاننا نكتشف أن العقاد كان فى دعوته الى التجديد يؤمن أشد الايمان بقيمة الادب العربى فى عصوره الزاهية ، ويؤمن بالعبقرية الادبية عند العرب فى مراحل نهضتهم لا فى مراحل الهزيمة والتخلف ، بينما كان سلامة موسى ينادى برفض الادب العربى القديم كله وبأنه لا يعبر عن الانسان ولا عن

الحضارة . أى ان دعوة العقاد الى التجديد الادبى كانت تعنى العودة بالادب العربى الجديد الى الاتصال بالادب العربى القديم فى عصوره الزاهيـة ، والى الاتصال بالآداب العالمية الحديثة من جهة أخرى ، بينما كان سلامة موسى يدعو الى البدء من جديد ورفض القديم واقتلاعه من الجذور .

على ان العقاد لم يقف عند حدود الثقافة الادبية بل امتدت نظرته الى الثقافة العربية فى شتى مجالاتها ... وكان يؤمن بأهمية الثقافة العربية وقيمتها ودورها الواسع فى حضارة الانسان . وللعقاد كتابان صغيران ولكنهما كتابان هامان ، أولهما هو « أثر العرب فى الحضارة الاوربية » والثانى هو « الثقـافة العـربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين » .

والفكرة الاساسية فى هذين الكتابين هى الايمان العميق بالعبقرية العربية ودورها فى الحضارة الانسانية .

وهو ايمان لا يعتمد على العـاطفة ، بـل يعتمد عـلى العقل والبحث العلمى الدقيق .

وقد لقى هذان الكتابان مناقشة واسعة واعتراضات مختلفة من بعض النقاد والباحثين ، ولكن الذى يهمنا هنا هو ان العقاد يثبت فى هذين الكتابـين الآثار الباقية للحضارة العربية فى الحضارة الانسانية حتى اليوم . ومن أهم ما يثبته فى هذا المجال هو أن الحروف العربية كانت هى الاساس الذى استمد منه الغرب حروف الكتابة ، وأن العرب هو أصحاب السبق فى هذا المجال .

ويثبت العقاد ما تركه العرب من آثار أخرى واسعة فى الحضارة الأوربية فى شتى جوانب الفكر والحضارة الانسانية .

ويخرج القارىء لهذين الكتابين بالثقة العميقة بالعبقرية العربية ، ويخرج ايضا بالثقة فى امكان العرب فى المساهمة الحضارية الفعالة اذا تخلصـوا من عوامل التخلف التى تحيط بهم فى الظروف الراهنة .

وهذه الثقة بالامكانيات الكامنة فى الشخصية العربية هى أصل من أصول الفكرة العربية الراهنة ، وهى الفكرة التى تدعو الى القومية العربيـة والوحدة العربية .

ونعود بعد ذلك الى العنصر الثانى الذى نجده فى فكر العقاد ، والذى يربط بين

هذا الفكر وبين الاتجاه العربى السليم . هذا العنصر الثانى هو عنصر اللغة العربية ، فالعقاد يدافع عن اللغة العربية دفاعا قويا ، واللغة العربية كما هو واضح عنصر أساسى من عناصر الارتباط بين أبناء الوطن العربى، ولذلك تعرضت اللغة العربية لحرب عنيفة من أعداء الوحدة العربية ، وأعداء القومية العربية ، ولقد قامت محاولات عديدة للقضاء على اللغة العربية ، وما تزال هذه المحاولات تتكرر حتى الآن ، وهدفها هو أضعاف عنصر أساسى يربط بين أبناء الوطن العربى .

كانت هناك محاولات لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .

وكانت هناك محاولات لتغيير اللغة العربية لتحل محلها اللهجات الشعبية .

وكانت هناك محاولات ضرب اللغة العربية باللغات الاجنبية مثل اللغة الفرنسية فى الجزائر ، واللغة الانجليزية فى جنوب السودان ، واللغة الايطالية فى ليبيا ، وفى حرب اللغة هذه كان موقف العقاد واضحا تمام الوضوح .

كان يدافع عن اللغة العربية بقوة ، وقد أصدر كتابا عنوانه « اللغة الشاعرة » يثبت فيه أصالة اللغة العربية وجمالها ، ويكشف فيه عن كثير من جوانب التفوق فى اللغة العربية . ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التى ظهرت فى الدفاع عن اللغة العربية .

يبقى العنصر الثالث فى فكر العقاد وهو اهتمامه الواسع بالاسلام . فاسلاميات العقاد تمثل جهدا بالغ القوة فى دراسة الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى والشخصيات الاسلامية .

والعرب كما هو معروف يتكونون الآن من أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية . ولكن الاسلام بمعناه الفكرى والحضارى والثقافى هو جزء أساسى من تكوين العقل العربى فى المرحلة الراهنة بين المسلمين والمسيحيين على السواء .

والاهتمام بإحياء الاسلام بجوانبه المتعددة فى ضوء العقل الحديث هو تدعيم للشخصية العربية فى جانب هام من تراثها الأصيل .

وبذلك يكون العقاد قد قدم خدمة واسعة لتأكيد الشخصية العربية والدفاع عنها ، وتدعيم ثقتها بنفسها ، وذلك من خلال دفاعه عن الثقافة العربية والكشف عن قيمتها ودورها الواسع فى الحضارة الانسانية ، ثم من خلال الدفاع عن اللغة

العربية وما فيها من عناصر القوة والبقاء والجمال والتفوق ، وأخيرا من خلال دراسة الاسلام والتوسع فى هذه الدراسة على ضوء المناهج العصرية الحديثة .

وقد كانت هذه الجهود الفكرية كلها موجهة أساسا لخدمة العناصر المشتركة فى الشخصية العربية فى كل أجزاء الوطن العربى ... أى ان هذه العناصر هى العناصر التى تمثل قاسما مشتركا بين المصريين والسوريين والعراقيين وسكان المغرب العربى وأهل الجزيرة العربية والسودانيين وغيرهم من العرب فى داخل البلاد العربية وخارجها ، المسلمين منهم والمسيحيين فى نفس الوقت .

ومن الناحية العملية فاننا نجد ان كتابات العقاد الى جانب غيرها من كتابات أعلام الادباء فى الجيل الأول من أمثال طه حسين وأحمد أمين والزيات والمازنى وغيرهم .. هذه الكتابات ولا شك كانت غذاء فكريا لكل المتعلمين والمثقفين فى الوطن العربى منذ بداية الربع الثانى للقرن العشرين ـ ١٩٢٥ ـ حتى الآن . ولقد كانت كتابات العقاد وأبناء جيله عنصرا من عناصر التماسك فى كل المناطق العربية التى تعرضت للاضطهاد ، وحاول الاستعمار ان يمحو شخصيتها عن طريق الحرب التى شنها على الثقافة العربية واللغة العربية والاسلام ، وعلى سبيل المثال كانت هذه الكتب تصل عن طريق التهريب الى المثقفين والمتعلمين الجزائريين أثناء كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسى ، وكانت هذه الكتب هى التى حافظت على الشخصية العربية للجزائر فى تلك الايام الصعبة القاسية ، حيث كان الاستعمار يركز على القضاء التام على عروبة الجزائر لغة وفكرا ودينا .

ومن هنا فاننا نستطيع أن نقول : إن فكر العقاد وكتاباته قد خدمت قضية الوحدة العربية خدمة واسعة وأساسية ، كل ذلك دون أن نجد فى كتابات العقاد دعوة مباشرة الى الوحدة العربية ، بل اننا نجد فى كتاباته احيانا تلك التفرقة التى يسجلها بين المصريين وغيرهم من العرب ، كما جاء فى مقاله الذى أشرنا اليه فى أوائل هذا الفصل عن « الشعر » فى مصر ، كما نجد فى كتاباته أحيانا ما يبدو منه ان العقاد لا يتصور ظهور وحدات سياسية على طراز الوحدة العربية التى تقوم على أساس من دعوة القومية العربية ، وتتضح هذه الفكرة عند العقاد من مقالين له فى كتاب « بين الكتب والناس » وهذان المقالان هما « هل نحن فى عصر

الجامعات ؟ » و « لسنا فى عصر الجامعات » ... والجامعات فى هذين المقالين تعنى « الوحدات السياسية » مثل « الجامعة العربية » أو « الجامعة الجرمانية » ... الخ هذه « الجامعات » التى تعنى قيام وحدات سياسية على أساس وجود روابط مشتركة بين عدة بلاد أو عدة شعوب .

والعقاد فى هذين المقالين يرفض فكرة الجامعات ويقول « ... جملة القول ان عصر الجامعات قد انقضى بانقضاء مرحلته التاريخية ، وان الدعوات الكثيرة الى الجامعات المختلفة لا تدل على اننا فى عصر الجامعات ، بل لعلها هى الدليل على بطلان هذه الدعوات لانها حيلة ومحاولة ، ولا يصطنع التاريخ بالحيل والمحاولات » . هذا هو الراى النظرى السريع للعقاد .

انه لا يؤمن بالجامعات القومية ... ومن بينها الجامعة العربية التى تدعو الى وحدة العرب .

ولكنه راى سريع كما قلت ... وراى غير قائم على أساس من الدراسة العميقة ... فعندما يحاول العقاد بعد ذلك ان يبرر فشل الدعوة الى الجامعة العربية فانه يقول فى نفس المقال « هل نحن فى عصر الجامعات » من كتابه « بين الكتب والناس » ص ٧٢ :

« ... بدأ السعى الى توحيد الامم العربية قبل اكثر من مائة سنة على يد القائد المقدام ابراهيم بن محمد على الكبير - رأس الأسرة المحمدية العلوية - فكان يقول ان فتوحه لا تقف دون بلد من البلاد ينطق فيه بالضاد ، ولكن الدول الاوربية أحبطت هذه الحركة ، وظلت تعمل على احباطها نحو خمسين سنة ، ثم عادت تنفخ فيها بما تستطيعه من المساعى الثقافية والسياسية ، فكانت فرنسا ترسل البعوث الى لبنان والشام لاحياء تراث العرب ونشر المخطوطات المهجورة ، وكانت بريطانيا العظمى ترسل عيونها ووكلاءها الى أرجاء الجزيرة العربية ، وكانت الدولتان والولايات المتحدة معهما تجتهد اجتهادها فى ذلك لهدم الدولة العثمانية لا لخدمة العرب والثقافة العربية ، فلما خرجت أمم العرب من سلطان آل عثمان تبدل الموقف كله ، واصبحت هذه الدول لا تسمح لجامعة العرب بالبقاء الا بمقدار ما تستفيد منها وتسخرها فى تزجية مطامعها ، وقد تتعارض هذه

المطامع وتتناقض فلا تعرف الجامعة كيف تستجيب لها ، ولو أرادت أن تستجيب » .

ثم يقول العقاد بعد ذلك فى نفس المقال :

« وتقوم الجامعة العربية اليوم على دعامتين : اتقاء الخطر عليها من خارجها ، واتقاء الخطر عليها من داخلها ، فقد يكون الخطر الذى تتوقعه احدى الدول العربية من دولة عربية أخرى بعض الأسباب التى تدعوها الى التجمع والحرص على دوام الائتلاف » .

هذه كلمات العقاد المباشرة عن الوحدة العربية أو الجامعة العربية كما كان يسميها . ويمكننا ان نسجل على هذه الكلمات عدة ملاحظات .

الملاحظة الأولى هى ان العقاد قد أشار الى بعض الظروف الخارجية التى احاطت بحركة الوحدة العربية ، مثل محاولة ابراهيم باشا تحقيق الوحدة بقوة السلاح ، ومثل محاولة الغربيين إحياء حركة الوحدة العربية لمقاومة الامبراطورية العثمانية والعمل على تدميرها ، ثم معارضة الغرب للوحدة العربية بعد القضاء على العثمانيين .

هذه كلها ظروف خارجية ولكن حركة القومية العربية لها عواملها الذاتية التى دفعتها الى الخروج الى الحياة والى ميدان الواقع السياسى ، هذه العوامل الذاتية هى الارتباط المشترك فى الثقافة والدين واللغة ، ووحدة الأرض ووحدة المصلحة والمصير بين سكان المنطقة العربية من الخليج الى المحيط . وهذه العوامل الذاتية هى العوامل الباقية والاصيلة فى تكوين القومية العربية وهى العوامل ألتى تجعل من الوحدة العربية حركة تاريخية حتمية لابد ان تتحقق ، وقد اغفل العقاد الاشارة الى هذه العوامل فى مقاله .

من ناحية أخرى نجد ان العقاد يشير فى هذا المقال الى حركة الوحدة العربية على انها حركة تجمع وائتلاف ، وهذا وصف خاطىء تماما لحركة الوحدة العربية ، فالوحدة العربية لا تعنى التجمع والائتلاف ، فالتجمع والائتلاف يمكن ان يتم بين بعض الدول ذات السياسة الواحدة فى مرحلة تاريخية معينة دون ان يكون بين هذه الدول اى نوع من الوحدة القومية ، فألمانيا وايطاليا واليابان كان

يضمهم معسكر واحد هو معسكر المحور ، ولم يكن بين هذه البلاد أى رباط قومى من أى نوع ، وهناك معسكر الدول الاشتراكية التى لا ترتبط مع بعضها بأى رابط قومى وهناك معسكر عدم الانحياز ... الى آخر هذه المعسكرات التى يمكن ان نقول عنها انها نوع من التجمع والائتلاف ، ولكن القومية العربيه حركة أخرى تهدف الى اقامة وحدة سياسية شاملة تجعل منها بلدا واحدا مثل الولايات المتحدة او روسيا أو الصين ، أو غيرها من البلاد .

والملاحظة الأخيرة على كلمات العقاد هى انه لم يدرك فى حديثه عن « الجامعات الوطنية » ان الأمة العربية هى وحدها تقريبا - فى العصر الحاضر - التى تمزقت أوصالها الى وحدات اقليمية مصطنعة ، رغم ان ذلك ضد مصلحتها وضد مستقبلها السياسى والاقتصادى والحضارى كله ، وأن المفروض أن يتم تصحيح هذه التجزئة والعمل على توحيد الأمة العربية من جديد .

هذا القصور عند العقاد فى فهم حركة الوحدة العربية لا ينفى انه فى حقيقته من أكبر الذين خدموا الوحدة العربية عن طريق جهوده الثقافية الواسعة فى دراسة الادب العربى والفكر العربى واللغة العربية والاسلام . صحيح ان العقاد لم يبلور دراساته المختلفة فى دعوة صريحة ومباشرة الى الوحدة العربية ... ولكنه قدم الى دعاة الوحدة العربية كثيرا من الدراسات التى يمكن ان يستندوا اليها استنادا قويا فى تدعيم قضيتهم .

ولعل ايمان العقاد الداخلى العميق بارتباط مصر بالأمة العربية ، وهذه النقطة دائما هى المحك الصادق لايمان أى كاتب مصرى بالقومية العربية والوحدة العربية ، لعل هذا الايمان بعروبة مصر عند العقاد هو الذى دفعه الى ان يكتب فصلا عن الصهيونية فى كتابه « ١١ يوليو وضرب الاسكندرية » ... وهذا الكتاب يتحدث عن لحظة فى تاريخ مصر ليس لها أى علاقة مباشرة بالتاريخ العربى ، هذه اللحظة هى ضرب الاسكندرية ودخول الجيوش الانجليزية الى مصر وبداية الاحتلال سنة ١٨٨٢ ، ومع ذلك فقد انتبه العقاد فى هذا الكتاب الذى صدر فى ١١ يوليو سنة ١٩٥٢ أى قبل قيام الثورة بأحد عشر يوما ، الى دور الحركة الصهيونية فى الاحتلال الانجليزى لمصر تمهيدا - من جانب الصهيونية - لتحقيق

أهدافها فى الوطن العربى ... وبذلك يكون العقاد قد أدرك بوضوح ذلك الارتباط بين المصير العربى والمصير المصرى ... ويقول العقاد فى كتابه صفحة ٨١ :

« اتفق فى سنة ١٧٩٨ سنة الحملة الفرنسية على مصر ، أن يهوديا فرنسيا اذاع فى باريس خطابا الى قومه يدعوهم فيه الى تأليف مجلس عام يضم اليه مندوبين من اليهود المنتشرين فى انحاء العالم ، ويكون اجتماعه الأول فى باريس لتقديم طلب الى الحكومة الفرنسية يسألونها ان تساعدهم على رد وطنهم القديم ، ويشفعون هذا الطلب بالسعى فى الآستانة لاقناع السلطان العثمانى بقبوله ، وقد جاء فى ذلك الخطاب ان البلاد التى يريدونها تشمل الوجه البحرى فى مصر الى عكا والبحر الميت وشواطىء البحر الأحمر ، وهى رقعة من الأرض تجعلهم سادة التجارة الهندية والعربية والفارسية .

ويقول صاحب الخطاب ان فرنسا يمكن ان تستمال الى هذه المهمة بما تخصها به من الربح والعوض والمقايضة على النفوذ ... نقل سوكولوف هذا الخطاب فى كتابه عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ الى ١٩١٨ .. »

ويكشف العقاد بعد ذلك عن الجهود الصهيونية الأخرى التى ساهمت فى تدبير احتلال مصر ، ومن خلال هذه الدراسة يتضح لنا ان الصهيونية وهى عنصر رئيسى فى التآمر على العرب فى العصر الحديث ـ كانت تضع فى مقدمة خططها ان تدمير مصر هدف لابد منه لتنفيذ خططها المختلفة فى الوطن العربى .

وهكذا فاننا نجد فى كتابات العقاد المباشرة وغير المباشرة عن الوحدة العربية نوعا من التناقض الشكلى ، ففى الوقت الذى تمثل كتاباته الرئيسية دعوة الى الثقة بالعرب والحضارة العربية وفهما للروابط الأساسية بين مصر والعروبة ... فى الوقت الذى تمتلىء فيه كتابات العقاد بهذه الأفكار فاننا نجد له كتابات متناثرة توحى بأنه يفرق بين مصر وبين العرب ، أو توحى بأنه لا يعتقد بامكان قيام وحدات قومية ، وبأن الوحدة العربية من بين هذه الوحدات التى لا يتصور امكان قيامها .

هذا هو التناقض الشكلى الذى نجده فى كتابات العقاد .

ولكن هذا التناقض لا ينفى أن الجهد الأكبر والأعمق فى كتابات العقاد حول العرب والثقافة العربية والحضارة العربية هو جهد يخدم الاتجاه الى الوحدة العربية خدمة بالغة القيمة والأهمية ، بينما تمثل كتاباته الأخرى التى تبدو منها رائحة المعارضة للوحدة العربية هوامش عابرة غير عميقة الجذور فى فكره وثقافته .

لقد كان العقاد - فى نهاية الأمر - من أكبر وأعظم الرواد والمفكرين الذين مهدوا لانتشار الدعوة إلى الوحدة العربية والإيمان بها فى العصر الحديث .

صورة عامة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع العقاد وحياته السياسية هل يمكننا ان نخرج بصورة عامة تجمع هذه الخطوط المبعثرة المتفرقة ؟ هل يمكن بعد التفصيل ان نصل الى شيء من التلخيص والتركيز والايجاز ؟

ان اى صورة للعقاد السياسى فى تقلبه بين اليمين واليسار لا يمكن ابدا ان تغنى عن الملامح التفصيلية ، ومع ذلك فيمكننا ان نحدد هذه الصورة العامة فى عدد من الخطوط الرئيسية .

فقد عاصر العقاد فترة طويلة من الحياة السياسية فى مصر والوطن العربى بل فى العالم كله ، حيث بدأ الكتابة فى أوائل هذا القرن ، حوالى ١٩٠٦ أو ١٩٠٧ واستمر يحمل قلمه حتى وفاته سنة ١٩٦٤ أى أنه ظل يكتب خلال ما يقرب من ستين سنة متصلة ، وفى هذه الفترة حدثت انقلابات وتقلبات عديدة فى السياسة المحلية والسياسية العالمية وقد تركت هذه التقلبات أثرها على العقاد وحياته السياسية والفكرية .

على أننا مع كثرة العواصف والتقلبات نستطيع أن نتبين مرحلتين رئيسيتين فى حياة العقاد السياسية ... المرحلة الاولى هى مرحلة ارتباطه بالحركة الوطنية والشعبية ، وهى المرحلة التى تمتد منذ بداية حياته الفكرية حتى سنة ١٩٣٧ ، وفى هذه المرحلة كان العقاد كاتبا شعبيا ، يقف فى المعسكر الوطنى فى السياسة المصرية دون تردد ، بل كان يقف على راس هذا المعسكر ، وكانت كتابات العقاد ذات تأثير واضح على الجماهير ، وكانت القضايا التى آمن بها وعبر عنها هى

قضية التحرير الوطنى ، وقضية الديمقراطية وحرية التعبير والرأى والمعارضة العنيفة للدعوات الفاشية المحلية والعالمية على السواء . والعقاد فى هذه المرحلة يقدم نموذجا للكاتب الوطنى الحر الذى يقف بكل مواهبه ويجند نفسه بقوة لخدمة الجماهير وخدمة الوطن فى قضاياه الرئيسية ، ولا شك ان تاريخ العقاد السياسى فى هذه المرحلة يعتبر نموذجا للتاريخ الوطنى النزيه الشريف ، انه تاريخ كاتب كبير يهدف الى التأثير فى جماهير قرائه والى خدمة وطنه على نطاق واسع ... فالعقاد لم يعتكف فى برج عاجى فى تلك المرحلة من حياته ، مكتفيا بالكتابة الادبية والثقافية بعيدا عن لهيب المشاكل والمتاعب ، بل على العكس حرص على ان يخوض المعارك اليومية التى كان الشعب يخوضها ضد الانجليز والرجعيين المحليين . ولم يكن العقاد يكتب كتابات سريعة عابرة ، بل كان يكتب كتابات عميقة وجميلة ومؤثرة يظهر فيها أثر الاهتمام والاقتناع والحرص العميق على المشاركة فى القضايا العامة .

مرحلة مشرقة ومشرفة فى تاريخ العقاد . بعد ذلك تجىء المرحلة الثانية فى حياة العقاد السياسية منذ سنة ١٩٣٧ ، لتسجل انحراف العقاد عن الخط الوطنى الذى سار فيه منذ بداية حياته الفكرية ، لقد ترك العقاد الوفد ، حزب الاغلبية الشعبية ، وارتبط بالاحزاب الرجعية اليمينية وعلى رأسها الحزب السعدى ، وكانت هذه الاحزاب تعمل فى اطار سياسة واضحة يحددها الانجليز او تحددها الرجعية المحلية فى مصر .

لماذا كان هذا الانحراف او التحول ؟

... لقد كان من الممكن ان يخرج العقاد على الوفد ويرفض أخطاءه السياسية والتنظيمية ، ويبحث لنفسه عن طريق سياسى جديد ، بعيدا عن الوفد وأكثر منه وطنية وشعبية وتقدمية . ولكن العقاد على العكس ، خطا بعد خروجه من الوفد خطوات متعددة الى الوراء ، واصبح كاتبا لامعا فى المعسكر الرجعى اليمينى للسياسة المصرية .

هل كان ذلك لان العقاد آثر ان يستريح بعد عناء طويل فى ظل الرجعية التى وفرت له كثيرا من وسائل الراحة والامان والوجاهة الاجتماعية ؟ هل سبب ذلك ان العقاد كان يتأثر بالعوامل الشخصية الذاتية بشكل يطمس رؤيته الموضوعية

للامور ، مما كان يدعوه اذا اصطدم شخصيا بقيادة الوفد ، ان يلتمس العمل فى معسكر سياسى آخر يتوفر فيه بعض اصدقائه الذين يقدرونه ويحترمونه حتى ولو كان هؤلاء الاصدقاء يقفون فى معسكر رجعى معاد للشعب ؟ ... لقد درسنا ما استطعنا ان نصل اليه من اسباب تحول العقاد فى الفصول المختلفة لهذا الكتاب ، ولكن الذى نريد ان نؤكد عليه فى هذه الصورة العامة هو ان العقاد ـ حقا ـ قد عانى طويلا من الكفاح فى صفوف المعسكر الوطنى ، وأنه من ناحية أخرى كان سريع التأثر بعواطفه الشخصية الخاصة ، وكانت نتيجة هذين العاملين ـ بالاضافة الى عوامل أخرى أشرنا اليها فى الفصول السابقة ـ ان اندفع العقاد الى معسكر الرجعية فى القسم الاخير من حياته ... وكان اندفاعه مؤسفا ومثيرا للحزن بعد بدايته العظيمة المشرفة . واذا كان العقاد فى مرحلته السياسية الاولى قد أحس بخطر الفاشية العالمية وحاربها منذ ظهور موسولينى على المسرح الدولى فى العشرينات ، فانه فى المرحلة الثانية قد وقف موقفا عنيفا حادا من كل مدارس الفكر اليسارى ، وكان عداؤه المفرط لليسار من أبرز خصائص المرحلة الثانية فى حياته السياسية . ولا شك ان هذا الموقف قد ساهم فى تعميق ملامح صورته ككاتب رجعى فى الفترة الأخيرة من حياته .

ولو ان العقاد كان كاتبا سياسيا وحسب لانطوت صفحته فى تاريخنا الوطنى منذ سنة ١٩٣٧ ، ولكن العقاد كان اديبا ومثقفا كبيرا ، ولذلك استطاع ان يضيف ملامح مشرقة الى صورته الاخيرة رغم الاطار الرجعى الذى حبس نفسه فيه ... فقد قدم العقاد مجموعة من الدراسات الادبية الهامة ، كما قدم مجموعة كبيرة من الدراسات الاسلامية التى تعتبر اثرا من اهم آثار الفكر العربى المعاصر رغم ما يمكن للباحث ان يسجله على هذه الدراسات من أخطاء ومآخذ ، ولكن هذه الدراسات مع ذلك كله تعتبر جهدا كبيرا يحفظ للعقاد مكانته فى حركتنا الفكرية المعاصرة رغم مواقفه السياسية الرجعية .

لا أريد أن أخرج من دراستى للعقاد السياسى بدروس ومواعظ فلقد حرصت فى مختلف فصول الكتاب على أن اقدم الجوانب السلبية فى آن واحد مع الجوانب الايجابية فى حياة العقاد السياسية ... ولكننى مع ذلك لا أملك الا أن أسجل شعورى بالاسف كلما تأملت فى الفترة الاخيرة من حياة العقاد ... فقد كان

العقاد كاتبا مثابرا مجتهدا الى أبعد الحدود ، عاش من أجل قلمه ، واحترم مهنة الكتابة واخلص لها وأعطاها حياته كلها ، فلم يتزوج ، ولم يشغل نفسه بالاسرة ولا بحياة اجتماعية واسعة ، وعاش حياته كما يعيش الراهب أو الجندى المخلص لحياة الجندية القاسية ، وكان العقاد كاتبا موهوبا قادرا على التعبير والتأثير من خلال كتاباته وكان كاتبا مثقفا واسع الاطلاع ... ومن هنا ولد شعورى بالاسف ، فلقد كان هذا الكاتب يستطيع بكل ما يملكه من اخلاص وامكانيات ومواهب فكرية ان يواصل طريقه فى خدمة الحركة الوطنية التقدمية فى مصر وفى الوطن العربى ، وان يساهم فى تعميق هذه الحركة والاضافة اليها ، لو أنه بقى فى المعسكر الوطنى دون أن ينحاز للرجعيين ، ولو انه أدرك رسالة الفكر التقدمى الاشتراكى فوقف فى صفه بدلا من ان يشن عليه حربا عنيفة قاسية دفعته الى محاربة كل الافكار الجديدة فى السياسة والادب على السواء ، فى المرحلة الاخيرة من حياته ، ولا شك ان الموقف السياسى قد أثر فى موقفه الادبى ، فقد كان مجددا فى الادب عندما كان مرتبطا بالتيار السياسى الشعبى ، وكان معارضا للتجديد عندما ارتبط بالتيار السياسى الرجعى . ولكن « لولا » هذه لا تستطيع ان تغير التاريخ ... فهذا هو الواقع الذى بين أيدينا ، لا نستطيع الا ان ندرسه ونتأمله بقدر ما نملك من الحقائق ، ولعل فى الظروف العامة التى كانت تعانيها بلادنا قبل ثورة ١٩٥٢ ما يجعلنا نخفف هجومنا على المرحلة الثانية من حياة العقاد السياسية وان لم تعفه هذه الظروف من النقد ... فلقد كانت مصر تعيش فى ظروف قاسية من الامية ولم يكن الكاتب يستطيع ان يعيش مستقلا بقلمه ، وكان لابد له من ان يستند الى حزب سياسى يمكن ان يعاونه على الحياة ويحميه من الجوع ، ولم يكن العقاد موظفا مثل توفيق الحكيم أو طه حسين ، فكان ارتباطه بالاحزاب السياسية امرا لا بد منه .

هناك أيضا تلك التطورات المتلاحقة التى اصابت حياتنا السياسية قبل ١٩٥٢ ، ولقد كانت سرعة تطور الاحداث فى مصر والعالم فى النصف الاول من هذا القرن كفيلة بفرض نوع من الاضطراب والارتباك على مفكر مثل العقاد عاصر هذه العواصف المتصلة زمنا طويلا ، وكان عليه ان يتطور بسرعة تشبه القفز حتى يستطيع ان يلاحق ما يحدث فى الواقع من تطورات ، ولا شك ان

الاضطراب فى المواقف السياسية كان ظاهرة شائعة بين كبار كتابنا فى جيل العقاد ... وان كان البعض قد استطاع ان « يدارى » هذا الاضطراب بأساليب لم يكن يعرفها العقاد بحكم طبيعته الصريحة العنيدة الحادة .

لعل هذا كله ان يخفف من حكم التاريخ على العقاد فى المرحلة الثانية من حياته السياسية .

على ان حكم التاريخ سيظل فى النهاية كما هو ... سواء ظهر هذا الحكم فى صورة هادئة او فى صورة عنيفة قاسية .

فالعقاد السياسى قد عاش حياتين مختلفتين :

حياة المناضل الوطنى المؤمن بالشعب والحرية والديمقراطية حتى سنة ١٩٣٧ وحياة أخرى فى ظلال الرجعية السياسية ... يدافع عنها ويعبر عن آرائها ويبرر مواقفها المعادية للشعب والحرية والتقدم منذ ١٩٣٧ حتى ١٩٥٢ ... ثم بعدها سكت العقاد عن السياسة الا ما كان من معارضته العنيفة للفكر اليسارى وهو موقف ورثه عن ايام ارتباطه بالرجعية السياسية ، وعن مرحلة صداقته مع الرجعيين الذين يكرهون اليسار فى كل أشكاله ودرجاته ، فقد كانوا يكرهون اليسار المتطرف الذى ينادى بالثورة ، واليسار المعتدل الذى ينادى بالاصلاح ، وكانوا يكرهون اليسار فى السياسة والاقتصاد وفى الفن والفكر .

على ان صورة العقاد العامة ما زال فيها بعض الملامح الأخرى ..

فقد كان العقاد يميل فى مواقفه السياسية الى النزعة الحزبية الحادة المتطرفة ، وكان هذا الطابع الحزبى فى مواقف العقاد يقوده الى عداوات عنيفة ، ويحول بينه وبين أى محاولة لفهم التيارات الاخرى المعارضة له أو الحكم عليها بقدر من الانصاف والموضوعية ، ولعل هذا الطابع الحزبى الصارم عند العقاد هو الذى فرض عليه ذلك الاسلوب الذى عرف به فى كتاباته السياسية المختلفة ، وهو الاسلوب الذى كان يتسم بالقسوة والتجريح والتشهير ، وكانت كتابة العقاد السياسية – فى بعض الاحيان – نوعا من الهجاء الفاحش الذى يعتمد على السب والشتم اكثر من المناقشة والاقناع ، ولقد كان هذا الاسلوب مقبولا – بل ومعشوقا – لدى الجماهير عندما كان العقاد يستخدمه ضد السياسيين المعروفين بعدائهم للمصالح الشعبية مثل : محمد محمود واسماعيل صدقى وحسن نشأت

وأحمد زيور وتوفيق نسيم وحلمى عيسى وغيرهم ، فقد كان العقاد بذلك يعبر تعبيرا انتقاميا عن عواطف شعبية اصيلة ضد هؤلاء السياسيين ، وكانت سخريته وقسوته على هؤلاء الرجال مصدرا لاعجاب الشعب ورضاه وتحمسه لكتابات العقاد ، لان هؤلاء الرجال جميعا كانوا يضعون كفاءتهم وخبرتهم فى خدمة الاستعمار والملك وضد مصالح الشعب ، وكان الشعب يرفضهم ويستنكر مواقفهم .

ولكن عندما تحول العقاد الى معسكر هؤلاء الرجعيين استخدم أسلوبه فى الهجاء السياسى ضد رجال كان لهم تاريخهم الوطنى المعروف ، وكانت لهم شعبيتهم ومكانتهم لدى الجماهير مثل : مصطفى النحاس ومكرم عبيد وغيرهما من الزعماء الوطنيين .

وعندما نقلب صفحات الحياة السياسية نجد ان الكاتب الذى ورث العقاد ومكانته فى الفكر السياسى الشعبى هو محمد مندور ، ونجد فى نفس الوقت ان محمد مندور كان حادا وصارما مثل العقاد ، وذلك عندما كان مندور يتحدث عن مطالب الشعب الاساسية فى الحرية والعدالة ، ولكن كتابات مندور كانت تتسم بالرقة والتهذيب والموضوعية والبعد عن الهجاء حتى فى مهاجمة معسكر الاعداء ومن فيه من الرجال البارزين .

من الملامح الاخرى التى نجدها فى شخصية العقاد ان ايمانه بالديمقراطية وعداءه للسلطة الفردية كان ينبع من الديمقراطية بمعنى واحد هو : حرية الراى والتعبير ، وقد دافع العقاد فى فترة طويلة من حياته عن هذا المعنى بشجاعة وجراة وشرف ، ودفع ثمن مواقفه دون تردد . ولكن ايمان العقاد بالديموقراطية كانت تحوطه اكثر من علامة استفهام واحدة .

فالعقاد لم يظهر اهتماما حقيقيا بالفكر الاجتماعى والاقتصادى ، وآراؤه فى القضايا الاجتماعية الرئيسية مثل قضية تحرير المراة كانت أقرب الى الآراء الرجعية منها الى الآراء الديموقراطية ، بل وكانت فى بعض الاحيان قريبة من الآراء الفاشية التى كان بعضها ينادى بأن المراة هى : « للمطبخ والسرير » وليست للعمل او للمساهمة الاجتماعية الواسعة ، ومن ناحية أخرى نجد العقاد بعيدا عن الفهم الصحيح لدور العدالة الاقتصادية فى بناء العدالة السياسية ...

لقد كانت الديموقراطية عنده حرية فى التعبير ومساواة فى هذه الحرية ، ولم تكن الحرية مساواة فى الظروف الواقعية وفى الفرص الاقتصادية ايضا .

ومن ناحية اخرى تجد ان ايمان العقاد بالفرد المتفوق الممتاز اقترب به فى كثير من الاحيان من الافكار الفاشية والنازية فى عبادة البطل وعبادة القوة ، مما القى ظلالا كثيفة على ايمان العقاد بالديموقراطية .

على اننا فى آخر الامر لا نملك الا أن ننحنى أمام هذا الكاتب الكبير ، العملاق بحق ، فقد عاش أكثر من خمسين عاما لا عمل له الا القلم ، والقلم الملتزم المرتبط بالقضايا العامة ، لا القلم المنعزل المتعالى ، والقلم الشجاع لا القلم المتردد ، وكانت ظروف العقاد وظروف المجتمع معقدة صعبة ، ومع ذلك صمد العقاد ، واعتمد على قلمه وحده حتى آخر يوم فى حياته . وكانت كفة الإيجابيات عنده أعلى بكثير من كفة السلبيات فى أى حساب أخير .

ولا شك عندى فى ان آراءه ـ ما كان منها خطأ وما كان صوابا ـ انما كانت كلها من وحى ضميره وايمانه ومعتقداته الخاصة ، ولم تكن من وحى احد ولا من الهام قوة من القوى التى يتصور البعض ان العقاد كان عميلا لها . لقد عاش العقاد حياة فكرية مليئة بالخصوبة ، مليئة بالخطأ والصواب ، ولكنها ايضا مليئة بالشرف والاستقلال والشجاعة والاستقامة والترفع عن الصغائر .

ولقد كانت الصفحات السابقة رحلة طويلة مع الصواب والخطأ فى آراء العقاد على قدر الرؤية لدينا وعلى قدر الاجتهاد ... ولكن الشعور العام الذى خرجت به من رحلتى مع العقاد ـ رغم الاختلاف الواسع معه فى مرحلة كاملة من تاريخه السياسى ـ هو شعور الاحترام والتقدير والاكبار لرجل عاش عمره الطويل من قلمه ومع قلمه ، ويوم مات لم يترك وراءه زوجة ولا ولدا ولا ثروة ، وانما ترك عشرات من الكتب والآراء والافكار ، سهر عليها ليالى عمره الطويلة واستمد منها الدفء فى ايام الصقيع ، والطعام فى ايام الجوع ، والحنان فى ايام الوحشة ، والكرامة لنفسه وعقله فى كل أيام عمره .

وثـــائق

هذه مجموعة من الوثائق نقدمها الى القراء بنصها لانها وثائق ذات اهمية فى الكشف عن جوانب اساسية فى حياة العقاد السياسية وما مر بها من تقلبات وعواصف ، كما انها تكشف من ناحية اخرى جوانب أساسية فى الحياة السياسية المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ، وما امتلأت به هذه الحياة من أحداث ومواقف وتطورات . وقد اخترنا ان نقدم هذه الوثائق بالذات لانها غير ميسورة للقارىء العربى ، فهى مبعثرة فى صحف وأوراق قديمة يصعب على القارىء أن يحصل عليها .

وهذه الوثائق هى بالترتيب :

١ ـ نص الحديث الذى أجراه العقاد سنة ١٩٠٨ مع سعد زغلول ، وما يكشفه هذا الحديث من الصلة الوثيقة بين العقاد وسعد ، وهى الصلة التى بدأت منذ أن أجرى العقاد حديثه مع سعد ، كما يكشف هذا الحديث عن بعض المشاكل الفكرية والثقافية التى كانت تعانيها مصر فى ذلك الحين .

٢ ـ نص حيثيات الحكم فى قضية اتهام العقاد بالعيب فى الذات الملكية سنة ١٩٣٠ ، وهى القضية التى انتهت بالحكم على العقاد بالسجن لمدة تسعة أشهر .

٣ ـ نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد ، حيث كان مكرم سكرتيرا للوفد وكان العقاد كاتب الوفد الاول فى تلك الفترة ـ ١٩٣٠ ـ .

٤ ـ « آخرة عباس العقاد ـ حقيقة الكاتب وما كتب » ، وهو مقال كتبه مكرم عبيد ايضا سنة ١٩٣٥ ، والمقال يمثل ما حدث فى حياة العقاد من تحول فى علاقته مع الوفد ، وما حدث فى موقف الوفد من تحول وتغير بالنسبة للعقاد ، وهذا المقال الذى كتبه مكرم عبيد اذا وضعناه الى جانب دفاع مكرم السابق عن العقاد فان التناقض بينهما يكشف لنا ـ بوضوح ـ عن التناقض فى حياة العقاد السياسية ... من كاتب الوفد الاول الى اكثر أعداء الوفد عنفا وخصومة .

٥ ـ رد العقاد على مقال مكرم عبيد .

نص الحديث الذى اجراه العقاد مع سعد زغلول « وزير المعارف » سنة ١٩٠٨

جريدة « الدستور » مايو ١٩٠٨ ـ وكتاب عامر العقاد : « صفحات من معارك العقاد السياسية » صفحة ٤٦ .

حديث مع ناظر المعارف
راى سعد زغلول فى اللغة العربية

« مسألة التعليم الان هى المسألة التى شغلت الاذهان وأفاضت الجرائد فى فحصها وتقليبها من جميع وجوهها .

وفى الحقيقة انها المسألة التى يجب على كل ذى بصر ان يضرب فيها بسهم وينقب عما يفتح مغلقها ويزيل عقباتها . مع اخلاص العامل الذى لا هم له الا ترقية بلاده وخدمة وطنه بكل ما فى وسعه .

فاذا بحث فيها فانما يبحث عن كل ما يستحق البحث فى مصر وعلى قدر اخلاص الباحثين او خبث نيتهم تكون النتيجة حسنة او سيئة على هذه البلاد التى نفتخر بأننا ابناؤها دون غيرنا المسؤلون امام الله وأمام ضمائرنا عما يسعدها او يشقيها ، وكل زلة يأتيها الباحث فى هذا الموضوع تبعده عن الف حقيقة مقررة وتدنيه من عاقبة وخيمة عليه بصفته مصريا يسوؤه ما يسوء البلاد التى ينتسب اليها .

ولقد تضاربت الآراء فى امر التعليم ، فذهب الناس مشرّقين ومغرّبين فمنهم من يمم الكعبة ومنهم من خاض فى بحر الظلمات ، واصبحوا يتساءلون عن تلك الضجة القائمة

حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص لان عليها يتوقف مستقبل أبنائهم وذويهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون .

لذلك أردت ان ارجع الى رجل أعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد وأرى ان فى قوله خير حاسم لهذا النزاع الذى استطار شرره واستفحل ضرره ـ ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف الحالى ـ فكتبت اليه استأذنه فى مقابلة صحفية فأذن وحدد لذلك الساعة العاشرة من صباح امس ـ يوم الخميس وقد كان .. فدخلت عليه وهو منكب على عمله وبعد ان استقر بى المكان بدأت الحديث كما يأتى :

قلت : ان بعض الجرائد اشارت الى ان نظارة المعارف طلبت من المالية زيادة ميزانية هذا العام فأبت عليها ذلك ، واحتجت بقلة المال عندها . فهل هذا صحيح ؟

قـال : نعم هو صحيح وقد كانت حجة نظارة المالية فى ذلك مقبولة لان ما لديها كان حقيقة لا يفى بما أطلب منها .

قلت : وما هو رايكم فى عرض لوائح التعليم على مجلس الشورى قبل تقريرها ؟

قـال : ان هذه المسألة قد عرضتها علينا الحكومة ونحن نفحصها الان ونعد الجواب عليها ولكن لم يتقرر شىء من ذلك رسميا حتى الان .

قلت : حادثت بعض نظار المدارس الابتدائية فاذا هم يتخذون تسهيل الامتحانات فى اللغة العربية دليلا على ميل النظارة الى اهمالها والاشتغال بغيرها من المـواد الاخرى وقد سمعت مثل هذا من غير واحد منهم .

فرأيت انهم يكادون يجمعون على هذا القول ، وفى ذلك ما يدعوهم الى اهمالها حقيقة جزيا على مـا يظنـونه رغبـة نظارة المعـارف ، فهل تجـدون فى سهولة الامتحانات ما يحملهم على هذا الظن ؟

قـال : أرى ان كل عمل فى هذا العالم لا يخلو ممن ينتقده ويستنتج منه معنى غير معناه الحقيقى ، ولقد كان الامتحان فى اول الامر على شىء من الصعوبة فما سلمت نظارة المعارف ممن يرميها بأنها تتعمد اسقاط النابغين من التلامذة . فلما توخت تسهيله قام بعضهم يتهمها بأنها أرادت صرف التلامذه عن الاشتغال باللغة العربية الى غيرها من العلوم . وهو امر غريب يحار بازائه من يريد التوفيق بين أميال الجميع .. وعندى ان الافضل نبذ هذه الاقاويل والاشتغـال بما يفيـد الفائدة المطلوبة . وان فى اهتمام نظارة المعارف بأمر اللغة العربية والفات نظر المفتشين والمعلمين الى وجوب التدقيق فيهـا ما يغنيهـا عن تطلب المستحيـل

والجمع بين النقيضين . وكل ما تكلف به الان ان تقوم بواجبها المناط بها ثم لا يعنيها بعد ذلك ما يقول الناس عليها .

قلت : كان بعض وجهاء الصعيد قد طلبوا من الحكومة انشاء مدرسة ثانوية فى أسيوط لتكفى ابناءهم مشقة السفر الى العاصمة فى طلب العلم فهل فى نية النظارة انشاء هذه المدرسة ؟

قال : ان النظارة تود لو أمكنها اجابة وجهاء الصعيد الى مطالبهم ولكنها تجد أمامها صعوبات تحول دون ما تريد فان المال لديها قليل ، والرجال أقل ، الا اذا أتت بهم من الخارج وهو ما تتحاشاه الان بقدر ما فى استطاعتها . ومما يؤسف له انها لم تجد من المصريين من يدرس مادتين فى السنة الاولى من القسم التجهيزى الا بعد جهد جهيد .

فاذا ذللت هذه الصعوبات هان عليها تنفيذ كثير من المشروعات التى يحول دون تنفيذها قلة المال والرجال .

قلت : الا يسمح سعادة الناظر ببيان الخطة التى وضعها لتسير عليها نظارة المعارف فيما يختص باللغة العربية ؟

قال : ان خطتى لم تتغير ولن تتغير وقد قلت فى مذكرة المعارف التى ردت بها على الجمعية العمومية فى هذا الشأن : أن من أعظم امانىّ تعليم المواد المختلفة فى المدارس المنوعة باللغة العربية ، وقد اهتممت بهذا الامر من يوم اسناد نظارة المعارف الى عهدتى وبحثت فيه بحثا دقيقا فتبين لى أن هنالك صعوبات تحول دون تحقيق هذه الامنية فى الحال . واشرت الى بعض هذه الصعوبات فى الخطبة التى تشرفت بالقائها على الجمعية العمومية . ويسرنى ان حضرات اعضائها قد قدروا هذه الصعوبات حق قدرها فعدلوا اقتراحهم بأن قرروا أن يكون التعليم فى المدارس باللغة العربية تدريجيا لا أن يحصل جميعه مرة واحدة .

وقلت فى تلك الخطبة أيضا : « انى اتمنى بصفة كونى مصريا ان يكون التعليم فى المدارس جميعها بلغة بلادنا ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه لان هناك صعوبات كثيرة تحول بيننا وبين بلوغ هذه الامنية الان . وهذه الصعوبات وان كان يجب السعى لتذليلها وصرف العناية لتسهيلها الا أنه يلزم ان نحسب الان حسابها . ولم أقل مرة واحدة ان اللغة العربية غير صالحة للتعليم وانما كل ما يستفاد من كلامى ان الشروع فى التعليم بها وقت عرض الاقتراح مستحيل وأن الواجب تذليل الصعوبات التى تقف فى سبيل المشروع حتى نتمكن من جعلها لغة التعليم تدريجيا » .

وقد سردت بعض هذه الصعوبات على أعضاء الجمعية العمومية فقدروها قدرها ووافقوا على جعل التعليم باللغة العربية تدريجيا . فأنت ترى انى لم أعارض للجمعية العمومية رغبة ولم احاول رفض اقتراحها هذا ولكنى أريت أعضاءها وجه الصعوبة فصدقوا عليه واقتنعوا به .

أما ما ذُلل من تلك الصعوبات حتى الان فهو كثير : منه تعليم المواد كلها فى المدارس الابتدائية باللغة العربية ، وتعليم الحساب والهندسة بها فى السنة الاولى من المدارس الثانوية ، وتعليم الحساب والهندسة والجبر بمدرسة الزراعة باللغة العربية ايضا ، كما ان بعض الدروس فى القسم الابتدائى من مدرسة المعلمين الخديوية وفى مدرسة الحقوق قد أصبحت تدرس بتلك اللغة وصرح للنابهين من تلامذة المدارس الثانوية الامتحان بها فى اى عام ارادوا . ولعل نظارة المعارف تتعدى حدود التدريج اذا هى قررت اكثر من ذلك فى عام واحد فانه لا معنى لكونها تقرر تدريس العلوم كلها فى كل المدارس مرة واحدة باللغة العربية وبين كونها تراعى قاعدة التدرج وتذليل الصعوبات شيئا فشيئا .

قلت : الى هنا اراني عرفت ما فوق الكفاية رايكم فى شئون نظارة المعارف ، فهل تسمح لى بابداء رايكم عن الجامعة المصرية ؟

قال : بلى ، وانى أقول لك أن رأيى فى كل معهد علمى صغير كان أو كبيرا فان مصر فى حاجة الى العلوم ولا يستهان بأقل معهد علمى يكفل لها أداء هذه الحاجة .

قلت : هل كنتم تعلمون أيام توليتم رئاسة الجامعة انها ستقرر تدريس الآداب الانكليزية والفرنسوية عند تأسيسها ؟

قال : اننا لم نبحث اذ ذاك فى هذه التفصيلات ولكن الذى كنا نرمى اليه من انشاء الجامعة واعلناه للأمة انها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه فى المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانكليزية والفرنسوية مما يدخل فى هذا الباب .

ولكن لجنة الجامعة لا تكتفى بذلك الا فى اول الامر وقد اشرت عليها باضافة آداب اللغة العربية الى هاتين المادتين وهى تتناقش فى ذلك الان .

وقد علمت أن حضرات أعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد فى ابلاغ هذه الجامعة أقصى ما تبلغ اليه ، وكل من يعلم من هم أعضاء هذه اللجنة يثق ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم ، وأن من الغريب ان يكون فى الناس من يثبط همم العاملين والمكتتبين لهذا العمل الجليل .

ان الهمم فاترة من طبيعتها فليست هى فى حاجة الى من يثبطها ، ولكن هذه الاقوال

ربما دفعت الخجول الذى تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله الى قبض يده عن الاكتتاب فان فيها مسوغا يبرر عمله ويظهره فى أعين الناس بمظهر الوطنى الغيور على مصلحة بلاده ... يقولون ان الجامعة وقعت فى أيدى الموظفين فانتشلوها منهم .

ولكن الا يتدبرون فى عاقبة ذلك . ؟

من يقوم مقام رشدى باشا ، وزكى بك وعلى باشا ، والمسيو ماسبرو من غير الموظفين اذا عولنا على انقاذ الجامعة من يد هؤلاء وتسليمها الى غيرهم .. ؟

لست أنكر ان الجامعة كما هى الان ليست كجامعات أوروبا ولكن الحالة الحاضرة تقضى علينا بالابتداء بالبداءة لا بالغاية فاذا ما كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فغدا تكون كبيرة ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها ونفض أيدينا منها لان فى ذلك جناية كبرى ونحن فى حاجة الى ما هو دون الجامعة بكثير .

اذكر انه لما انشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف شأنها لانها نشأت حقيرة كما ستنشأ الجامعة ، فما هى الا سنوات قلائل حتى اتسعت دائرتها واخصب موردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ما تراه ، ولو ان القائمين بها جبنوا أمام الانتقاد لقبرت فى المهد ولم تبلغ ما بلغته الان.

وفضلا عن ذلك فان المال الذى جمع الى اليوم لا يفى بالحاجة لان ستة وعشرين الف جنيه لا تكفى لانشاء جامعة كبرى كجامعات أوروبا .

.. هذا لو دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقصر الامر على العشرة آلاف التى دفعت حتى الان . ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه فى السنة لما زاد عن الف جنيه مصرى وهو ما لا يكفى للانفاق على الجامعة فى حالتها الحاضرة .

كل هذا والذين يريدون اخراج الجامعة من قبضة الحكومة يجهلون انها دفعت مرة واحدة خمسة اضعاف ما دفعه المتبرعون فى انحاء القطر المصرى بأجمعه .

وليس هذا كله ما امدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس الى الاقبال عليها اقبالا لا تظفر بمثله اذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا ننسى ان بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة اعانة المشروع ماديا ، فرفضهم الان اشرافها عليه بعد ان ادت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه ..

وهب ان اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون ، افهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟

لا أظن ذلك لان انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هى عليه الان من الممكنات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكنا بكثرة المال والمتبرعين فهى فى هذه الحالة أحوج الى المال منها وهى بعيدة عن الحكومة ، ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فلن يبلغ الى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة الى الابد فمن العبث على كل حال العمل على اسقاطها وحرمان البلاد منها ..

اقول هذا وأنا على يقين من ان الحكومة لا تقصد سوءا بهذه الجامعة ولم تفكر فى اعاقة سيرها وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها من الاذهان ، فانها على اى صورة ظهرت معهد علمى يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه .

وانتهى الحديث لان زائرا جاء لمقابلة الباشا فالتمست الاذن منه بالانصراف وخرجت من حضرته وكلى السنة ناطقة بشكره .

حيثيات الحكم فى قضية اتهام العقاد بالعيب فى الذات الملكية وهى القضية التى حكم فيها على العقاد بالسجن سنة ١٩٣٠

باسم صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر ـ محكمة جنايات مصر ـ المشكلة علنا تحت رياسة حضرة صاحب السعادة عبد العظيم راشد باشا وحضور حضرات صاحبى العزة مصطفى حنفى بك ويس أحمد بك المستشارين بمحكمة الاستئناف الاهلية ومحمود منصور بك رئيس النيابة العامة ومحمد احمد السيد افندى كاتب المحكمة .

أصدر الحكم الآتى :

فى قضية النيابة العمومية نمرة ٤٢ سايرة عابدين سنة ١٩٣٠ المقيدة بالجدول الكلى بنمرة ٩٩١ سنة ١٩٣٠ ضد :

١ ـ محمد فهمى الخضرى افندى عمره ٣٨ سنة وصناعته صاحب جريدة « المؤيد الجديد » وسكنه شارع الدواوين .

٢ ـ عباس العقاد افندى عمره ٤٢ سنة وصناعته عضو مجلس النواب وسكنه بمصر الجديدة .

وحضر للدفاع عن المتهم الاول حضرة وهيب دوس بك المحامى وعن المتهم الثانى حضرتا مكرم عبيد بك ومحمود سليمان غنام افندى المحاميان . بعد سماع أمر الاحالة وطلبات النيابة العمومية واقوال المتهمين وشهادة من شهد ، والمرافعة والاطلاع على اوراق القضية والمداولة قانونا .

حيث ان النيابة العمومية اتهمت المتهمين المذكورين بأنهما :

الاول : فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة « المؤيد الجديد » عاب علنا فى حق الذات الملكية بأن نشر مقالات فى

الجريدة المذكورة بالاعداد ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٣ و ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين : « الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة » و « الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها » و « رأى فى الأزمة الحاضرة » و « الرجعيون والانجليز المحليون » و « سيعدل الدستور ولكن كيف ؟ ؟ » و « الرجعيـة هى العدو الاكبر فى الازمة الدستورية الحاضرة » بالتعاقب ، تحوى عبارات العيب المذكورة .

والثانى : بصفته شريكا للمتهم الاول فى الجريمة آنفة الذكر بـأن اتفق معه عـلى ارتكابها وساعده مع علمه بها فى الاعمال المسهلة والمتممة لها بأن انشأ المقالات الواردة فى الأعداد رقم ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٣ و ٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها وسلمها اليه لنشرها .

وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذينك الاتفاق والمساعدة وطلبت النيابة من حضرة قاضى الاحالة احالتهما على محكمة الجنايات ، لمحاكمة الاول بالمادتين ١٤٨ و ١٥٦ من قانون العقوبات ومحاكمة الثانى بالمواد ١٤٨ و ١٥٦ و ٤٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ من القانون المذكور .

وحيث أن حضرة قاضى الاحالة قرر بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٠ احالة المتهمين المذكورين على هذه المحكمة لمحاكمتهما بالمواد سالفة الذكر .

وحيث أنه بجلسات ٢٥ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ سمعت المحكمة هذه القضية على الوجه المشروح تفصيلا فى محضر الجلسة .

ومن حيث أن المحكمة قد اطلعت على المقالات موضوع الاتهام فى هذه الدعوى وترى أن تقف فى ذكر الوقائع والادلة عند الحد الذى يقتضيه القانون ويراه كافيا للفصل فى التهمة المطروحة أمامها ، وأن تجتنب الافاضة فى ذلك لما يترتب على هذه الافاضة من اعادة نشر صحيفة مخالفة لما يجب من الولاء العام نحو صاحب الجلالة الملك .

ومن حيث انه يتبين من أقوال المتهمين بالتحقيقات وبالجلسة ان الاول منهما هو المدير المسئول لجريدة « المؤيد الجديد » التى نشرت بها المقالات المرفوعة بسببها هذه الدعوى ، وأنه يطلع على ما ينشر بالجريدة فى أغلب الاحيان ويشرف على تحريرها وأن الثانى هو منشىء المقالات المذكورة وهو الذى قدمها للنشر .

ومن حيث انه تبين للمحكمة من الاطلاع على المقالات سالفـة الذكر انـه بتاريـخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ أصدر العدد نمرة ١٩ من جريدة « المؤيد الجديد » وبه مقال تحت عنوان « الوزارة تعبث بالمصريين وهى آلة فى يد المستعمرين » بـامضاء « ابـو فصاده » تحدث فيها الى القراء عن تلك الازمة ونسبها لتدخل الانجليز لاحداث الانقلاب الحاضر فى مصر ، فكان هذا المقال فاتحة مساجلة اشترك فيها عباس افندى محمود

العقاد بعدة مقالات نشر أولها بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد ٢١ تحت عنوان « الوزارة البريطانية والازمة الحاضرة » قال فيها :

« انه لمناسبة المقال الذى نشره الكاتب الكبير « ابو فصاده » فى مؤيد امس وهو المقال المشار اليه آنفا ، أعيد نشر فقرات من حديث فى هذا الموضوع جرى بينى وبين مراسل « الاحرار » السورية منذ أكثر من شهر ، لان هذه الفقرات تتضمن وجهة نظر شائعة فى تصوير الحالة على ما هى عليه وكل ما يتضمن وجهة نظر كهذه خليق ان يعرف تفصيله فى هذه البلاد . فقلت لحضرة المراسل ردا على سؤاله : « اعتقادى ان هذه الازمة هى ازمة الرجعية قبل كل شيء ، والرجعيون اعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية أو لابقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون فى القرون الوسطى » ثم قال بعد ذلك : « وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ، فان نالت الاكثرية بقيت على تأييدهم ، أى تأييد الرجعيين وأصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور ، وان نالت الاقلية تقدم مرشحون آخرون ، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور لان كثرة الاحزاب فى المجلس النيابى تنزع السلطة من المجلس وتضعها فى أيدى الرجعيين » . وقال فيها أيضا « ولو تم هذا التدبير لاستغنوا به من مسخ الدستور ، ولكنه لم يتم فهم يلجأون الى الخطة الاخرى التى يحاولون تنفيذها اليوم » .

ثم قال ردا على سؤال المراسل الذى ذكر فيه انه لا يعتقد براءة الانجليز فى هذه المؤامرة : أؤكد انه ليس للانجليز ضلع فى المؤامرة ولكنها بعد ظهورها كانت فرصة للوصول الى مطالبهم » وقال : « هذه خلاصة رأيى فى حقيقة الازمة منذ البداية وكلما مضى يوم بعد يوم زادتنى الحوادث اقتناعا به ، وأدلة محسوسة على صحته » ثم قال : « ان الانجليز لم ينشئوا الازمة لان الازمة نشأت قبل المفاوضة بل نشأت لاحباط المفاوضة والوصول من وراء ذلك إلى الغاء الدستور » ثم قال : « فلا يسعنى ان أعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وأن الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية : هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين » .

وفى اليوم التالى أى فى ١٠ سبتمبر عقب على المقال الاول بمقال آخر نشر فى العدد رقم ٢٢ تحت عنوان « الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها » قال فيه : « أتستطيع الرجعية ان تظن ظنا ام تتوهم وهما انها هى التى طلبت ذلك « يشير الى الاستقلال » فكان ، أو أنها كانت تطلبه على أى وجه من الوجوه فيكون ؟ أتستطيع ان تذكر لنا كلمة واحدة قالتها فى سبيل ذلك او تدبيرا واحدا دبرته أو نية واحدة أظهرتها

بأى نوع من أنواع الظهور ؟ لا : ان الرجعية لا تستطيع ان تظن ذلك ظنا او تتوهمه توهما ولا تستطيع الا ان تعرف ما يعرفه كل انسان ولا يخفى على انسان » ـ (فى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ظهر فى ميدان المساجلة مجهول امضى مقالا بحرف « ص » نشر فى العدد رقم ٢٥ تحت عنوان « رأى فى الازمة الحاضرة » ذهب كاتبه الى ما رآه عباس افندى العقاد من حيث الازمة المنوه عنها فقال « أولا : أن الازمة أزمة الرجعية » وعلل ذلك بقوله : « ولا نستغرب من الرجعيين فى مصر الجرأة على تدبيرها لانهم لم يطمئنوا قط الى حكم الامة » ثم قال : « أما دكتاتورية محمد باشا محمود فقد اعتمدت حقيقة كل الاعتماد على تأييد اللورد لويد ولكن اللورد لويد لم يكن يستطيع وحده اجراء الانقلاب لولا ان ساعدته الرجعية بكل ما تملك من دسيسة وسلطان فلما عملت وزارة العمال على تبديل الحال فى مصر سعت الرجعية فى انجلترا ليكون هذا التبديل فى صالحها ، فيحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا ، فلما لم يفلح فى هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية ، أرادت من وزارة النحاس باشا أن تكون آلة الاعتداء على حقوق الامة ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا فاستقالت حكيمة كريمة . وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب الحالى ، الى ان قال : وابلغ من كل ما تقدم ان بوادر الازمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية ان تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين ، واضطرت الى تأجيل النظر فى ذلك . الى ما بعد عودة الوفد الرسمى ، وأن الرجعيين كانوا يعملون لاحباط المفاوضة ، فلا يعقل ان تكون الحكومة البريطانية قد اشتركت معهم فى هذا التدبير » .

وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٢٦ من جريدة المؤيد تحت عنوان : « الرجعيون والانجليز المحليون » استهله بقوله « فى الخطاب المفصل الذى أرسله الينا صديقنا (ص) بيان واف للرأى القائل بأن الأزمة الحاضرة فى مصر هى أزمة الرجعية قبل غيرها ، وان الانجليز لم يخلقوا الأزمة وانما حاولوا ويحاولون ان يستفيدوا منها بعد خلقها وهذا الرأى هو رأينا الذى لا تزيدنا الحوادث الا اقتناعا به ووثوقا منه ، ولا يدعونا الى تقريره وتوكيده الا ان يعرف المصريون الحالة على حقيقتها ، ويعلموا أصول الدسيسة من اين تنجم والى اى غاية تسعى ، فانها ـ اى الرجعية ـ فى سبيل الاستعداد لمسخ الدستور : تحتضن الاذناب الذين لا يستحقون فى شريعة الوطنية والانسانية والاخلاق الا النبذ والاهمال والتحقير ، فتجنى بذلك على ضمير الامة جناية شديدة الفتك بعيدة القرار » .

وبتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٣ ـ و٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٦ نشر عباس افندى العقاد مقالين : الاول منهما تحت عنوان « سيعدل الدستور

ولكن كيف » والآخر تحت عنوان « الرجعية هى العدو الاكبر فى الازمة الدستورية الحاضرة » نحى فيهما منحى المقالات السابقة .

وبتاريخ ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٠ رأت النيابة العمومية ان المقالات المذكورة تتضمن العيب فى الذات الملكية فأجرت التحقيق مع المتهمين وأقامت عليهما هذه الدعوى طالبة عقابهما بالمواد المبينة بقرار الاحالة .

ومن حيث انه بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤ قضت محكمة النقض والابرام المصرية ان العيب فى الذات الملكية قد يكون بطريق التعريض كما يكون تصريحا ، وان للمحاكم ان تبحث موضوع المقال المطروح أمامها لاستظهار ما قد يكون فيه من الامور المعاقب عليها ، وان ذلك يقتضى الذهاب فى تأويل معانيه لتعيين من يكون قد أريد بالمطاعن ، وعملا بهذا المبدأ بحثت المحكمة المذكورة القضية التى كانت تنظرها وجاء فى حكمها : « انه يتبين ان المقال يشمل العبارات المبينة فى تقرير الاتهام ، وهى فى مدلولها تسند العيب الى الذات الملكية التى تعينت من مرامى الفاظه وعباراته ، الى حد يصعب صرفه الى غير حضرة صاحب الجلالة ، ولا عبرة الى استناد محكمة الجنايات الى ماضى المهم تدليلا على حسن نيته ، ان مجرد نشر عبارات مع العلم بمضمونها تقطع بسوء النية

ومن حيث انه مما تقدم يكون لهذه المحكمة الحق فى انزال العقاب بالمتهمين متى ثبت لديها ان المقالات موضوع المحاكمة تشمل عيبا فى حق الذات الملكية سواء كان هذا العيب قد أسند اليها تصريحا أو تلميحا ، وكما وان لها الحق ان تستنتج ذلك من مدلول العبارات ومرامى الألفاظ الواردة بالمقالات ولا يمنعها اذن من مؤاخذة المتهمين كون العيب لم يكن مسندا لحضرة صاحب الجلالة الملك تصريحا ، وذلك بخلاف ما ذهب اليه الدفاع عن المتهم التانى من قوله . ان العيب المعاقب عليه بالمادة ١٥٦ من قانون العقوبات المطلوب تطبيقها انما يجب أن يكون اسناده مباشرة وصراحة للذات الملكية ، فاما قوله « صراحة » فقد تبين مما تقدم أن التفسير الصحيح للمادة ١٥٦ هو ما ذهبت اليه محكمة النقض والابرام بأن العيب لا يجب أن يكون موجها مباشرة لأنه موجه الى الوزارة الحالية ، فهذا هو الموضوع المطلوب من المحكمة الفصل فيه وهو ما ستبين رأيها بشأنه مؤيدا بالدليل .

ومن حيث انه يتعين بحث المقالات المطعون فيها تحت ضوء الاعتبارات المتقدمة .

ومن حيث ان المطلع على هذه المقالات يجد الادلة تفيض على ان **المتهم الثانى** قد اقترف جريمة العيب فى حق الذات الملكية الرفيع ، فأسند اليها أمورا ليس فيها فقط

اخلال بالواجب المفروض على كل فرد من الاجلال لهذه الذات السامية ، بل أن هذه الامور تجاوزت هذا الحد الى اسناد أعمال لجلالته تؤذى شعوره وتظهره بمظهر المعتدى على حقوق الأمة .

ومن حيث ان القارىء للمقالات المشار اليها يجد ان (ص) والمتهم قد تلاقيا عند لفظة « الرجعية » ووقع اختيارهما عليها وجعلاها عنوانا للمقام الجليل الذى لا يجرآن على ذكره بالتصريح ـ وهو مقام الملك المعظم ـ لانهما ذكرا هذا اللفظ فى مناسبات وملابسات تاريخية وسياسية تصرفه حتما وبلا عناء فى التفسير والتأويل الى حضرة صاحب الجلالة الملك كما سيجىء البيان .

وعليه فليست كلمة « الرجعية » فى المقام الذى ذكرت فيه واعتبرتها المحكمة بسببه دالة على جلالة الملك مقصودا بها كما قال الدفاع « كل فكرة او شخص أو هيئة مسئولة الآن او فيما مضى عن هدم دستور البلاد أو العبث بحرياتها وليس مثله مثل عبارات الديمقراطية او الديماجوجية وليس مقصودا بها فى المواضع الآتى تفصيلها لا الاحزاب ولا الوزراء بل الذات الملكية كما سبق القول .

ومن حيث أن المتهم الثانى كتب فى المقال الاول بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما يأتى : « اعتقادى أن هذه الأزمة هى ازمة الرجعية قبل كل شىء ، والرجعيون أعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية أو لابقائها ناقصة مشوهة ، تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون فى القرون الوسطى وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فنشطره شطرين ، الى آخر ما جاء فى هذه العبارة .

والمفهوم بداءة من ذلك أن المتهم الثانى قصد بالرجعية والرجعيين جهة غير جهة الوزارة الوفدية المراد تأليفها ، ذلك لأن الجهة التى تستطيع تأليف وزارة او اسنادها ـ وهو المعنى المقصود هنا ـ جهة ذات سلطان وتعيينها على هذا الوجه يصرفها مباشرة الى جلالة الملك الذى يملك وحده حق اسناد الوزارة ـ والتعبير هنا بالرجعية والرجعيين واحد فان اللغة تجيز استعمال الجمع فى مقام المفرد تنويعا فى التعبير .

ومن حيث ان المتهم الثانى كتب كذلك فى المقال الآنف الذكر ما يلى : « فلا يسعنى أن أعتقد أن كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وان الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية : هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين » . وظاهر جليا أن الكاتب اراد بجهة الرجعية جهة ذات مكان عال وسلطان عظيم ، والا لما استقامت هذه المقابلة

فلا يمكن الافتراض أن الكاتب قد قـابل هنـا بين سلطة الانجليـز وسلطة الوزارة ، والافتراض البادى للذهن والمتبادر للفهم انه انما يقابل بين جهتين عظيمتين هما جهة الانجليز وجهة صاحب الجلالة .

ومن حيث أن المتهم الثانى كتب فى المقال الثانى المؤرخ ١٠ سبتمبر سنه ١٩٣٠ العبـارة الآتية « أتستـطيع الرجعيـة أن تظن ظنـا أو تتوهم تـوهما أنهـا هى التى طلبت ذلك « يشير الى الاستقلال » فكان ، أو انها كانت تطلبه على أى وجه من الوجوه فيكون ـ أتستطيع أن تذكر لنا كلمة واحدة قالتها فى سبيل ذلك ، أو تدبيرا واحدا دبرته أو نية واحدة اظهرتها بأى نوع من أنواع الظهور ... » فهذه العبارة قاطعة فى الدلالة على أن المتهم انما أراد بلفظة الرجعية جلالة الملك لأن معنى العبارة لا يستقيم بأى حال اذا كان المراد بالرجعية هنا الوزارة كما يقول الدفاع ، اذ المعلوم للكافة أن بعض رجالها على الاقل قام بما ينفى الكاتب صدوره من الرجعية ، وانما أراد الكاتب أن يستغل جهل الجمهور بالتقاليد الملوكية التى تتنافى مع اظهار ما يبذله الملوك عادة فى هذا السبيل .

ومن حيث أن الكاتب (ص) كتب فى مقال نشر فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وافق عليه المتهم الثانى فى مقاله المنشور فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ « ان الرجعية سعت فى انجلترا ليكون هذا التعديل فى صالحها ليحل استبدادها محل استبداد محمد باشا محمود ، فلما لم تفلح فى هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية أرادت من وزارة النحاس باشا أن تكون آلة للاعتداء عـلى حقوق الأمـة ، ولكن الوزارة النحاسيـة لم تكن تقبل هـذا ، فاستقالت حكيمة كريمة ، وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب » ، والمحكمة ليست فى حاجة الى التدليل بأن الرجعية هنا انما يقصد بها جلالة الملك ، وليس ادل على ذلك من تلك المناسبات التى يذكرها الكاتب فليس فى هذا البلد هيئة سياسية فضلا عن افراد تستطيع أن تجعل وزارة النحاس باشا آلة للاعتداء على حقوق الأمة بحيث اذا لم تقبل تضطر للاستقالة .

ومن حيث انه جاء ايضا فى مقال (ص) ، المشار اليه والذى وافق عليه المتهم الثانى فى مقال ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما يأتى :

« وابلغ من كل ما تقدم أن بوادر الأزمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية أن تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين ، واضطرت الى تأجيل النظر فى ذلك الى ما بعد عودة الوفد الرسمى » وهذه العبارة قد ذكرت فى سياق التدليل على أن الأزمة هى أزمة الرجعية ، وليس بخفى على أحد أن الوزارة النحاسية لم تكن لتعجز عن الاتفاق

فى هذين الشأنين الا اذا كان المراد بالرجعية جلالة الملك الذى له حقه الدستورى فى تعيين الشيوخ وكبار الموظفين .

ومن حيث ان المتهم الثانى قد استهل المقال المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بعبارة صريحة فى موافقته لرأى الكاتب (ص) فى المراد بكلمة الرجعية ، وهو يتفق معه على بيانه المفصل فى مقاله السالف الذكر ، وزاد المتهم الثانى على الامور المفصلة فى هذا البيان قوله « ان الرجعية فى سبيل الاستعداد لمسخ الدستور تحتضن الاذناب » الذين وصفهم بالاوصاف المبينة فى المقال ويؤخذ من هذه الاوصاف تحديد صريح لمركز بعض هؤلاء الأذناب ، اذ أسند اليهم افعالا تدل على ان لهم سلطة وزارية فيتعين ان هذا الاحتضان لهم حاصل من جهة تملك تعيين الوزراء وهى جهة صاحب الجلالة الملك .

ومن حيث انه يتبين من الوقائع والادلة السابق ذكرها ان المتهم الثانى قد عاب فى حق الذات الملكية ، ليس فقط بالادلال عليها بلفظ معيب هو « الرجعية » وهو وحده كاف باتفاق الدفاع عن هذا المتهم لتكوين جريمة العيب المنصوص عليها بالمادة ١٥٦ بل بنسبة امور شائنة اليها كادعائه بأنها كانت تتهيأ من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية ، وانها لا تستطيع أن تتوهم انها هى التى طلبت الاستقلال أو بدا منها أى عمل أو اية نية للوصول إليه ، وانها أرادت من وزارة النحاس باشا أن تكون آلة للاعتداء على حقوق الأمة وهو الأمر الذى وافق عليه صديقه المستتر وراء (ص) وانها تحتضن الأذناب الذين نعتهم بأحط الأوصاف ، الى غير ذلك مما جاء فى المقالات موضوع الاتهام .

وحيث ان الدفاع عن المتهم الثانى قد بذل جهدا محمودا محاولا محو هذه الصحف التى سودها المتهم المذكور بقلمه واسدال ستار على ما فيها ، ولكن الجهد مهما بلغ ما كان ليستطيع أن يدارى جريمة واضحة وأدلة قائمة بينة ، بل ان مهمة الدفاع كانت تفوق كل مجهود والتهمة لا دافع لها . فقد استشهد الدفاع بماضى عباس محمود العقاد افندى وبقصائده التى صاغها مدحا فى الذات الملكية وببعض الفقرات جاءت فى مقال من المقالات يوجه فيها الطعن الى « المنافقين الذين يستعدون الانجليز على القصر » ، فأما الماضى وما تميز به من الولاء وأدب العبارة ومن الاشادة بالعمل الجليل ، فانه لا يغنى عن الحاضر وهذه صفحته التى يحاكم المتهم اليوم من اجلها ، وأما الخطاب الموجه الى المنافقين فهو طعن لهم لا دفاع عن القصر .

ومن حيث انه متى ثبت ان المقالات السالفة الذكر بما فيها مقال (ص) تحوى عيبا فى حق الذات الملكية ، فالمتهم الأول مسئول حتما عن هذه الجريمة بصفته فاعلا أصليا ،

ذلك لأن القانون المصرى يفترض قرينة الاجرام افتراضا فى الاشخاص المبينين فى المادة ١٦٦ مكررة فلا يقبل منهم اى عذر من شأنه ابعاد المسئولية الجنائية كالقول بأنهم لم يقرأوا المقالات المعاقب عليها ، أو لم يفهموها كما يدعى المتهم الأول متى ثبت اتصالهم فعليا بادارة الجريدة وهو حال هذا المتهم فى هذه القضية ، فدعوى الدفاع بأن المتهم الأول جاهل لا يستطيع فهم العبارات التعريضية المذكورة بالمقالات المتقدمة دعوى غير مقبولة واذا كانت المادة ١٦٦ مكررة تعاقب الباعة أو الموزعين او اللاصقين وهم اشخاص مفروض فيهم ليس فقط عدم الفهم بل القراءة فمن باب أولى مدير الجريدة المسئول عما ينشر فيها مسئولية جنائية مفروضة عليه من القانون فرضا والمتهم الأول لم يدفع هذه القرينة القانونية بدفع مقبول .

ومن حيث انه لما تقدم يكون قد ثبت بأن المتهم الأول فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة المؤيد الجديد · عاب علنا فى حق الذات الملكية بأن نشر مقالات فى الجريدة المذكورة بالاعداد ٢١ و٢٢ و٢٥ و٢٦ و٣٣ و٣٦ الصادرة فى ٩ و١٠ و١٣ و١٤ و٢١ و٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين « الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة » و« الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها » و« رأى فى الازمة الحاضرة » و« الرجعيون والانجليز المحليون » و« سيعدل الدستور ولكن كيف » و« الرجعية هى العدو الأكبر فى الازمة الدستورية الحاضرة » بالتعاقب عبارات العيب السابق بيانها فى حيثيات هذا الحكم .

والثانى بصفته شريكا للمتهم الاول فى الجريمة آنفة الذكر بأنه اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها فى الأعمال المسهلة والمتممة لها بأن أنشأ المقالات المحتوية على العيب السالف بيانه الواردة فى الاعداد رقم ٢١ و٢٢ و٢٥ و٢٦ و٣٣ و٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها بناء على ذينك الاتفاق والمساعدة .

وعقاب المتهم الأول ينطبق على المواد ١٤٨ و١٥٦ و١٦٧ من قانون العقوبات وعقاب المتهم الثانى ينطبق على المواد ١٤٨ و١٥٦ و١٦٧ و٤٠ فقرة ثانية وثالثة و٤١ من قانون العقوبات .

ومن حيث انه فيما يتعلق بتقدير العقوبة فقد راعت المحكمة من جهة انكار المتهمين للتهمة التى أسندت اليها ورات فى هذا الانكار توبة وندما ، ومن جهة أخرى جسامة الجريمة على انها من جسامتها قد لاحظت ان مثلها لا يقصد الشارع أولا وبالذات العقاب على ما هو واقع منه بالفعل ، بل يقصد بالأخص من ايقاع العقاب منع وقوع اى

عيب آخر فى حق الذات الملكية الواجب للمصلحة العامة ان تكون مصونة محاطة بالاجلال .

فلهذه الأسباب وبعد رؤية المواد آنفة الذكر ، حكمت المحكمة حضوريا بحبس المتهم الأول محمد فهمى الخضرى افندى مدة ستة اشهر حبسا بسيطا وبحبس المتهم الثانى عباس محمود العقاد افندى مدة تسعة أشهر حبسا بسيطا وأمرت بطبع الحكم فى ثلاث جرائد يومية بمصاريف من قبل المحكوم عليهما .

صدر هذا الحكم علنا بجلسة يوم الاربعاء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، ١١ شعبان سنة ١٣٤٩ .

نص دفاع مكرم عبيد
عن العقاد امام القضاء سنة ١٩٣٠

« جريدة مصر ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ »

يا حضرات المستشارين :

لقد سمعتم مرافعة النيابة وتبينتم ما فيهـا من جهد ـ بـل واجتهاد ـ فى التـدليل والتخريج والتأويل ، ولو انكم تفضلتم بالقيتم نظرة واحدة الى خارج المحكمـة حيث القوات تتوزع وتتجمع ، وأخرى الى قفص الاتهام : حيث المتهم البرىء يتوجع ، ونظرة ثالثة الى موضع الاتهام فى ذاته ... لاقتنعتم بأن القضية المعروضة على حضراتكم ان هى الا مأساة ينفطر لها القلب ، اكثر منها قضية ينسجم لها البيان .

ذلك هو الوضع الصحيح للقضية ، فهى مأساة أمة تمثلت فى مأسـاة فرد ، ولكن النيابة رات أن تتملص من الجوهر الى المظهر ، فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هى اشبه الصور بالحق ، وان لم تكن من الحق فى شىء ، وفى ذلك خطر هو كل الخطر ، فان أخطر الباطل واشده تضليلا ليس ما بينه وبين الحق هوة سحيقة ، بل هو الذى يفصله عن الحق طلاء خارجي أو قشرة رقيقة .

لذلك أرى واجبا لزاما علىّ أن أعرض للمحكمة الصورة الحقيقية لهذه القضيـة ، مجردة من كل طلاء ، عارية من كل رياء ، وأن ابرز ما خفى من عواملها وما ظهر ، اذ بغير ذلك لا يتسنى لى أن أقوم بمهمة الدفاع فيها .

والواقع أن هذه القضية التى تبدو فى الظاهر بين النيابة والاستـاذ العقاد هى فى الحقيقة بين الرجعية والدستور ، أو هى بالأحرى بين مبداى لتأخر والتقدم ، ايا كان

الشكل الذى قد يتخذه كل من هذين المبدأين أو الأسم الذى يتسمى بـه فى مختلف الأزمنة والظروف ، وما العقاد الا خصم للرجعية عنيد ، انهال عليها بضربات قتالة رأت الا قبل لها بها فاعتزمت ان تنكل به قبل ان ينكل بها ، ولما لم تقو على مجابهته وجها لوجه : فرت الى السدة الملكية ، تتعلق بركابها وتتمسح بأعتابها ولم تسنح أن تتخذ منها ستارا لعيوبها فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب منها .

ولكن : ما هى الرجعية التى عناها العقاد ؟؟ .. هى كل فكـرة او هيئة أو شخص مسئول عن العبث بالدستور ، أو بحريات البلاد فى أى زمن من الأزمان ، وبما أن نفس الدستور الذى استمات العقاد فى الدفاع عنه يقضى بأن الملك غير مسئول وان ذاتـه مصونة فلا يمكن أن ينصرف لفظ الرجعية الى الذات الملكية لا موضوعا ولا قانونا .

يا حضرات المستشارين :

لو ان هذه القضية هى الوحيدة من نوعها لجاز ان يكـون تصويـرنا لهـا وتعليلنا لأسبابها محل ريبة وتشكك ، ولكن الدليل لا يعوزنا على أن الرجعية فى صراعها الدائم مع خصومها طالما لجأت الى مثل هذا السلاح المعيب وهو التحكك بـالعرش وشخص الجالس عليه ، من غير ان يكون للعرش أى شأن من قريب أو بعيد فى الخصومة ، واليكم بعض الأمثلة على ما ذكرناه ، وهى أمثلة رائعـة لا يأتيهـا الباطل من أى نـاحية من نواحيها :

منذ أمد بعيد ينوف على الالف وتسعمائة سنة ، ظهر بين الناس رجل من رجال الله الاطهار هو كلمة الله وروح منه ، ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا ، لا يكاد يجد لجسمه غطاء ولا مثوى ، حتى انه كان يقول عن نفسه : « ان لطيور السماء أوكارها وليس لابن الانسان مأوى » ، وكانت رسالته الى الناس أن عبـدوا الله عبادة الروح والحق ، وانبذوا من الدين تقاليد الرجعيين من رجاله ، اذ هى ليست من الدين فى شىء .

خصومة دينية كما ترون ، ولكن الرجعيين من رجال الدين لم يجدوا سبيلا للانتقام من خصمهم الا أن ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش ، ورغم قوله صراحة : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فانهم شكوه الى الحاكم الرومانى مدعين أنه طعن على قيصر ، ولو ان لخصومه لسان النيابة المصريـة لقالوا بـالأمس ما تقوله هى اليوم « أنه عاب فى الذات الملكية » .

الا ترون يا حضرات المستشارين كيف تلجأ الرجعية – حتى فى المسائل الدينيـة البحتة التى لا شأن لها بالملك ولا بالملوك الى الانتقام بالملكية ؟ وهى لا ترون بأن الرجعية هى اليوم والأمس والى الأبد واحدة فى تفكيرها وفى تدبيرها .

ساقوا المسيح عيسى الى المحاكمة فأخذت الحاكم الرومانى روعة من رنة صوته وجلال صمته ، وبماتبينت له براءته من كل عيب أسقط فى يده ، ولم يدر ما عساه يفعل ، ولعله أحس فى النفس حسرة ، أو خشى من الضمير ثورة ، فأمر باحضار اناء من الماء وغسل يديه أمام الجميع ثم صاح قائلا « انى برىء من دم هذا البار » ، ولكن واأسفاه فانه رغم مسئوليته واعلان حياده التام : سلم المتهم البرىء الى خصومه من الرجعيين ـ وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين ـ وأمر جنده من الرومان أن يرقبوا التنفيذ ، فأحاطوا به مهددين مستهزئين .

يا حضرات المستشارين :

لم يكد يمضى على هذا الحادث الجلل بضع مئات من الأعوام حتى ارتفع من صحراء العرب صوت رهيب عذب ، ينذر الكافرين فتهلع النفوس لدويه ، ويبشر المؤمنين فتنفتح القلوب لوحيه ، بدأ الرسول الأمين بتبليغ رسالته الى بنى قومه فدعاهم الى عبادة ربه ، وتحطيم أصنامهم ، وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الأمانة والقناعة والوداعة أن يسندوا اليه مطمعا خفيا ، أو يظنوا انه كان يبغى من متاع الدنيا شيا ، وهو الذى كان يدعو باسم ربه الى الآجلة دون العاجلة .. ولكن زعماء الجاهلية الأولى ـ والجاهلية هى الرجعية ـ اتهموه بالطعن على حكمتهم ، والطموح الى سلطانهم ، وتمادى بهم الوهم الى حد ان عمه أبا طالب فاتحه فى ذلك ولوّح له بالحكم والسلطان على أن يتنازل عن رسالته فما كان من النبى الكريم الا أن قال له : « يا عم ـ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو هلك دونه » .

اذن : يستخلص من هذين المثلين الرهيبين ، اللذين هما محل ايمان واجماع ان الرجعية لا تتورع حتى فى المسائل الدينية والنفسية البحتة عن اتهام خصومها بالمساس بنظام الملك او بشخص ولى الأمر ، وذلك تحقيقا للنكاية بهم وأمعانا فى الانتقام منهم . فكيف الأمر فى قضية كقضيتنا هذه تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية ؟؟ هل من عجب اذا كانت الرجعية السياسية أو الحكومية تنقم على الاستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادىء والنظم الدستورية فترميه بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وترى من السهل عليها ان تقلب بشىء من التحوير والتفسير والتنقيب بين السطور الطعن البرىء فى نظام الحكم الى العيب فى شخص الملك ؟؟ . ولا عجب ولا غرابة ، بل الغريب أن نتطلب من الرجعية أساليب غير رجعية ، ولا حياة للرجعية فى جو من الانصاف والحرية .

ولكي تتبينوا ـ حضراتكم ـ الأسباب الحقيقية التى دعت الى رفع هذه القضية ـ وهى كما ذكرنا أسباب كيدية ـ وجب أن نتتبع أدوار هذه القضية فنفهم أولا نفسية العقاد فيما كتب ، ثم نفسية خصومه وأساليبهم ، ومتى وضحت لنا هاتان النفسيتان أمكننا أن نفهم التهمة على صحتها سواء من جهة الوقائع أو التكييف القانوني ، وبعبارة أخرى فان دفاعنا ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ـــ بواعث الاتهام .

٢ ـــ التكييف الموضوعى للاتهام .

٣ ـــ التكييف القانونى للاتهام .

* * *

قلنا ان الباعث على الاتهام يتضح جليا من تحليل عقليتين متعارضتين : عقلية العقاد وعقلية خصومه السياسيين .

أما نفسية العقاد بازاء الرجعية الحكومية فهى من نفسية الامة جمعاء ومثلها مثل رجل رأى بيته عرضة للزلازل والعواصف فشرع فى تدعيم جنباته وسد فتحاته ، فجاءت الحكومة غاضبة صاخبة وهدت البيت على رأس صاحبه ، ولم تجد لها عذرا فى تحطيمه الا أن المسكين شرع فى تدعيمه . واذا كان للعقاد صفة تمتاز بها شخصيته كرجل ـ أو عبقريته ككاتب وشاعر ـ فهى الصراحة التى تأبى المداراة والمواربة أو اللف والدوران على حد تعبيره فى بعض مقالاته ، ولو ان النيابة تفهمت نفسيته ... لأدركت أن مثل هذه الصراحة تأنف ان تستتر وراء لفظ أو عبارة ، لأنها تعنى ما تقول وتقول ما تعنى . بيد ان هذه الصراحة نفسها هى التى حفزت خصومه الى المبادرة لتكميمها ، فقد كان العقاد صريحا وجريئا فى هجومه على الرجعية وفضح نياتها . وكان أول من عناه بالرجعية الوزارة الحالية كما هو ظاهر من مقالاته ، والوزارة خافت من أول الأمر تلك الصراحة فحاولت اسكاتها بتعطيل الجرائد التى يكتب فيها العقاد ، كما عطلت غيرها من الجرائد التى تولى أمرها غيره من الكتاب الأحرار ، هى اليوم تسوقه الى المحاكمة كما فعلت مع غيره ، وكما ستفعل مع هذا الغير من بعد ، اذا طال بهذه الوزارة العهد .

يا حضرات المستشارين :

هل انتم فى حاجة الى ترسم هاتين العقليتين ، وها هما امامكما ماثلتان ، هاكم واحدة منهما عزلاء سجينة فى قفص الاتهام وهى مع ذلك مطمئنة ابية وهاكم الأخرى تصول

وتجول من غير قيد ولا أسر ، ولكنها متحصنة بالاسلحة والدروع ، فهى لعمرى خائفة وجلة ، عقليتان احداهما لمصرى حر وكاتب فذ ونائب من نواب الأمة ... رأى البرلمان يعلق والاقلام تحطم ، ودعائم الدستور تقوض وحرياته تنقض ، فشحذ قلمه ولسانه وفكره ـ وهى كل أسلحته ـ لمحاربة الرجعيين والذب عن دستور الأمة الذى اقسم يمين الولاء له والدفاع عنه ، وما كان لمثل العقاد ان يحنث بيمينه ، واليمين حبة من قلبه وعهده الى ربه ، والعقلية الاخرى عقلية وزير تسنم ذروة الحكم على أنقاض الدستور وكانت مبيتا النية على هدم الدستور حتى قبل أن يتولى الحكم ـ كما اعترف بذلك فى حديث له مع جريدة المقطم . ولكنه كان مضطرا فى أول الأمر لمداراة الرأى العام حتى لا يصدمه صدمة عنيفة من جهة وحتى يتسع له الوقت لحبك الدسيسة من جهة أخرى ، لذلك أعلنت الوزارة عند تكوينها انها لن تعتدى على الدستور أو تسمه بسوء ، وكان جل همها ان لا تفتضح نياتها للناس حين يحين الحين لمباغتهم بها ، ولكن رجال الصحافة وفى مقدمتهم الاستاذ العقاد سخروا أقلامهم لفضح ما خفى من النيات بما ظهر من الأعمال المنافية للدستور فبادرت الوزارة الى غل الاقلام وساقت بعض الكتاب فيها الى الاتهام ، ثم تدرجت من هذه الى تعطيل الالسن بمنع الاجتماعات والقبض على الافراد ، ولقد ثارت لهذه الاجراءات الخانقة نفس العقاد الحرة ، فكتب بقلم من نار محذرا الوزارة وأنصارها من مغبة هذه الأساليب الرجعية ، منذرا اياهم فى احدى مقالاته بانه اذا حطمت الاقلام فالالسن تنطلق واذا كممت الافواه فالنفوس تشتعل وكأنه يقول مع القائل :

كسروا الاقلام هل تكسيرها ... يمنع الالسن ان تنطلق جهرا
قطعوا الالسن هل تقطيعها ... يمنع الاعين أن تنظر شررا
اغمضوا الأعين هل اغماضها ... يمنع الانفاس أن تخرج زفرا

ذلكم بيان موجز لنفسية العقاد ونفسية خصومه ومنه ترون أن العقاد كان له نصيب الأسد فى محاربة الرجعية فلا عجب أن يكون له أكبر نصيب من نقمتها .

ولكن اذا لم نعجب من عقلية الوزارة وتصرفاتها الرجعية فالعجب أن تكون النيابة وهى الامينة على الدعوى العمومية أداة للرجعية وسوطا نقمتها ، فلم تكتف بأن اتهمته حيث لا تهمة بل سايرت الوزارة فى سبيل الانتقام منه ومن قلمه فقررت القبض عليه ومعاملته فى السجن معاملة اللصوص والمجرمين . وفاتها أنها بحبس العقاد قد غيبت

قلمه وفضحت نفسها ، فاتها إنها هى نفسها ، وفى تهمة كهذه التهمة نفسها ، لم تقرر القبض على متهم آخر لا لسبب الا انه لم يكن عباس العقاد .

نعم ان للنيابة الحق قانونا فى القبض ، ولكن الحق اذا اسىء استعماله كان هو الباطل فعلا ، واذا كان منطق البائسين يقضى بأن المساواة فى الظلم عدل فبالأحرى ان لا يكون التفريق فى الحق عدلا .

تلكم هى الحقائق الأولية التى اغفلتها النيابة فى استعمال حقها ، فجعلت من حقها باطلا ، والا فما معنى القبض على الاستاذ العقاد وعدم القبض على غيره فيما مضى كالاستاذ محمود عزمى مثلا والتهمة واحدة فى الحالتين والنيابة هى هى لم تتغير . فما الذى تغير اذن ؟

هو نظام الحكم ولا ريب . فقد كانت الوزارة وقتئذ دستورية شعبية وأصبحت الآن استبدادية رجعية . هى الرجعية اذن التى تحرك النيابة فتنطلق بلسانها وتقبض بسلطانها .

أليس كذلك يا رجال النيابة ؟

والا فافتونا كيف تكيلون بكيلين فتحللونه عاما وتحرمونه عاما ...

وليس للنيابة ان تنتحل الاعذار فتدعى فى درجة الثبوت بين القضيتين ، فقضايا العيب وما شاكلها من جرائم النشر تثبت عادة بطريق الاستدلال من نص العبارة المنشورة والنيابة رات التهمة ثابتة فى الحالتين ، بل ان الاستاذ عزمى نسب الى جلالة الملك بصريح اللفظ تصرفات قال ان فيها اعتداء على الدستور ، وكان ذلك لمجرد حركة تعيينات وتنقلات فى المحاكم الشرعية بينما الاستاذ العقاد لم يشر الى الملك بحرف بل وجه مطاعنه الى الرجعية والرجعيين مدفوعا بعامل الغيرة على الدستور الذى رأى بنيانه يتداعى أمام عينيه .

فكيف جاز للنيابة اذن ان تقبض على هذا دون ذلك وكلاهما متهم فى نظرها وتهمة أحدهما صريحة دون الاخرى ؟

اللهم لا تعليل الا ان النيابة تعمل اليوم باسم وزارة رجعية بينما كانت بالامس تعمل فى ظل الحياة الدستورية وكفى بهذا فارقا ودليلا ...

بيد أن حبس العقاد لم يكن فيه اجحاف فحسب بل تعذيب ايضا ، فهو جريمة ضد العدالة والانسانية معا .

لا أشير بذلك الى ان العقاد رجل سياسى وانه كان من الواجب ان يعامل معاملة

المجرمين السياسيين كما وعدت بذلك وزارة عدلى باشا البرلمانية ، كلا ... فلا أطمع فى مثل هذا من وزارة العهد الحاضر ، ولكنى اقول : ان العقاد رجل مريض ولقد رايتموه بالأمس مريضا وسمعتموه مريضا وتوجعتم له مريضا وللمرض روعة ورحمة ... وللخصام فيه هدنه . ولكن النيابة أبت أو خشيت أن تتهادن مع خصم طريح الفراش ، صريع المرض فلم تأبه للشكاوى التى قدمها مؤيدة برأى الأطباء ، وقد رجوت بنفسى حضرة صاحب العزة النائب العمومى ان ينقله الى غرفة خاصة فى مستشفى السجن اذ ان حالته العصبية والصحية تقتضى مثل هذه العزلة عن بقية المرضى ، ورجوته اذا لم يتيسر ذلك ان ينقله الى سجن الاجانب ، فوعد ان يبذل اقصى جهده لاعداد غرفة خاصة له فى سجن مصر ، ولكن هذا الجهد لم يثمر مع الأسف ، فالعقاد كان الى اليوم محبوسا فى زنزانة ضيقة لا تدخلها الشمس وتبللها قطرات الرطوبة كما بين لكم ذلك فى الجلسة السابقة وهو لا يزال مريضا بل ان المرض أخذ فى الاشتداد عليه حتى اصبحنا نخشى على حياته الغالية سوءا وأن يصبح السجن له قبرا حيا .

يا حضرات المستشارين :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

لقد كنت نزيل السجن فى وقت من الاوقات فاذا حدثتكم عن معيشة السجن فى الزنزانة فهو حديث الخبير ولا فخر .

تصوروا حجرة صغيرة جرداء وكأنها جحر . ليس فيها نافذة يطل منها السجين وبجوار سقفها كوة تطل هى على المسكين أما الشمس فلا تدخلها مطلقا بل من الساعة الرابعة بعد الظهر يدخلها الظلام ويبيت فيها حتى الصباح ، اذ أن النور نعمة حرمت على السجين ولم ينعم بها العقاد الا منذ ايام قليلة كما أخبرنا حضرة رئيس النيابة ثم ان الزنزانة تظل مغلقة صباح مساء الا عند الخروج لحاجة أو لرياضة فى حوش السجن مرة او مرتين ، وبما ان ليل الزنزانة يبدا حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر فليس فى مقدور السجين أن يقرا كتابا أو جريدة بل كل ما يقدر عليه هو أن ينام أو لا ينام .

صوروا لانفسكم حياة رجل مفكر متحضر كالعقاد فى مثل هذا الجحر . ثم صوروه لانفسكم مريضا بصدره فى حجرة مرطوبة لا تدفئها شمس ولا نار لاسيما وأنه قد اصيب من زمن بذات الرئة . ثم اذا لم تزعجكم الصورة فصوروه لانفسكم مريضا بأمراض أخرى كالأعصاب والمعدة والحنجرة والزكام المزمن الذى ترتب عليه نزول الدم

من أنفه . ولكن ما حاجتكم الى الصورة وقد رأيتم بالأمس وترون اليوم مرسوما على جبينه أثر ما عاناه من الآلام التى كادت تودى به الى رمسه . لولا رحمة من ربه وقوة من نفسه . وقد رفع العقاد الشكوى تلو الشكوى واليكم صورة آخر شكوى قدمها :

حضرة صاحب السعادة مدير مصلحة السجون . بعد تقديم واجب الاحترام ارجو ان تسمحوا لى بتلخيص شكواى المذكورة التى آمل أن يكون لها نصيب من الاجابة ، اننى اذا قلت يا صاحب السعادة أن رطوبة الزنـزانة تتلف صحتى وتعـرض حياتى للخطر ، فلست أقول غير الواقع الذى يتساوى فى العلم به الطبيب وغير الطبيب ، فاننى اصبت فيما مضى بالالتهاب الرئوى والنزلات الشعبية وحالة الأنف والحنجرة والصدر هى عندى معرضة للنزلات التى لا يسهل شفاؤها فى جو الرطوبة بل لا تزيدها الا تفاقما واشتدادا .

وهذا عدا عسر الهضم المزمن ومرض الاعصاب ومن كان فى مثل هذه الحالة يحتاج الى الشمس فى محل نور حاجته الى الحياة ويتوقى الرطوبة كما يتوقى السم القاتل ، ولم تمض علىّ فى الزنزانة عشرة أيام أو نحو ذلك حتى أصبت بزكام شديد لا يزال مستمرا الى اليوم ، اى لا يزال مستمرا بعد انقضاء اكثر من خمسين يوما فى جهد مقلق وضيق نفس متتابع ، وقد سرى الى الحنجرة فالتهبت ، ثم تحول الى سعال وأصبح السعال منذ عشرة أيام مصحوبا بافراز وبلغم كثيف يضرب أحيانا الى الاخضرار . وهذه حالة غير مأمونة على الصدر ولا سيما فى جو الرطوبة الذى لا يصلح لشفاء نزلة من هذه النزلات ولست أذكر ما يصحب الزكام من صداع وأرق وما يصحبه من تأثير سىء فى الاعصاب فان ذلك ظاهر بالبداهة بل أقول ان الرطوبة زادت عسر الهضم سوءا على سوء . فبعد أن كان يعتريني أياما متقطعة أصبح مستمرا فى كل يوم لا يجدى فيه استعمال الأدوية التى كانت تزيله فى الأحوال العادية .

يا صاحب السعادة ـ خلاصة ما أقول : ان صحتى تتلف فى هذا الجو الرطب الذى أعيش فيه وأن حياتى نفسها معرضة للخطر وأننى لا أطلب الا الشمس فى المكان الذى أبيت فيه وليس من العسير تدبير ذلك . وتقبلوا الاحترام .

امضاء : عباس محمود العقاد

* * *

أليس هذا هو التعذيب بكل معانيه فى عصرنا هذا ؟ عصر المدنية والنور ، سجين مريض بصدره يطلب الشمس فيحرمها ، ورجل فذ من انبغ الكتاب المصريين ، واكبرهم نفسا ، واطهرهم يدا ، يرجو أن ينقل الى سجن الاجانب ليعامل كما يعامل القتلة واللصوص من الاجانب فيستكثرون عليه ذلك ، وتعتذر النيابة بأن سجن الاجانب تحت اشراف وزارة الداخلية فاذا قيل لها انقلوا هذا المريض الى غرفة فى المستشفى ، أجابت بأنها تستعمل الآن كمخزن او مكتب ؟؟ وارحمتاه للانسانية من الانسان ؟ بل وارحمتاه للرجولة فى عهد يبطش فيه بالمريض وهو صريع ! .. هل تريدون منى بعد ذلك دليلا يا حضرات المستشارين على أن القضية المرفوعة على عباس العقاد انما هى قضية كيد وانتقام ؟ وهلا ترون الآن لماذا حوكم المتهم وقد رايتم كيف عومل المريض ؟ وهلا ترون ان الرجعية ـ ممثلة فى الوزارة الحالية ـ ارادت أن تحطم هذا القلم الجبار فأوعزت الى النيابة برفع الدعوى وتلا ذلك ما رايتم من قبض وتنكيل .

أليست هذه الاجراءات وحدها مع ما سبقها من مقومات دليلا كافيا على أن الخصومة سياسية بحتة لا تعرف القانون ولا القانون يعرفها ؟

ومع ذلك ـ فتسرون حضراتكم فى القسمين الثانى والثالث من دفاعنا الدليل تلو الدليل على بطلان التهمة موضوعا وقانونا .

القسم الثانى
وقائع الاتهام وتكييفها

أما عن وقائع الاتهام والاشارة الى الوقائع هنا من باب التجاوز فقط فليس فى التهمة واقعة ما ، بل فيها فروض واستنتاجات . والواقع أن النيابة قد تنكبت سبيل المنطق منذ أول الأمر . فبدأت بالبحث عن التهمة قبل أن تبحث فيها ، واقتنعت بها قبل أن تتبينها ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى منزلة ما أشد انحدارها وما أبعد قرارها ! .. فلذلك لم يكن للنيابة مناص من أن تتبع الخطوة بخطوات والهفوة بهفوات ... فافترضت أولا . ثم بحثت . ثم أولت . ثم تعسفت ثم انتهى بها الأمر الى حيث بدأت . فوجهت الاتهام الى رجل ارادت أو أريد لها أن تتهمه .

وها هى اليوم تذهب فى مواقفها الى أبعد فى التأويل والتخريج والتفريع مما ينبو عنه كل منطق . فما بالكم بمنطق قانون العقوبات الذى يقضى بأن لا عقوبة عن طريق للقياس

والتخريج وما بالكم بمنطق اللياقة الذى يقضى أن تسان الذات الملكية من تأويل تعسفى يسند اليها الرجعية من حيث لا مسند .

تقول النيابة : ان الاستاذ العقاد أراد بعبارة الرجعية الاشارة الى الذات الملكية ، ونقول ونكرر أن الرجعية التى عناها هى كل فكرة أو شخص أو هيئة مسئولة الآن أو فيما مضى عن هدم دستور البلاد ، أو العبث بحرياتها ، وأن لفظ الرجعية لا ينصرف فى مبناه ولا فى معناه الى شخص الملك ولا سيما وأن الدستور يخلى جلالته من المسئولية وينص صراحة على أن اوامر الملك الشفهية أو الكتابية لا تخلى الوزارة من المسئولية .

ذلك قول النيابة وذلك ردنا عليها وما كان علينا أن نرد بل حسبنا ان نصمت حتى تقيم النيابة الدليل . ولكنا رددنا وسندلل على صحة ردنا حتى يكون لنا فخر البراءة ايجابيا ولا سلبيا ، إنما يجب قبل ذلك أن نبحث أدلة الاتهام التى تمسكت بها النيابة فى التحقيق والمرافعة ، لنرى هل هى تثبت على المتهم أم لا .

أما الدليل الأول والاكبر الذى ترتكن عليه النيابة فى تحقيقها ومرافعتها فهو من أغرب ما رأينا من أبواب التدليل تقول النيابة أن عبارة الرجعية تعنى جلالة الملك ولماذا ؟! لانها لا يمكن أن تعنى الا جلالة الملك ... وهنا يتساءل العقاد أيضا لماذا هذا والعبارة عامة لا ذكر فيها لشخص معين ؟! فتجيب النيابة بصوت الظافر المنتصر « نعم . فان عدم ذكرك لشخص معين هو الدليل على انك تقصد صاحب الجلالة الملك ! » . لعلكم تظنون اننى اخطأت فهم عبارات النيابة ، ولكنى أوفر على حضراتكم الدهشة فأتلو عليكم نص عبارتها بالحرف الواحد كما وردت فى مرافعتها أمام قاضى الاحالة فى صفحة ٥١ من الدوسيه « أن المقالات التى كتبها الاستاذ العقاد خاصة بالرجعية والرجعيين كلها منصبة على جهة واحدة وهى حضرة صاحب الجلالة الملك ، ولا يمكن أن يستفاد منها أى جهة أخرى ، وكما قدمنا انه اذا كان للاستاذ العقاد أن يذكر جميع الاشخاص الذين اقتضت ظروف المقالات وسياق عباراته أن يذكرهم فان احجامه عن ذكر من يقصده بعبارة الرجعية بالذات لأكبر دليل على انه يقصد حضرة صاحب الجلالة الملك ، اذ انه ما كان هناك مانع يمنعه من تخصيص الرجعية والتنويه بأسماء أصحابها اذا كان يقصد جهة غير صاحب الجلالة الملك ... » .

هذا هو دليل النيابة الأكبر كما تسميه فلعمرى ما هو الاصغر ! بيد أن هذا الدليل فضلا عما فيه من تنافر منطقى يسميه المنطقيون Petita Principi أو التدليل على التهمة بالتهمة فهو تدليل لا يتفق مع الواقع فى شىء وذلك للأسباب الآتية :

أولا — ان الرجعية هى من العبارات المصطلح عليها والتى تستعمل لذاتها فيفهم الناس مدلولها بمجرد الاطلاع عليها من غير حاجة الى تعيين اشخاص او نظم مثلها فى ذلك مثل عبارات الديمقراطية والاريستوقراطية والديماجوجية والاستعمار ـ الخ . وليس أدل على ما ذكرنا من تعريف الاستاذ العقاد نفسه للرجعية فقد سئل منذ أول التحقيق عن المعنى الذى يقصده من كلمتى الرجعية والرجعيين فى مقالاته فأجاب من غير تردد بما يلى ـ صفحة ٢٩ .

« الرجعية هى مجموعة عوامل مختلفة ، تكره التقدم وتدعو الى الجمود على القديم فى كل شىء ، سواء كان سياسة أو اجتماعا أو تفكيرا وهى قديمة العهد فى مصر بطبيعة تكوينها ولها مظاهر تبدو به فى كل ظرف من الظروف فى تاريخ النهضة المصرية » .

« وفى السياسة يوجد رجعيون يكرهون الدستور ، ويشيعون عنه اشاعات باطلة ، ويستعينون على هدمه بطلاب المصالح الشخصية ، وقد كان هؤلاء الرجعيون موجودين فى مظهر من المظاهر قبل خمسين سنة ... » .

يضاف الى ما تقدم أن عبارة الرجعية هى عبارة جامعة ولا تعرف كلمة غيرها تدل دلالتها على العناصر المختلفة التى تحارب الدستور ، فليس من الحق أن نحصر محاربة الدستور فى طبقة من الطبقات ، أووزارة من الوزارات ، أوحزب من الاحزاب ، والوزارة الرجعية الحالية سبقها غيرها وقد يتبعها مثلها . وكذلك تكوّن حزب رجعى جديد وسبقه غيره من قبل ، وقد يليه آخر من بعد ... وهكذا دواليك .

ثانيا ـ انه بخلاف ما تدعى النيابة فان الاستاذ العقاد عين فى مقالاته الاشخاص والهيئات الذين اشار اليهم بالرجعية والرجعيين ولم يذكر جلالة الملك ، ولم يشر اليه بحرف واحد ، وفى ذلك دليل قاطع يدحض اقوال النيابة ، بل وفيه دليل نفى لنا يهدم التهمة من اساسها ، خذوا حضراتكم مقالات العقاد التى هى موضوع المحاكمة والمقالات التى كتبها قبلها وبعدها بأيام قليلة ، ولم تر النيابة مصلحة لها فى تقديمها ، ففيها جميعا ترون ان المتهم اشار فعلا الى اشخاص الهيئات ووصفهم بالرجعية ، مع انه كان فى غنى عن هذا التعيين ، اذ ان عبارة الرجعية تشير بذاتها الى مدلولها كما سبق ان ذكرنا ، أشد من ذلك وأقوى فى التدليل انه لم يقتصر على تعيين الرجعيين بل استبعد منهم صراحة القصر ورجاله ، وهو دليل نفسى قاطع لا ندرى كيف اجترأت النيابة على رفع الدعوى مع وجوده صريحا ناطقا .

واليكم الادلة التى تثبت ان العقاد لم يعن بالرجعية جلالة الملك بل اشخاصا وهيئات اخرى عناهم بالذات .

١ ـ استبعاد القصر صراحة فى مقاله المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وهو من المقالات موضوع المحاكمة ، يقول الاستاذ العقاد ما يلى صفحة ٩ من الدوسيه :

« ايها الرجعيون الذين ما طلبوا الاستقلال لهذا البلد يوما ، ولا يطلبونه الان ولن يطلبوه ، ولن يكون لهم شأن فيه لو استقل كل الاستقلال ، وخرجت منه قوة المستعمرين ، ايها المنافقون ... ليس من الاستقلال ان تطلبوا مسخ الدستور فلا تستطيعوه ، فقولوا لنا هل من الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فلا تزالون توقعون بينه وبين اللورد جورج لويد حتى يتعرض للقصر فيأمر بنفى هذا الموظف منه الى خارج البلاد ؟

ليس من الاستقلال ان يحال بينكم وبين اذلال المصريين فهل من الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فتلجأوا الى اللورد جورج لويد لينتقم لكم منه ويأمر بابعاده عن وظيفته ويتعدى بذلك على استقلال القصر فضلا عن استقلال الحكومة المصرية » .

اذن الاستاذ العقاد يفرق بين الرجعيين والقصر ، بل واكثر من ذلك واشد فهو يقول ان الرجعيين اعداء القصر ، لانهم لجأوا الى اللورد لويد ليعتدى على استقلال القصر بابعاد حسن نشأت باشا .

الرجعيون يعتدون على استقلال القصر ومع ذلك تقول النيابة ان الرجعية والرجعيين هم جلالة الملك دون سواه .

حقا ان للنيابة طريقة فى التدليل يقصر عنها الفهم ...

اما الرجعيون الذين عناهم الاستاذ العقاد هنا فظاهر انهم الوزاريون ، او انصار الوزارة الحالية ، الذين دعاهم تارة بالرجعيين ، وتارة بالمنافقين ، واخرى بالمستهترين بالاستقلال ......الخ .

٢ ـ الرجعيون او الرجعية هم الوزارة الحالية ـ جاء فى مقال ٢١ سبتمبر تحت عنوان « سيعدل الدستور » عبارات صريحة تدل على ان المقصود بالرجعية هم الوزراء الحاليون ، فمثلا فى صفحة ٢١ من الدوسيه « فاذا كان امل القوميين الوحيد ان تسقط وزارة العمال وتخلفها وزارة المحافظين ، فالامل بعيد والمحافظون لا يعكسون مجرى السياسة المصرية راسا على عقب بغير سبب الا ان الرجعيين يريدون عكس الامور » .

اذن فالرجعيون هم القوميون او الوزراء القوميين كما كانوا (وكان فعل ماض) يدعون انفسهم .

وفى مواضع اخرى من المقال صفحة ٢٢ يقول الاستاذ العقاد بصريح العبارة « ولو كان الانجليز يريدون تعطيل الدستور اليوم لاستطاعت الوزارة القومية ان تعلن التعديل من اشهر مضت ، ولم تعمد الى التأجيل والتسويف ، فموقف الوزارة ظاهر لا لبس فيه . موقفها هو موقف من يريد ارغام الامة على ما ترفض وارغام الانجليز على تسخير قوتهم فى هذا البلد وفى خدمة مطامع الرجعيين ، ولا نفسر الامر الا بهذا التفسير فالرجعيون لن يقووا على المساس بالدستور بغير قوة الانجليز ... الى ان قال : اف وسع احد ان يزعم لنفسه فضلا عن زعمه لغيره ان وزارة كالوزارة الحاضرة كانت تستطيع ان تجابه الامة كلها لو لم يكن فى مصر جيش احتلال » ... الى ان قال « ولسنا ندرى وحق الرجعية ماذا يغضب هذه الرجعية من الدستور الحاضر .. وهى تزعم ان كل ما صنعته داخل فى حدود الدستور فتعطيل مجلس النواب واغلاق الصحف وفصل القضاة الذين لا يحكمون بما يراه وزير الحقانية وقتل الناس بالمئات فى الطرقات ... كل اولئك فيه مخالفة للدستور » .

اذن بالرجعية هنا يشير العقاد صراحة الى الوزارة واعمالها التنفيذيـة ، من غلق الصحف ، وفصل القضاة ، وقتل الناس الخ ، كل هذه الامور من اعمال الوزارة ولا ريب وكأن العقاد اراد ان يزيل كل اثر للريب فى ذهن القارىء فقال فى ختام مقاله « اننا لا نريد مسخ الدستور وهذه هى القضية كلها بلا مواربة ولا تحوير ، فاذا قام اسماعيل صدقى يريد مسخ الدستور وقام الانجليز يأبون عليـه ما يـريد فليس معنى ذلك ان مسـخ الدستور اصبح واجبا وطنيا » .

وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب . فالرجعية التى عناها العقاد هى اسماعيـل صدقى ووزارته ولا شأن لشخص الملك فيها .

وليس الامر مقصورا على هذا المقال وحده . ففى عدد ١٠ سبتمبر صفحة ٧ من الدوسيه اشارة الى ان الرجعية هى الوزارة اذ جاء فى اول المقال « اذا كان للرجعيين اليوم لسان يستطيع ان يلفظ بكلمة الاستقلال ويقول هذا من شأنى وهذا ليس من شأنك فليذكر هؤلاء الرجعيون ان الاستقلال لمصر لا لهم » وفى هذا اشارة الى خطب صدقى باشا ودعواه العريضة بأنه تمسك باستقلال البلاد فى رده على مكدونالد .

وأكثر من ذلك ففى مقال نشر فى ١١ سبتمبـر سنة ١٩٣٠ وهـو ليس من المقالات موضوع المحاكمة اشار العقاد الى الوزارة الحالية بعبارة الرجعية اذ قال « فى الايام الاخيرة كثرت الحركة بين جماعة القانونيين الذين تعتمد عليهم الرجعية فى الفتـاوى والتعديلات وتضييق الثياب الفضفاضة وما الى ذلك من المهام ، فشوهد بعضهم يتنقل مرارا بين القاهرة والاسكندرية ، ويحظى بالمقابلات ، ويعود بالاشارات والتعليقات . ما

الخبر ؟ قال الوزاريون ان الوزارة تتأهب لامر خطير جسيم . امر فيه مفاجأة للمصريين والانجليز على السواء ، قالوا انه شيء يمس الدستور وقانون الانتخابات » الى ان قال « ثم جرت مقابلة مستر هور ووزير الحقانية وبعض الرجال القضائيين » .

وهذا صريح فى ان الرجعية التى اعتمدت على الرجال القضائيين هى الوزارة الحالية ثم جاء فى مقال القضاء بتاريخ ٣١ اغسطس سنة ١٩٣٠ وهو ليس فى المقالات موضوع المحاكمة ما يأتـــــى :

« ان صدقى باشا وجماعته كثيرو التعويل على حزب المحافظين لانهم مستعمرون لا يريدون لمصر الا ما يراه لها (الرجعيون) » .

فالرجعيون هم اذن صدقى باشا وجماعته من غير لبس ولا غموض .

وكذلك فى مقال نشر فى ٢٨ اغسطس يقول العقاد كلام طويل عن الوزارة الحالية « اذن ليس فى الامر عشر سنين ولا عشرة اشهر . لقد علم القوم مصيرهم القريب ، وعلموا انهم زائلون ، والحكم للدستور غدا لا للرجعية والطغيان » .

والزائلون هم الوزارة ، ولن يكون الحكم للرجعية بعد زوالهم ، وهو صريح فى ان الرجعية هى الوزارة ، وهناك مقال هام بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ (اى فى اليوم التالى لمقال ٢١ سبتمبر الذى تحاكمنا عليه النيابة) وفيه اشارة وقاطعة الى ان العقاد يقصد بالرجعية الوزارة الصدقية واليك ما جاء فيه بعد كلام طويل عن سياسة الوزارة « هذه هى سياسة الوزارة القومية التى تسير عليها فى هذه الايام فى سياسة الامة الشيء الذى نحمد الله عليه . ان الازمة الحاضرة وضحت كل شيء ، فلم تدع موضعا للمغالطة والتمويه ، فالرجعية مكشوفة كشفا لا يستره دثار ولا حجاب ، والانجليز اذا لم تكن سياستهم اليوم مكشوفة كل الكشف ، فانهم لا محالة ينكشفون تماما متى علم المصريون ان الوزارة الصديقة استطاعت ان تمضى فى مسخ الدستور ، ووضع القانون الجديد للانتخاب ، فيتضح يومئذ ما هو مشكوك فيه ، ويتبين للامة ان الغرض من كل انتخاب مقبل هو التواطؤ بين الانجليز والرجعية على تمزيق الامة وهدم دعائم الدستور » .

اذن فالرجعية مكشوفة كشفا لا يستره حجاب . هى الوزارة الصدقية كما يقول العقاد بصريح اللفظ .

٣ ـ الموظفون الرجعيون :

فى مقال مؤرخ فى ٢٦ سبتمبر وهو ليس من المقالات موضوع المحاكمة يقول الاستاذ

العقاد » اذن ليس فى هذا المرسوم الا انه يدل الناس على تزعزع الوزارة وقلة اطمئنانها على مركزها ، وخوفها من ان تخلفها بعد سقوطها وزارة حرة لا ترضى عن الموظفين »

اذن فالموظفون يدخلون ضمن الرجعيين فضلا عن الوزارة والوزاريين فكيف تقول النيابة ان العقاد لم يعين المقصود بالرجعية ؟ . ولكن هناك هيئات اخرى ذكرها العقاد وعينها تعيينا كما سترون .

٤ ـ بعض الصحف الرجعية :

ذكر العقاد فى مقال مؤرخ يحمل فيه على جريدة المقطم ما يأتى : « والمقطم جريدة الرجعية للرجعيين » .

اذن فبعض الصحف المعينة دخلت فى معنى الرجعية كما ارادها العقاد .

٥ ـ الرجعية قبل الاحتلال :

لم يكتف الاستاذ العقاد بالاشارة الى الرجعيين الحاليين بل عنى بعبارة الرجعية اولئك الذين وجدوا قبل الاحتلال فقال فى صريح اللفظ فى المقال المنشور فى ٢٤ سبتمبر صفحة ٢٥ من الدوسيه ما يأتى « ان مصيبة الرجعية على هذا البلد اكبر من مصيبة الاحتلال ، فانها هى التى مهدت له واستعانت به واوقعت البلد فى البلاء الذى ادى اليه ، فلولا كراهية الدستور القديمة فى نفوس هؤلاء الرجعيين ، ولولا التكبر عن الاعتراف للفلاحين العبد بالحرية والحكومة العصرية لما حدثت تلك الاحداث التى نعانى جرائرها الى اليوم » .

فهل هناك دليل نفى اقطع من هذا الدليل ، ان العقاد يقول ان الرجعية موجودة قبل الاحتلال ، وهى التى مهدت له بسبب كراهتها للفلاحين ، وهو يشير بذلك الى الضباط الشراكسة والاتراك الذين قاومهم عرابى ، فهل تقول النيابة بعد ذلك ان الرجعية يقصد بها شخص جلالة الملك فى الوقت الذى يقول فيه العقاد ان الرجعية هى التى مهدت للاحتلال البريطانى .

٦ ـ الرجعيون هم الاحزاب المعادية للوفد والدستور :

نذكر على سبيل الاستئناس ما جاء فى خطبة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ونشر فى المؤيد الجديد بتاريخ ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٠ فقد قال « اذن فيضع الرجعيون العقبات فى الطريق . لقد قالوا قبل اليوم : ان الدستور لا يصلح لهذه الامة لانه ثوب فضفاض ، وانها غير جديرة به ، ولذلك اوقفوا الدستور وعطلوه علانية ، وكانوا فى عملهم جريئين صريحين ، فكان النضال جريئا وصريحا بين الامة والدكتاتورية . اما

الان فان الرجعيين لا يستطيعون مواجهة الحقيقة ، ولا يجرؤون على ان يصرحوا بحقيقة خطتهم ، فهم يزعمون انهم دستوريون ولا يحيدون عن الدستور » .

ومن ذلك نرى ان رئيس الهيئة التى ينتمى اليها الاستاذ العقاد فهم بالرجعية حزب الوزارة الحالية والاحزاب الاخرى التى عطلت الدستور من قبل .

ومن هذا القبيل ما جاء فى المقال الافتتاحى فى المؤيد الجديد بتاريخ اول سبتمبر ١٩٣٠ تحت امضاء « ابو فصاده » .. (ثم الم يسبق قبله طلاب الحكم من الرجعيين الاتحاديين النشأتيين ومن ساعدهم فى ذلك من فئة المستوزرين) اذن فرئيس الهيئة التى ينتمى اليها العقاد وكتاب الصحيفة التى يكتب فيها العقاد لم يفهموا من عبارة الرجعيين الا خصومهم السياسيين من الاحزاب الاخرى . وهو دليل نذكره فى باب الاستئناس حتى لا نترك مجالا لقائل بعد الادلة الخمسة التى ذكرناها والتى تقطع بشىء واحد هو ان الرجعية لا تعنى ولا يمكن ان تعنى الذات الملكية المصونة .

وفوق ما تقدم فان لدينا دليلا ايجابيا من مقالات كتبها الاستاذ العقاد تدل دلاله على ولائه للعرش ولشخص الجالس عليه ، فقد جاء فى مقال له بجريدة كوكب الشرق بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ وهو يوم استقالة دولة النحاس باشا .. ما ياتى : « ويلوح لنا أننا فى غنى عن القول ان حماية الدستور مصلحة عامة لكل من فى مصر ، من أرفع مقام الى أصغر صغير فى سواد الجماهير ، فلا ننسى ان جو الانقلاب قد شجع اناسا من أصحاب المآرب على الطمع فى المقام الارفع ، والسعى هنا وفى اوربا لتحقيق ما يطمعون فيه ، وكان دعوتهم الى عقد الجمعية التاسيسية احدى الخطوات التى رتبوها لبحث فى نظام الحكم من جديد ، والتدرج من هذه الخطوة الى ما وراءها حسب ما يشتهون ، وحسب ما تخيل اليهم الاحلام . ولم يحدث شىء من هذا قط فى عهد الدستور ، ولا يعقل ان يحدث فيه يوما لانه العهد الذى يقوم على النظام وحماية اصغر الحقوق فضلا عن الحق الاكبر الجليل » .

وجاء فى كوكب الشرق فى ٥ يونيو ١٩٣٠ فى مقال الاستاذ العقاد ما ياتى : « فحماية الدستور ضمان لا يكرهه فى الحقيقة الا الخوارج من أعداء الحياة النيابية ، وأعداء العرش والنظام ، وبهذه الحماية تحقق كل رغبة كبيرة بالرعاية والتحقيق ، وفى مقدمة ذلك رغبة صاحب الجلالة الملك التى اعرب فيها للكاتب الالمانى اميل لودفيج وترجمتها الصحافة المصرية قبل بضعة اسابيع . فجلالته يعتقد ان هذه الامة لا يمكن ان تحكم بغير الرقابة البرلمانية ويبدى ارتياحه لخلاص مصر من ذلك الشىء الذي كان يسمى

بالدكتاتورية . هى رتبة سامية يعبر عنها القانون المسنون لحماية الدستور أحسن تعبير » .

اما رواية اكبر راس فى الدولة التى دستها النيابة فى مرافعتها امام قاضى الاحالة بأن قالت « ولكن المقالات قد حوت اكثر مما يظن وابلغ فى الاجرام ، وهو المساس بأكبر رأس فى الدولة ... تلك العبارة التى اذا قيلت لا يمكن ان تنصرف لاى شخص غير شخص جلالة الملك » ـ فليسمح لى حضرة رئيس النيابة بان دسه لهذه العبارة فى مرافعته انما هو استغلال غير نزيه من جهة وغير مبنى على اى اساس من الحق او الواقع من جهة أخرى .

فبفرض ان العبارة قيلت فى مجلس النواب بالشكل الذى قيلت به ، فليس للنيابة قانونا ان تستعملها ضده كدليل ، او بأى طريقة من الطرق ، اذ ليس لها ان تحاكمه عليها طبقا لنص الدستور ، هذا فضلا عن ان العبارة كما روتها النيابة ليست صحيحة وانى اتلو عليكم ما جاء فى كوكب الشرق من مقال فى هذا الصدد ... ونشره الكوكب فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ :

« ان البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس يخون الدستور . هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانون والدستور ، فان مصر دولة ملكية دستورية تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر ، وتعد حماية الدستور لها فريضة لا تنسى ، وواجبا اقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء » ..

وهذا صريح فى ان العقاد لم يشر بتلك العبارة الى جلالة الملك ، بل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الدستور ، وقد سبق ان ذكرنا ان شخص الملك غير مسئول عن مثل هذا الاعتداء ، اذ المسئولية تقع على عاتق الوزراء .

الرد على اعتراضات النيابة :

وهنا تكلم الاستاذ مكرم بك طويلا فى الرد على بعض اعتراضات النيابة ، واهمها قولها ان الدستور منحة فدلل على ان الدستور حق من حقوق الامة رد اليها ، واستشهد على ذلك بنص الدستور على ان الامة مصدر السلطات ، وبالمادة ١٥٧ من الدستور التى تحرم تعديل الدستور من غير اشتراك الملك والبرلمان معا ، واشار الى تعليق وزير الحقانية فى سنة ١٩٢٣ الذى جاء فيه « ان الدستور فى يد جلالة الملك وانه رده الى شعبه واخيرا فان المادة ٧٨ عقوبات تعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة او المؤقتة كل من اعتدى على الدستور بالقوة ، ثم رد الاستاذ مكرم على قول النيابة بأن العقاد مسئول عن مقال

(ص) وبين ان الاستاذ العقاد قرر صراحة موافقته على الرأى دون الوقائع المفصلة فيه ، اذ من غير المعقول ان تنصب الموافقة على الوقائع مفصلة . هذا فضلا عن ان الوقائع المذكورة لا تشير الى شخص جلالة الملك ، بل تشير الى وزارة نسيم باشا وحسن نشأت باشا وحزب الاتحاد » .

ثم استطرد الاستاذ الى الرد على اعتراض النيابة الخاص باحراج الوزارة ، وقال ان الاحراج لا يأتى من الملك ، فلجلالته اقالته او قبول الاستقالة اما الاحراج فيأتى من الاحزاب المعارضة ، او من الطامعين فى الوزارة المقبلة ان من حملات صحفية او حتى من رجال الراى كما قال عبد العزيز باشا فهمى عن نشأت فى سنة ١٩٢٥ ، من ان هذا الاخير يحرج الوزارات ، بل ويعطل الدستور ، اذن فعبارة الاحراج لا تنصرف الى جلالة الملك بل ولا يليق توجيهها اليه . ورد الاستاذ على ملحوظة النيابة الخاصة بأذناب الرجعية وقال ان العبارات التى وردت فى مقال العقاد عن الرجل المشهر العرض المهتوك السيرة لا تنصرف الى رئيس الوزارة الحاضرة على التعيين كما تقول النيابة فانه بين الموظفين الذين رفتوا واعيدوا من قد تنطبق عليه هذه العبارة ، ثم ان الاستاذ العقاد ذكر هذه العبارة من باب التحليل بدليل انه اشار الى الرجل المعتوه الخامل النكرة والمجرم والمحكوم عليه والسارق والاوغاد والانذال باعتبار انهم جميعا أذناب الرجعية ثم قال الاستاذ مكرم :

القسم الثالث
التكييف القانونى للتهمة

ياحضرات المستشارين :

انى كمحام يمت الى القانون بصلة وثيقة شريفة هى صلة الدفاع عن العدالة مستمدة من نصوصه ، مستنبطة من أحكامه ، أرانى فى حيرة كيف اوفق بين التهمة كما تفهمها النيابة والقانون كما افهمه .

فلقد ارتكبت النيابة خطأ مزدوجا . فمن حيث التكييف القانونى فانها اولا عمدت الى التأويل والتخريج ، مما تنبو عنه قواعد قانون العقوبات العامة ، وثانيا وهو المهم فان جريمة العيب فى الذات الملكية لا تقع من طريق التلميح او من اى طريق غير مباشر .

وهنا تلا الاستاذ صفحة ٩٥٦ من كتاب التشريع السياسى وقال ان ما كتبه عبد العزيز باشا فهمى فى هذا الصدد اعتبر كأنه مذكرة تفسيرية فى مادة العيب فى الذات الملكية ، وعبد العزيز باشا يقول انه عندما كان وزيرا للحقانية طلب اليه ان يضيف الى المادة ١٥٦ من قانون العقوبات الخاصة بالعيب فى الذات الملكية العبارة الآتية وهى : « سواء كان العيب مباشرة او غير مباشرة . تصريحا او تلميحا » ولكنه اعترض على ذلك بشدة وانتهى الامر بأن عدل من هذه الاضافة .

فما معنى هذا العدول · لا معنى له الا ان المادة بنصها الحالى تنفى بتاتا ان العيب من باب التلميح او من طريق غير مباشر ، فاذن ما كان يصح للنيابة قانونا ان ترفع هذه الدعوى ، لانه ما كان يصح لها ان تلجأ الى التفسير والتأويل فى مادة العيب التى يجب ان يكون فيها العيب صريحا ومباشرا .

وفوق ذلك فان العيب على صراحته يجب ان يكون موجها لذات الملك ، وهنا استشهد الاستاذ مكرم بكتاب باربيه فقرة ٢٣٨ صفحة ٢٤٢ وبكتاب أحمد بك أمين صفحة ١١١ .

كلمة ختامية[1]

ياحضرات المستشارين :

لقد شاءت النيابة وشاء لها فهمها الخاطىء للاوضاع الدستورية والقانونية واللغوية ان تجعل من الدفاع تهمة ، ومن الحق جريمة ، فساقت الى المحكمة رجلا اراد ان يدفع غائلة الاذى عن حقوق بنى قومه ، فكان مثلها فى ذلك مثل من يترك الجانى ملبسا بجريمته ، ويأخذ المجنى عليه ان استصرخ القوم لنجدته .

لقد تبين لكم صراحة ان عباس العقاد الكاتب وعباس العقاد النائب لم يعب ، وما كان له ان يعيب فى الذات الملكية التى هى ذات مصونة طبقا لاحكام الدستور الذى كان يقاتل فى سبيله ، وفوق ذلك فان المقالات التى كتبها فى كوكب الشرق تدلكم على مقدار اجلال العقاد لذلك المقام السامى .

---

١ ـ يبدو هذا الجزء من دفاع مكرم عبيد غامضا لانه يتصل ببعض مانشرته الصحف فى مصر ولبنان حول قضية العقاد سنة ١٩٣٠ .

ولقد عانى العقاد كثيرا فى سجنه حتى ساءت صحته الى حد خطير . وعبثا شكا امره الى النيابة فما كان لشاكيه ان ينتصف لشكواه او يرق لبلواه ، ولكن مثل العقاد يقع ولا يضرع ، ويتألم ولا يجزغ ، ولذلك صبر وتأسى ، وكأنه يقول لنفسه :

كل شيء لضده يتحول فالزام الصبر اذ عليه المعول

والحمد لله فقد انتهى صبره اليكم ، وسينتهى الظلم على يديكم ، فقولوا كلمة العدالة فانا لها لمرتقبون ومنتظرون .

رواية تروى عن احد القضاة انه سمع مرافعة احد المحامين وكانت خارجة عن الموضوع ، فانتهى بأن قاطعه وقال : حكمت المحكمة ببراءة المتهم لغير الاسباب التى بينها الدفاع :

وانى لاضيق ذرعا بالمرافعة ، بل اقول انى اطلب البراءة للاسباب التى ارتكنت عليها النيابة واؤكد ايضا فيما تقوله النيابة انه غير معقول ، فانا اقول ايضا انه غير معقول وان كانت النيابة قد ارتكنت على الاسباب التى جاءت بها فنحن نلاحظ اولا ان النيابة قد اتجهت الى القضية اتجاها جديدا ، او ان القضية اتجهت بالنيابة الى جهة لم تكن فى الحسبان ، وانى اخشى ان السفينة التى تتقاذفها الامواج وزجتها النيابة بين تيارات متعارضة قد صارت من غير ربان ، فان النيابة فى مرافعتها الاولى كانت ترتكن على تأويل وتعسف فى التأويل ، اما الان فقد انتقلت من تعسف فى التأويل الى تعمق فى التفصيل ، الى حد ان السفينة كادت تغرق فى بحر من التفصيلات .

ان التهمة لا تؤخذ من سطر او كلمة او نهر ، بل تستخرج من مجموع المقالات ، وباب التخريج مفتوح على مصراعيه ، فاذا دخلنا من مدخل خرجنا من مخرج ، ويظهر ان النيابة قد افسحت لنفسها المجال ، حتى تجد امامها سبيلا الى الاتهام .

ما الذى استجد فى القضية : عرض للمحكمة ان تطلع على جريدتين اشير اليهما فى مقالات العقاد احداهما جريدة الوادى والثانية جريدة الاحرار .

وقال الاستاذ من تلقاء نفسه ولم يكن هذا معلوما للمحكمة ولا للنيابة .. هذا الحديث وضع تحت عنوان معين ، وانا اعترضت عليه ، وطلب استدعاء الشاهد ، كل هذا حصل بطريقة جدلية طبيعية لا محل للريب فيها ، ثم جاء الشاهد واطلعنا على المقالات فما الذى تريد ان توصلنا النيابة اليه اليوم فاننا قد ازلقنا فعلا من البحث فى نية الزحلاوى وعبد الحميد حمدى وانتقلنا الى البت فى مقالات اخرى .

واغرب من هذا وصلنا بطريق ملتو معوج الى الكلام فى مسألة اكبر رأس التى استبعدتها المحكمة استبعادا وهو غير معقول وليس محلا للبحث .

ولكن هناك عناية تلحظ الابرياء من السماء ، هناك عين ساهرة على مصير الابرياء ، وهي التي الهمتكم ان تطلبوا جريدة العقاد ، والهمت العقاد إن يطلب الجريدة ، ولكني سأتقدم اليكم بالدليل المادي على صدق الزحلاوي..

أريد ان اختصر الطريق عليكم وان اجابة الاتهام وجها لوجه وأن اناقشهم على أسوأ الفروض حتى ننتهي . نفرض ان الزحلاوي على اسوأ فرض اساء فهم اقوال العقاد ، وانه فهم ان العقاد يقصد جلالة الملك ، فهل يعتبر الزحلاوي حكما بيننا وبين النيابة . هل هناك خبراء فنيون يا حضرات القضاة .

ولكني لما قلت لحضراتكم ان العناية الربانية ساقت لنا هذا الدليل من حيث لا ندري كنت انتظر ان الحديث سيكون قاصرا على ما جاء بالمؤيد الجديد ، وقد فسره كل حسب مصلحته ، ولكنه تبين في الحديث ما يفسر معنى الرجعية ، وما لم يأت في جريدة المؤيد نفسها مرت عليه النيابة وتركته ، ولو قرا النائب هذا الكلام بامعان لتبين ان المقصود بالرجعية هي الوزارة ، وتبين ان العقاد خصم عنيد للوزارة .

وما جاء في الحديث ان الازمة ستنتهي حالا ، وأن الوزارة الحالية لا ولن تعتدي على حكم البلاد ، ولاسيما بعد ان فشلت الوزارة فشلا كاملا في سياستها الاقتصادية ، فاذن هذا معناه ان العقاد يقصد بالرجعية الوزارة دون غيرها .

ثم تكلم عن التعليق والعنوان فقال :

اما العنوان فهو من عمل الجريدة . لها خطة معينة في العناوين : النحاس باشا يكشف عن صدره ويقول للبوليس اطعنوني بحرابكم ـ فهذا عمل صحفي يقصد به لفت النظر ، فاذا كان زحلاوي وضعه فلا ينتظر ان يستشار العقاد في اختيار العنوان .

ثم نعود الى التعليق . ما الذي عناه هذا الشاهد لو ان هذا طعن في جلالة الملك . هل تكون اشياء جديرة بالنشر . ولكن الامور مرهونة بأوقاتها . ويريد تشويش القارىء ولفت النظر . واقص عليكم من ذلك ان الجرائد كانت تكتب عناوين مهولة ودعوت لذلك بعض الصحفيين وافهمتهم ، فقال احدهم ان الاستاذ مكرم يبتسم وان ابتسامته هذه تخفي معنى ، وقال آخر انه أطال في الحديث ، وكل يفسر على هواه ما يريد ، ولكل جريدة عقليتها ونفسيتها ، ومسألة الدكتور حامد عاد لان السيدة والدته مريضة ، ويريد القدر ان تنتقل الى رحمة مولاها . ولكن الجرائد ذات الغرض لا يهمها ذلك فلماذا تتصرف تلك الكلمة . كلمة اكبر راس الى جلالة الملك . ولكن سنقدم لحضراتكم الدليل القاطع وبعد الاطلاع عليه ستقولون كلمتكم الحازمة ببراءة هذا المتهم .

ثم نعود الى ما قاله الشاهد اولا انه قال انه ارسل تكذيبا بلسان العقاد لما نشر فى المقطم ، وثانيا طلب منه ان يعترض على هذا العنوان وفعلا ارسل للجريدة بذلك ، ولنقدم اليكم التكذيب وهو منشور فى عدد ٢٠ يونيو . وقالت المقطم عن السياسة ان العقاد قال فى مجلس النواب ان المجلس مستعد لسحق اكبر راس فى البلاد ... الخ . وبتاريخ ٢٤ يونيو وهو الموعد الذى نشرت فيه الاحرار مقالا تحت عنوان « ماذا يقول العقاد » واليكم ما جاء فيه : تجاوزت فى احدى رسائلى السابقة عن ذكر ما جاء ببعض الخطب النارية ، وعمدت الى محاضر مجلس النواب ، فقد انفردت جريدة السياسة بذكر كلمة « اكبر راس » وقد علقت عليها الجريدة بنزعتها الحزبية وهى تقصد بذلك الإيقاع بين الوزارة والعرش .

وقد صدرت كوكب الشرق صباحا وهى تحمل فى صدرها مقالا بقلم الاستاذ العقاد جاء فيه ان البلاد مستعدة ان تسحق كل رأس فى البلاد .

وأظن لا يمكن ان يكون تكذيب من مراسل جريدة ونشر التكذيب بعد ان علق على ما نشرته السياسة .

اذن ثبت بالدليل القاطع ان الزحلاوى لم يكن كاذبا فى قوله : انه ارسل لجريدته تكذيبا ، وهو يفسر ما جاء فى جريدة السياسة بأنه خاص بنفى امر آخر وهو انه بعد نشر الحديث اعترض الاستاذ العقاد على بعض ما جاء به وجاء الشاهد هنا وقال ان العقاد اعترض فعلا بعد نشر الحديث وكلفه بتبليغ جريدته هذا التكذيب .

وقد يقال ما معنى انه كذب حديث المقطم ؟ ثم يعود وينشر هذا المقال بهذ العنوان ، فردا على ذلك نقول ان هذا فقط من طريق التشويق وأحببت لكى ادلل لحضراتكم على ان المراسل بطبيعته او بطبيعة عمله يضع بعض الرتوش فى الخبر الذى يرسله . واقول لحضراتكم ايضا رواية غريبة نشرها هذا المراسل نفسه بجريدة خاصة بهذه المحاكمة ايضا . وهى تبين نفسية هذا المراسل الغريبة .. وقرأ الاستاذ مكرم الفقرة الخاصة بمحاكمة الاستاذ العقاد وهى تتضمن ان العقاد لما دخل قاعة المحكمة وقف الناس اجلالا له ولما امرهم رئيس المحكمة بالجلوس امتنعوا وقالوا حتى يجلس العقاد ، وحدث اثناء قراءة هذه الفقرات ضحك من الجمهور وهذا دليل على نفسية المراسل .

وقد أرسلنا تلغرافا الى مراد بك الصلح ونفس التلغراف الى صاحب جريدة الاحرار البيروتية هذا نصه :

نشرت جريدة الاحرار البيروتية حديثا للاستاذ عباس العقاد بتاريخ ١٢ آب عدد

١٩٣٠ عنوانه « الرجل الذى هدد بسحق اكبر راس فى مصر » والعقاد يقرر ان القضية مرفوعة ضده الان وانه بعد اطلاعه على هذا الحديث اعترض على العنوان وعلى تعليق المراسل وطلب من الزحلاوى افندى مراسل الجريدة الذى اجرت معه الحديث المذكور نشر اعتراضه بنفس الجريدة . وشهد زحلاوى امام المحكمة اول امس بصحة ما قرره العقاد لنشره فى الاحرار ولكنه لا يعلم هل نشرته الجريدة ام لا لمنع دخولها مصر . والمحكمة مهتمة بمعرفة هل نشر الاعتراض والمرجو تحرى الامر والتفضل بارسال تلغراف اليوم باسمنا بالنادى السعدى ، وافادتنا هل نشرت الجريدة هذا الاعتراض وما نصه وتاريخه فان لم تكن نشرته فهل وصلتها رسالة من مراسلها عن هذا الاعتراض والضرورة تقضى بارسال الرد تلغرافيا حيث يصلنا اليوم لان آخر جلسة غدا صباحا وانى على كل حال انتظر ردا من حضراتكم وتفضلوا بقبول عظيم شكرى واجلالى . مكرم عبيد المحامى .

وجاء الرد وهذا نصه : النادى السعدى تسلمت من مكاتبنا فى مصر اعتراضا على حديث العقاد للاحرار ـ وعلى تعليق الكاتب ولكن قلم التحرير صاحب الشأن المطلق فى وضع العناوين للرسائل ودرج ما يختار منها . لم ينشر الاعتراض يقينا من ان العبارة المتوج بها الحديث سبق ان نشرتها صحف مصر بكاملها ونسبتها ان خطأ او صوابا للعقاد وعدا ذلك فمنع « الاحرار » من دخول مصر كان سببا آخر لاهمال نشر الاعتراض وسواء من حوادث مصر اعتقادا منا ان لا فائدة من نشرها بعد منع الجريدة من دخول القطر المصرى .

خليل كسيب
رئيس تحرير الاحرار

وبعد ذلك قال مكرم عبيد بك :

أيها الرجعيون انما أنتم تعتمدون على استغلال القصر ، وكنا نعتقد ان هذا كاف لهدم التهمة من اساسها ، لكن جاءنا فوق ذلك دليل وشاهد .

اذن قد انهارت التهمة من اساسها لانه جاءنا دليل خارجى .

وختم المرافعة بقوله : تبين من مرافعة رئيس النيابة انه فى هذه المدة يتكلم بلهجة الواثق من نفسه ، وليته فطن الى المثل الانجليزى المشهور كم من عثرة بين شفة الشارب وكأسه ! والواقع قد عثر الاتهام عثرة لا مقبل له فيها وتبين ان الادلة التى ارتكنت عليها وقالت انها أدلة مادية ان هى الا ادلة مادية ايجابية لتبرئتنا .

وانى أهيب بحضراتكم ان تعلنوا حكم البراءة فى وضوح وجلال لتصونوا المتهم من هذا الاتهام المريب ، بل لتصونوا الذات الملكية من مثل هذا الاسناد المعيب .

وانه من الحرام ان يزج برجل فى السجون وأن تقام تهمة على اساس واه من التدليل والتحوير والتخريج والتأويل .

هذا عيب قانونى فضلا عن انه عيب لفظى ومعنوى .

وانا لفى انتظار كلمة العدالة واضحة صريحة لوضع الامور فى نصابها وتطمين النفوس على حرياتها .

آخرة عباس العقاد حقيقة الكاتب وما كتب

بقلم المجاهد الكبير مكرم عبيد

« جريدة كوكب الشرق - ٦ اكتوبر ١٩٣٥ »

اعتــذار

انى مدين للكثير من اخوانى واصدقائى بكلمة اعتذار ، ففى رأيهم أن مثل الاستاذ العقاد لا يصح ان ينازل او يجادل وأنه لا يليق بى ان أنزل معه الى مستوى واحد فى ميدان القلم ، فلن أنال منه الا الشتم فوق ما شتم .

هذا حق ولكنه بعض الحق .

فمن جهة أولى ، ليس فى نيتى أن ادخل مع الرجل فى حوار أو جدل بل هى كلمتى الاولى والاخيرة أوجهها - لا اليه ولا ردا عليه - بل الى الرأى العام بيانا مـوجزا عن حقيقة الامر فى الدسيسة التى اتخذت من العقاد اسما وبوقا ..

ومن جهة ثانية فمن قواعد الجدل انه اذا انتهت المناقشة الى شتائم ، فالمهزوم فيها هو الشاتم لا المشتوم .

ومن جهة ثالثة فمن الرحمة برجل فقد كل شىء وغلب فى النهاية على أمره ، أن يسمح له بالتفريج عن نفسه ، ولو بما ينفثه من صدره .

فليطمئن اذن الاصدقاء والخصوم معا .. فان لم يكن فى الشتائم ، الابراز ما فى

الصدور من سخائم ، لكفى بها جزاء موفورا للمشتوم عن اهانته وكفى بها عزاء يسيرا للشتام عن هزيمته .

خيانة

والان أعود الى الوقائع ، ففيها ابانة ، وفيها خيانة ..

أسبوع دبج فيه الأستاذ العقاد ـ بمعاونة حليفة الجديد الأستاذ عزمى ـ المقالات والشذرات والمختارات على اختلاف انواعها واحجامها وعناوينها .. ولما أشرفا على اليأس خيل اليهما ـ وللياس خيال فخيال ـ انهما قديران فى ظل السيدة روز اليوسف على هدم ذلك الطود الشامخ الذى شيده المصريون حجة بعد حجة على أعناق المجاهدين وأشلاء المستشهدين ـ ذلك الطود الذى هو الوفد والزعامة والنحاس .

ولعلهم حسبوا ان الامة لم يتم لها النضوج السياسى والفكرى بعد ، وأن عملية الهدم عندها لا تقتضى اكثر من بعض الالفاظ الضخمة والدعاوى المبهمة فراحوا ينبشون ما افتراه الخصوم قديما على الوفد ، واتخذوا من تلك المفتريات مجددة معاول جديدة للهدم والتحطيم ناسين او متناسين انهم كانوا حتى الامس القريب يسبحون بحمد من جحدوا وينكرون من الافكار ما عادوا فأكدوا ..

اليس عجيبا ان يطعن العقاد بعد مديح فى زعامة النحاس ، وصلابة النحاس ووطنيته هو ومكرم ... وهلا أدرك المسكين انه بذلك يضع نفسه بين شقى الرحى اذ لا مفر له من احد أمرين :

فأما انه كان يبغى بالمديح نفاقا .. او انه كان يبغى من ورائه اجرا وجزاء وفاقا ... كلا الامرين شر واحلاهما مر .

ومهما يكن من أمر فقد كانت خيانة ما بعدها خيانة تلك التى اقترفها العقاد « الوفدى » بما حاوله من هدم الوفد وتجريح الزعامة ـ هذا اذا صحت الدعاوى التى يدعيها ضد الوفد فما بالك وهى مفتريات حقيرة كما سيأتيك بيانا :

بل انها لخيانة ما بعدها خيانة ارتكبها بصفة كونه مصريا فقد حاول ان يخرب بيديه المعقل المصرى الاوحد ... يعلم ان الوطن المصرى مهدد بخطر الحرب الداهم ، وأن مصر بأسرها متحدة فى وفدها واقفة للانجليز بالمرصاد وتطالبهم باستقلالها وازالة العقبات من طريق دستورها .

فلو أن الزعامة انهارت ودبّ الانقسام فى صفوف الشعب بفضل جريمة العقاد ومن معه فما الذى كان يبقى لنا فى أشد الاوقات حرجا ، اللهم الا اشتاتا مبعثرة ، لا يحسب المستعمرون لمغاضبتها او محاسنتها حسابا .

وليس يخفف من وزر وخيانة العقاد وجماعته ان الوفد اعظم قوة وامنع جبهة من أن يهدمه الهادمون مهما تناصروا وكان بعضهم لبعض ظهيرا ، فالخيانة جريمة معنوية تتم بمجرد النيل ولكل خائن ما نوى ...

مدى الدسيسة

ولقد كانت الخيانة دسيسة مدبرة ، ماجورة ، واريد بها أن تكون واسعة النطاق ، لولا ان الله قد وضع فى نفوس الامة غريزة تلهم الحق الهاما ، فقتلت المؤامرة فى مهدها ، واذا كانت المصلحة الكبرى تأبى ان نكشف عن خبايا هذه الدسيسة فى الوقت الحالى فحسبى ان اقول محددا ومؤكدا ان العقاد وبعض من على شاكلته كانوا من ورائها وان من وراء هؤلاء خصوما للوفد معينين .. وبعبارة أصرح فمن الثابت اولا ان العقاد ومن معه طرف فى المؤامرة وثانيا ان وراءهم جماعة من خصوم الوفد يمولون المؤامرة بالمال وثالثا ان الغرض الاول من المؤامرة هو هدم الوفد فى زعامته وفى سياسته حتى تسقط الوزارة (1) فى فترة الصيف قبل ان تستكمل مسعاها فينتهزها الخصوم فرصة يحاولون فيها تأليف وزارة منهم ، واغلاق كل باب مفتوح وبذلك يتم الامر الواقع الذى حسبته ان ليس له من دافع .

مؤامرة خطيرة ضد أمانى البلاد ، صبغها الماكرون بصبغة التطرف ، وبذلوا فى سبيلها الجهود والنقود .

ولقد كانت هناك مقابلات واتصالات بين العقاد وبعض خصوم الوفد المعنيين ومثلها بين عزمى وبينهم .

ولدينا على هذه الاتصالات أدلة لا يتطرق اليها الشك ، ولكن واجبا اكبر يتحتم علينا كتمان ما نعرف ، وحسبنا ما يأتى من الادلة من نفس الوقائع ففيها ما يغنى عن كل دليل سواها :

---

١ ـــ المقصود هنا هو وزارة توفيق نسيم التى كان مفهوما انها تمهد لانتخابات حرة سنة ١٩٣٥ مما يؤدى الى عودة الوفد الى الحكم ... وكان العقاد يهاجم وزارة نسيم بينما كان الوفد يؤيدها .

اولا ـ قبل صدور القرار باقصاء جريدة روز اليوسف سبق جماعة ومحرضوهم الحوادث فأصدروا منشورين بتوقيع مستعار ينضحان بأقذر السباب وأكذب المفتريات ضد دولة الزعيم وضدى ، وقد وزع المنشوران على اعضاء الهيئة الوفدية واللجنة السعدية للسيدات وكثيرين من اعضاء اللجان الفرعية والطلبة والموظفين الخ .. وكان الطبع متقنا ، والتوزيع واسع النطاق ، مما دل على ان من وراء الطابعين والموزعين اشخاصا من ذوى الجيوب الرحبة الواسعة . ثانيا ـ بعد صدور قرارى الوفد بفصل الجريدة والعقاد معها ، ورأينا فى الجريدة مقالات وعناوين واطارات تتفق فى المعنى وفى اللفظ مع المنشورات البذيئة المشار اليها ، فردت المنشورات جميعها لانها هى ايضا سبق ان اخذت عن الجريدة مطاعن منقولة بألفاظها فضلا عن معانيها .

ثالثا : ولعل اقطع دليل على تآمر العقاد ومن معه انه منذ اكثر من شهر وقبل ان يعرف جمهور الناس شيئا عن الخلاف بين الوفد والعقاد صدر منشور (نمرة ١) موقعا عليه بنفس التوقيع ولقد حذر المنشور رئيس الوفد من المساس بالعقاد العظيم ، وتهجم على الزعامة مهونا من شأنها بالقياس الى « عظمة » العقاد :

أما ما خفى فكان أعظم ، وسيأتى وقت يعلم فيه الناس ما يجهلونه من اغراض الجريمة واشخاص المجرمين ... فلقد مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

من هو العقاد ؟

ليس من حقى ان اعرض لشخصية العقاد الا من ناحيتها العامة التى تهم الجمهور .

ولعلى لن اجد كبير مشقة فى تحليل الناحية العامة من شخصيته فهى تكاد تتلاشى امام الناحية الخاصة منها :

ولست اعرف فى من اعرف رجلا كعباس العقاد يرى الدنيا مركزة فى شخصه فلا يعنيه ان يضحى بكل شخص ، وبكل عاطفة ، وبكل فكرة فى سبيل شخصه ، ونزوات شخصه ، وشهوات شخصه .

ولما كان الرجل لا يرى فى كل شىء غير شخصه ، ولا عقيدة له الا فى شخصه ، فهو مسلوب العقيدة ، او فى القليل ضعيفها فى كل ما عدا شخصه ، او كل ما لا يؤدى الى منفعته الشخصية .

فهو لا يؤمن بالله ـ لا عن فكرة او دراسة ـ بل لانه سبحانه قد شاء ان يكون العقاد اقل مالا او جاها من زملائه ومنافسيه الصحفيين ـ او لانه اقل استمتاعا بنعيم الحياة من غيره ممن يراهم دونه جدارة وعظمة .. ! !

لذلك يلاحظ الناس على كفره بالله طابعا خاصا يميزه عن سائر الملحدين هو طابع الانتقام ـ فهو لا ينكر الحاده ولا يحفظه لنفسه بل يعلنه للناس حاقدا متهكما كلما احس بمرارة الفشل تاكل صدره فتراه يقسم متهكما « والله الذى لا وجود له ! » من غير داع الا الانتقام لشخصه من الخلاق العظيم وكذلك هو لا يؤمن بالوطن الا اذا اتفقت الوطنية مع مصلحته الشخصية فاذا ما تعارضتا كان اول الجاحدين بمصر والمصريين .

ولكم سمعته وسمعه غيرى يصب اللعنات على الملايين الاربعة عشر من المصريين لانهم لم يقدروا مواهبه الممتازة حتى بارت بضاعته ، وافلست جريدة مصر التى كانت تحمل هذه البضاعة الكاسدة لجمهور الناس .

وكذلك لا يؤمن العقاد بالوفد الا اذا قبض اجره من مال الوفد ... وسيرى القارىء فيما يلى ان العقاد لم يكن خلال اتصاله بالوفد الا كاتبا مأجورا يتناول الاجر دراهم معدودات ، فلما انقطع اجره ، نفد صبره ...

وكذلك لا يؤمن العقاد بزعامة او بفكرة ، وهو اليوم يكفر بالزعامة التى قدسها ، ويهاجم المبادىء التى طالما دافع عنها ، بل انه لينكر ماضيه فى سبيل حاضره ، ولا يهمه الا ان يقبض الاجر الى آخره .

ولعل أبرز صفة فى العقاد ، انه لا يؤمن بصديق أسدى اليه احسانا فما جزاء الاحسان عنده الا الكفران ، وتعليل ذلك راجع الى انانيته التى لا حد لها ، فهو يأبى ان يكون مدينا لانسان والناس له مدينون .

ولكن ليس معنى ذلك انه يرفض الاحسان ، كلا ، بل هو يقبله ، ويطالب به ... ولكنه يكفر به لاول فرصة سانحة ، وبخاصة اذا انقطع عنه الاحسان او تضاءل بعض الشىء فالويل حينئذ كل الويل لذلك المسكين الذى ينكر على العقاد انه صاحب « حق » فى الاحسان ، او ينتظر منه على الاحسان بعض الشكران ...

كان دولة الرئيس الجليل ـ حفظه الله ـ يغدق على العقاد من عطفه الشىء الكثير ، ويحسن اليه معنويا وماديا (كما سترى) ، وكنت انا المحامى الذى تطوع للدفاع عن قضيته ، ولما خرج من السجن سعيت فألحقته بجريدة مصر مقابل اجر شهرى ما كان يحلم به طوال عمره (١٠٠ جنيه شهريا) ثم لما حل الكساد بالجريدة على يديه ، وخرج منها جاءنى يبكى ويستبكى ، طالبا نفحة من مال الوفد تساعده على قضاء عطلة الصيف

على شاطىء البحر ... فمنحه الرئيس مبلغا آخر فوق ما منح (ولهذه الواقعة حكاية طريفة سيأتى بيانها) وبعد ذلك توسل بى الى العمل فى جريدة الجهاد مقابل أجر كبير – وكانت كل هذه المساعى بناء على ارشاد دولة الرئيس الجليل وعطفه عليه ، ولكن عباسَ العقاد ما كان ليقدر الفضل لاهله ، اويرد الجميل بمثله ، بل راح يقيم الدليل فى شخصه على صحة ذلك القول الخالد (اتق شر من احسنت اليه !) .

وهل تعرف ايها القارىء لماذا كانت هذه القفزة الجبارة من الاحسان الى النكران ؟ ؟ لا لسبب الا لان دولة الرئيس الجليل لم يزر عباس العقاد فى دار جريدة روز اليوسف مهنئا بعمله الجديدة ... ولأن مكرم هو شيطان الرئيس فى هذا الوزر الشديد !!

لست هازلا او ساخرا ، بل هى الحقيقة بحروفها استمدها من مقال للاستاذ عباس العقاد ذكر فيه اسباب خروجه على الوفد وفى مقدمتها هذا السبب العجيب .

أليس هو الخبل بعينه ؟ نعم وفوق الخبل ...

ولكن يخطىء من يظن ان عباس العقاد هو مجرد رجل مغرور – كلا بل هو ايضا وبوجه خاص – رجل مأجور ! واليك البيان الحاسم :

مأجـور !

بدأ العقاد حياته العامة ، وحياته الصحفية ، بمراقبـة الصحف المصريـة تحت اشراف السلطة العسكرية البريطانية اثناء الحرب العظمى .

ولما كان العقاد امينا على الدوام لذاته ، لم ير مانعا من ان يعمل لمصلحة بطنه ، بدلا من مصلحة وطنه ، والفارق يكاد لا يذكر بين المصلحتين فلهذا أجر ولتلك اجره – اما الاجر فعلى الله ، وأما الاجرة فعلى الناس ، وفى متناول الناس ! ! .

ولكن اذا كان عجيبا ان يقبض العقاد أجرا فى مقابل رقـابة للصحف المصـرية وخـدماتـه للسلطة العسكرية البريطانية ، فأعجب منه ان يتقاضى العقاد أجرا من الوفد المصرى فى مقابل خدماته للامة المصرية ! ولكن هذا العجب هو الواقع الذى وقع ، والى القـراء بيانه :

كان عباس العقاد هو الكاتب الوحيد الذى يتناول من الوفد « أجرا شخصيا » او مرتبا شهريا مقداره ثلاثون جنيها !! وكان يقبض هذا المرتب طوال حياة الزعيم الخالد سعد رحمه الله ، وظل يقبض طوال زعامة النحـاس حتى الزمن الاخير كمـا سيأتى البيان .

ويلاحظ ان العقاد كان يقبض هذا المرتب السخى مزدوجا مع المرتب الذى كان يتقاضاه من البلاغ وبعض الصحف الاخرى فاذا ما تأخر سداد هذه الضريبة الشهرية راح يهدد ويزمجر ، مهددا بتسخير قلمه لجهات اخرى مناوئة للوفد !! .

ولما توفى سعد الى رحمة ربه استمر دولة النحاس باشا على دفع هذه الاتاوة الشهرية له حتى تم الاتفاق بينه وبين جريدة مصر على مرتب شهرى قدره ١٠٠ جنيه شهريا ، فانقطع عنه المرتب الاضافى ، ولكنه ما كاد يخرج من جريدة مصر بعد شهور قليلة حتى عاد الى الوفد مطالبا بحقوقه فى أموال الوفد ...

فرضى الرئيس الجليل حفظه الله ان يعينه على الحياة بمرتب كان يبلغ احيانا الخمسين والستين والسبعين من الجنيهات ، وانى لاذكر ان العقاد جاءنى فى هذه الفترة يزورنى فى الاسكندرية فما كدت أحييه حتى رأيت الغضب يتطاير من عينيه ، ويهدد بين شفتيه ... فسألته عما دهاه فأجاب ان الوفد أرسل له ٢٥ جنيها فقط مصاريف « فسحة » على شاطىء البحر ، وأنه يجب على الوفد ان يدفع له مبلغا آخر مثله ، وأنه لا يدرى فيم تصرف اموال الوفد اذا لم تصرف على مثله ؟ .. ثم راح يسخط على الوفد والوفديين ومصر والمصريين .. !

فهدأت من روعة ورجوت له دولة الرئيس الجليل فى مبلغ آخر يهدىء من غضبته ، ويشفى من علته ، فأذن له الرئيس بمبلغ آخر يسمح له ببسطة فى العيش على شواطىء البحر الابيض ...

ولعلى احتقرت هذا العقاد من ذلك الوقت ، ولعله لحظ منى سخرية وتهكما فحقد على ذلك الحقد الذى نرى آياته فى مقالاته ...

نعم احتقرته منذ ذلك الوقت ، فما كنت أدرى انه أجير الوفد الا بعد ان اتصلت بدولة الرئيس الجليل فى صدد المبلغ سالف الذكر - وما كنت أدرى ، وما كان أحد منا يدرى ، انه كان أجير السلطة العسكرية لمراقبة الصحف المصرية الا فى هذه الأيام الاخيرة بعد خروجه على الوفد .

واخيرا بعد انتهاء العطلة الصيفية ، سعيت جهدى بناء على اشارة الرئيس الجليل لكى امهد لهذا الرجل عيشا موصولا ، فالتحق بجريدة الجهاد بأجر شهرى مقداره ٧٠ جنيها مصريا ، وكان الوفد يدفع من هذه السبعين ثلاثين جنيها مصريا كل شهر ، حتى تفضل فى آخر الامر حضرة الاستاذ صاحب الجهاد بدفع المبلغ كله من ماله الخاص ، ولكن العقاد ما كان ليخلص لصاحب الجهاد اكثر من اخلاصه لغيره ، فتركه والتحق

بجريدة روز اليوسف على ان تزيده من الجنيهات عشرة ... مع انه كـان يقسم جهد ايمانه انه لا يقبل العمل فى جريدة تحمل اسم شخص من الاشخاص !! .

ولكن العقاد لا يأبى شيئا ، ولا يترفع عن شيء ، ما دام شخصه فى الميزان ... وبما ان مال الوفد قد انقطع عنه ، فلينقطع عن الوفد !! .

*

مغـــرور !

ولكنه غرور قل ان تصادف مثله بين الناس ، حتى بلغ بالمسكين مبلغ الخبل .

ولعـل العلة فى تفـاقم الغـرور لدى العقـاد انـه يكـاد يكـون مجـردا من ملكـة التقـديـر النسبى ، اوحاسة التذوق المعنوى ... فهو آخر من يعرف قدر نفسه بالقياس الى غيره ، وقديما قال الحكيم العربى « رحم الله امراءا عرف قدر نفسه ! »

ولهذا النقص الخلقى علة هى علة العلل عنده ، فهو رجل ضعيف الثقافة ، ضعيف الخلق ، ولكنه فى الوقت ذاته حاد الذكاء ... فاذا ما قرأ كتابا لم يتفهم جوهره ، والتقط منه قشوره ، واذا ما أقدم على عمل كان له من ذكائه دفعه ، ومن خلقه رجعه !

لذلك هو رجل كله مظهر ، ولا يتذوق غير المظهر ، فهو فى ادبه ، مثله فى شعره ، مثله فى وطنيته ، قوال ، طبال !

اما اذا انكشف عنه الغطاء ، وانقشع الطلاء ، فهو هواء وهباء ...

غروره فى نظر سـعد

ولدينا على غرور العقاد أمثلة يكاد لا يصدقها العقل لانها بلغت عنده مبلغ « جنون العظمة » ! .

فقد حدث انه اشتبك مع سعد رحمه الله فى مناقشة حادة ، فلم يقم سعد لرأيه وزنا ، فقال العقاد متغيظا « انا خلقت الوفد من قلمى » فضحك سعد ساخرا منه ، ولما خرج اشار احد الزملاء الى وقاحته فقال سعد « داروا سفهاءكم » وكان ذلك منه ابلغ تعليق على غرور هو السفاهة بعينها .

يشتم ربنا والدين !

ومن اغرب الامثلة على خباله ان بعض حضرات اعضاء الهيئة الوفدية زاروه قبل صدور القرار بفصله وطلبوا اليه ان يتورع عن التهجم على الزعيم الجليل مكرم ، فما كان من المخبول الا ان أجاب : « انا باشتم ربنا ، أفلا أشتم هذين الولدين » .

غفر الله له ولطف به !

سر تهجمه على وزير المعارف

لما اشتدت حملة العقاد البذيئة على وزير المعارف لفت دولة الرئيس الجليل نظر العقاد الى ما كتب قائلا انه يحبذ الانتقاد ولكنه يكره التحامل فما كان من عباس العقاد الا ان اجاب متعاظما « انا كاتب الشرق » فرد عليه الرئيس متواضعا « وأنا يسرنى ان اكون رئيسا على كاتب الشرق » .

ولكن كاتب الشرق لم يرتدع ، واشترط لايقاف الحملة ضد وزير المعارف ان ينقل صديق له من وظيفته الكتابية بقنا الى وزارة المعارف بمصر ، وأن يعود صديق له فى اسيوط ـ وهو كاتب آخر ـ الى مقر الوزارة بمصر .

وفى ذات يوم زارنى فى الفندق بالاسكندرية حضرات الاساتذة محمد صبرى ابو علم والشيخ عباس الجمل وابراهيم عبد الهادى ـ وحضر بعدهم مصادفة صديقى أحمد ماهر ـ وتكلمنا معا فى وجوب ايقاف حملة العقاد التى أصر عليها حضرته تحديا لامر دولة الرئيس الجليل ، فاقترح حضراتهم علىّ وعلى صديقى ماهر ان نعد العقاد بالتوسط لدى وزير المعارف فى نقل هذين الموظفين الى مصر ، على ان يقف العقاد حملته فرضينا بهذا الحل ، وقام احد الزملاء فعلا وتكلم مع العقاد تليفونيا من غرفتى بالاسكندرية فهاج العقاد وماج ، واشترط لوقف الحملة شروطا ثلاثة :

اولا : ان يتكلم مكرم فورا مع وزير المعارف لنقل الموظفين الاثنين الى مصر (وكان صديقى ماهر قد ابلغنى انه علم ان احدهما فاسد الخلق والآداب) .

ثانيا : ان يتم نقلهما من أسيوط وقنا الى مصر فى ظرف ثلاثة أسابيع لا أكثر ! .

ثالثا : اذا لم يتم النقل فى الميعاد المحدد ، او تأخر عنه قليلا عادت الحملة على الوزير بأشد ما كانت !!! .

ضحكنا كلنا من هذا الانذار النهائى .. وغضب احد الزملاء وطلب مؤاخذة العقاد على هذا التحدى وهذا الصلف ..

ولكن الذى يعنينى من هذه الرواية المضحكة المبكية ان عباس العقاد كان يكيف سياسته بأهوائه ، فاذا نقل الصديقان الى القاهرة حسنت سياسة الوزير وسكت عليه ، واذا لم ينقلا قبحت سياسة الوزير وحمل عليه !!

أرأيت ايها القارىء الكريم الى اى حد بلغت وطنية هذا العقاد والى اى درك هوى تقديره للصالح العام ، والى أية غواية شخصية تسخر الجرائد السياسية ؟ !

جبـــان !

ليس عجيبا ان يكون المغرور ذليلا جبانا ، بل العجيب هو العكس لان الجبن والغرور متفرعان عن اصل واحد ، هو الضعف ـ فالجبان ضعيف امام غيره ، والمغرور ضعيف أمام نفسه !!

ولست اعرف جعجاعا اقل طحنا واكثر جبنا ، من عباس العقاد .. كانت محاكمته فضيحة مزرية برجولة الرجال ! فقد كان المسكين يقف امام المحكمة والذلة تهبط باذنيه والرعدة تسرى بين جنبيه ولكم ادعى المرض ، وتصنع احتباس الصوت على ان يراف به قاضيه ، او فى القليل سجانه ، والى القراء بعض اقواله فى الجلسة التى كان يصرخ فيها متوسلا « أطلب الشمس » .. « أطلب الشمس » !!

وفيما يلى بعض أقوال « البطل » الرعديد امام قضاته :

« هل يسمح لى الرئيس بالوقوف فى حرم المحكمة لان لى كلمة وصوتى « منحاش » ... ولكى ابرهن للمحكمة على الى ابين لها كثرة ما البسه من الثيـاب ... ثم كشف عن يسراه و اطلع المحكمة على ملابسه الداخلية ... وقال لقد مضى على فى السجن اكثر من ٥٥ يوما وأنا مصاب باحتقان فى الزور وزكام وسعال يتجدد فى الصباح والمسـاء ... ولتتصور المحكمة ماذا اصنع فى السـاعتين الريـاضيتين ، اخـرج الى الخارج تحت السماء ، تحت الغيوم تحت البرد ... ان الزنزانة لا تدخلها الشمس ، ماذا يحدث فيها ليلا ، اذا اتغطيت ارتعش من الرعدة من شدة العرق الذى يسيل منى بسبب رطوبة الارض ، واذا اتغطيت بغطاء ضعيف تألمت واحسست بالبرد .. انا اطلب الشمس ، انا اطلب الشمس ! »

يا للمسكين فقد خانته رجولته !

اتفقوا مع الانجليز باى ثمن !

وما ان خرج البطل من السجن حتى ابتلع حماسه ، ولطف حدته ، فكنت تقرأ مقالاته فتكاد لا تعرف أسلوبه .. لان أسلوبه من الصنف العنيف ، بينما السجن من الصنف المخيف !!

ولذلك ترك السجون لغيره من أمثال توفيق دياب ، وراح يكتب بميزان ، ويتعمل الحكمة والاتزان ! ...

وحدث أن قابلنى مرة فى الطريق ـ فى ابان اشتداد الحكم الصدقى ـ وقال « يا استاذ شوفو لكم طريقة اتفقوا مع الانجليز باى ثمن » فناقشته فى ضرورة الثبات والجلاد ، وأخبرت دولة الرئيس وقتئذ بما كان بينى وبينه فلم يدهشه ما بدا عليه من خور كان ملحوظا فى مقالاته .

هذا هو العقاد الذى بدأ الان يجول ويصول ، لانه لا يخشى مغبة ما يقول ...

* * *

ذلك بعض الشىء عن الكاتب ، وفيه الكفاية !

اما ما كتبه العقاد عن دولة الرئيس الجليل وعنى فغير جدير بعاقل ان يلتفت اليه او يرد عليه ... فهو يتهمنا بممالأة الانجليز ... ويتهم الرئيس بعدم الصلابة ! ويتهم السكرتير بالتسلط على الرئيس !

ذلك ما جاد به ذكاء العقاد ... ولم يكن له فيما قال فضل الابتكار فقد سبق لخصوم الوفد ان اتهموا سعدا واتهمونا بمثل التهم التى يرددها العقاد صباح مساء .

اما ممالأتنا للانجليز فالذى نعلمه ان النحاس ومكرم كان لهما بالسلطة العسكرية البريطانية صلة شبيهة بالصلة بين العقاد وبينها .. مع الفارق البسيط ، وهو ان السلطة العسكرية نفتنا الى سيشيل بعيدا عن البلاد العربية المصرية ، بينما هى استخدمت الاستاذ العقاد لمراقبة الصحافة المصرية .

ولو اننا كنا ممن يمالئون الانجليز ضد مصلحة الوطن ، افما كان أولى بنا ان نوقع المعاهدة التى عرضت علينا ، فيستتب لنا السلطان والجاه بدلا من ان نحال على مجالس التأديب ونتعرض لكيد الكائدين وظلم الظالمين .

ولكن حرام ان اناقش مثل العقاد فيما لا تتكره علينا امة بأسرها ، ولو انه أدرك معنى ما كتب لفهم انه قد كذب نفسه بنفسه عندما قال فى مقال له « انه كان مشترطا فى الوزارة القومية ان لا يدخلها النحاس باشا ومكرم عبيد » .

أتدرى لماذا كان هذا الاشتراط ؟؟ لاننا كنا نمالىء الانجليز !!

اما ما حاولته يا أستاذ من الطعن فى صلابة الرئيس الجليل ، فحسبك ان تعيد قراءة ما كتبت لتعلم انك أجرمت لا فى حق الرئيس ، بل فى حق البداهة والمنطق ... ولقد اغنانى الكوكب عن كل تدليل بما نقل من مقالاتك السابقة التى تمدحت فيها بصلابة النحاس وبذلك اقام عليك الدليل من جنس دليلك وسلط عليك نفسك لتكذيب نفسك !

اما ادعاؤك ، فى سخافة ووقاحة ، أننى مسيطر على الرئيس الجليل حتى اصبحت « رئيسا جليلا » ثانيا ، فلا يليق بى ان ارد عليك بأكثر من ان أحيلك على الكشكول وما كتب فى قديم الزمان ... ومع ذلك فقد كان اكثر منك أدبا واحتشاما ..

ولعله يهمك ان تعرف ان النحاس باشا ليس ممن يسيطر عليه مسيطر الا ضميره ، وانه عندما كان سكرتيرا للوفد ، لم يكن يخضع لسعد نفسه لان سعدا رحمه الله لم يكن يطلب منه خضوعا ، بل كانت الصلة بيننا وبينه ، كما هى الان بيننا وبين خليفته ، صلة محبة وثقة ، وليست صلة خنوع من عضو أو سكرتير لرئيس ، فما بالك من رئيس لسكرتير !!

ولقد وقفت مصادفة على مناقشة برلمانية حادة بين سعد ومصطفى بصدد قانون المخدرات ، وحسبى ان اقتطف بعض فقرات من مضبطة مجلس النواب ففيها ما يغنى عن كل تعليق :

« الرئيس : سعد باشا ـ لقد ابديت هذه الاعتراضات فى لجنة الشئون الدستورية » .

مصطفى النحاس باشا ـ لا علم لنا بهذه الاعتراضات ... وأرى أن هذا الرجوع الى المناقشة فى قرار سبق صدوره من المجلس .

الرئيس ـ ان الرجوع الى الحق فضيلة .

مصطفى النحاس باشا ـ لا جدال فى ذلك وانما يجب ان نتأكد من ان ما عملناه كان مخالفا للحق ، كما اننا نريد الوقوف على الاسباب التى أدت الى الرجوع الى مسألة فصل فيها المجلس .

الرئيس ـ لا حق لك فى الاستشهاد بالقانون الذى أشرت اليه .

مصطفى النحاس باشا ـ ان لى بلا شك حق الاستشهاد به .

الرئيس ـ يتلو تقرير اللجنة الدستورية .

مصطفى باشا ـ إن الأسباب التى تلاها دولة الرئيس الان لا تعزز الرأى الذى أبداه .

الرئيس : اني آسف لاستنادى على أدلة لا تعزز رأيى فى نظرك ؟

فهل يخضع مثل هذا الرجل لمخلوق ما ، يا حضرة الاستاذ ؟ ! كلا بل هى الدسيسة القديمة ترددها على لسانك وأنت أعلم الناس بكذب ما تدعى وادعاه الخصوم من قبلك . ولكن الناس يأنفون عامة من التهجم على زعيم رسخت مكانته فى الامة فيتخذون من صديق له هدفا يهاجمون الزعيم فى شخصه ...

غير انها حيلة مكشوفة ، ومعروفة ، وقديما كان اليونان والرومان يعتقدون ان للشعراء شياطين يوحون اليهم الشعر . فهذا حديثنا عن شيطانك فلعله أحدث وأخبث الشياطين !

اما ما قلته تدليلا على ما لى من سيطرة مزعومة وهو انى اردت ان استبق قرار الوفد بالخطبة التى القيتها فى جماعة المحامين فحسبك ان تعرف انى لم اخطب الا بعد الاتفاق مع دولة الرئيس الجليل وصديقى أحمد ماهر وأما ما ذكرته من وقائع خاصة بجريدة الجهاد وجريدة روز اليوسف ـ فهى وقائع كلها مكذوبة او مشوهة ولا شأن لك بها من اختصاص الوفد وسكرتيريته ومن ثم لا محل لمناقشتك فيها .

وأما ما قلته فى مقالك اليوم من اننى سافرت مع الاستاذ وهيب دوس الى المنصورة للمرافعة فى بعض القضايا وخالفت بذلك قرار الوفد من مقاطعة اذ ذاك فهو قول لا يتفق مع الحقيقة لان الوفد استثنى من قرار المقاطعة علاقة المحامين بعضهم ببعض .

وليس قولك اننى دائب على كسب قضايا المخدرات الا مفخرة أشكرك على تسجيلها لى . !

وأما زعمك اننى كنت أدس بين الرئيس الجليل والاعضاء الاقباط فى الوفد عندما خرجوا منه لكى أصل بذلك الى الوزارة باعتبارى عضوا قبطيا فيها فلو انك تدرى ما تكتب لادركت انى عينت فى الوزارة منذ ١٩٢٨ وانى كنت على احسن صلات بينى وبين زملائى الاقباط والمسلمين على السواء ولست ادرى كيف جاز لك ان تفترى على الموتى من امثال المغفور له ويصا واصف او تحاول الايقاع بينى وبين صديقى واصف غالى باشا .

ثم من اغرب ما قلته اننى كنت أحابى الاستاذ توفيق دياب عليك مع انك اقرب الىّ حتى فى موقع المولودين من اعلى الصعيد ، فهو قول فضلا عن انه غير صحيح ، يكشف

عن حقيقة حنقك ضدى ، وانك لتعلم اننى كثيرا ما احسنت اليك بطريق الوساطة الى الاستاذ توفيق دياب !

تلك بعض مزاعمك ، اولعلها كل ما فى جرابك من مطاعن ضدى وانك لترى معى انها قد انهارت بمجرد كلمة واحدة فى الرد عليك .

وأخيــرا ....

واخيرا ، فانى وايم الحق لاسف ان تكون تلك آخرتك ، ولكنها اخرة محتومة ، لمن كانت بدايته بدايتك وشخصيته شخصيتك .

ولئن ناصبت أمتك العداء ، فأصبحت عدوا لبنى جنسك ، فـانك لم تـرحم حتى شخصك فصرت عدوا لنفسك ، واذا كنت فى الاولى قد اندحـرت ، ففى الاخرى قـد انتحرت !!

تلك كلمتى الى الرأى العام بصددك ، وليس يعنينى بعد ذلك ما تقول او لا تقول فتلك خاتمة المطاف بينى وبينك .

« الاسكندرية فى ٥ اكتوبر ١٩٣٥ » .

رد العقاد على مكرم عبيد
لسنا عبيداً .. يا عبيد
حقيقة المرتجل ... وما ارتجل

بقلم : عباس محمود العقاد

« جريدة روز اليوسف فى ١٧ اكتوبر ١٩٣٥ ، وكتاب عامر العقاد (صفحات من معارك العقاد السياسية صفحة ٢٣٨) » .

« البهلوانات والمسرحيات طبيعة فى الدساس الدجال مكرم عبيد ، لا ينساها ولا تنساه ، فى سطر من مقال ، او فى عمل من الاعمال ، كما لا ينساها ولا تنساه فى واقع او خيال ولا فى تحضير او ارتجال ..

وعلى هذه السنة البهلوانية شرع فى الاعلان عن مقاله البهلوانى كل يوم منذ خمسة أيام .. كما تصنع معارض الصور المتحركة فى الاعلان عن المناظر الجديدة قبل أسبوع من تغيير « البروجرام » .. وكما يصنع هو حين يلقى الخطبة وتصدر الصحف ساعة القائها وفيها بين السطور « تصفيق شديد » ... هتاف بحاة (المجاهد الكبير) .. « تصفيق حاد ومتواصل » الى آخر المناظر المحضرة والتعليقات المقدرة فى لوحة المحفوظ .. لوح التهويش والتهريج ..

وسنعلم المجاهد الكبير او المخدر الكبير ـ درسا كان عسيرا عليه ان يتعلمه لولا اننا بحمد الله نعرف كيف نعلم أمثاله من لئام التلاميذ . سنعلمه ان ينزل طائعا ـ اوكارها ـ

عن دعوى الارتجال التى ذهب منها الى اقصى المدى من الغفلة والاستغفال . وسنعلمه اشياء كثيرة لم يكن يحلم بها وسيتعلم وانفه فى الرغام ..

لقد قال كثيرا يوم اعلن عن « بروجرامه » البهلوانى وهو لا يعنى ما يقول ولا يتعمد ما يقول فلم يبق لنا مزيدا على ما قال الا ان نشرح هذا الضرب الجديد من الارتجال ..

لو بدأ مكرم عبيد حياته السياسية بمقاله عن آخرة العقاد لكان هذا المقال وحده كافيا لاستمتاعه بجميع القاب الكذب والنفاق والدسيسة التى كسبها فى حياة طويلة جمعت بين أقذر السيئات وأوخم الاشرار وأحقر الاغراض فقد واجهته بالوقائع المشهودة التى لا تقبل التكذيب لان سردها ـ مجرد سرد ـ كفيل باثباتها لكل عاقل ولو كان من المغرضين المتحيزين .

قلت انه يعبث بكرامة الوفد فيسبق اجتماعاته « الخطيرة » باعلان قراراته قبل انعقاد الاجتماع والاطلاع على المعلومات المكتونة لكى يرى الانجليز انه يملى على الوفد من الآراء كل ما يشاء . وقلت انه يدس للناس حبا لنفسه لا حبا للزعامة ولا حبا لطائفة . لهذا نقم عليه جميع الاقباط فى الوفد قبل زملائه المسلمين ، وقلت انه بيت نية السوء للصحيفة التى اكتب فيها قبل سبعة شهور من ظهور اى كلمة من الكلمات التى يتعللون بها زورا وتلفيقا فى الزمن الاخير ، ولهذا حرمها مصطفى النحاس باشا زياراته الشريفة التى يوالى بها المراقص والولائم والمسارح بلا توقر ولا اعتدال ، وحرمها الدساس الدجال أخبار الوفد وخطب الوفد ورسائل الوفد قبل ان تنقضى عليها خمسة ايام .

وقلت غير هذا كثيرا من الوقائع التى يكفى تقريرها لاثباتها أيما اثبات ..

فبماذا واجهنى الدساس الدجال حين واجهته بالوقائع الصادعة والدلائل القاطعة التى لا يجدى فيها الصراخ والخلط السقيم ؟ واجهنى باختراعات من الاحاديث يستطيع ان يخترعها فى كل ساعة وفى كل مكان .. لقينى العقاد مرة فى الطريق وقال لى كيت وكيت .. تحدث العقاد مرة مع سعد فقال له كيت وكيت .. وخرج العقاد وسعد يقول كيت وكيت للحاضرين .. ولا يذكر لنا الدساس الدجال اسما واحدا من أسماء أولئك الحاضرين .. ويدعى الدساس الدجال اننى ما حملت على وزير المعارف (احمد نجيب الهلالى) الا لانه نقل صديقا او صديقين لى من القاهرة الى قنا وأسيوط مع ان الشاهدين والغائبين والذاكرين والناسين فى مصر يعلمون ان نقل هذين المظلومين لم يكن الا عقابا لهما ـ هما البريئان ـ على حملتى انا التى حملتها على وزير المعارف انكارا لما يصبغ به

التعليم من الصبغة الدنلوبية ولما يسلطه من الاضطهاد والمحاباة على المبعدين والمقربين .

ويزعم الدساس الدجال اننى كاتب المنشورات لان فى المنشورات ما يشبه المقالات التى اكتبها فى هذه الصحيفة اليومية ، فلماذا يا ترى لا يكون كاتبو المنشورات هم الناقلين عن تلك المقالات ؟ ولماذا لا يكون ذائعا شائعا لانه حق معروف للمئات وأضعاف المئات ؟ ولقد أصبح البوليس السرى عمدة للدساس الدجال فى بياناته وتحقيقاته منذ اصبح البوليس السرى والوفد يعملان مع الوزارة فى صف واحد .. فلا عجب ان يكون مرجع الوفد اليوم تقريرات البوليس بعد ان كانت مرجعا لاتهام المخلصين وترويج اكاذيب المغرضين ..

أما اننى أناقش سعدا فهذا صحيح لا ريب فيه ، ولكننى كنت اناقشه فى خطبة العرش وفى قانون الجيش وفى السياسة العامة ولا أناقشه لا قول له كما افترى هذا المأفون المأفوك . « واننى خلقت الوفد بسن قلمى » .. ثم يكون كل ما يجيب به سعد على هذا السخف المزعوم بعد خروجى . « داروا سفهاءكم » . وكأنما كان سعد جبانا ذليلا كمكرم عبيد أو كمصطفى النحاس .

وكأنما كان سعد الذى يفترى عليه هذا المختلق رجلا آخر غير سعد الذى كان ينعت العقاد بالجبار ويفاجر به أمام الاعداء والانصار .. ورحم الله سعدا الذى كان يستمع الى المناقشة فى عمله وقوله وهو اهل للاستقلال برأيه لولا ما فطر عليه من خليقة الحرية وروح الشورى . ومسخ الله خلقا له فوق ما مسخهم وهم ينفرون من مناقشة او معارضة ، ولو سألوا الرأى كل انسان لما بلغوا من الهداية ما يبلغه رأى سعد فى استقلاله وانفراده ..

ولولا ان الدساس الدجال مخبول يترنح ويتخبط من وقع الضربات التى صببتها على ام رأسه فى هذه الايام لما شككت لحظة فى انه صديق حميم يريد لى الخير من حيث لا أريد لكنه فى الحقيقة غائب اللب شارد البديهة لا يعقل ما يقول ولا يفرق بين التشريف والاتهام ..

فهو يزعمنى مأجورا ويقول فى صدر هذيانه عن هذا المأجور :

« ـــ بدأ العقاد حياته العامة وحياته الصحفية بمراقبة الصحف المصرية تحت اشراف السلطة العسكرية البريطانية اثناء الحرب العظمى ـ ..

وان باطلا من قرارة الجحيم سلطة الابالسة على الحق فمحا كل ما اسلفت من محمدة

فى حياتى العامة او حياتى الصحفية ـ الا هذه البداية التى يذكرها الدساس الدجال ـ لغنيت عن محمامد شتى ، ورجحت بها على ما يدعيه هؤلاء المحتالون الوصوليون من وطنية وجهاد ..

كانت الحرب العظمى ، ولم يكن للصحفى عمل ولا رجاء فى العمل القريب وكنت أعرف الاستاذ عثمان فهمى العالم الاديب الذى كان يومئذ من كبار الموظفين بوزارة الداخلية ، ثم اصبح مديرا لاسوان ، فمديرا لقنا ثم أحيل الى المعاش ، فخاطب الاستاذ جعفر والى فى شأنى وكان يومئذ وكيلا للوزارة فصدر الامر بتعيينى فى قلم المطبوعات وانا على أحوج ما يكون الانسان وهو يطلب الرزق ويطلب الشفاء ..

فهل يعلم القراء كيف كان عملى الذى يعيرنى به الدساس الدجال وانني لفخور به لو فقدت المفاخر جميعا فى حياتى العامة أو حياتى الصحفية ..

انهم لا يعلمون وما كان لهم ان يعلموا لولا مشيئة مكرم عبيد وهو ينبش عن دفائنى فيما يتوهم ، وهو يظهر لى من الحسنات ما لم يظهره ولىّ ولا صديق ..

ابيت ان اعمل فى قلم المطبوعات الا كما يعمل المصرى فى خدمة الامة المصرية ..

فلم ينقض على خدمتى فيه اسبوع ـ اسبوع فقط ـ حتى دعانى مستر « هورنيلور » وقال لـــــى :

ـــ ان لم يكن عطفك معنا فلماذا تعمل فى هذه الوظيفة ؟

قلت : اننى لا افهم ما تعنى ..

قال : انك لا تتوخى الدقة فى مراجعة الصحف . وأرانى اخبارا تركتهــا فى بعض الصحف وكان من حقها الا تترك محافظة على « امن الخواطر !! » .

قلت : اننى لا اجد فى هذه الاخبار ما يمتنع نشره بين المصريــين ، واننى اقرأ فى الصحف الانجليزية نفسها ما هو اهم من هذه الاخبار فلماذا ينبغى ان يجهل المصريون ما يعلمه الانجليز المحاربون ؟

فنظر الىّ طويلا ثم قال : هل انت من الحزب الوطنى ؟

قلت : كلا ولكننى من المصريين ..

« قال : حسنا .. نحن لا نتفق . واشار الىّ بالتحية فخرجت وانا اعلم اننى خارج من الوظيفة . وفارقت العمل بعد اسبوع واحد ، وانا لا اعلم متى تنتهى الحرب ولا اعلم متى أعثر بعمل يكفينى الكفــاية فى شئــون المعاش وشئــون العلاج . ولو كنت نــذلا مأجــورا كالاستاذ مكرم عبيد او كصديقه « الاستاذ الفاضل » توفيق دياب لاستطعت ان ابقى

سبع سنوات فى تلك الوظيفة لا سبعة ايام . وان اخدم « قلم المخابرات » مع الخادمين .. وان أبشر للاستعمار بين المصريين والشرقيين وأن أغنم الرضى والاعجاب من « الوطن الغيور » الدجال المحتال كما غنم الرضا منه الحصفاء الألباء الذين لا يتخدعون بالشرف كما تنخدع نحن البلهاء ولا يفضلون الفاقة على الهوادة فى أيسر مبدأ من مبادىء « الوطنية » لو كانو فى حاجة الى القوت . أفهذه هى المعرة ايها المخبول ؟

وهل عندك معرة أخرى من هذه المعرات التى ترتفع بها رؤوس وتنحنى لها جباه الكاذبين المنافقين .. ؟

* * *

يذكر المفضوح المهتوك المرتبات والاجور ويزعم اننى جزيت نحاسه بالكنود والعقوق لانه كان يحسن الىّ من فضل ماله الغزير ..

فليسمعها اذن كلمة صدق لا تنفيها الاقاويل لا تخفيها الاباطيل .. اننى ما تناولت قط من الوفد مرتبا وانا فى غنى عنه ، واننى ما تناولت مرتبا قط وانا أجد الكفاية من عملى فى النيابة او فى صحيفة من الصحف كروز اليوسف او الجهاد او كوكب الشرق أو مصر أو المؤيد الجديد .

واننى كنت اتناول مرتبا من الوفد يوم كانت الوزارات التى اهاجمها تغلق كل صحيفة اكتب فيها وتعرض علىّ مئات الجنيهات ولا تطلب منى عملا ولا قوة غير السكوت . واننى كنت استطيع ان اسكت لان الصحف تقفل على الكره منى ولا حيلة لى فى خنق الصحافة التى اكتب فيها ، ولكننى كنت اؤلف الرسائل كرسالة « الحكم المطلق » ورسالة « اليد القوية » واطبعها على الرغم من رقابة المطابع تحديا لما يريدوننى عليه من سكوت مأجور ..

فاذا كان هذا عارا – يا وغد – فقل لى أخزاك الله .. فيم كان الوفد يجمع الالوف من الجنيهات بل مئات الالوف من الجنيهات باسم القضية الوطنية واسم الاعمال السياسية واسم الجهاد والمثابرة على الجهاد ؟ فيم كان الوفد يجمع التبرعات تارة باسم المكتب المصرى فى لندن ، وتارة باسم المنكوبين او جزية مفروضة على الشيوخ والنواب والمرشحين .. ؟

فيم كان الوفد يجمع نحو ثلاثين الف جنيه صفقة واحدة من مكافآت الشيوخ الموقوفة اثناء تعطيل المجلس ولم يدخل منها مليم واحد فى جيب شيخ واحد ؟ . اتراه كان

يجمعها - يا وغد - لتنفق انت منها سبعة عشر الف جنيه فى لندن لا تقدم عليها حتى الساعة اقل حساب ؟ ..

تراه كان يجمعها لتقبض انت اجر الدعاية وقد كان خليقا بك - وانت ذو يسار - ان نتبرع بالالوف من عندك كما تطلبون الى الناس ان يتبرعوا من عندهم بالالوف ؟ ..

اتراه كان يجمعها لتقبض منها انت عشرة آلاف ولم تنزل عنها الا الى ثمانية الاف كما طلبت يوم احتاج سعد فى باريس الى سكرتير يعرف الانجليزية .

اتراه كان يجمعها لينعم النحاس باشا وحده بمرتب يتقاضاه بغير انقطاع من سنة ١٩٢٠ الى ان تولى رئاسة الوفد فأصبح المال كله بين يديه ينفق منه على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرابين الوسطاء والشفعاء ؟ ..

من اين جاء النحاس بالسبعمائة جنيه التى بذلها بين مهر وشبكة وهدية لخطيبته الاولى قبل ان يحال بينه وبين الزواج منها لاسباب لا يعنينا بحثها فى هذا المقام ؟؟ اى والله على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرابين الوسطاء والشفعاء ينفقون ويعيرون العقاد ثلاثين جنيها يأخذها حين تحاربه القوة فى رزقه ويلفظها حين يجد الكفاية من عمل صحفى يؤديه . ولقد علم الكثيرون انباء ذلك الزواج المفسوخ وبقى الاكثرون لا يعلمونه الا على السماع البعيد ، فليعلموه اذن ما دام الصديق الوفى المدافع عن النحاس باشا يأبى الا ان يعلموه ..

منذ سنتين عرفت السيدة عائدة مكرم عبيد صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا الى فتاة يخطبها « الباشا » للزواج ، ثم فسخت الخطبة لاسباب قلنا ان بحثها لا يعنينا فى هذا المقام ، ولكنها لم تفسخ حتى بذلت الهدايا ودفعت مقدمات المهور ونفح الوسطاء والشفعاء بانهبات « هبات السلاطين والامراء » من مال الجهاد فى سبيل القضية المصرية ومن مال الوفد الذى يعاب على العقاد ان يتناول منه القليل عند مسيس الحاجة اليه ولا يعاب بذل الكثير منه فى سوق الغرام ونفحات الوسطاء والخدام . والآن ماذا يريد الوفد ان يقول بذلك الكلام الذى أزرى به وبمصطفى نحاسه ولم يرتفع الى موطىء النعال من كاتب هذه السطور ؟ ..

يستطيع كل انسان ان يكون شريفا فى اتهامه وادعائه الا المهرج الخسيس فانه لن يستطيع الا التهريج والخسة فى ثنائه وهجائه ، وكذلك كان الوغد منحدرا فى الخسة الى حضيض أغوارها الموبوءة فى غيرما طائل ولا اقناع ، الا التنفيس عن جحيم من الضغن فى صدره الحقود ، وعن بؤرة من الدنس فى رأسه المخبول .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
● تيارات واتجاهات	١١
● البحث عن طريق	١٩
● كاتب الثورة	٢٩
● أعنف معارك العقاد ضد الرجعية سنة ١٩٣٠	٦١
● المحاكمة والسجن	٨٣
● العقاد وحرية الفكر	١٠٣
● أزمة وانتكاسة : الخلاف مع النحاس والخروج على الوفد	١١٥
● بعد الوفد : اللامنتمى	١٣٥
● العقاد واليسار	١٦٣
● العقاد والماركسية	١٨١
● العقاد والنازية	٢١٥
● محامى العباقرة	٢٢٧
● العقاد والصهيونية	٢٥٣

الموضوع	الصفحة
● العقاد والاخوان المسلمون	٢٩١
● العقاد والحزب الوطنى	٢١٧
● بين الملك فؤاد والملك فاروق	٣٢٧
● العقاد وثورة ٢٣ يوليو	٣٤١
● العقاد والوحدة العربية	٣٥١
● صورة عامة	٣٦٩
● وثائق :	٣٧٧
(أ) نص حديث العقاد مع سعد زغلول سنة ١٩٠٨	٣٧٩
(ب) حيثيات الحكم على العقاد بالسجن فى قضية اتهام العقاد بالعيد فى الذات الملكية سنة ١٩٣٠	٣٨٥
(جـ) نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد أمام العقاد	٣٩٥
(د) آخرة العقاد : حقيقة الكاتب بقلم مكرم عبيد	٤١٩
(و) لسنا عبيداً ياعبيد: : رد العقاد على مكرم عبيد	٤٣٣

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ فى أزمة الثقافة المصرية .

٢ ـ أبو القاسم الشابى ـ شاعر .

الحب والثورة ـ دراسة ومختارات .

٣ ـ تأملات فى الإنسان .

٤ ـ فى أضواء المسرح .

٥ ـ ثورة الفقراء .

٦ ـ أدباء معاصرون .

٧ ـ مقعد صغير أمام الستار .

« دراسات فى النقد المسرحى » .

٨ ـ أدباء ومواقف .

٩ ـ أصوات غاضبة فى الأدب والنقد .

١٠ـ كلمات فى الفن .

١١ـ محمود درويش شاعر الأرض المحتلة .

١٢ـ بين أنور المعداوى وفدوى طوقان ـ صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر .

١٣ـ الانعزاليون فى مصر ـ رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين

١٤ـ أدب وعروبة .

تحت الطبع :

١ ـ كفاف شاعر الإنسانية .
٢ ـ دفاع عن طه حسين .
٣ ـ أزمة الثقافة فى مصر .
٤ ـ بصراحة أدبية .
٥ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثانى .
٦ ـ أدباء ومواقف ـ الجزء الثالث .
٧ ـ مع الرواية العربية .
دراسات نقدية .
٨ ـ هل كان العقاد شاعرا ؟
٩ ـ شخصيات وقضايا مسرحية .
١٠ـ سينمائيات .
١١ـ كتابات فى الغربة .
١٢ـ بين السياسة والثقافة .